

الخَطّابي

مُلهم الثّورات المسلّحة

Alkhattabi: Godfather of modern revolutinary warfare.

السّياق التاريخي والأبعاد السّياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة لثورة الرّيف الثّالثة (1921 - 1926)

History of third Riff war - politic, military & social aspects (1921-1926).

إعداد مركز الخطّابي لدراسة الحروب الثورية

KH_ATTABI_RW

يقدّم هذا البحث لمحةً وافيةً عن الثورة الخطابية (1921-1926) التي تعدّ فريدةً من نوعها في كل الجوانب. فمن حيث التأثير؛ لقد وصلت تداعياتها إلى كل أوروبا والعالم العربي والإسلامي، وكان لها الفضل العظيم على الحـركات الثوريـة الأخـرى التـي نهضـت بعدهـا في الشـرق. ومـن حيـث الأبعـاد السياسـية والعسـكرية والاجتماعيـة؛ فـإن الخطابـي كان خبيـرا في أسـاليب السياسـة، ونابغـة في الحـرب، وقائـدا اجتماعيـا فريـدا اسـتطاع أن يؤلّـف عليـه القبائـل البدائيـة بصـورة لـم تحصـل أبـدا في الريـف المغربـي سـابقا. لقـد أبـدع محمّـد بـن عبـد الكريـم في ميـدان التكتيـك الحربـي خـلال مواجهتـه لجيـوش الإسـبان والفرنسـيين التـي كانـت تفوقـه مـن حيـث العـدّة والعتـاد بأضعـاف مضاعفـة، كمـا تألّـق في مخاطبـة الجماهيـر بمختلـف مشـاربها الوطنيـة والقوميـة والدينيـة، فأصبـح مـع الوقـت قـدوةً للعسـكريين والمفكريـن والفلاسـفة والأحـرار في كل العالـم، وأيقونـةً لامعـة للحريـة والنضـال، وأسـطورةً خالـدة في عالـم الثورات المسلحة.



الخطّابي

مُلهِم الثورات المسلّحة

ثورة الريف الثالثة (1921 - 1926): السياق التاريخي والأبعاد

السياسية والعسكرية والاجتماعية.

إعداد مركز الخطابي للحروب الثورية



مقدّمة المركز:

"لا أدري بأي منطق يستنكرون استعباد الفرد، ويستسيغون استعباد الشعوب" [١]

محمد بن عبد الكريم الخطابي

بدأت الشعوب المسلمة تعاني حملات الهيمنة والاحتلال منذ بداية القرن الثامن عشر للميلاد، وبتراجع نفوذ الدولة العثمانية بدأت القوى العظمى (بريطانيا، فرنسا، روسيا، اسبانيا، البرتغال...الخ) بتقاسم جسد الرجل المريض وإخضاع أعضائه الواحد تلو الآخر، مما تسبب في ظهور العديد من الحركات الثورية المناهضة للاحتلال الأجنبي. وحتى مع انسحاب الهيمنة العسكرية في القرن العشرين، كانت السياسات القمعية التي تمارسها الحكومات الدكتاتورية الوظيفية سببا في اندلاع العديد من الثورات في العالم الإسلامي.

انطلاقا من دراسة موضوعية للسياق التاريخي الذي عاشه العالم الإسلامي من القرن الثامن عشر وحتى القرن الواحد والعشرين، فإن مركزنا قد قام بتقسيم الحروب الثورية التي اندلعت خلال هذه الحقبة إلى جيلين من الحروب:

١) **الجيل الأول:** ومن ضمنه جميع الثورات المسلحة التي خرجت ضد الاحتلال الأجنبي خلال القرن الثامن والتاسع عشر ميلادي. كثورات القوقازيين جنوب روسيا بداية من ١٨٣٠، وثورات التركستان ضد الاحتلال الصيني بداية من ١٧٦٠، وثورات الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي بداية من ١٨٣٠، وثورات السودانيين ضد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٥، والثورات المغربية ضد الاحتلال الفرنسي بداية من ١٩٠٠.

٢) **الجيل الثاني:** ويدخل من ضمنه الحروب التي اندلعت نهاية القرن العشرين في وجه الحكومات الوظيفية وريثة الاحتلال، مثل الثورة السورية ضد الحكم النصيري الطائفي عام ١٩٧٥، والثورة الجزائرية ضد الانقلاب العسكري سنة ١٩٩٢، والثورة الأفغانية ضد الحكومة الموالية للاتحاد السوفياتي سنة ١٩٨٠.

نعتقد أن دراسة الثورات التي حصلة في كلا الجيلين أمر مهم جدا من أجل اكتساب فهم أعمق لتاريخنا المعاصر، **إذ يجب على الأمم أن تعرف ماضيها بدقّة، وذلك حتى تفهم حاضرها بشكل واضح، ولكي تخطط لمستقبلها بحكمة.** وفي هذا السياق كان اختيار مركزنا لثورة الخطابي كموضوع دراستنا الأولى، لأن الخطابي لم يكن رجلا عاديا أبدا، كما أن سيرته لم تكن كسيرة أي ثائر.

---

[١] مقولة منسوبة للخطابي- ويكبيديا الموسوعة الحرة.

من ضمن الجيل الأول للثورات المسلمة، تعد الثورة الخطابية فريدةً من نوعها في كل الجوانب. فمن حيث التأثير؛ لقد وصلت تداعياتها إلى كل أوروبا والعالم العربي والإسلامي، وكان لها الفضل العظيم على الحركات الثورية الأخرى التي نهضت بعدها في الشرق. ومن حيث الأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية؛ فإن الخطابي كان خبيرا في أساليب السياسة، ونابغة في الحرب، وقائدا اجتماعيا فريدا استطاع أن يؤلّف عليه القبائل البدائية بصورة لم تحصل أبدا في الريف المغربي سابقا. لقد أبدع محمد بن عبد الكريم في ميدان التكتيك الحربي خلال مواجهته لجيوش الإسبان والفرنسيين التي كانت تفوقه في العدة والعتاد بأضعاف مضاعفة، كما تألق في مخاطبة الجماهير بمختلف مشاربها الوطنية والقومية والدينية، فأصبح مع الوقت قدوةً للعسكريين والمفكرين والفلاسفة والأحرار في كل العالم، وأيقونةً لامعة للحرية والنضال، وأسطورةً خالدة في عالم الثورات المسلحة.

من المؤسف أن تجد الباحثين الغربيين قد صنّفوا آلاف الدراسات والكتب عن حياة هذا الرجل الأسطورة، وتحدثوا بالتفصيل عن تكتيكاته وخطاباته وشخصيّته، بينما تفتقر المكتبة العربية إلى المراجع الوافية التي تتحدث عن ذلك. وهذا ما جعلنا بالطبع نجمع في هذه الدراسة معظم ما جاء من الفرائد في المصادر الغربية (الاسبانية والفرنسية والانجليزية) والعربية عن أهم أبعاد الثورة الخطابية، ليكون مركزنا مرجعا للنخب الثورية في العالم حول كل ما يتعلق بهذه المرحلة التاريخية المصيرية من حياة المغرب خاصة والأمة عامة. لقد قمنا بترتيب الفصول لتشمل معظم جوانب الثورة الخطابية على المستوى السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي، كما قمنا بدراسة معظم المعارك التي خاضها الخطابي من ١٩٢١ حتى ١٩٢٦، مردفين كلَّ معركة بخريطة توضّح المعالم الجغرافية لمحيط العمليات ومحاور الحركة العسكرية لكلا الطرفين.

خارطة البحث:

بدأنا أولا بتقديم لمحة وافية عن المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والجغرافي الذي كان عليه شمال المغرب قبل الثورة الخطابية، وقد اعتقدنا أن ذلك ضروري من أجل الحصول على فهم أعمق بظروف ودوافع ومجريات الثورة. ثم تحدثنا في الفصل الثاني عن بطل قصتنا محمد بن عبد الكريم الخطابي، وقدمنا لمحة وافية عن نشأته وتربيته وتعليمه وبعض جوانب شخصيته، وتطرقنا إلى أهم الأحداث والأشخاص الذين أثروا فيه. وفي الفصل الثالث والرابع والخامس والسادس، أوردنا سردا تاريخيا مفصّلا، عن انطلاق الثورة واختيار الخطابي قائدا حربيا وسياسيا لها، ومجريات المعارك التي تسببت في انهيار الاحتلال الإسباني في الجبهة الشرقية والغربية، مع تطرقنا إلى أهم التحديات والتمرّدات الداخلية التي واجهها الخطابي خلال توسيع ثورته وأهم الآثار الدولية التي ترتبت على ذلك. وفي الفصل السابع، قمنا بتقديم لمحة مفصّلة عن الدولة التي أقامها الخطابي وأهم رموزها ومؤسساتها وآلية اتخاذ القرار فيها، كما ذكرنا الموارد الاقتصادية التي حصل عليها الثوار الريفيون، وأهمّ الإنجازات الخدمية والإنسانية التي حققوها طيلة فترة حكمهم.

أما في الفصل الثامن، فقد تطرقنا إلى الرجوع الإسباني من مليلية وحملات الاسترداد التي أعادت احتلال جزء واسع من الجبهة الشرقية سنة ١٩٢٢، وذكرنا أيضا في هذا الفصل كيف بدأ الصِّدام مع الفرنسيين في الجبهة الجنوبية سنة ١٩٢٥، وكيف كاد الخطابي أن يحرر بعض أهم العواصم المغربية (فاس-تازة). وفي الفصل التاسع والعاشر، قدّمنا لمحة وافية عن الأسباب التي دعت الفرنسيين والإسبان إلى توحيد الجهود، وكيف كان أثر ذلك على حملات الاجتياح التي استسلم الخطابي على إثرها سنة ١٩٢٦. ثم تطرقنا بشكل مختصر إلى حياة الخطابي بعد نفيه، والتجائه إلى مصر، وإكماله مسيرة النضال من هناك حتى موته سنة ١٩٦٣.

أما بقية الفصول (من الفصل ١١ إلى الفصل ١٤)، فقد كانت مخصصة لتحليل التشكيل العسكري الثوري والإسباني، وأنواع الأسلحة التي اعتمد عليها الطرفان. ودرسنا بشكل واسع خلال هذه الفصول الأخيرة نقاطَ القوة والضعف لدى الطرفين، وذلك انطلاقا من عدة نماذج تقريبية تم وضعها من قبل مركز الخطابي للدراسات. ثم ختمنا بحثنا بنبذة تحليلية مختصرة توضّح حسب اعتقادنا سبب الهزيمة العسكرية التي أُلحقت بالثورة الريفية (١٩٢١-١٩٢٦).

ولكن قبل انتقالنا إلى فصول البحث التي تحدثنا عنها، نريد أن نشكر جميع من ساعدنا في صياغة هذه الدراسة، ونخص بالشكر الوفير الدكتور المغربي المتخصص في العلوم السياسية والفكر الإسلامي محمد الحساني، وبقيّة إخواننا المغاربة الذين تفاعلوا معنا وقاموا بمساعدتنا على جمع المصادر المحلية وتحديد بعض المعالم الجغرافية، كما نتوجه بالشكر والتقدير إلى الأساتذة المتخصصين في سوريا الذين قاموا بمساعدتنا في تحليل نقاط القوة والضعف في هذه الحرب، واطّلعوا على نسخة من الكتاب قبل نشره. ونتوجه بالشكر أيضا إلى "مركز نورس للدراسات" الذي ساعدنا في إعداد الدراسة وجمع المصادر وترجمتها.

لكم منا تحية شكر وعرفان، فلولاكم أنتم بعد توفيق الله، لما استطعنا أن نخرج هذا العمل بهذه الصورة اللائقة.

تم الانتهاء من تحرير الطبعة الأولى في: ٥ سبتمبر/أيلول من سنة ٢٠١٩

الموافق لـ ٦ محرّم ١٤٤١

المحتويات:

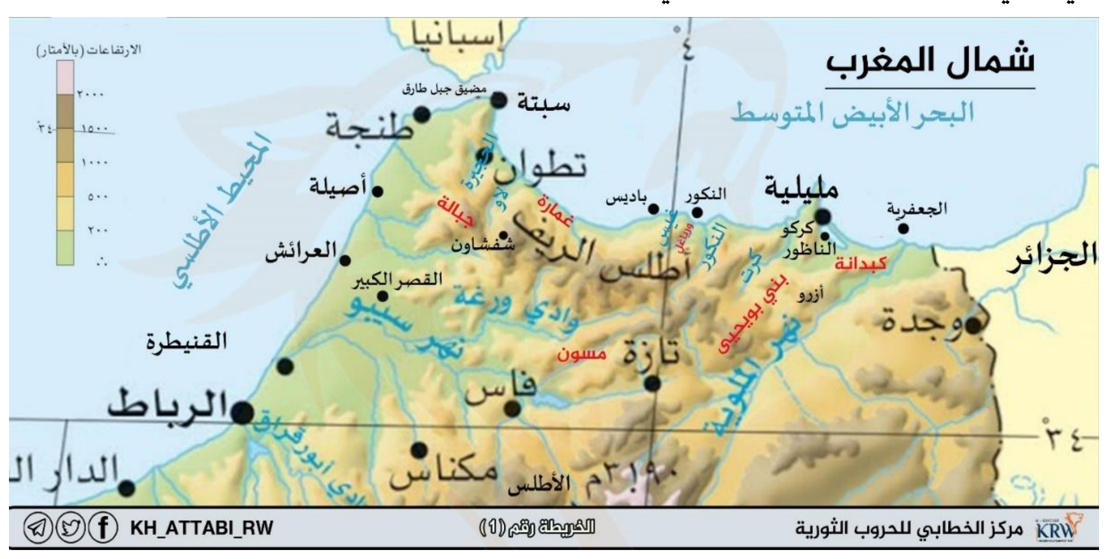
الفصل الأوّل: البيئة الجغرافية والسياسية والاجتماعية شمال المغرب قبل الثورة.

"حتى يقبل الناس مسؤوليات ومخاطر التحرك المسلح المنظم، يجب أن يؤمنوا بعدم وجود خيار آخر، بعد أن أصبح الموقف لا يطاق، وأن فرص نجاح الثورة المسلحة معقولة. وربما كان الدافع الأخير هو الأكثر قوة."[٢] **روبرت تابر**

أولا: الطبيعة الجغرافية شمال المغرب.

يحتل شمال المغرب موقعا استراتيجيا من خلال إطلالته على كل من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ يقع في أقصى الجزء الغربي من العالم الإسلامي والوطن العربي، ويحده من الشرق الجزائر، ومن الشمال البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب الصحراء الكبرى وسلسلة أطلس الجبلية. وفي الساحل المطل على البحر المتوسط، هناك عدة جزر منها باديس والجعفرية والنكور (صخرة الحسيمة)، وهناك عدة موانئ هي: مليلية وسبته وطنجة، أما الساحل المطل على المحيط الأطلسي، فأهم مراكزه أصيلا والعرائش والقصر الكبير.

يواجه الساحل الشمالي للمغرب، وخاصة مثلث (سبتة-طنجة-تطوان) مضيق جبل طارق الذي يمر خلاله أحد أبرز الخطوط الملاحية العالمية، وتوجد في الإقليم الشمالي للمغرب سلسلتان جبليتان، هما سلسلة جبال أطلس الريف التي تمتد من كبدانة وصولا إلى جبالة، وسلسلة جبال الأطلس. يفصل بين السلسلتين ممر (تازة-فاس) الاستراتيجي الذي يكاد يكون الممرَّ الوحيد الذي يصل المغرب بالجزائر.



---

[٢] روبرت تابر: كتاب حرب المستضعفين، تعريب محمود سيد الرصاص، مراجعة المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

يتألف القسم الشمالي للمغرب من إقليمين جغرافيين هما الريف وجبالة، والريف هو القسم الشرقي من المنطقة، وهو عبارة عن الحوض المنبسط ما بين غمارة وهضاب نهر الملوية شرقا، الممتدّ على البحر المتوسط شمالا، والمشرف على مدينة تازة وسهول مسون جنوبا، وتمتد فيه الجبال من الشرق إلى الغرب، يصل ارتفاع بعض قممها إلى (٣٠٠٠ متر)، ولهذه الجبال انحدارات مباشرة على البحر المتوسط، وهو السبب وراء قلة الموانئ في هذا الإقليم، ولكنه مع هذا احتفظ بموقعه الاستراتيجي. تنتشر في الجنوب الشرقي للريف جبال عديدة منها، كبدانة وبني بو يحيى والكركو ومزكوب، هذا فضلا عن هضبتي (التدني) و(اللتدري) اللتان تضمان العديد من الآبار والعيون والكهوف الطبيعية، وثمة سهول فسيحة في هذه المنطقة منها السهل الذي يربط بين سهل المسون وسهل الكرت بسهول بوصواب وعين الأحمر، وتتكون أراضي الريف الأوسط من مجموعة جبال بقيوة المفصولة عن بقية السلسلة الجبلية الكبيرة، والمتصلة بسهول بني ورياغل التي تتسع شرقا في أراضي أجدير بين وادي غيس ووادي النكور. أعلى جبل في هذه المنطقة هو جبل أزور أقشار وكذلك جبل حمام.

أما إقليم جبالة، فيقع إلى الغرب من الريف، وإلى الجنوب من طنجة، ويمتاز أيضا بتضاريس جبلية معقدة تصعب المواصلات فيها. يمتد هذا الإقليم بين شواطئ غمارة وضواحي تطوان وشمالي شفشاون وصولا إلى شاطئ المحيط الأطلسي بين العرائش والقصر الكبير. والخلاصة أن كلا الإقليمين الشرقي والغربي لشمال المغرب، يمتازان بوعورة الأرض وضعف المواصلات وندرة الطرق المعبدة، وقد كان لهذه المناعة الطبيعية أثر كبير في بروز ظاهرتين. أولاهما، انعزال المنطقة وفقرها من خلال قلة الأراضي الزراعية الخصبة فيها، كما تميزت بتدهور أوضاعها الصحية. أما الظاهرة الثانية، فتتمثل في مقاومة الغزاة عبر التاريخ، وقد كان لذلك أثر كبير في ظهور طراز صعب من المقاتلين الشجعان المتمرسين على الاستخدام الجيد للسلاح والقادرين على تحمل صعوبات الحياة في هذه المنطقة.

يوجد شمال المغرب أنهار عديدة، منها نهر الملوية وطوله ٤٨٠ كم، ويمر في المنطقة الشمالية، ولجريان هذا النهر في المنطقة أهمية اقتصادية كبيرة من حيث ازدهار زراعة الزيتون والكروم والتين والحبوب فيها. هناك أيضا نهر سبو الذي يبلغ طوله ٨٠٠كم، وهو من أكبر الانهار في المغرب الأقصى، هذا غير الأودية الخصبة التي تتوزع على طول منطقة الشمال، مثل وادي ورغة، ووادي كرت، ووادي أمقران، ووادي النكور، ووادي غيس، ووادي لاو، ووادي حجيرة. تمثل زراعة الحنطة والشعير والذرة في منطقة شمالي المغرب، وفي وادي الورغة خاصة، المورد الاقتصادي الرئيسي، هذا فضلا عن انتشار زراعة الفواكه والخضراوات. ويعتمد السكان في حياتهم المعيشية كذلك في مناطق السواحل على صيد الأسماك.

أما التجارة فقد نشطت حركتها مع أوربا في الموانىء المغربية، فعن طريقها يتم استيراد السكر والشاي والمنسوجات القطنية والحريرية والصوفية وبعض المصنوعات المعدنية والأسلحة والذخائر، أما صادراتها فاقتصرت على الأصواف والجلود والعسل والشمع والبلح واللوز والجوز والصمغ، وكذلك الحبوب التي لم يكن

يسمح بتصديرها من قبل الحكومة إلا في المواسم الزراعية الجيدة. اقتصرت عمليات التبادل التجاري لمنطقة شمال المغرب على جزيرة النكور ومنطقة الورغة، وكانت جزيرة النكور في الحسيمة التي خضعت في وقت مبكر للاحتلال الاسباني، تمثل موردا رئيسا للبضائع المستوردة، ومنها السكر والدقيق والملابس وما شاكل ذلك، وكان الحاكم العسكري الاسباني في هذه الجزيرة يسهم في تسهيل مهمة التبادل التجاري ضمن خطة استعمارية استهدفت السيطرة على الريف سلميا، إلا أن معظم الأهالي لم يكونوا مقتنعين كثيرا باستيراد تلك المواد وبيعها. أما منطقة الورغة، فقد كانت المجال الرئيس للاتصال التجاري بين شمال المغرب وجنوبها.

وقد تأثرت الحركة التجارية بأوضاع الزراعة وانتظام سقوط الأمطار، وكانت المواشي من أبرز الصادرات، وبعد إعلان الحماية الثنائية عام ١٩١٢، سيطر الاسبان والفرنسيين على تجارة المغرب سيطرة تامة. أما الصناعة فقد ظلت محلية تقليدية بسبب الاحتلال الاسباني والبرتغالي للموانئ المغربية التي كانت من المراكز الصناعية النشيطة آنذاك. ونتيجة للفوضى الداخلية لم يستطع المغرب الصمود في وجه تدفق المصنوعات الأجنبية منذ القرن التاسع عشر، وظلت هذه الصناعة مقتصرة على حياكة السجاد والأحزمة والخيام وبعض الأقمشة الصوفية الخاصة بالاستهلاك المحلي. لقد بقي المغرب بلدا زراعيا، ومصدرا لبعض المعادن، وخاصة الحديد الذي يكثر في إقليم الريف، وبالأخص في أراضي قبيلة بني ورياغل ويعد منجم الناظور قرب جبل أكسان أكبر مناجم الريف لإنتاج الحديد.[٣]

ثانيا: الظروف الاجتماعية والدينية.

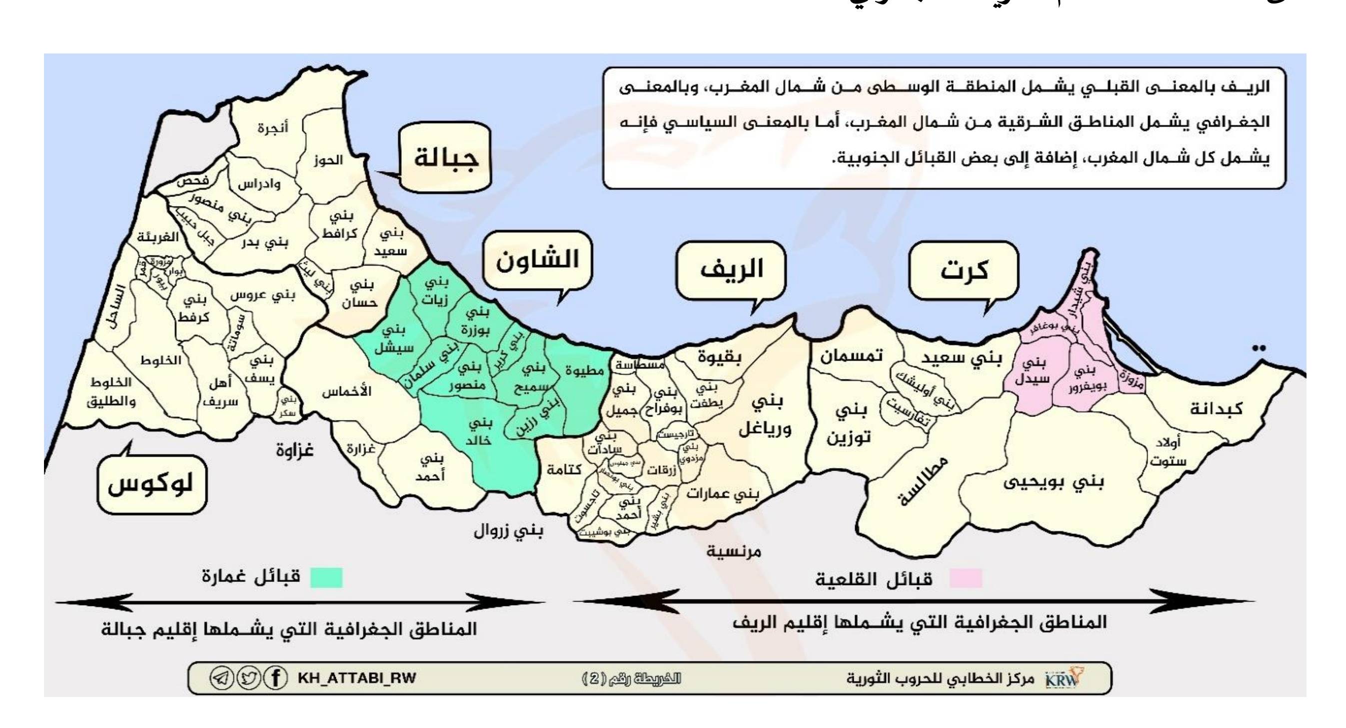
قبل بداية الفتوح الإسلامية، كان جل الجالية المغربية من البربر الأمازيغ، وكانت النصرانية والوثنية هي الديانات الغالبة على سكان شمال المغرب. ثم توطدت الدعوة الإسلامية في المغرب الأقصى على يد القائد العظيم موسى بن نصير، واعتنق شعبها الاسلام منذ بداية القرن الثامن ميلادي. غير أن تلك البلاد لم تبق طويلا تحت حكم الخلافة المركزية، فقد كانت من أول المناطق التي تستقل بذاتها عن الخليفة، وتظهر فيها مجموعة من الإمارات المتعاقبة، بداية من الدولة الإدريسية سنة ٧٨٨م، ثم دولة المرابطين (١٠٨٠)، ثم الموحدين سنة (١١٥٠)، وصولا إلى الدولة السعدية (١٥٨٠)، والدولة العلوية (١٦٦٦) التي لازال حكامها على عرش المغرب حتى يومنا هذا.

وبعد الفتوح الإسلامية في القرن الثامن ميلادي، تتالت العديد من الهجرات العربية نحو شمال المغرب تزامنا مع حركة الفتح والجهاد، وقد ساهمت التوترات السياسية داخل الدول الإسلامية في تسريع هذه الهجرات بشكل ملحوظ، إذ كانت العديد من القبائل العربية تأتي المغرب فرارا من ملاحقة الدولة الأموية والعباسية، أو طمعا في المغانم والموارد الاقتصادية. ومنها قبائل بني هلال وبني سليم وبني معقل وبني زغبة وبني رياح...الخ. ومع مرور الزمن

[٣] الدكتور محمد علي داهش: كتاب المغرب في مواجهة إسبانيا (صفحات من الكفاح الوطني ضد الاستعمار بين ١٩٠٣-١٩٢٧).

أصبح تعداد العرب في المغرب الأقصى يفوق تعداد السكان البربر الأمازيغ، بينما اعتنق كلا الطائفتين الدين الإسلامي، لتصبح نسبة المسلمين في هذه المنطقة أكثر من ٩٨ % من مجموع سكان المغرب.

بلغ عدد سكان المغرب حتى مطلع عام ١٩١٢ قرابة ٦ ملايين نسمة، وكانوا يتوزعون في ثلاث مناطق. وهي، طنجة وضواحيها (٦٠) ألف نسمة، منطقة الريف وجبالة (٥٥٠) ألف نسمة، والمغرب الجنوبي (٥,٥) ملايين نسمة. وقد غلب التكوين الاجتماعي القبلي على الحياة الاجتماعية في المغرب، وخاصة في المناطق البعيدة عن المدن الساحلية، ويعتمد هذا التكوين في حياته المعيشية على الاقتصاد الزراعي. ولأن موضوع دراستنا يتحدث عن الريف المغربي، فإننا عبر اطلاعنا على العديد من المصادر وجدنا أن الريف المغربي يرمز له في المراجع التاريخية بالعديد من المعاني المختلفة أحيانا، فتطلق كلمة الريف تارةً على المنطقة الوسطى شمال المغرب، والتي تضم تقريبا ١٨ قبيلة أمازيغية[٤]، تأتي على رأسها قبيلة بني ورياغل وبني يطفت وبني عمارات وبقوية وبني جميل ومسطاسة وبني بوفراح وكتامة وتارجيست...الخ. وقد أطلق بعض المؤرخين على هذه المنطقة مصطلح **"الريف القبلي"**. كما تطلق كلمة الريف تارةً أخرى على كل الإقليم الشرقي شمال المغرب، والذي يضم المنطقة الوسطى إضافة إلى القبائل الأمازيغية الشرقية في منطقة كرت والتي تقدر تقريبا بـ ١٤ قبيلة (كبدانة وبني سيدل وبني سعيد وبني بو يحي وبني بويفرور ومطالسة وبني توزين وتمسمان وبني أوليشك...الخ). وقد أطلق بعض المؤرخين على هذه المنطقة اسم **"الريف الجغرافي"**.



هناك أيضا معنىً أوسع للريف المغربي، إذ ترد هذه الكلمة في بعض المراجع التاريخية مصحوبة بمعان سياسية تشكلت بعد الثورة الخطابية، ويقصد به كل المناطق الشمالية للمغرب التي انتشرت فيها الثورة بين ١٩٢١

---

[٤] عبد الوهاب بن منصور: مشكلة الحماية القنصلية في المغرب، من نشأتها إلى مؤتمر مدريد ١٨٨٠.

و١٩٢٦، حيث يجمع هذا المعنى بين الإقليم الشرقي (الريف الجغرافي) والإقليم الغربي الذي يضم قرابة الـ ٤٠ قبيلة عربية (غمارة وجبالة ولوكوس) مع جزء من القبائل الجنوبية في منطقة الورغة شمال فاس (صنهاجة، مطالسة، وكزناية، والتسول وبني مسطرة وبني وليد، وبني زروال...الخ). وقد أطلق بعضهم على هذا المعنى اسم **"الريف السياسي"**.

لقد كان من الطبيعي في ظل ذلك التكوين الاجتماعي أن تقوم القبيلة بدور التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وقد أسهمت صعوبة المواصلات وقلتها وبدائيتها في بقاء تلك القبائل بعيدة عن متناول السلطة المركزية. وبين ١٩٠٠ و١٩٣٠، كانت القبائل شمال المغرب تشهد ألوانا من الصراع والتنافس والنزاع الداخلي، حيث كان الثأر يوقعهم كثيرا من الأحيان في حروب داخلية طاحنة قد تستمر العشرات من الأعوام وقد تودي بالكثير من الضحايا الأبرياء من الطرفين، وهو ما جعل أيضا رجالها ذوي طبيعة حربية وخبرات قتالية تكتيكية عالية. وكان حل النزاعات القبلية يتمّ عن طريق أل (أمغازن) أي رؤساء القبائل، حيث يعقد هؤلاء مؤتمرا يدعى (أكراو) للحد من العداوات عن طريق فرض الغرامات، كما قام علماء جامع القرويين بدور مهم في تحقيق الوئام بين القبائل، وكثيرا ما تناست القبائل منازعاتها حينما يهددها خطر خارجي.

مع تعدد الجهات السياسية المؤثرة شمال المغرب، كانت الميولات السياسية لشيوخ القبائل متنوعةً وموزّعة على ثلاث جهات مختلفة ومتضاربة في غالب الأحيان:

١) السلطة المحلية (المخزن).

٢) والاحتلال الإسباني أو الفرنسي.

٣) والحركات الثورية الرافضة للاحتلال أو الرافضة للسلطة المحلية.

وفي ظل هذا الاضطراب المجتمعي عاشت البلاد حالة من الضعف والارتباك، فقد انتشرت المجاعة بسبب قسوة الظروف الطبيعية والمناخية، وتدهورت قيمة النقد، وغلت الأسعار، وانتشرت الأمراض التي أودت بحياة المئات من سكان البلاد.[٥]

الجدير بالذكر أن التيار الصوفي دخل المغرب منذ القرن الحادي عشر ميلادي، وفي القرن الخامس العشر كان المغاربة قد اتخذوا طرقا وزوايا خاصة بشيوخهم، ومع بداية القرن العشرين كان التصوف هو الغالب في مناطق

---

[٥] محمد علي داهش: كتاب المغرب في مواجهة إسبانيا (صفحات من الكفاح الوطني ضد الاستعمار بين ١٩٠٣-١٩٢٧).

شمال المغرب، حيث كانت تضم المنطقة طرقا صوفية مختلفة مثل الكتانية[٦] والريسونية[٧] والعلاوية[٨] والدرقاوية[٩] والوزانية[١٠]...الخ. ولكل طريقة زواياها الخاصة، وتعتقد كل واحدة منها بوساطة شيخ الطريقة في التوسل إلى الله، وقدرته على تنفيذ بعض الأمور الخارقة التي تدخل حسب زعمهم ضمن بركته وولايته. وقد كان للطرق الصوفية دورها الكبير في التأثير السياسي، "وقد نصب بعض شيوخها أنفسهم واسطة بين الشعب والحكومة، وقد استفادت منهم الحكومة في السيطرة على الشعب وجباية الضرائب وتعبئة الجيوش، وكانوا يدعون أنهم يشعون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليهم تحقيق أغراضها. وحين ضعفت السلطة الوطنية وحلت محلها السلطة الأجنبية بعد عام ١٩١٢، لم ير بعض المشايخ غضاضة في أن يكونوا عونا للمحتل مادام المحتل يضمن لهم مصالحهم."

والحقيقة أن مواقف شيوخ الطرق الصوفية كانت متفاوتة بين مناصرة الاحتلال والحكومة المحلية، وبين دعم الثورات والتمردات الداخلية، بغض النظر عن مشروعيتها أحيانا. وحتى قدوم الخطابي، لم يحدث أن اجتمعت

---

[٦] الطريقة الكتانية هي طريقة مستقلة، لا قادرية ولا شاذلية وتنقسم الطريقة الكتانية إلى قسمين:

أ- الطريقة القديمة: الطريقة المحمدية الكتانية، وهي: طريقة الشيخ أبي المفاخر محمد بن عبد الواحد الكبير بن أحمد الكتاني الإدريسي الحسني، تأسست عام ١٢٦٦ بفاس، وكانت لها زوايا في فاس والقصر الكبير، وزرهون ومراكش وغيرها من مدن المغرب وشنقيط، وفي المشرق أيضا؛ خاصة مصر.

ب- الطريقة الباقية: الطريقة الأحمدية الكتانية: وهي طريقة صوفية، أسسها الشيخ أبو الفيض محمد بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني عام ١٣٠٨، وسنه لما يبلغ العشرين سنة، وهي الطريقة الباقية التي انتشرت بشكل أكبر من الطريقة القديمة. وقد لها دور كبير في شرعنة الاستعمار الفرنسي في شتى مناطق المغرب.

[٧] أسست الزاوية الريسونية أثناء معركة وادي المخازن الشهيرة التي وقعت في ١٥٧٨ ميلادية على يد سيدي امحمد بن علي بن ريسون المتوفى عام ١٦٠٩ بإذن شيخه مولاي عبد الله بن الحسين الأمغاري دفين قرية تامصلوحت ضواحي مراكش. منهاجها العقدي فهو مرتبط على طريقة الإمام الأشعري.

[٨] الطريقة العلاوية أحد الطرق الصوفية التي تنتسب للشيخ أحمد العلاوي ومن بعده الشيخ المداني ومن بعده الشيخ إسماعيل الهادفي في تونس ثم الشيخ الحسن الهادي، تنتشر هذه الطريقة في الجزائر والمغرب وتونس والحبشة والحجاز وفلسطين وسوريا، ودول أوروبية مثل بريطانيا وهولندا وفرنسا.

[٩] الزاوية الدرقاوية الحسنية من أهم الزوايا بفاس، وقد لعبت دورا مهما في الحياة السياسية هناك، وكانت تحظى باهتمام خاص من طرف السلطان الحسن الأول حيث أنه زارها عدة مرات. ويحكى أنه كان يتبرك بالشرفاء الدرقاويين وكان يزورهم على الدوام بالزاوية المذكورة والتي تقع في حي العيون قرب راس الجنان. هذه الطريقة عائدة إلى الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي (ت ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م)، لكن المفهوم من المصادر أنه لم يكن واضع أسسها، وإنما ورث أسرارها عن شيخه أبي الحسن علي بن عبد الرحمن العمراني الشهير بالجمل، ويعتبر مولاي رشيد الدرقاوي الحسني آخر شيوخها. والطريقة الدرقاوية لعبت دوراً في إحياء التصوف الذي تجاوز جميع المغرب والجزائر وتونس وصولاً إلى مصر والحجاز.

[١٠] نسبة إلى مدينة وزان التي أسست بها الزاوية، وهي زاوية صوفية شاذلية أسسها الشيخ عبد الله بن إبراهيم اليملحي، الشريف الإدريسي المتوفى سنة ١٦٧٨ ميلادية الموافق لـ ١٠٨٩هجرية.

القبائل الأمازيغية والعربية أو الطرق الصوفية على مشروع ثوري موحد. إذ كانت الخلافات بين هذه الطوائف والأعراق تُستغل بشكل فاحش من قبل الإسبان والفرنسيين بل وحتى الحكومة المغربية لتأجيج الفتن وبث الانقسام في المجتمع المغربي.

ومن حيث التعليم، فقد ظل التعليم الديني التقليدي سائدا في المغرب حتى بداية القرن العشرين، وكان يتمثل بصفة عامة في الكتاتيب والمدارس القرآنية التي ينفق عليها السلطان أو بعض الوجهاء. كما قام جامع القرويين - الذي يعد المركز الأول للتعليم العالي في البلاد- بدور مهم في التعليم الديني والحفاظ على اللغة العربية وعلومها. وبالرغم من اقتصار التعليم التقليدي على الذكور، إلا أن ذلك لا يعني انعدام التعليم للإناث، ففي الفترة ما بين ١٩٠٢-١٩٠٣، وجدت في مدينة فاس وحدها خمسة عشر مدرسةً للبنات تشرف عليها بعض النساء المتعلمات، وكان هناك عدد من المدارس المهتمة بتعليم الخياطة والتطريز. لم يكن التعليم في المغرب إلزاميا حتى مطلع القرن العشرين، ففي عهد السلطان عبد الحفيظ (١٩٠٨ - ١٩١٢) صدر قانون التعليم الإلزامي وإصلاح المدارس، ويبدو أن تلك المحاولة كانت بداية لإدخال المدارس الحديثة في المغرب من خلال هذا الإجراء، إلا أن الأحداث السياسية، حالت دون تطبيق هذا القانون الذي ظل حبرا على ورق، لذلك بقي التعليم على طابعه حتى عهد الحماية الفرنسية والاسبانية عام ١٩١٢.

تميز الريفيون شمال المغرب بعنايتهم الكبيرة بالعلم، ففي هذه المنطقة قام مصلحو الزوايا المنتشرة وأصحاب الطرق الصوفية وعلماء جامعة القرويين بدور كبير في تنوير السكان وفي إرساء أسس التعليم الديني شمال المغرب، وبفضل جهودهم نشأت في مختلف قبائل الريف المعاهد العلمية، وكانت هذه المعاهد الصغيرة فروعا تابعة لجامعة القرويين، وقد ظهرت خلال الزمن فوائدها الجمة، فتسابقت الجماعات القبلية لفتح مساجدها أمام الطلبة، وعينت الفقهاء المقتدرين للتدريس في تلك المساجد بإجازة مالية... وذلك لأجل إعداد الطلبة للتوجه بعد ذلك إلى القرويين لاستكمال معارفهم، أي أن هذه المعاهد الصغيرة كانت تمثل في الواقع مرحلة ابتدائية وتمهيدية لجامعة القرويين... إن انتشار هذا الضرب من التعليم الديني، قد أسهم في توجيه الناس نحو الالتفاف حول العرش، حيث كان من مبادئ التعليم الأساسية وكذلك مبادئ التصوف، أن الخروج على المَلك يعتبر مروقا من الدين.

ثالثا: الظروف السياسيّة قبل الثورة الخطابيّة.

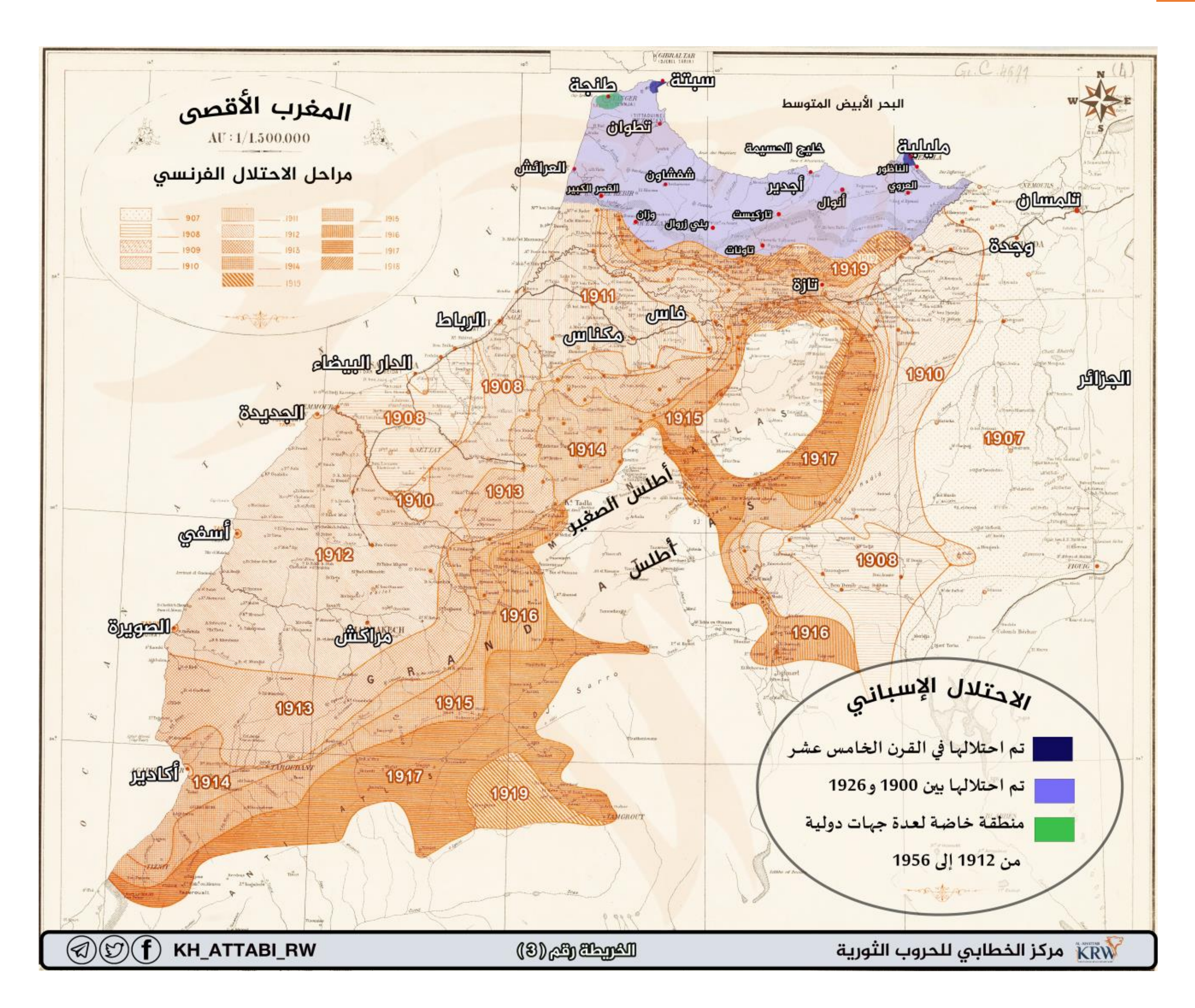
بدأت البلاد المغربية تتعرض لحملات الاحتلال الغربي منذ بداية القرن الخامس عشر، إذ قامت القوات الإسبانية باحتلال بعض المواقع في الشمال المغربي على رأسها مدينة سبتة سنة ١٤١٥، ومدينة مليلية سنة ١٤٩٧. وذلك لتكون هذه البلدات بمثابة قواعد انطلاق وتوسع نحو العمق المغربي.[١١]

ومع بداية القرن العشرين، كانت الدولة العثمانية قد أوشكت على الانهيار، وكان الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أشده لبسط النفوذ على منطقة شمال إفريقيا، وقد انتهى هذا التنافس بسيطرة فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠، واتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ على توقيع معاهدة "الاتفاق الودي" التي نصّت على تنازل فرنسا لبريطانيا عن حقوقها في مصر، وذلك مقابل اعتراف بريطانيا أن من حق فرنسا "حماية" الحالة السياسية في المغرب، مع الحفاظ على طنجة تحت الحماية الدولية.

ثم عُقدت اتفاقية أخرى بين فرنسا وإسبانيا تم خلالها تحديد مصالح كل واحدة منهما في المغرب الأقصى، وتم تقسيم مناطق النفوذ بين الفريقين، الأمر الذي أثار ضجة في ألمانيا التي رأت في هذه الاتفاقيات إخلالاً باتفاق برلين المبرم بين الدول الأوروبية في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وترتب على هذا الاعتراض الألماني عقد مؤتمر دولي في إسبانيا يوم ٧ أبريل/نيسان سنة ١٩٠٦، حضرت فيها ١٢ دولة أوروبية، وحضر فيه الرئيس الأمريكي روزفلت كوسيط، كان مما جاء فيه: الاعتراف باستقلال السلطان المغربي، والمحافظة على كيان المملكة "المراكشية/المغربية" تحت حماية فرنسا، والحرية التجارية للدول الموقعة، وغيرها من المسائل، الأمر الذي أثار حفيظة المغاربة ونقمتهم وثورتهم على الهيمنة الفرنسية.

---

[١١] سبتة ومليلية: مدينتان مغربيتان خاضعتان للاحتلال الاسباني منذ القرن الخامس عشر، قررت اسبانيا سنة ١٩٩١ أن تعطيهما الحكم الذاتي مع الحفاظ على سيادتها فيهما. أغلب سكان سبتة ومليلية من الإسبان العرب ويعانون تمييزا عنصريا كبيرا من قبل الإسبان الأصليين. وقد رفضت المملكة المغربية الحالية الاعتراف بشرعية الحكم الإسباني، وهي تعتبر سبتة ومليلية جزءاً لا يتجزأ من التراب المغربي.



على إثر هذه الانتفاضة نزلت القوات الفرنسية بعددها وعتادها فاحتلت العوجاء والدار البيضاء والشاوية، وفي نفس الوقت من سنة ١٩٠٨، نزلت القوات الإسبانية وبدأت بالزحف من مليلية نحو الريف، وقد تم عقد اتفاقية بين ألمانيا وفرنسا فيما بعد سنة ١٩١١، قامت فرنسا خلالها بتسليم الكونغو لألمانيا، مقابل أن تتغاضى الأخيرة عن احتلال معظم أراضي المغرب. وما لبث القرن العشرون يخطو عقده الثالث إلا وقد أصبح المغرب الأقصى واقعا بين ناري الاحتلالين: الإسباني في الشمال ويخضع له عشر المساحة الجغرافية المغربية تقريبا (٤٨ ألف كم مربع)، والفرنسي في الوسط والجنوب ويخضع له ما يقارب التسعة أعشار المتبقية (٤٤٧ ألف كم مربع).

هذا بالنسبة للمشهد السياسي الدولي، أما بالنسبة للأجواء المحلية فقد كان المغرب يخضع للدولة العلوية التي وصلت حكم المغرب سنة ١٦٦٦، وقد كانت هذه الدولة أواخر القرن التاسع عشر تشكو العديد من عوامل الضعف الإداري والفساد المالي والظلم السياسي، ويلخص ابن منصور وضعية المغرب بقوله: "... كان المغرب يحكم بواسطة أجهزة عتيقة لا تستجيب لمتطلبات العصر، ولا تقدر على تحسين أي وضع من الأوضاع المجتمعية، كما كان يدار من طرف وزراءٍ وحكام وقادة ينتمي بعضهم إلى قبائل بدوية أو ينتخبون من بين عبيد البخارى، لا علم لهم ولا تكوين ... وجل الموظفين كانوا يطلقون أيديهم في الأنفس والأموال... ففي ظل جهاز حكومي

وإداري متعفن كهذا الجهاز، لم يكن ليقع على الرعية إلا الظلم والاستبداد"[١٢]، وهذا ما جعل العديد من القبائل يتمردون على الحاكم المغربي في العديد من الأحيان. وبعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، بدأ حكام الدولة العلوية يتعرضون إلى العديد من الضغوط السياسية والاقتصادية الدولية، جعلتهم مع الوقت يوقعون على قبول الحماية الفرنسية والإسبانية سنة ١٩١٢.

[١٢] من أجل التعرف أكثر على البنية القبلية شمال المغرب، فإن القبيلة الواحدة تحوي في الحالة الطبيعية عدة أفخاذ، ويضم الفخذ الواحد العديد من البطون، أما البطن فإنه يتكون عادة من مجموعة من العوائل التي تتكون من أبناء العمومة وذريتهم. وكل قبيلة لها مجلس حاكم يتكون من كبراء الرجال في الأفخاذ، وعلى رأس هذا المجلس يتربع شيخ القبيلة الذي يتم اختياره بالتراضي بين الأعضاء.

الفصل الثاني: من هو محمّد عبد الكريم الخطابي؟

"كان الخطابي قبلةً لأحرار العالم، فتشي جيفارا مثلا زار القاهرة سنة ١٩٦٠ ليلتقي عبد الكريم الخطابي، وكان هوشي منه يناديه أستاذي، واعتبره ما وتسي تونغ مبدع حرب العصابات. وكان محلّ تقديرٍ من كل الحركات الوطنية والإسلامية مشرقا ومغربا."[١٣]

علي الإدريسي

أولا: نسبه.

ولد محمد بن عبد الكريم الخطّابي يوم ١٥ شعبان سنة (١٣٠٠هـ-١٨٨٢م) في بلدة أجدير قرب بلدة الحسيمة في الريف الشمالي المغربي. وتختلف المصادر في نسب الأمير الخطابي[١٤]، غير أن الذي ترجح لدينا بعد مراجعة المصادر أن نسبه يعود إلى جزيرة العرب، إلى القبائل العربية، وقد هاجروا من جزيرة العرب والحجاز إلى المغرب واستقلوا بحكمها عن الخلافة العباسية. هذا ما تردده العائلة الخطابية وتناقلته عبر الأجيال، وهو ما يدعمه قول الخطابي نفسه: "نحن من أجدير وننتمي إلى آيث وارْيغر [بني ورياغل]، إحدى قبائل الريف. ويعود نسبُنا إلى آل السّيد محمد بن عبد الكريم، المنحدرين من الحجاز، من ينبُعْ تحديداً، على شواطئ البحر الأحمر. جَدّنا الأكبر كان يُسمى زارع الينبعي. وقد جاءت أسرتي إلى المغرب في القرن الهجري الثالث (القرن التاسع ميلادي) واستقرت في قبيلة بني ورياغل"[١٥].

وقد كان والده عبد الكريم، قاضيا في قبيلته، مثل أبيه وجده، وهو من أشرف بنفسه على تدريس أولاده، وبعثهم إلى الجامعات الكبرى ليتلقوا العلوم اللازمة هناك بما يخدم مصالح الريف.

---

[١٣] المؤرخ والباحث المغربي علي الإدريسي: " كتاب عبد الكريم الخطابي: التاريخ المحاصر"

[١٤] ذهب الفقيه التهامي إلى القول بانتساب عائلة الخطابي إلى الخليفة عمر بن الخطاب، أي من الحجاز. بينما قال المؤلف أحمد البو عياشي أن نسب العائلة يعود إلى عبد الله بن الخطاب الشريف الزياني من ذرية ملوك مدينة تلمسان الواقعة في الشمال الغربي للجزائر، وبالتحديد من أحفاد عمران بن إدريس الأصغر الذي كان ملكا على المغرب على عهد الأدارسة. فيما يروي الفقيه عبد السلام الدراوي عن الخطابي وقد كان مرافقا له، أن نسب العائلة من وادي درعة، وأنهم من الأشراف. ويقول الباحث دايفيد هارت أن الجد الأكبر لعبد الكريم الأول الذي منح اسما للعائلة، كان شريفا إدريسيا في أيث عرو عيسى من قبيلة اكزناين. رجح جميع هؤلاء أن نسب الخطابي من خارج المغرب، إلا أن غيرهم قد قال أيضا بأن نسب الخطابي أصله بربري من داخل المغرب.

واختلفوا في أصل كنية "الخطابي" فقيل أنها نسبة لعمر بن الخطاب، وقيل أنها اسمٌ لأحد فروع القبيلة الورياغلية.

[١٥] في مقابلة أجراها الصحفي الفرنسي روجيه ماتيو مع محمد عبد الكريم الخطابي.

ثانيا: نشأته.

عُرفت الأسرة الخطابية بالمكانة العلمية والسياسية لرجالاتها الذين شغلوا مناصب القيادة والقضاء في منطقتي الريف الأوسط والغربي. وتلقى محمد تعليمه الأولي المتمثل في حفظ القرآن والتعاليم الدينية في مدينة أجدير على يد والده وعمه عبد السلام، وقد حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، قبل أن ينتقل للدراسة في مدينة تطوان ثم مدرسة العطارين بفاس، ثم انتقل إلى مدينة مليلية التي نال فيها شهادة الباكالوريا الإسبانية.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الدراسة في جامعة القرويين بفاس، حيث تتلمذ على يد مجموعة من علماء الدين والسياسة[١٦]، نذكر منهم: الشيخ عبد الصمد بن التهامي كنون، والشيخ محمد بن التهامي كنون وكذا الشيخ محمد الكتاني الشهيد، وكان لهؤلاء الأثر البالغ على تكوينه الديني ومسيرته العلمية والسياسية، لكنهم لم يبلغوا درجة التأثير التي كان يحظى بها والده عبد الكريم، فقد ذكر محمد في مذكراته أن والده هو أستاذه الأول في السياسة والحرب والفكر.

وخلال نشأته كان والده يعتمد عليه ليمثله في العديد من المناسبات الاجتماعية والسياسية، وخلال فترة دراسته في فاس، كلفه ببعثة سياسية لدى السلطان عبد العزيز[١٧] سنة ١٩٠٨، أبدى فيها دعم بني ورياغل للسلطان في محاربة معارضه الجيلالي بن ادريس الزرهوني الملقب "بوحمارة"[١٨]. وقد كان ختام مسيرة محمد الخطابي الجامعية في مدينة شلمنقة الإسبانية، والتي درس في جامعتها القانون الإسباني لمدة ثلاث سنوات.

ثالثا: سيرته المهنيّة.

كانت بداية الحياة المهنية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي في بلدة مليلية التي زاول فيها مهنة التدريس لفائدة الساكنة المسلمة هناك، وذلك بين ١٩٠٧ و١٩١٣. وفي سنة ١٩١٠ بالتحديد، مكّنه تكوينه الجامعي وضبطه

---

[١٦] درس الخطابي تعاليم الفقه المالكي الذي كان معتمدا في المغرب في ذلك الوقت، غير أنه تتلمذ على يد مجموعة من العلماء ينبذون التعصب الفقهي ويقدمون الأثر الصحيح ويأخذون من بقية المذاهب، وهذا قد أثر على شخصية بطلنا فيما بعد، إذ لم يكن الخطابي رجلا متشددا ملتزما بتعليم مذهب واحد لا يخرج عنه، ولم يلزم أتباعه بطريقة معينة، كما أنه لم يكن ملتزما بطريقة صوفية معينة، رغم أن التصوف كان غالبا على سكان المغرب في ذلك الوقت، وكان مذهبه العقدي أقرب لأهل السنة، وذلك بحكم تعليمه الذي جعله يتعلق بالقرآن والسنة الصحيحة أكثر من تعلقه بالرموز والمذاهب.

[١٧] السلطان عبد العزيز (ولد سنة ١٨٧٨ في فاس وتوفي سنة ١٩٤٣) هو سلطان المغرب الـ١٨ من العلويين. حكم ما بين ١٨٩٤-١٩٠٨.

[١٨] عمر بن إدريس الجيلالي بن إدريس محمد اليوسفي الزرهوني (١٨٦٠- ١٩٠٩)، أطلق عليه خصومه لقب "الروكي" و"بوحمارة"، وهو ثائر ومعارض مغربي نازع العلويين على حكم المغرب، أسس طريقة صوفية خاصة به، وادعى استحقاقه لولاية العهد، فسيطر على المغرب الشرقي سنة ١٩٠٢، وأصبح يهدد السلطة المركزية، وذلك بفضل المساعدات الفرنسية والإسبانية التي حصل عليها مقابل استغلال الدولتين لمناجم الرصاص والحديد في منطقة نفوذه.

للغة الإسبانية علاوة على اللغتين المحليتين العربية والأمازيغية، من مزاولة مهنة الترجمة والكتابة بالإدارة المركزية للشؤون الأهلية بمليلية. كما اشتغل بالموازاة مع ذلك كصحفيّ بيومية تيليغراف الريف (El Telegrama del Rif) الناطقة بالإسبانية بين ١٩٠٧و١٩١٥، حيث خصص له فيها عمود يومي باللغة العربية.[١٩]

وعلى غرار والده، تم تعيينه سنة ١٩١٣ قاضيا في مليلية، ثم رُقّي سنة ١٩١٤ إلى منصب قاضي القضاة في مليلية عن سن تناهز ٣٢ سنة، وذلك بأمر من المقيم العام الإسباني. وتبوأ بذلك أرفع درجة في سلك القضاء الخاص بالساكنة المسلمة لمدينة مليلية. وفي نفس السنة، عُين أيضا كمعلم بأكاديمية اللغتين العربية والريفية بمدرسة الشؤون الأهلية بمليلية. وهكذا اقتحم الخطابي العمل السياسي في ريعان شبابه في العقد الثالث من عمره وأصبح على احتكاك مباشر بالحقائق السياسية في بيئته من التعليم والقضاء والصحافة والبعثات السياسية.



TELEGRAMA DEL RIF

á la política. - Defensor de los intereses de España en Marruecos

INFORMACIÓN ÁRABE

Soldado muerto

جريدة تيليغراف الريف (El Telegrama del Rif)

الخطابي يعمل قاضيا في مليلية

والخلاصة: أن الخطابي خلال نشأته توفرت فيه العديد من الخصال الحميدة والعوامل المساعدة التي مكنته بعد ذلك من قيادة الريفيين وتصدر الحراك المغربي، فقد كان منحدرا من بيت شرف وعلم ونسب نبيل، وهو ما عزز مكانته الاجتماعية، كما كان رجلا مثقّفا، وعالما فقيها، وخطيبا مفوّها، مُطّلعا على علوم التاريخ والقانون والإدارة، ذا دراية كبيرة بالشأن الإسباني، وهو ما أكسبه قدرات قيادة فذّة وملكة سياسية فريدة.

[١٩] جريدة مستقلة دافعت عن مصالح إسبانيا بالمغرب أثناء فترة الحماية، كانت تصدر بمليلية يوميا ماعدا يوم الإثنين، تأسست في ٢ مارس سنة ١٩٠٢ على يد قبطان المدفعية والصحفي كانديدو لوبيرا خيريلا، كانت تسمى عند تأسيسها برقية " تلغراما"، ثم تغير اسمها فيما بعد الى " تلغراما الريف" أو برقية الريف، توقفت عن الصدور سنة ١٩٦٣، وعُوضت بتلغراما مليلية، "برقية مليلية".

الفصل الثالث: الخطّابي يبدأ الحرب.

"نحن في عصرٍ يضيع فيه الحق إذا لم تسنده قوة...
عدم الإحساس بالمسؤولية هو السبب في الفشل، فكل واحد ينتظر أن يبدأ غيره."[٢٠]
محمد عبد الكريم الخطابي

أولا: مراحل الحرب الريفية.

لم يكن التوسع الإسباني على مرحلة واحدة، ولم تبدأ القوات الإسبانية باحتلال الريف دفعة واحدة، بل كان التقدم يخضع دائما للظروف الدولية والظروف الاقتصادية والسياسية التي تمر بها اسبانيا ولشراسة المقاومة الريفية، وبحسب هذه الظروف كان الزحف يتسارع أحيانا ويتباطأ أحيانا أخرى، غير أنه من الممكن أن نجعل هذه الحرب على ثلاثة مراحل:

حرب الريف الأولى (1893-1894)
نشبت على حدود مليلية
وانتهت بهدنة مع الحاكم المغربي

حرب الريف الثانية (1909-1914)
اندلعت في غرب الريف
وقادها الشريف محمد أمزيان

حرب الريف الثالثة (1921-1927)
اندلعت في كل الريف وقادها محمد
الخطابي وأسّس خلالها دولة الريف

أولا: حرب الريف الأولى سنة ١٨٩٣، وعرفت أيضا باسم "حرب مركالو" نسبة إلى الجنرال الإسباني "خوان كارسيا مركالو" الذي كان حاكما لمليلية. وقد نشبت بين القبائل الريفية والقوات الإسبانية التي كانت تريد السيطرة على حدود مليلية. وانتهت بمعاهدة فاس التي وقعها حاكم المغرب سنة ١٨٩٤ وتعهد فيها بتعويض خسائر الإسبان في الحرب.

ثانيا: الحرب الريفية الثانية، وقد اندلعت بين نفس الأطراف في يوليو/تموز سنة ١٩٠٩، وذلك على خلفية مقتل ستة عمال إسبان بمنطقة سيدي موسى. توقفت هذه الحرب سنة ١٩١٤ بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى. قاد فيها الجهاد الى حدود ١٥ مايو/أيار سنة ١٩١٢ الشريف محمد أمزيان[٢١]، ثم استمرت على شكل هجومات إسبانية هنا وهناك ضد بعض القبائل الغير خاضعة الى ما وراء وادي كرط.

---

[٢٠] عبد الكريم الخطابي وحرب الريف محمد سلام أمزيان ص ٢٠٩ "Muḥammad Sallām Amzayān".

[٢١] الشريف محمد أمزيان هو من أبناء الحاج محمد بن حدو بن أحمد بن عبد السلام بن صالح القلعي، وهو من أبطال المقاومة المغربية في القرن العشرين، ولد سنة ١٨٥٩ في بني بويفرور من قبيلة قلعية قرب مدينة الناظور، وتلقى تعليمه في المسجد كسائر أبناء الريف المغربي في تلك الفترة. اشتغل منذ شبابه في التجارة بين الريف والجزائر، وقد عرف بأخلاقه الحميدة ومساعدة الناس وحبهم، وكان يشرف على العقود الجماعية، ويقصده الناس لتسوية النزاعات. لذلك فقد حظي باحترام أهل الريف.

ثالثا: حرب الريف الثالثة، وهي أعظم هذه الحروب على الإطلاق، وأشهرها على مر التاريخ المغربي، قادها بطلنا محمد عبد الكريم الخطابي بعد أن وحد تحت رايته معظم قبائل شمال المغرب. وقد بدأت بعد أن وصل الإسبان سنة ١٩٢٠ إلى تطوان في الشمال الغربي وأنوال في الشمال الشرقي، وانتهت رسميا بسقوط تارجيست واستسلام الخطابي ٢٧ ماي ١٩٢٦، وسنتناول مراحلها بالتفصيل خلال البحث.

ثانيا: العلاقة الإسبانية الخطابية من الحياد الإيجابي إلى الصدام.

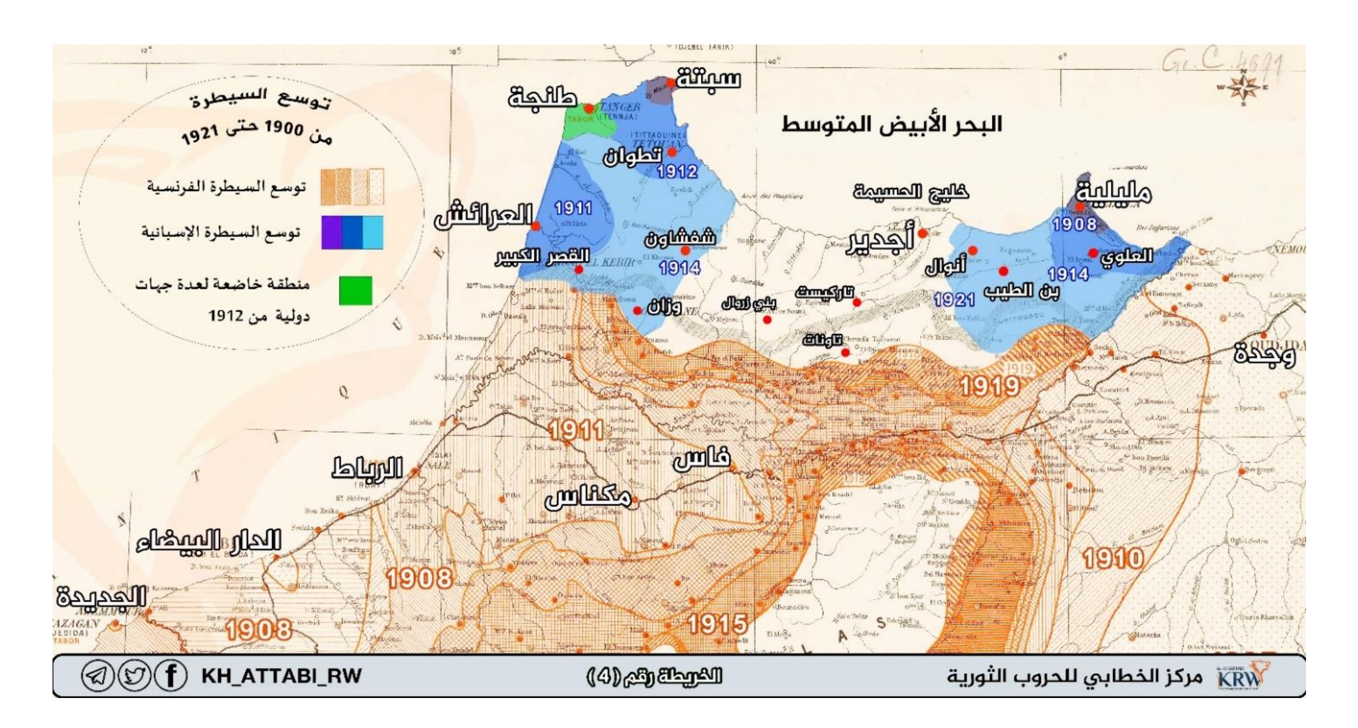
يتفق المؤرخون أن محمد بن عبد الكريم الخطابي كان إلى حدود سنة ١٩١٣ مؤمنا بالتعايش السلمي مع المستعمر،[٢٢] كما أنه كان ذا مكانة محترمة لدى السلطات الاستعمارية، ويظهر ذلك من خلال الوظائف التي شغلها في سلكي التعليم والقضاء، بل كانت كتاباته الصحفية ذات خط إيجابي إزاء فتح إسبانيا لمدارس تعليمية لفائدة الساكنة المليلية المسلمة، بل إنه طالب بالجنسية الإسبانية مرتين لم تكللا بالنجاح.

غير أن عام ١٩١٥م قد شهد بداية تحول هذه العلاقة نحو التصادم، ولعل ذلك يعود إلى حدثين رئيسيين:

يتجلى الحدث الرئيسي الأول في انتقال الاستعمار الإسباني إلى مرحلة التغلغل العميق، بعد أن كان متمركزا على الأطراف في بعض القواعد الرئيسة على السواحل الشمالية، وذلك مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. ونتيجة لتكثيف التواجد العسكري وتوسيع المواقع العسكرية على امتداد شمال المغرب بين ١٩١٠ و١٩١٥، ظهرت معارضة قوية من طرف شيوخ القبائل وعلى رأسهم عبد الكريم الخطابي (الأب)، **الذي انتقلت مقاربته للاستعمار من الحياد الإيجابي إلى الرفض والتصادم**، مرورا بمرحلة نادى فيها السلطات الإسبانية بالسير على نهج الحماية الفرنسية في مناطقها، عبر مواءمة البنية الإدارية الاستعمارية مع البيئة المغربية، بما يمكن أن يصطلح عليه في المصادر التاريخية بنظام الحماية. وقد كان محمد (الابن) موافقا تماما وداعما لموقف أبيه.

كان الشريف أمزيان ضمن زعماء القبائل الذين تحركوا للدفاع عن أرضهم ضد عملاء الاستعمار الاسباني وعلى رأسهم (بوحمارة الزرهوني) الذي هُزم أخيرا أمام قبيلة بني ورياغل، وتم طرده من الريف، ذهب بعدها أمزيان على رأس وفد إلى مدينة فاس بالمغرب سنة ١٩٠٩ لطرح قضية الريف وطلب المساعدة من سلطان المغرب للدفاع عن الأراضي والشرف ضد غزوات المستعمرين، ولكنه لم يتلق جوابا، فعاد إلى الريف ووحد كلمة قبائل كرت للدفاع عن البلاد، وهكذا إلى أن تحمل مسؤولية قيادة ثورة الريف الأولى سنة ١٩٠٩. وقاوم المحتل الإسباني لمدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد في ١٥ ماي سنة ١٩١٢م.

[٢٢] لا يعني هذا أن الخطابي ووالده كانا يريدان إذلال الريف والتمهيد لاحتلاله، والحقيقة أن عبد الكريم وابنه كانا في البداية يريدان الحماية الإسبانية على شكل يبقى فيه الريف مستقل الإدارة، بحيث يستفيد الريفيون من العلوم والخدمات الإسبانية في مجال الصحة والتعليم والطرق والصناعة...الخ، دون أن يتدخل الأخيرون في نمط عيش السكان أو حريتهم السياسية. وهذا ما يفسر موقف عائلة الخطابي الصدامية عندما تغيرت السياساسيات الإسبانية بعد ١٩١٢ وأصبحت أكثر عدوانية.



أما الحدث الثاني فهو اعتقاله من قبل الاسبان سنة ١٩١٥ وزجه في السجن، ورغم أن المصادر قد اختلفت في السبب الحقيقي الذي جعل السلطات الإسبانية تعتقل الخطابي، إلا أن نقد الخطابي لسلطات الاحتلال، وتأييده للمواقف التركية الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وتغيّر سياسة أبيه تجاه الإسبان بدأ يثير احتقان المحتلين، كما أن الفرنسيين قد كشفوا أيضا تواصلا لمحمد الخطابي مع الألمان، وقد دفعهم ذلك إلى اتهامه بالتخابر لصالحهم، وفي ذلك يقول محمد عبد الكريم:

"سنة ١٩١٥، وهو الوقت الذي كنت لا أزال فيه قاضيا للقضاة، حدث لي حادث خطير، وهو صدور أمر السلطة الاسبانية بحبسي نزولا منهم عند رغبة المارشال ليوطي[٢٣] بسبب العلاقات التي كانت بيني وبين رجل يدعى فرانسيسكو فارل، وهو من أصل ألماني... أما علاقتي مع فرانسيسكو الألماني الأصل فتتلخص في أن هذا الرجل راح يعرض علي، فيما إذا قمت بحركة ثورية ضد فرنسا في مراكش (أي المغرب)، كل المال اللازم والذخائر التي أحتاجها... وهو ما حملني على أن أطلب من فرانسسكو أن يساعدني على إنشاء فرقة مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل تحمي الريف من كل اعتداء بينما أكون أنا أناوش الجنود الفرنسيين في مراكش. وقد عرف الإسبان بهذه المخابرة فأحالوني إلى مجلس عسكري، وقد صدر الأمر بحبسي لأني اعترفت أمام قُضاتي برغبتي الثابتة في احتلال المنطقة الاسبانية"[٢٤]

[٢٣] جنرال فرنسي، وأول مقيم عام للمغرب بعد احتلاله من ١٩١٢ حتى ١٩٢٥، ومنذ سنة ١٩٢١ أصبح ليوطي مارشال فرنسا.

[٢٤] نقلا عن مقالة: تفاصيل غير مسبوقة عن جمهورية عبد الكريم الخطابي للباحث والاعلامي المغربي سليمان الريسوني.

وقد سجن الخطابي في ثكنة عسكرية وسط مدينة مليلية، وحاول الفرار منها مرات عديدة، كسرت في إحداها قدمه اليسرى. ومكث في السجن ١١ شهرا، ثم برأته المحكمة من جميع التهم، ليستأنف وظيفته سنة ١٩١٦ كقاضي في مليلية من جديد.

ثالثا: التجهيز للثورة المسلّحة.

مع انتقال الاحتلال الإسباني إلى مرحلة التغلغل، ومع التنافس المخابراتي الإسباني الفرنسي الألماني في استمالة الأطراف المغربية (كآل الخطابي) لمصلحة هذا المشروع الاستعماري أو ذاك، كان المشهد في المغرب معقداً. وفي هذه المرحلة، جراء السياسات الاستعمارية، تولد لدى الخطابي الأب وعيٌ وإحساس بالاضطهاد الاجتماعي والسياسي، فشرع في ربط العلاقات مع معارضي الوجود الاستعماري بالمغرب، في المنطقتين الإسبانية والفرنسية، كما بدأ في جمع الأسلحة وإعداد الذخائر اللازمة لمواجهة قوات الاحتلال. وتحولت العلاقة تدريجيا بين آل الخطابي والإدارة الإسبانية من التعايش إلى القطيعة، فاعتزل محمد مليلية وأخوه امحمد[٢٥] مدريد سنة ١٩١٩ والتحقا بوالدهما في أجدير.

[٢٥] هو امحمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الخطابي الورياغلي الريفي، الشقيق الأصغر للأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولد بأجدير سنة ١٨٩٢، وتعلم على يدي والده الذي وجهه في أواخر سنة ١٩٠٦ رفقة أخيه محمد إلى مليلية لتعلم اللغة الإسبانية، حيث التحق بالمدرسة الابتدائية الخاصة بالأهالي في مدينة مليلية. واعتبارا لمركز والده في قبيلة أيث ورياغل ولأهمية الوظائف التي كان أخوه محمد يتقلدها بمليلية، أرسلته الإدارة الإسبانية لمتابعة دراسته بسلك المعلمين في مدينة مالقة، وبعد سنتين من التحصيل أحرز شهادة معلم، وعاد إلى أجدير لمساعدة والده.

ارتبط نضال امحمد بنضال أخيه محمد في مختلف المراحل، فبعد موت والدهما الفقيه السي عبد الكريم عام ١٩٢٠م، حمل محمد مشعل المقاومة وأصبح امحمد يده اليمنى ومستشاره وأمين سره ومبعوثه الخاص، إذ كان ينوب عنه في المهمات الكبرى والصعبة. ونظرا لخبرته وكفاءاته ومعرفته لأحوال أوروبا أرسله الأمير، خلال الفترة الممتدة من أكتوبر ١٩٢٢ إلى مارس ١٩٢٣، إلى فرنسا للتعريف بقضية الريف وإقناع الفرنسيين بالتزام الحياد في الصراع الريفي/الإسباني.

وعند تشكيل حكومة جمهورية الريف عين امحمد الخطابي نائبا لرئيسها، كما كان المسؤول الأول عن القوات الريفية المكونة من الجيش النظامي والقوات المعبأة من قبل القبائل. وقاد العمليات العسكرية على عدة جبهات. وبعد استسلام الأمير الخطابي للقوات الفرنسية يوم ٢٣ ماي ١٩٢٦، نفي المجاهد امحمد الخطابي رفقة أفراد العائلة الخطابية إلى جزيرة لاريونيون، وذلك في ١٠ أكتوبر ١٩٢٦.

كان امحمد الخطابي في منفاه بجزيرة لاريونيون التي قضى فيها ٢٠ سنة ونصف، المتحدث الرسمي باسم الأمير وكاتبه الخاص، ولإتقانه اللغة الفرنسية كان كذلك مترجمه، وبعد وفاة شقيقه عاد إلى المغرب وبالضبط إلى مدينة الرباط، حيث أصيب بأزمة قلبية حادة. وبعد عمر تجاوز ٧٥ سنة مليء بالنضال أسلم الروح في ١٩٦٧.


الجنرال سلفستري

وقد كان لتعيين الجنرال سلفستري[٢٦]، حاكما عسكريا إسبانيا في منطقة الحماية الإسبانية بالمغرب، أثرا تسريعيا لهذا التحول، بسبب مقاربته العسكرية الصرفة، التي تحكمت في تحركاته الديبلوماسية وقراراته السياسية، وقد كان يقابل التحذيرات التي تصله من عبد الكريم بالاحتقار والازدراء، حيث كان يصف الريفيين بالمخانيث والحثالة، وكان لا يعتبر لهم وزنا عسكريا أو سياسيا في الصراع.

بدأ عبد الكريم (الأب) فعلا بإعداد العدة للنضال[٢٧]، وتجميع الرجال في معسكر وذيع مقابل تفرسيت غير أنه توفي[٢٨] سنة ١٩٢٠ قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه. يقول الخطابي متحدثا عن موت أبيه: "دام مرض والدي اثنين وعشرين يوما ثم توفي في أجدير، وقد ظن الإسبان في أول الأمر أن موت والدي سيثير انقلابا أو ثورة في الريف ولكن شيئا من هذا لم يقع... وكان المرحوم قبل وفاته قد دعانا إليه وقال لنا: إذا لم تستطيعوا الدفاع عن الريف وحقوقه فغادروه إلى مكان غيره".[٢٩]

وقد ذكر صاحب كتاب "الخطابي من القبيلة إلى الوطن" أن الوالد قد جمع ابنيه في مرض موته، وقد خاطبهما قائلا:" إنني ذاهب بعد أيام معدودات إلى ربي وخالقي. وصيتي لكم أن تدافعوا عن بلادكم، لأن الإسبان أعداؤنا وأعداء الله، قد بيتوا العزم على تلويث وطننا، بأحذية جنودهم، وأنتم تعرفون كم بذلنا من المساعي لثنيهم عن هذا العمل الدنيء. ولذلك فواجبكم المقدس هو الذود بكل ما تستطيعون من قوة عن حوزة هذه البلاد. إني أعرف حق المعرفة ضآلة الوسائل التي يملكها شعبنا، ولكن على الرغم من ذلك لا ينبغي أن نستسلم قبل استهلاك

---

[٢٦] مانويل فرنانديز سلفستري، جنرال عسكري اسباني، ولد في مدينة El Caney بـ كوبا ١٦ ديسمبر من ١٨٧١، قتل في شمال المغرب خلال موقعة أنوال ٢٢ يوليو من ١٩٢١ على يد الثوار بزعامة الأمير عبد الكريم الخطابي. وقد كان سلفستري أثناء حرب الريف القائد العام لسبتة بين (١٩١٩-١٩٢٠)، ومليلية بين (١٩٢٠-١٩٢١).

[٢٧] جاء في أحد المصادر أن عبد الكريم الخطابي قد تمكن فعلا من تجنيد عدد من المجاهدين، وصل عددهم في أواخر يونيو ١٩٢٠ إلى ٢٠٠٠ مقاتل، وعمل على إنشاء معسكر في بلدة تفرسيت جنوب شرق تمسمان في موقع يدعى وذيع، وقام بمحاصرة الإسبان في بن الطيب لمدة تزيد عن ٢٠ يوما ومنعهم من التقدم لاحتلال المزيد من الأراضي... لكن هذا المعسكر انهار بسرعة نتيجة المرض الذي ألم بعبد الكريم، وبعد رحيله يوم ٧ أغسطس ١٩٢٠ انقض الإسبان على تفرسيت واستولوا على المزيد من الأراضي حتى أنوال، وفي أغلب الحالات كانت سيطرتهم تحصل دون قتال يذكر نتيجة الجفاف والجوع والخوف من بطش الإسبان، وكذلك باستعمال الرشاوى المالية.

[٢٨] تشير معظم المصادر العربية أن مرض عبد الكريم (الأب) لم يكن مرضا طبيعيا، بل كان نتيجة تسميمه من قبل أحد عملاء الإشبان.

[٢٩] الباحث المغربي سليمان الريسوني: نفس المصدر السابق.

ما عندنا من الوسائل. وإذا غُلبتم هنا واستطاع الإسبان احتلال هذه البقعة فمن وراء ظهوركم تراب المغرب الكبير، تلجؤون إليه ولا تسلموا للإسبان على أي حال من الأحوال".

وبعد وفات والده، تولى محمد بن عبد الكريم الخطابي بمساعدة أخيه "امحمد" المشعل، وكان أول ما قام به أن وجّه رسالة إلى الإسبان يدعوهم إلى التعقل والتهدئة، "اتفقت وشقيقي على أن نعمل المستحيل لاجتناب الحرب، حتى أننا قررنا بعد وفاة والدي بيومين أن نكتب إلى القيادة الاسبانية نسألها الإقلاع عن سياستها الخرقاء، والاتفاق معنا على حكم الريف حكما يساعده على التقدم ويغمره طمأنينة وسلاما"..[٣٠] وطبعا لم يثمر هذا مع الإسبان شيئا، لأنهم كانوا قد رسموا مسبقا مع الفرنسيين خطة كاملة لتقاسم المغرب.

وعندما استيقن الخطابي رفضهم وأيس من دعوتهم إلى التعقل والحلول السلمية، عاد الأخير إلى قبيلته، واستنجد ببعض أبطالها، وتبايعوا على إشعال روح المقاومة، وجهاد الاحتلال الإسباني. واستطاع في ظرف وجيز أن يصبح الكابوس الأول للإسبان في المغرب.

رابعا: تنظيم الصفّ الداخلي واختيار القيادة.

بدأ الخطابي أولا بإعداد نواة صلبة وقاعدة انطلاق ثابتة، وقد كانت هذه القاعدة هي قبيلته بني ورياغل، ففي ٢٠ سبتمبر/أيلول ١٩٢٠ تمكن الخطابي من عقد اجتماع ببلدة إمزورن جنوب أجدير ضم عددا من زعماء قبيلة بني ورياغل.[٣١] افتتح محمد المجلس، وفسّر للحاضرين دواعيه، وركز على الأخطار المحدقة بأراضي الريفيين ودينهم وأموالهم، وخلص إلى ضرورة توحيد الجهود وتنظيم الصفوف وتجاوز الأحقاد والضغائن لصدّ هجومات الإسبان الزاحفين، فأيّده معظم شيوخ قبيلته ودعموا مسيرته الثورية، وتعهدوا له بما في استطاعتهم من تموين ودعم مادي.

وبعد أن استطاع استمالة قبيلته، توجّه الخطابي إلى حشد القبائل المجاورة، فتمكن من جمع العديد من رجالات تمسمان والمرابطين وبني عياش وبقوية. ولأن أعداد المجاهدين قد كثرت، واحتاج تنظيمها وتشكيلها إلى قيادة حكيمة، **اجتمعت الرموز الثورية في مقر القيادة الجهادية في جبل القامة غربي تمسمان، واتفقت على تعيين محمد الخطابي قائدا حربيا على القوات الثورية، وتعهدت له بالطاعة والتموين.** والراجح أن هذا الاجتماع

---

[٣٠] الباحث المغربي سليمان الريسوني: نفس المصدر السابق.

[٣١] ضم هذا الاجتماع: الفقيه السيد محمد بن علي بولحيا التوزاني، السيد محمد الحاج مسعود الأجديري، محمد بن السي أحمد الأجديري، الحاج حموش الأجديري، السيد عبد السلام بن الحاج محمد البو عياشي، أحمد بودرة الكلتومي، الحاج مسعود الأجديري، عبدالكريم ابن الحاج بودرة الأجديري، السي علي أشهبار الأجديري، شعيب بن محمد بن عمر الأجديري، حمادي بوزلماط الأجديري، السيد عبد الله بودرة الأجديري، محمد أكوح بوصريمث أولقاضي، محمد أحمد بوصريمث أولقاضي، محمد بن عمر القاضي، حدو أوسار الموسى وعماري، حمادي بن الحاج سعيد المرابطي...الخ

قد تم قبل ٢٠ يوما من معركة أدهار أوبران المعركة الأولى لجماعة الخطابي ضد الإسبان، أي في ماي ١٩٢١، وقد حضر في هذا الاجتماع قرابة الثلاثين رمزا ثوريا، ممثلين بذلك معظم قبائل الريف الأوسط، مثل قبيلة بني ورياغل وبني توزين وبني عبد الله وبني بو عياش وبقوية وتمسمان.

وبعد تعيينه قائدا عسكريا، قام الخطابي بتشكيل مجلس استشاري من الرموز القبلية الثورية، وقد تعاهدوا جميعا على البنود التالية:

١) الدفاع عن الدين والوطن والشرف إلى الموت.
٢) عدم إثارة الضغائن الداخلية، واجتناب الثارات القديمة مهما كانت الظروف والملابسات.
٣) الالتزام بتنفيذ الأحكام الشرعية.[٣٢]

ثم تفرع عن هذا المجلس الرئيسي مجالس أخرى فرعية لكل قبيلة، تتمثل مهمتها حول عمليات التجنيد داخل القبيلة وتنظيم المقاتلين وتدريبهم وتموينهم...الخ. كما قام محمد بن عبد الكريم بتقسيم المشاة، إلى مجموعات صغيرة، بحيث تتألف كل مجموعة من ١٢ رجلا، وتملك ما يكفيها من الذخائر والأطعمة ما يكفيها لتنفيذ العمليات العسكرية عدة أيام متواصلة، وما يمكنها من الحفاظ على عامل الحركة والسرعة أثناء تنفيذ الإغارات والكمائن.[٣٣]

إلى هذه اللحظة، قبل انطلاق معركة أدهار أبران وغزوات أنوال، لم يكن السكان الريفيون على ثقة كبيرة بالخطابي، بل كان كثير منهم يتشكّك في صدقه ويتخوّف من دعوته، إلا من اتبعه من بعض رجال القبائل القريبة من بني ورياغل. ويعود ذلك لعدة أسباب، يأتي في أولها انتشار ظاهرة الزعامة المزيفة في الريف، فقد ادعى سابقا العديد من الرجال أحقيّتهم في زعامة المغرب أمثال بو حمارة الذي مر ذكره، ومحمد بن الحسن السملاني،[٣٤] وعبد الملك محيي الدين،[٣٥] وقد كان كل هؤلاء كذّابين، فأوجد هذا ردود فعل سلبية عند الريفين تجاه أي زعيم

---

[٣٢] الدكتور علي الإدريسي: نفس المصدر السابق.

[٣٣] محمد علي داهش: كتاب دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر.

[٣٤] كان منسوبا لبو حمارة، وقدم له خدمات جليلة خلال تمرده. ثم قرر أن يؤسس دعوة لنفسه في جبالة سنة ١٩٠٢، حيث جمع حوله بعض القدوات الصوفية الخرفة، وجعلهم يصدقون أنه من سلالة ملكية وأنه أحق بالعرش. وكان يقنع اتباعه أن النصر سيكون من نصيبهم وأن القذائف والرصاص لن يؤثر فيهم، ويكون عليهم بردا وسلاما ببركات شيوخ الصوفية. وعندما شنت عليه الحكومة المغربية حملة في تطوان سنة ١٩٠٣، تفرق جمعه وانعدم ذكره وانسحب إلى الأخماس واختفى هناك.

[٣٥] هو عبد المالك بن محي الدين بن عبد القادر الجزائري، تكون تكوينا إسلاميا على يد والده، قاوم الاستعمار الفرنسي بالجنوب الجزائري في عهد الثائر بوعمامة، انتقل الى المغرب في العقد الأول من القرن العشرين. كانت حياته غير مستقرة، فقد عمل في خدمة الدولة المغربية، والدولة الفرنسية، والدولة الإسبانية، وادعى وقوفه بجانب ثوار الريف، كما ساند الثائر بوحمارة ضد

يظهر في الريف بعد ذلك. كما أنه كان قسم من سكان الريف في ذلك الوقت ينشر إشاعات مغرضة ضد الخطابي، ويتهمه بالتعامل مع الإسبان والخدمة لصالحهم، وذلك بحكم العلاقة القديمة التي كانت تجمع الأسرة الخطابية بالإسبان في مليلية.[٣٦]

سببت هذه العوامل ضعفا في عملية الحشد. لكن بمجرد بداية المعارك، وتحقيق الانتصارات المذهلة في أنوال وما بعدها، أثبت الخطابي جدارته، واتسعت شهرتُه، وتبيّنت للعامة مصداقيّتُه، **حتى أن قبائل الريف الغربي والأوسط اجتمعت في أجدير بتاريخ ١٨ سبتمبر/أيلول ١٩٢١، واختارته قائدا سياسيا للريف، بعد أن كان مجرد قائد عسكري، وأطلقت عليه لقب "الأمير"**. وقد تم هذا الاجتماع في غياب الخطابي وغياب أخيه امحمد وعمه عبد السلام، حيث كان كل واحد منهم في مهمة، وهو ما يدلّ على مصداقية هذا التعيين. بل إن محمد عندما علم بهذا، رفض رفضا قاطعا تولي المسؤولية، وتعكّر صفوه وحزن حزنا شديدا، وبقي صهره أزرقان[٣٧] يقنعه بتولي المنصب طيلة ثلاثة أيام، ولم يقبل الخطابي استلام المسؤولية إلا بعد أن قال له أزرقان: "ألا ترى أنهم اتفقوا على أن ترمي بنفسك للموت لصالح المسلمين".[٣٨] وبحسب السكيرج مؤلف كتاب الظل الوريف فقد ذكر الخطابي لمن اختاره أنه لم يقبل التعيين إلا امتثالا لأمرهم الذي أجمعوا عليه. غير أنه لا بد أن يكونوا على

ملك المغرب عبد العزيز، وحارب مع هذا الأخير ضد أخيه المولى عبد الحفيظ، ألقى عليه القبض بفاس في عهد المولى عبد الحفيظ، ثم أطلق سراحه بتدخل من الفرنسيين الذين عينوه نائبا لوزير الحرب المغربي، ثم قائدا للشرطة الدولية بطنجة.

تحالف عبد الملك الجزائري مع دول الوسط في الحرب العالمية الأولى، حيث حصل من الإمبراطورية العثمانية وألمانيا على أموال وعتاد، ووعود بإنشاء ولاية تابعة للعثمانيين تحت رايته فوق التراب المغربي مقابل الهجوم على مناطق الاحتلال الفرنسي بالمغرب، بمقاتلين معظمهم من الريفيين ينتمون الى مطالسة و بني توزين وكزناية ... الخ، ولقي مساندة من أبرز زعماء الريف كالحاج أعمار المطالسي، وعبد الكريم الخطابي (الأب) الذي كون معه حركة مشتركة تضم حوالي ٩٠ من أجود الفرسان الريفيين، وقد اتخذ في البداية كزناية كقاعدة لانطلاق مختلف حركاته ضد الفرنسيين، حيث الحق بهم خسائر فادحة، وقطع عنهم مرات كثيرة الطريق الرابط بين وجدة وتازة وفاس.

بعد استسلام دول الوسط سنة ١٩١٨، التحق عبد الملك بالإسبان في تطوان وبدأ يخطط لطعن محمد بن الكريم الخطابي من الخلف مقابل وعود من الإسبان بمنحه الاستقلال في الأراضي التي سينتزعها منه. ثم التحق بمليلية وكون ميلشيات رديفة هناك لتساند الاسبان في استرداد المناطق التي حررها الخطابي. قُتل خلال إحدى العمليات التي كان يشنها الثوار في بلدة ميضار، وذلك في ٧ أغسطس سنة ١٩٢٤، ودفن بتطوان.

[٣٦] محمد عربي المساري: محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن.

[٣٧] ولد سنة ١٨٩٣ في قبيلة بني ورياغل لعائلة أولاد الحاج، وهو صهر الخطابي متزوج بشقيقته، وكان صديقا مقربا جدا منه. عمل وزيرا للخراجية في دولة الريف إلى حين سقوطها. تم نفيه إلى مدينة الجديدة سنة ١٩٢٦، ثم نقل إلى طنجة سنة ١٩٥٦ حيث توفي ودفن.

[٣٨] محمد عربي المساري: نفس المصدر.

بال من أن إمارته ليست إمارة ملك، وإنما هي لاجتماع الكلمة، ولا يقبل من أحد أن يقابله بما تقابل به الملوك، وإنما هو واحد من المسلمين، وأنه يتعين أن يعاملوه طبق ما كان قبل الإمارة من غير زيادة في تعظيم منصبه الذي حل فيه. ونقل عن الخطابي أنه قال: "ولكن قضى علي حب وطني العزيز أن أضحي في سبيل مصلحته بكل عزيز حتى أنتشله من أيدي مفترسيه ومن المرض المقبل عليه"[٣٩]

كان الخطابي أثناء زعامته العسكرية ثم السياسية، يتمتع بحس قيادي فريد، حيث استطاع لأول مرة في تاريخ الريف حشد القبائل المتناحرة في بوتقة واحدة، وكان كلما انضمت له قبيلة جعل كبراءها ورموزها قادةً لها حتى لو كانوا فيما مضى مخالفين له، وكان يكلفهم بتنظيم رجال قبائلهم في سرايا مقاتلة، ويوصيهم نفس الوقت بالزهد والورع والتضحية والتواضع، ويمنعهم من الظلم والثأر وفرض المكوس على السكان. وهذا ما جعل معظم قبائل شمال المغرب -البربرية والعربية- تدين له بالولاء خلال سنوات الثورة، بداية من قبائل قلعية شرق الريف، مرورا ببني ورياغل وتمسمان وغمارة، وصولا إلى قبائل جبالة وقبائل أنجرة غرب الريف. **وقد جمع خطابه بين الثقافة القبلية والحضارة الإسلامية والحمية الوطنية والحضارة الغربية في مزيج فريد يدل على حنكته وقدرته القيادية ووعيه السياسي.**

لقد كانت المساجد منطلقه الأساسي، وكان كلامه مشبعا بالآيات والأحاديث وبالاستدلال بتاريخ غزوات الرسول في بداية أمره، والتعريض على النضال العربي الحاصل في مصر والعراق وفلسطين، وبالتبصير بمرامي الاستعمار الإسباني مذكرا بما فعلته إسبانيا مع المسلمين في الأندلس، إلى حد تشريدهم من ديارهم وفرض التخلي عن عقيدتهم. فكان يقول: "إن إسبانيا بعد طرد المسلمين من الأندلس، تلاحقهم في أراضيهم لتسلخهم عن دينهم قصد تنصيرهم. وليس عملها في الأندلس المسلمة بمجهول عندنا نحن الذين هاجر إلينا من تمكن من النجاة بدينه. فأنتم أنفسكم أبناء الأندلسيين كلا أو بعضا، وها هم تبعوكم إلى هنا".[٤٠] كثير من كلامه كان يدور حول ازدراء الطمع المادي. وكان يقول مثلا: تصوروا مذاق الشيء الذي تشتهونه كيف يكون في أفواهكم حلوا، وتذكروا كم يدوم ذلك المذاق، إنها بضع لحظات، ثم تصوروا كيف يكون مصير ذلك الشيء المشتهى بعد أن ينزل إلى المعدة. عليكم أن تفهموا أن لا قيمة للشيء الذي تشتهونه إلا أثناء لحظات قليلة. فهل يعيش الإنسان كل وقته عبدا لبضع لحظات؟ إنه بالانتصار على شهواتنا نحقق آدميتنا. بهذا نرتفع من مستوى البهيمة إلى مستوى الإنسان، أي الكائن المتمتع بالكرامة. وكان يبدأ الحديث وينهيه بالقول: إن كل بلاد الإسلام أصبحت في قبضة النصارى في الوقت الراهن (العقد العشرين من القرن العشرين)، ولم يبق خارج سيطرة الاحتلال من العالم الإسلامي إلا هذه الحفرة، يقصد الريف، فعلينا أن نعمل على منعهم من الاستيلاء على هذه الأرض، عسى ذلك يكون هو المنطلق لإخراج المستعمرين من جميع أرض الإسلام. إن ما أدعوكم إليه هو التحرر من الشهوة والنزوة والبهيمية. وحينما

---

[٣٩] أبو العباس أحمد السكيرج: الظل الوريف في محاربة الريف. (مذكرات محمد أزرقان)

[٤٠] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

تزهدون في الماديات والملذات العابرة ستحققون الانتصار الأول، وهو الانتصار على النفس. يجب أن نطهر أنفسنا.[٤١]

وكان دائما ما يذكّر القادة والجنود أنهم أمل الأمة الإسلامية في العالم أجمع، وأنهم قدوة الشعوب الإسلامية الأخرى المستضعفة تحت ظلم الاحتلال. وفي نفس الوقت، كان الخطابي يحرض رجال القبائل نحو جهاد الإسبان بعبارات الشرف والحمية ذات الطابع العشائري والوطني التي كانت تشعل الحماس في نفوس أتباعه وتحضهم على الصبر والعطاء، دون أن تحوي في مضمونها عصبية جاهلية مخالفة للإسلام.[٤٢]

---

[٤١] محمد عربي المساري: نفس المصدر.

[٤٢] جاء في تقارير الجنرال الفرنسي ليوطي التي تتحدث عن شخصية الخطابي أنه كان رجلا له مؤهلات قائد يفهم مزايا الحرب المنظمة على الطريقة العصرية. وتضمنت رسالته إلى حكومته بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٢٤ -وهي التي وجه فيها تحذيرا حاسما بشأن المخاطر المحدقة- فكرةً واضحة بشأن توجه ابن عبد الكريم إلى إنشاء دولة إسلامية مستقلة في الشمال، تتبع أنقرة (العثمانيين) والوطنية الإسلامية في إفريقيا الشمالية بما فيها مصر. وجاء في رسالة تالية في ٤ تموز/ يوليو من ١٩٢٥ موجهةً إلى أرستيد بريان، أن ابن عبد الكريم يستعمل بمهارة كبرى الرابطة الدينية من أجل الوصول إلى هدفه النابع قبل كل شيء من الشعور الوطني. وجاء له في تقرير للمكتب الفرنسي بتاريخ ٢٥/ ٨/ ١٩٢٥ قوله: إن ابن عبد الكريم ليس روغيا طامعا في العرش، ولا مهديا يتطلع إلى تجديد الدين، إنه وطني يروم تحرير بلاده، وينتفض ضد الغزو الأجنبي. والصورة العامة التي تتكرر في التقارير هي تلك التي تتحدث عن الخطابي كمتنور تقوم دعوته على تحديث العقليات. ومما يدل على ذلك أن الفقهاء في عهد الخطابي كانوا يرددون في الأسواق: ياعباد الله بالأمس كنتم متوحشين مثل البهائم، والآن كل واحد يمشي مطمئنا في طول البلاد وعرضها، بفضل السي محمد. ولم يبق لكم إلا أن تتعلموا العلوم التي يعرفها النصارى من أجل أن تغلبوهم.

والخلاصة أن ابن عبد الكريم بدا للفرنسيين رجلا يستعمل خطابات متعددة. فهو يكلم كل نوعية من مخاطبيه بلغة خاصة، وتختلف لغته مع صحافي فرنسي عنها مع واحد من الأعيان المغاربة، أو مع أحمد بن الجيلالي من علماء القرويين. ونظن أن ابن عبد الكريم قد ظهر في عين ليوطي مزيجا من الكمالية والجامعة الإسلامية والبولشفية.

الفصل الرابع: التوسّع الثّوري في الجبهة الشرقيّة.

"إن حرب العصابات هي شكل النضال الذي تتبناه جماهير بلد ضعيف سيء التجهيز، للصراع ضد جيش معتد يمتلك تجهيزاً متفوقاً ومستعملاً تقنية أفضل. إنه الأسلوب الملائم للثورة. ويعتمد ثوار العصابات على بطولتهم من أجل الانتصار على الأسلحة الحديثة، وتجنب العدو عندما يكون الأقوى، ومهاجمته عندما يكون الأضعف. إنهم يتفرقون تارة ويجتمعون تارة أخرى، وذلك لاستنزافه. ولكنهم يمتلكون دائماً إرادة القتال في كل مكان، بحيث يجد العدو نفسه أينما ذهب. غارقاً في بحر من البشر المسلحين، الذين يهاجمون، ويدمرون معنوياته وينهكون قواه".[٤٣]

الجنرال فونغوين جياب[٤٤]

خلال العقد الثاني من القرن العشرين، كانت القوات الإسبانية تتقدم نحو الريف على محورين؛ من الجانب الشرقي للريف نزولا من مليلية، وقد كان على رأس هذه القوات الجنرال سلفستري، وكانت تتألف من ٢٦ ألف جندي مُجهزين بالأسلحة والمدفعية،[٤٥] ففي ١٩١٦ كان قد تم إخضاع قبائل القلعية وبني بو يحيى جنوبا، وفي ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٠ تم إخضاع قبيلة بني أوليشك وبعدها قبيلة بني السعيد. وفي يناير/كانون الثاني ١٩٢١ تم الاستيلاء على سيدي احساين ورأس أفراو. وفي ١٥ يناير/كانون الثاني تم الاستيلاء على موقع أنوال بعد تحصين الإسبان لمواقعهم المتواجدة بكل من بن طيب والدريوش، وكان موقع أنوال وقتها عبارة عن قرية مهجورة تتواجد بقبيلة بني أوليشك متاخمة لجبال تمسمان وقريبة من مرتفعات بني السعيد، يبعد الموقع عن بلدة بن طيب ١٦ كلم، وعن بلدة الدريوش ٣٥ كلم، ويفصله عن مليلية ١٠٦ كلم من الطرق الجبلية والوعرة. وفي ١٢ مارس/آذار تم الاستيلاء على موقع سيدي إدريس الواقع عند مصب وادي أمقران.[٤٦] وقد وصلت الحملة في ١ يونيو/حزيران ١٩٢١ ما بعد جبال البو دينار وتحديدا إلى قمة أدهار أبران.[٤٧] كما وصل عدد المراكز

---

[٤٣] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

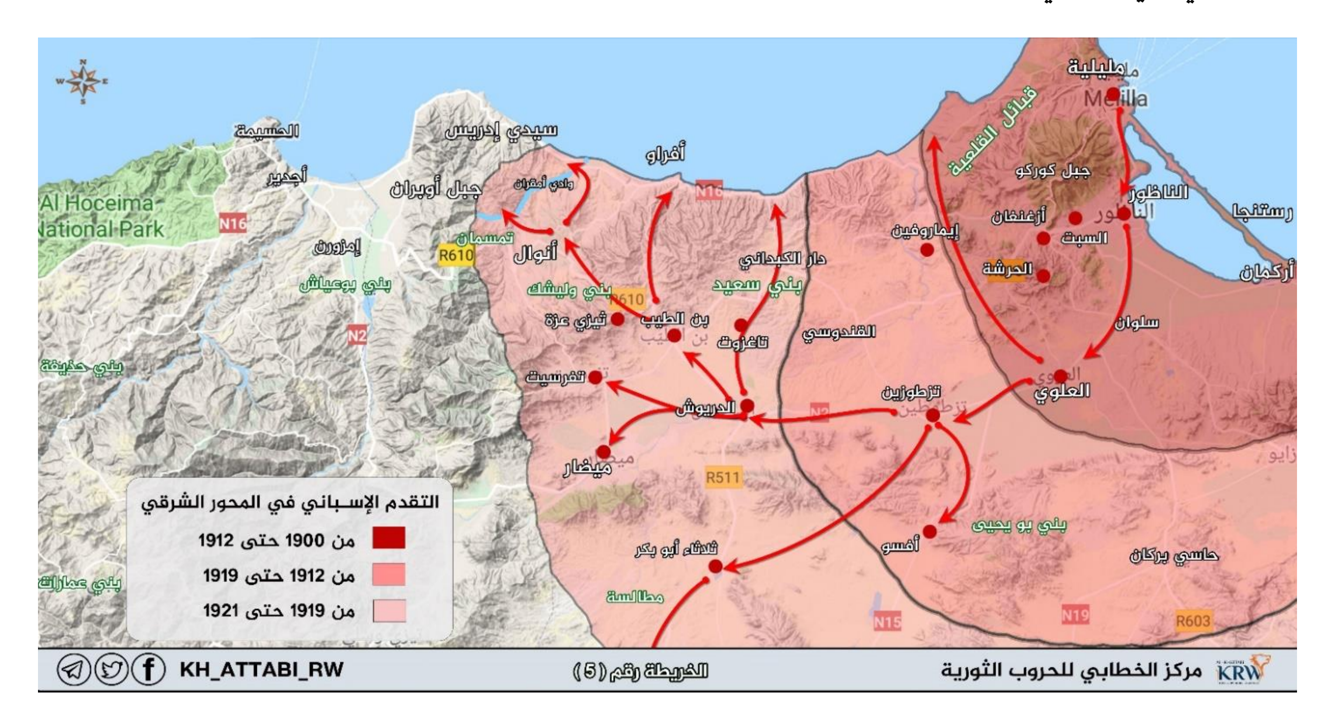
[٤٤] الجنرال الفيتنامي الشيوعي فونغوين جياب (١٩١١ – ٢٠١٣م) هو عسكري وسياسي فيتنامي، يُعَد من أهم شخصيات حرب فيتنام، قاد حرب عصابات ضد فرنسا حتى استطاع الانتصار في معركة [ديان بيان فو] التي هزمت فيها فرنسا في ٧ يونيو سنة ١٩٥٤ واضطرت للانسحاب، ووضع اتفاقية لتقسيم فيتنام إلى قسم شمالي شيوعي وقسم جنوبي ديموقراطي، ثم قاد حرب عصابات ضد أمريكا حتى استطاع هزيمتهم وتوحيد فيتنام مرةً أخرى عام ١٩٧٥م، وبعد الانتصار أصبح وزير الدفاع في جمهورية فيتنام الشعبية.

[٤٥] جاء في بعض المصادر الأجنبية أن هذه القوات كانت مكونة من: ١٣ ألف جندي مشاة إسبانية، وألف فارس، و٣ آلاف مدفعي، و١،٥٠٠ من سلاح الهندسة، و١٢٠٠ عامل مخازن، ٦٠٠ طاقم طبي، و٥٣٠٠ جندي محلي.

[٤٦] مقال عن معركة أنوال للدكتور عمر المعلم رئيس جمعية ذاكرة الريف.

[٤٧] الجدير بالذكر أن التقدم الإسباني شرقا وغربا لم يكن يعتمد فقط على القوة العسكرية، بل كان يعمل بشكل فعال في المجال الاستخباري، وذلك بهدف صناعة العملاء وتجنيد الجواسيس لبث الإشاعات وتثبيط العزائم وتفكيك القبائل الريفية من

العسكرية التي أنشأها سلفستري إلى حدود ٢٠٠ مركزا. وكان الهدف الأساسي لهذه الحملة هو احتلال أجدير مناطق بني ورياغل التي أصبحت سنة ١٩٢٠ تمثل منطلق المقاومة والتمرد ضد الإسبان.



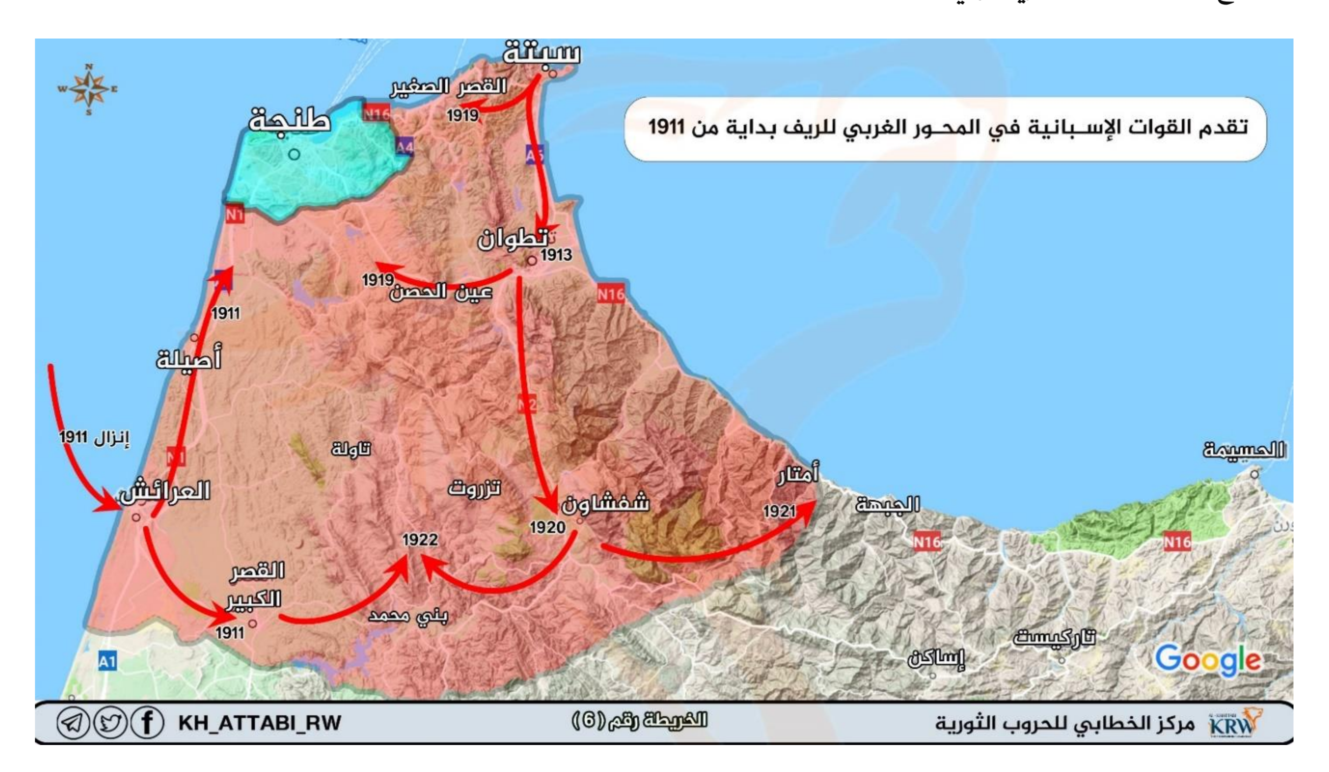
بينما كان المحور الثاني للحملة مسلطا على الجانب الغربي من الريف، وقد خصص الإسبان لهذا المحور ٣٨ ألف جندي، وضعوا على رأسهم الجنرال بيرينغير "المقيم العام لإسبانيا في المغرب وقتها"[٤٨]، وقد استطاع تحقيق إنزال بحري ناجح في منطقة العرائش سنة ١٩١١ على غرار الإنزال الذي قام به الفرنسيون في الدار البيضاء، وتوجه في نفس السنة من العرائش نحو أصيلة وصولا إلى طنجة، ونحو القصر الكبير. كما تمكن من الزحف من سبتة حتى تطوان في فبراير/شباط ١٩١٣، واحتلالِ مناطق متقدمة في بلدة شفشاون أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٠،[٤٩] وتازروت في ماي ١٩٢٢. وتوجه أيضا من سبتة غربا، فاستطاع احتلال البيوت سنة ١٩١٦ والقصر الصغير سنة

الداخل، وبحسب بعض الباحثين فإنه داخل قبيلتي إبقوين وأيث ورياغل لوحدهما كان عدد عملاء إسبانيا المهمين يتجاوز الأربعين، ٢٥ منهم كانوا يتقاضون رواتب شهرية قيمتها ٧٥ بزيتا.

[٤٨] عسكري إسباني، ولد بكوبا سنة ١٨٧٣ وتوفي بمدريد سنة ١٩٥٣، تكون في الأكاديمية الإسبانية العامة للجيش، عين جنرالا أثناء مشاركته في الحملة الإسبانية على ريف الريفيين سنة ١٩٠٩، ثم مديرا عاما للقوات الأهلية بمليلية (الريكولاريس والشرطة الأهلية)، تعرضت القوات الإسبانية في عهده لأسوأ كارثة في تاريخها (معارك أنوال)، ثم استقال سنة ١٩٢٢ بسبب فشله المتكرر في جبالة، وتولى الجنرال بورجيت مهامه ثم الجنرال ايشاغ.

[٤٩] جاء في بعض المصادر الأجنبية أن الفضل الكبير في سقوط شفشاون يعود للعسكري المستعرب العقيد ألبرتو كاسترو غيرونا. فقد دخل غيرونا المدينة متنكرا في هيئة بائع فحم، واستطاع رشوة الأعيان المحلية هناك أو تهديدهم للاستسلام.

١٩١٩. وكانت القوات الإسبانية طيلة هذا التقدم تصطدم بمقاومة شرسة من قبل قبائل جبالة التي كان بعضها يخضع لقيادة أحمد الريسوني.[٥٠]



لم تكن المقاومة في الريف الغربي منظمة، إذ كانت عبارة عن بعض المناوشات والمعارك المتفرقة مع بعض رجالات القبائل، وعلى العكس من ذلك كان الوضع في الريف الشرقي، فقد تمكن الخطابي من استباق الإسبان إلى تمسمان، وفيها أسس معسكرا مركزيا في جبل القامة تواجد فيه أزيد من ٥٠٠ مجاهدا ينتسبون إلى بني ورياغل وبقوين وبني توزين وتمسمان، وكان ذلك في أواخر شهر يناير/كانون الثاني ١٩٢١. كما تمكن الثوار من إنشاء أربعة مراكز فرعية أخرى، وكانت في مناطق: آزرو جيدار، سوق الاثنين، سيدي شعيب، وأكروماوس. وذلك لمراقبة تحركات الإسبان على طول الخط الرابط بين أنوال وسيدي ادريس، وكان الثوار يعتزمون إنشاء معسكر

---

[٥٠] الشريف أحمد الريسوني، من زاوية تازورت، ولد سنة ١٨٧٠ من أسرة ملتزمة ومجاهدة، وكان إلى أمد قريب حاكم منطقة جبالة وغمارة، ورمز المقاومة فيها ضد الاحتلال، استقبال الريسوني لأورتيغا جاء بعد توقيعه معاهدة سلام مع إسبانيا في ماي ١٩٢٢، لتبدأ مرحلة من التعاون بينهما، طالب بتوجيه ضربات عسكرية جوية لقوات الخطابي. في يناير/كانون الثاني ١٩٢٥، بادر الشريف الريسوني بنفسه إلى شن هجمات ضد قوات أمير الريف، فرد الأخير بحملة حاسمة انتهت باستسلام الريسوني وأسره، ثم وفاته في السجن.

ولعل الريسوني انقلب على الثورة رغم جهاده القديم الذي بدأ منذ ١٩٠٠ خوفا على مكانته السلطوية أن يخسرها أمام الخطابي الذي ارتفع سهمه في كل المغرب. رغم أن الخطابي قبل البدء في حربه، طلب منه أكثر من مرة التعاون والتحالف ضد الإسبان، ولم يكن يردّ الأخير إلا بالمراوغة والرفض.

بجبل أدهار أوبران الذي يبعد عن القامة ٥ كلم بهدف التحكم في وادي أمقران، غير أن الإسبان سبقوهم إليه كما مر معنا.[٥١]

كانت القوات الإسبانية خلال زحفها، تسيطر على التلال المرتفعة والجبال الحاكمة. وقبل أن تتصل هذه الحملات ببعضها البعض محتلة عمق الريف، أطلق الخطابي على القوات المتقدمة من الشرق سلسلة مع العمليات الهجومية الفتاكة أدت في الأخير إلى انسحاب الاحتلال نحو مراكزه الساحلية القديمة وإعادة تحرير الريف من جديد. وكان من أول المعارك التي خاضها ثوار الريف ضد قوات الاحتلال:

- معركة أدهار أبران
- معركة سيدي إدريس
- معركة إغريبن
- معركة أنوال.[٥٢]

أولا: معركة أدهار أبران (١ يونيو/حزيران ١٩٢١).

سميت معركة "أدهار أبران" أو معركة "ظهر أوبران" نسبة إلى جبل أبران، وهو جبل استراتيجي يقع في منطقة الريف شمال المغرب، ويبعد عن بلدة أنوال قرابة ٩ كلم، يشرف الجبل على وادي "المكش" المنحدر من وادي "أكراmواس"، ويسيطر على الممر المؤدي إلى سهل وادي النوكور ووادي غيس لبني ورياغل. وقد وقعت هذه المعركة بتاريخ ١ يونيو/حزيران ١٩٢١، وكانت الأولى في مسار معارك التحرير التي قادها الخطابي.

كان سلفستري يريد السيطرة على مناطق بني ورياغل لأنها تمثل مركز الريف ورمز المقاومة فيه، فأعدّ للسيطرة على وادي أمقران مع نهاية شهر أغسطس/آب أو بداية سبتمبر/أيلول، ثم الجبال التي تليه نحو بني ورياغل. لكن بسبب تقدم الثوار وبداية توزّعهم في المعسكرات على طول المرتفعات الإستراتيجية، وكذلك نتيجة الغرور الذي اتسم به سلفستري، جعل هذا الأخير يقرر الهجوم سريعا، خصوصا بعد تشجيعه من قبل بعض أعيان تمسمان الذين رأوا أن الفرصة سانحة لاحتلال جبل أوبران، بعد أن تأكدوا من مغادرة الخطابي وأغلب المجاهدين معسكرَ القامة للحضور في اجتماع انعقد بأربعاء سيدي بوحفاف.

---

[٥١] الدكتور عمر المعلم: نفس المصدر السابق.

[٥٢] قد يطلق بعض المؤرخين على هذه المعارك الثلاثة اسما واحدا؛ "معركة أنوال"، وذلك يعود لعدة أسباب، لعل أبرزها حصول هذه المعارك خلال فترات زمنية متلاحقة لا يفصل بينها سوى أيام قليلة، وتقارب جغرافية البلدات التي وقعت فيها المعارك. غير أن السبب الأهم على الإطلاق هو انفراط السلسلة وانهيار جميع المعسكرات الاسبانية بعد سقوط المعسكر الرئيسي في أنوال.

وفي واحد يونيو/حزيران، الواحدة صباحا، انطلقت القوات الإسبانية من أنوال متجهة نحو جبل أبران في محاولة احتلاله، ورغم أن المصادر قد اختلفت في تعداد القوات الإسبانية المشاركة في العملية، إلا أننا نرجح وجود ما يقارب الألفين جندي و٤٨٥ دابة محمّلة بالعتاد والغذاء والمدافع، كان على رأسهم "القائد فييار"[٥٣] الذي عينه الجنرال سلفستري بنفسه. انطلق فييار بشكل سري وفي جنح الظلام نحو الجبل الاستراتيجي، فوصل إلى القمة فجرا دون أن يواجه أية مقاومة، وهناك بدأ مباشرة في تحصين الموقع بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة، لتكون خطوطا دفاعية ضد هجمات الريفيين المتوقع حدوثها. وظن سلفستري أنه بسيطرته على هذه القمة المشرفة جغرافيا فإنه سيخضع قبيلة تمسمان بالكامل، ثم سيتمكن من خلالها من إخضاع قبيلة بني ورياغل.

وبعد وصوله للقمة، ترك فييار عليها قرابة الـ ٤٠٠ جندي تحت قيادة القبطان سالا فرانكا[٥٤]، وذلك لتقوم هذه القوات بمواصلة تحصين الموقع بالأكياس الرملية وأسوار الحجارة والأسلاك الشائكة، وقد كان هؤلاء الجنود مزودين بأربعة مدافع، وكان جُلّهم من المليشيات القبلية والمرتزقة المجمعين من تمسمان وما حولها، وكان يطلق عليهم "الشرطة الأهلية" و"حركة تمسمان"، ولم يكن بينهم من الإسبان إلا القليل من الضباط المشرفين، ثم عاد الباقون إلى المركز العام في أنوال، وذلك في الساعة الحادية عشر صباحا من نفس اليوم.

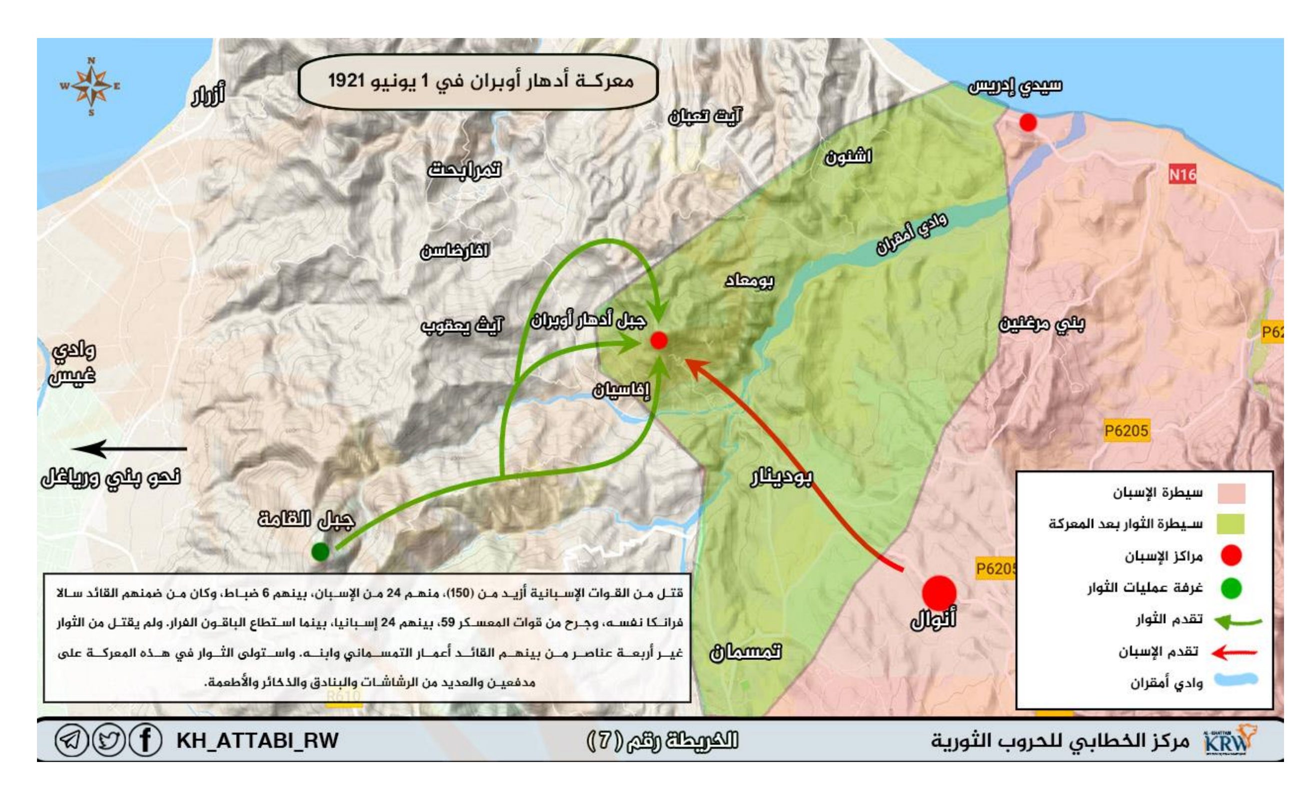
كان ظهور الإسبان على قمة أبران مفاجئا للمجاهدين، لكنه لم يربكهم، بل سارعوا إلى إعلان تواجد العدو فوق أبران، وبسرعة فائقة تطوع للهجوم على أبران قرابة الـ ٥٠٠ رجلا ينتمون إلى قبيلة تمسمان وقبيلة بني ورياغل وقبائل أخرى، وكان على رأسهم المجاهد "أعمار التمسماني"[٥٥] وابنه، ولم يكن الخطابي بينهم في وقت الحادثة. توزع المجاهدون الريفيون على ثلاث مجموعات، تمركزت الأولى في المرتفعات غرب أدهار أوبران (بني يعقوب)، وتمركزت الثانية شماله، لكي تغطيا بنيرانهما على المجموعة الثالثة التي ستشن الهجوم من الشرق (إفاسيان)، وقد تسللت المجموعات الثلاث نحو مواقعها قريبا من جبل أوبران دون أن تثير الانتباه، ثم باشر بعض المجاهدين بالانغماس داخل المعسكر بعد الثالثة زوالا. أي بعد أن انسحبت معظم القوات الإسبانية إلى مركزها العام بأنوال، ومع انغماس المجموعة الأولى، اضطربت القوات داخل المعسكر، مما مهد الأجواء للهجوم من الشمال والغرب.

---

[٥٣] قائد عسكري إسباني، كان مكلفا بالأراضي الواقعة على نهر كرط، كما كان مسؤولا على الشرطة الأهلية. احتل أبران، ثم انسحب منه، إلى أنوال.

[٥٤] هو خوان سالا فرانكا، قائد في الجيش الاسباني، التحق بقيادة مليلية سنة ١٩١١، شارك في عمليات التوسع الإسباني بالريف، وفي معركة أدهار أبران كلف بحراسة المعسكر الإسباني، وقد قتل في المعركة.

[٥٥] أحد القادة في قبيلة تمسمان الريفية الأمازيغية التي كان لها دور بارز في النضال الريفي إلى جانب قبيلة الخطابي "ورياغل". وقد استشهد أعمار وابنه في هذه المعركة.



أحاط الثوار بالمعسكر، وانقضوا عليه من كل الجهات. وعندما فشلت الشرطة الأهلية وحركة تمسمان في صد الهجوم، قرر جل جنودهم الانقلاب على الإسبان والقتال بجانب المجاهدين. وأثناء المعركة، ومع تركيز الثوار نيرانهم على قمة الجبل حيث تتمركز قوات العدو، ومع تمرد العديد من عناصر المليشيات الرديفة، فقد القائد الاسباني سالا فرانكا سيطرته على جنوده، وتحت ظل زخم الهجوم الثوري، فشل فشلا ذريعا في محاولة إعادة تنظيم قواته، فتعرض معسكره للإبادة، وانتهت المعركة لصالح الثوار بعد ساعتين من الاشتباك. حيث قتل من القوات الإسبانية أزيد من (١٥٠)، منهم ٢٤ من الإسبان، بينهم ٦ ضباط، وكان من ضمنهم القائد سالا فرانكا نفسه، وجرح من قوات المعسكر ٥٩، بينهم ٢٤ إسبانيا، بينما استطاع الباقون الفرار. ولم يقتل من الثوار غير أربعة عناصر من بينهم القائد أعمار التمسماني وابنه. وبحسب التقرير الذي أعده سلفستري في ٨ يونيو/حزيران ١٩٢١، فإن الثوار قد استطاعوا اغتنام: أربعة مدافع، و٣٠٠ بندقية، و٦٠ ألف خرطوشة، و٣٦٠ قنبلة مدفع، و١٢ ألف ريال إسباني، أي ما يعادل ٦٠ ألف بزيتا، إضافة إلى عدد من الخيم والأدوية والأغذية. فكان دحر القوات الإسبانية عن قمة جبل أوبران نصرا فريدا من نوعه، وسببا في رفع معنويات الثوار والسكان وإشعال حماسهم.

ويذكر البو عياشي في كتابه أن نساء قبيلة تمسمان شاركن في هذه المعركة، وكان لدورهم أثر كبير في ارتفاع معنويات الثوار، حيث كنّ يعتلين القمم والتلال المطلة على ميدان المعركة، ويهزجن تشجيعا للمجاهدين، وقد خلّدن بعد ذلك هذه المعركة بأهازيجهن الغنائية المحلية.

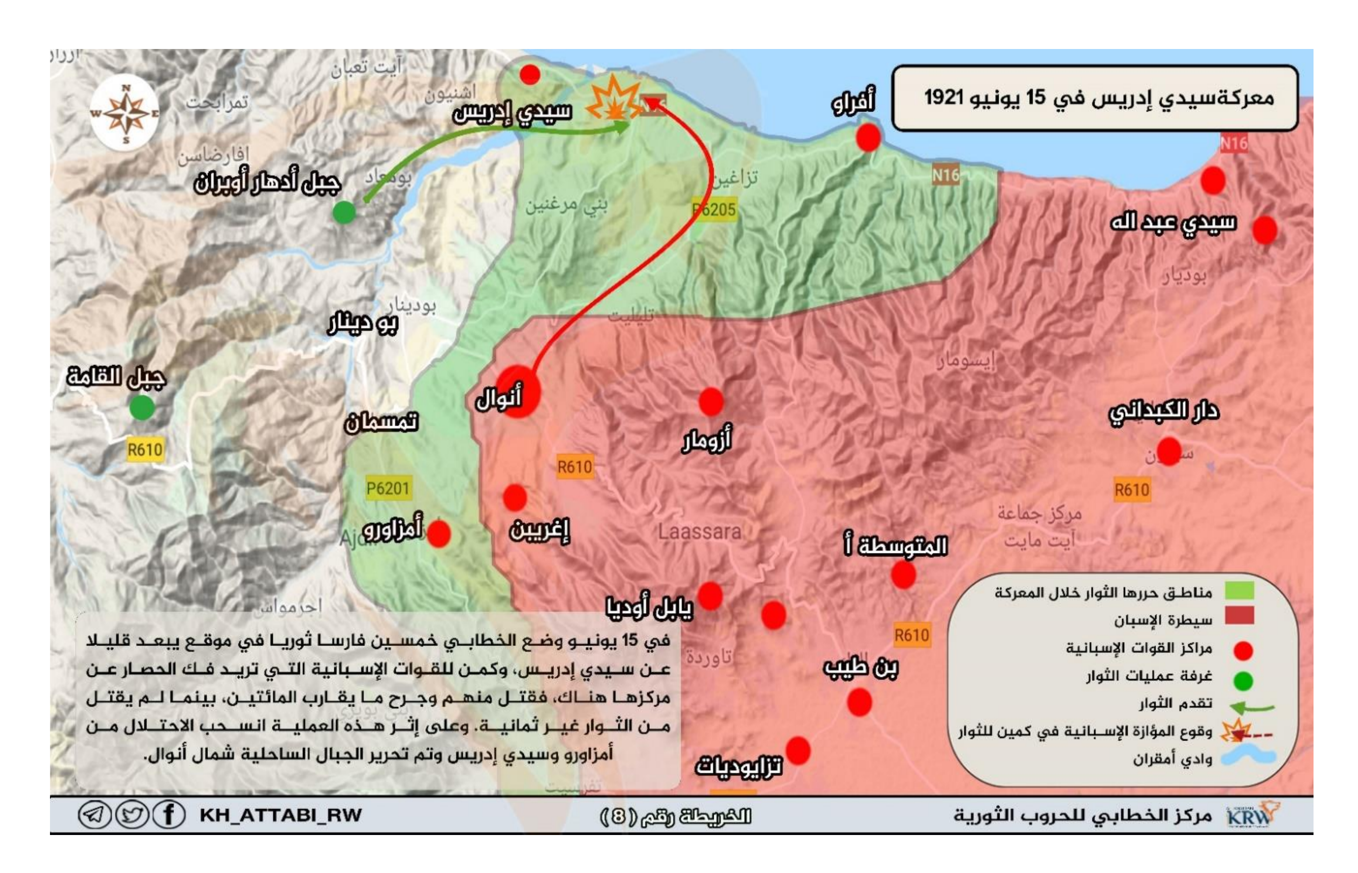
ثانيا: معركة سيدي إدريس (١٥ يونيو/حزيران ١٩٢١).

بتحرير قمة أدهار أوبران، انكشف طريق امداد القوات المتمركزة في شاطئ سيدي إدريس. وفي اليوم التالي مباشرة، ٢ يونيو/حزيران ١٩٢١، كان الثوار يقودهم الحماس، فشنوا إغارة على مواقع الإسبان في سيدي إدريس، غير أن العملية لم تكلل بالنجاح، ووقعت بعض الخسائر في صفوف الثوار بسبب القصف المدفعي المسلط من البارجات البحرية والطائرات الإسبانية.

تذهب معظم المراجع التي تطرقت إلى معارك أدهار أوبران وسيدي إدريس الأولى أن الأمير محمد لم يشارك فيها بشكل شخصي، لكونه كان لايزال يمهد ويوحد صفوف القبائل الريفية، خاصة التي لم تشارك في مؤتمر جبل القامة. لكن بمجرد إشاعة خبر انتصار الريفيين في جبل أوبران، بدأت القبائل تتوافد على الخطابي، وبذلك اعتبرت معركة أدهار أوبران وسيدي إدريس الشرارة الأولى لحرب الريف، ونقطة انطلاقتها.. وقيل أن عدد المجاهدين قد وصل في هذه المرحلة بين ٣ و٤ آلاف مقاتل.

أعاد الخطابي التخطيط لسيدي إدريس، فبدأ في قطع طرق إمداده عن المركز الرئيسي في أنوال، وفي ١٥ يونيو/حزيران وضع خمسين فارسا ثوريا في موقع يبعد قليلا عن مركز سيدي إدريس الإسباني، فقاموا بتمويه أنفسهم بين الأعشاب والأحجار، وكمنوا للقوات الإسبانية التي تريد فك الحصار عن سيدي إدريس، وهناك قتل منهم وجرح ما يقارب المائتين، بينما لم يقتل من الثوار غير ثمانية. وعلى إثر هذه العملية انسحب الاحتلال من سيدي إدريس، وتم تحرير الجبال الساحلية شمال أنوال.

كان الهدف الرئيسي لسلفستري هو تأمين مراكزه الكبرى الواقعة على الطرق الرئيسية، من خلال بعث مراكز فرعية على القمم الجبلية شمالا وجنوبا، ومن أجل تأمين مركز أنوال كان جبل أدهار اوبران هو خط الدفاع الأمامي، وكان ساحل سيدي إدريس خط الدفاع الشمالي، بينما كانت بلدة امزورن خط الدفاع الجنوبي. أما بالنسبة للخطابي فقد كان يعمل على إسقاط هذه المراكز الفرعية لتمهيد الطريق نحو تحرير أنوال، وكانت سياسته لتحقيق ذلك متمثلة في قطع طرق الإمداد عن هذه المراكز الفرعية بالكمائن المحكمة والاستمرار في مناوشتها حتى تصل الحامية فيها إلى مرحلة من الانهيار تمهد لتحرير المركز بالكامل عبر إغارة خاطفة، أو حتى تصل الحامية إلى قناعة بوجوب الخروج والانسحاب، حيث ستكون كمائن الثوار في انتظارها.



ثالثا: معركة إغريبن (يوليو/تموز ١٩٢١).

بعد تحرير المناطق القريبة من أنوال شمالا (سيدي إدريس) وغربا (قمة أوبران)، لم يبق غير الجهة الجنوبية. وفي عملية إعادة تموضع دفاعي، أواخر شهر يونيو/حزيران، انسحبت القوات الإسبانية من بلدة أمزاورو. فعبرت مجموعة من المجاهدين وادي أمقران، وتمركزت في أمزاورو. وهناك تم نقل غرفة العمليات الثورية التي كانت في جبل القامة لتصبح أمزاورو المركز الجديد للثوار. حاول الإسبان منع الثوار من التمركز في أمزاورو بالقصف المدفعي، إلا أن المجاهدين عمدوا إلى حفر الخنادق ليلا والتراجع نهارا، إلى أن أصبح المكان موقعا محصنا بشكل جيد.

لمراقبة تحركات المجاهدين داخل أمزاورو كان الإسبان يرسلون كوكبة مكونة من ٥٠ جنديا إلى مكان قريب من ضريح سيدي إبراهيم الواقع بين أمزاورو وأنوال، وتمكث هذه الكوكبة النهار كله في هذا الموقع وتعود إلى أنوال ليلا. لكن في ١٥ يونيو/حزيران، أغار الثوار على هذه القوات، واشتبكوا معها في معركة استمرت أكثر من عشر ساعات، قتل وجرح خلالها من قوات الاحتلال قرابة الـ ٢٠٠ (من الدورية والقوات التي أرسلت لمؤازرتها).

بالسيطرة على موقع سيدي ابراهيم، شرعت المقاومة في تعبئة المجاهدين ونشر الوعي وسطهم، وبدأ العمل السياسي والاتصالات السرية مع المرتزقة الريفيين في جيش الإسبان. كما بدؤوا في تنفيذ عمليات الاستطلاع بالقوة (يهاجمون ويتراجعون) لمعرفة قدرات العدو وحجم قواته وفعاليتها. ويوم ١٧ يونيو/حزيران قام الاحتلال

بالسيطرة على موقع "إغريبن" المتواجد بتمسمان والذي يبعد عن أنوال حوالي ٦ كلم،[٥٦] ويحمي الطريق الرابطة بين أنوال وبن الطيب. وتم إنشاء مركز فوقه، تواجد فيه ٥٠٠ جنديا، يقودهم المدعو "بنيتيز"، معهم بطارية مدفعية، وفصيلة من الرشاشات، ومفرزة من الشرطة المحلية.

بعيد احتلاله مباشرة حاول المجاهدون تحريره من خلال هجوم بمجموعتين، الأولى انطلقت من سيدي بو يعقوب والثانية من مرتفعات تيزي عزة شمال بن الطيب، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، مما حذا بهم إلى استغلال نقطة ضعف هذا الموقع، وهي ابتعاده عن مصدر الماء، فالعين القريبة منه وهي عين سيدي عبد الرحمان تبعد عنه حوالي ٤ كلم، فتواجد المجاهدين بموقع سيدي ابراهيم مكنهم من محاصرة هذه العين ومنع الإسبان من التزوّد بالماء.[٥٧]

قام الإسبان بعدة محاولات للاستيلاء على هذه العين لكن دون جدوى، ففي كل محاولة كانت تقع اشتباكات يخسر فيها الإسبان عددا هاما من الجند والذخيرة والأسلحة... بعد ذلك بدأ الدعم يصل من أنوال لفك الحصار عن إغريبن وتمكينها من الماء والمؤونة، لكن دون جدوى، فكل قافلة تأتي من أنوال يكون مصيرها تقريبا الهزيمة والتراجع.

وبعد العديد من المناوشات، عقد الخطابي مع الاسبان هدنة قصيرة الأمد. وقد كان الأمير يريد استغلال فترة الهدنة لتحصين الأماكن التي استرجعها حديثا من الاسبان، ولتجهيز قواته وطرق إمداده من أجل تحرير إغريبن بالكامل، "كانت تعميماتي للمجاهدين أنه يجب أن نقوم بتحصين جميع الأماكن بدلا من القيام بالهجومات الغير منظمة ضد المراكز الإسبانية، وهكذا قمنا بتحصين الأماكن المسترجعة الممتدة من سيدي إدريس على شاطئ البحر إلى تيزي عزة بالقرب من أنوال".[٥٨] وقد أمر الخطابي جنوده استغلال فترة الهدنة في حفر الخنادق قرب مركز "إغريبن" لإحكام الحصار حوله، وإصلاح الطريق الرابطة بين مركز "أمزاورو" و"إغريبن" لضمان الاتصال السهل والسريع بين المجاهدين.

ساهم في حصار إغريبن أزيد من ٧٠٠ مجاهدا تمترسوا في الخنادق، تواجدوا على كل الممرات التي يمكن أن يستغلها الإسبان لنجدة إغريبن، وقطعوا الامدادات بشكل كامل. وتكلف بالسيطرة على وادي الحمام الذي يفصل بين أنوال وإغريبن ١٠٠ مقاتل مشهود لهم بالبسالة والشجاعة والتسديد الدقيق. دام حصار إغريبن

---

[٥٦] يبعد جبل إغريبن عن تمسمان وعن أنوال قرابة الخمسة كيلومترات، وتحيط به مرتفعات حادة ومنعرجات شديدة تفصل بينهما خنادق عميقة، وهو مكان حرص الإسبان على احتلاله بسبب أهمية الجغرافية وقربه من أنوال حيث المركز الرئيسي للقوات الإسبانية في المنطقة.

[٥٧] الدكتور عمر المعلم: نفس المصدر السابق.

[٥٨] شوقي عطاء الله الجمل (تاريخ شمال وغرب افريقيا الحديث والمعاصر).

خمسة أيام، ابتدأ في ١٧ يوليو/تموز وانتهى في ٢١ يوليو/تموز. ويوم ٢٠ يوليو/تموز وصل الخطابي بنفسه إلى جبهة إغريبن لتفقد المجاهدين في خنادقهم ورفع معنوياتهم وحثهم على الصمود وعدم التراجع، وتبيان أهمية الانتصار في هذه المعركة. كما سيطلب من "بينيتز" الاستسلام والانسحاب من إغريبن، لكن هذا الأخير لم يقبل بالانسحاب منتظرا التعزيزات من أنوال لفك الحصار.

بعد انقضاء الهدنة، كان الثوار قد أعدوا خنادق عديدة على طول الطرق المؤدية إلى إغريبن، كما أعدوا مواقع حصينة في المرتفعات المشرفة على طريق الإمداد، وخاصة في تل الأشجار وجبل تمسمان. كما قام الريفيون بإغراق أرض أنوال بالماء من عين عبد الرحمن لعرقلة التعزيزات. ومنذ ١٩ يونيو/حزيران، لم تتوقف أبدا المناوشات على القوات المحاصرة، مما أبقاها في استنفار ويقظة متواصلة، وأنهك قوتها واستنزف رجالها.[٥٩]

ونتيجة هذا الحصار، ونتيجة المناوشات المتواصلة، نفذت المؤن والذخائر من القوات المتمركزة في إغريبن، وسيطر على قلوب جنودها الرعب والفزع، وأصابهم الانهيار. يتحدث عن هذا الرقيب دافيلا (Davila) [٦٠] فيقول: "إننا لم نجد الماء مما جعلنا نمتص كل شيء من أجل الماء، لقد شربنا ماء الفلفل والطماطم، بل أكثر من ذلك، شربنا العطور والمداد، وفي الأخير شربنا بولنا بعد أن وضعنا فيه السكر"،[٦١] ويعلق كذلك العقيد لويس كاسادو (Casado) [٦٢] الذي سقط في يد الريفيين وانتهي أسيرا عند الخطابي ثم أطلق سراحه: "لم يكن الجوع مهمّا، ما كان يقتلنا هو العطش".[٦٣]

وفي صبيحة يوم ٢٠ يوليو/تموز ترأس سلفستري بمعية "نافارو" هجوما استعملا فيه ثلاثة آلاف جندي، وبمجرد انطلاقه، كان الخطابي ورفاقه قد خططوا مسبقا لنصب كمين محكم لهذه القوات، حيث أغرقوا الطريق في سهل أنوال بالماء لعدة أيام، وهناك وبمجرد وصول الإسبان، غرقت المدافع والفرسان في الوحل، فانقض عليهم الثوار من مختلف جبال تمسمان بالأسلحة التي غنموها من معركة أدهار أوبران، وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة.

دامت المعركة أزيد من ٨ ساعات، ومع تكاثف الرصاص الذي يطلقه المجاهدون من خنادقهم سيضطر هذا الجيش إلى التراجع صوب أنوال بعد أن خلف العديد من الجرحى والقتلى وخسائر في المعدات... على إثر ذلك في

---

[٥٩] كان من الخطط التي استخدمها الثوار كما جاء في كتاب دراسات حول المغرب لمحمد علي داهش أنهم حفروا تحت الأسلاك الإسبانية ليصلوا إلى عمق المعسكر، وهناك في تلك الأنفاق وضعوا علبا محشوة بكبريت قنابل الطائرات التي لم تكن قد انفجرت، ثم قاموا بتفجيرها، مما سبب خسائر فادحة بين القوات الاسبانية وأصابها بالهلع وساهم في تفكيك دفاعاتها.

[٦٠] الرقيب دافيلا (Davila) ضابط في الجيش الإسباني شارك في معركة أنوال وتمكن من النجاة.

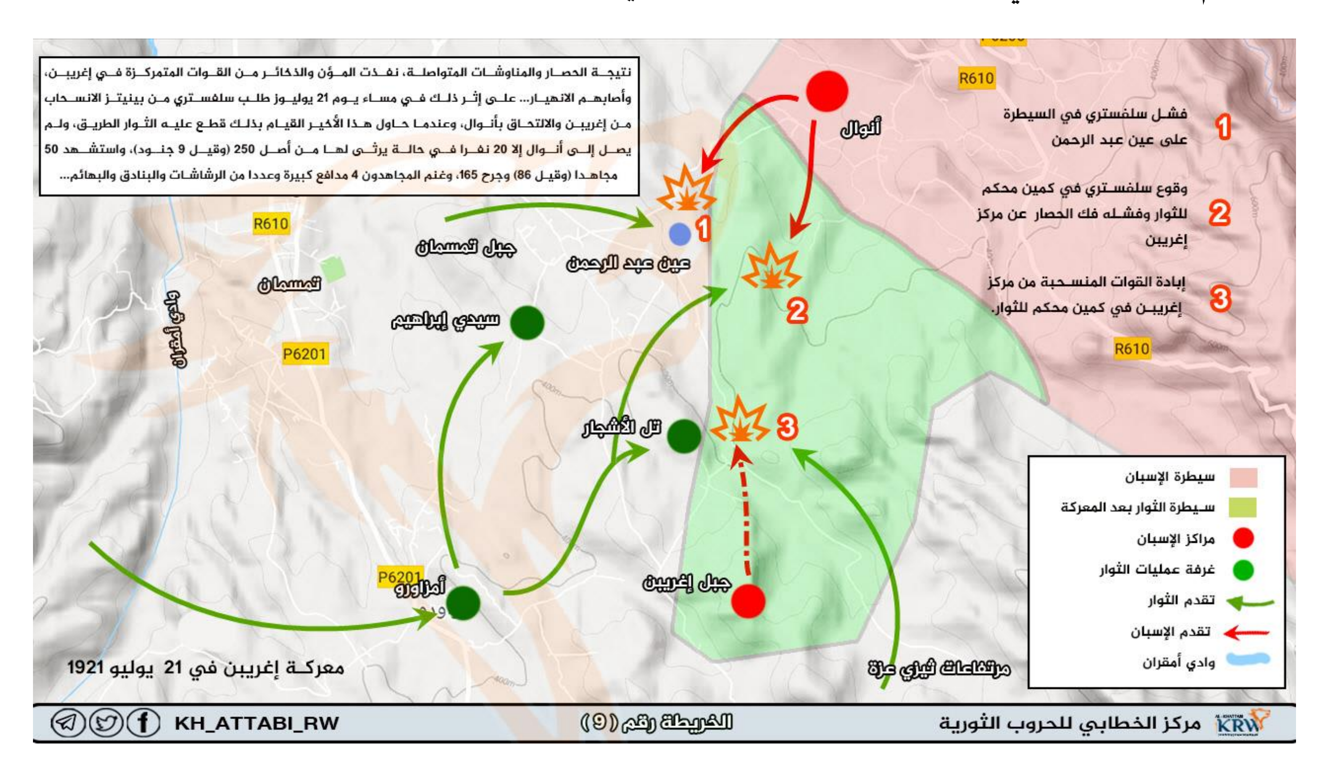
[٦١] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة نقلا عن مصادر إسبانية.

[٦٢] العقيد لويس كاسادو (Casado) ضابط في الجيش الإسباني شارك في معركة أنوال وقع في الأسر وأطلق الثوار سراحه لاحقا.

[٦٣] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة نقلا عن مصادر اسبانية.

مساء يوم ٢١ يوليو/تموز طلب سلفستري من بينيتز الانسحاب من إغريبن والالتحاق بأنوال، وعندما حاول هذا الأخير القيام بذلك قطع عليه المجاهدون الطريق، ولم يصل إلى أنوال إلا ٣٠ نفرا من أصل ٢٥٠، واستشهد في هذه العملية ٥٠ مجاهدا (وقيل ٨٦) بينما جرح منهم ١٦٥، وغنم المجاهدون ٤ مدافع كبيرة وعددا من الرشاشات والبنادق والبهائم، كما أسروا ٧٠ إسبانيا تقريبا.

وأخيرا انهزم الجيش الاسباني، وسقط جبل إغريبن بيد الثوار الريفيين، وهرب من بقي من الجنود الإسبان باتجاه أنوال، وتم دفن جثث القتلى الاسبان قرب جبل "امزوج"، وهذا الحدث وارد في مذكرات الجنود الاسبان، ومازال إلى اليوم مكان المقبرة يأتي إليه باحثون إسبان بشكل سنوي.



اعتبر سلفستري الوضع خطيرا، فبسقوط إغريبن انكشف موقعهم في أنوال، كما انكشفت أيضا طرق إمدادهم إلى مليلية،[٦٤] فدعى في اليوم نفسه إلى اجتماع الرؤساء العسكريين لتدارس الوضع ودراسة الإجراءات التي يجب اتخاذها، وقد خلص هذا الاجتماع إلى ضرورة الانسحاب من المنطقة. يقول سلفستري في رسالة موجهة إلى المقيم العام الاسباني: "لقد قمت اليوم بالعملية التي أخبرتكم بها من أجل إغاثة "إغريبن"، ولكن العدو حال دون ذلك رغم أنني استعملت في تلك العملية جميع القوات التي توجد تحت تصرفي، وأخيرا أصدرت أوامري بوجوب مغادرة المركز المذكور فكانت عملية جلاء دامية. والآن أنا موجود بأنوال والثوار يحاصرونني من كل جهة فالحالة خطيرة

[64] Annual 1921: The Reasons for a Disaster

بل جد خطيرة، وسوف أحاول الخروج من هذا المأزق، وإنني غير واثق من التمكن من ذلك، لأن العدو استطاع قطع جميع المواصلات عن المراكز المجاورة."[٦٥]

ويقول في برقية أخرى لوزارة الحربية: "لقد انتهت عملية إغريبن التي سبق لي أن أعلنت عنها، وقد بذلت قصارى الجهود، فحالت كثرة جيوش الأعداء دون الوصول إلى أية نتيجة نظرا لما قامت به من الرباط في الخنادق، وأمام استحالة وصول أية نجدة اضطررت لإصدار الأوامر بإفراغ المركز بعد تحطيم سائر المعدات الثقيلة، وقد لقي حتفه بين الأسلاك عدد كبير من الضباط والرؤساء، كما قام عدد آخر بالانتحار... إن الحالة تعتبر بالغة في الخطورة والحاجة ماسة لإرسال قوات جديدة كاملة العدة، وذلك أمر يلزم أن يكون على وجه السرعة. وإني لست واثقا من الموقف نظرة لانقطاع أسباب المواصلات، غير أن المراكز القريبة الأخرى تطلب منا إرسال النجدة باستمرار.."[٦٦]

ثالثا: معركة أنوال (أغسطس/آب ١٩٢١).

بعد السيطرة على إغريبن، تخندق الثوار في وادي الحمام الواقع على أبواب معسكر أنوال، والذي كان يتواجد فيه أزيد ستة آلاف جندي، ويحيط به أزيد من ٨٤ مدفعا، وقد شارك في حصار أنوال أزيد من ١٥٠٠ مجاهد، توزعوا على مختلف الجهات بشكل رائع، ولحيويتهم وحركتهم المتواصلة اعتقد الإسبان أن عددهم يزيد عن العشرة آلاف. وتعتبر معركة أنوال من أشهر المعارك الثورية في القرن العشرين، وهي أضخم المعارك التي خاضها الثوار ضد الإسبان على الإطلاق، وقد وقعت بالأساس في قرية أنوال شمال المغرب بداية من ٢١ يوليو/تموز ١٩٢١ الموافق لـ ٢٥ شوال ١٣٣٩، غير أن أحداثها شملت العديد من المواقع والبلدات الأخرى في الريف المغربي. لقد خاضها المجاهدون الرِّيفِيُّون وهم بضع مئات في كلِّ موقع؛ بحيث لم يكن يتعدى عددهم الإجمالي ألفي مقاتل ضعيفي العدة والتسليح، في حين كان عدد جيش الاحتلال قرابة السبعة آلاف جندي مُدججين بأحدث الأسلحة الفَتَّاكة. دامت هذه المعركة الدامية خمسة أيام، وانتهت بوفاة الجنرال سلفستري والكولونيل موراليس الذي أرسل عبد الكريم جثته إلى مليلية.

بعد فقدان إغريبن وأوبران وسيدي إدريس، أصبح الوضع بأنوال مرعبا بالنسبة للإسبان، حيث أن هذه المواقع كانت تمثل خط الدفاع الأساسي عن مركز أنوال وطرق إمداده نحو مليلية، وبسقوطها دخلت القوات الإسبانية في حصار خانق، وانقطعت عنها الإمدادات، وكثر لديهم الجرحى، وبدأت تنفذ منهم الذخائر. فعقد سلفستري يوم ٢٢ يوليو/تموز اجتماعا مع قادة الجيش لتدارس الوضعية واتخاذ القرار المناسب، وبعد نقاشات صاخبة قرر المجتمعون في محاولة أخيرة خوض هجوم كاسح ضد مراكز الثوار في وادي الحمام ثم أمزاورو بكل ما يملكونه من

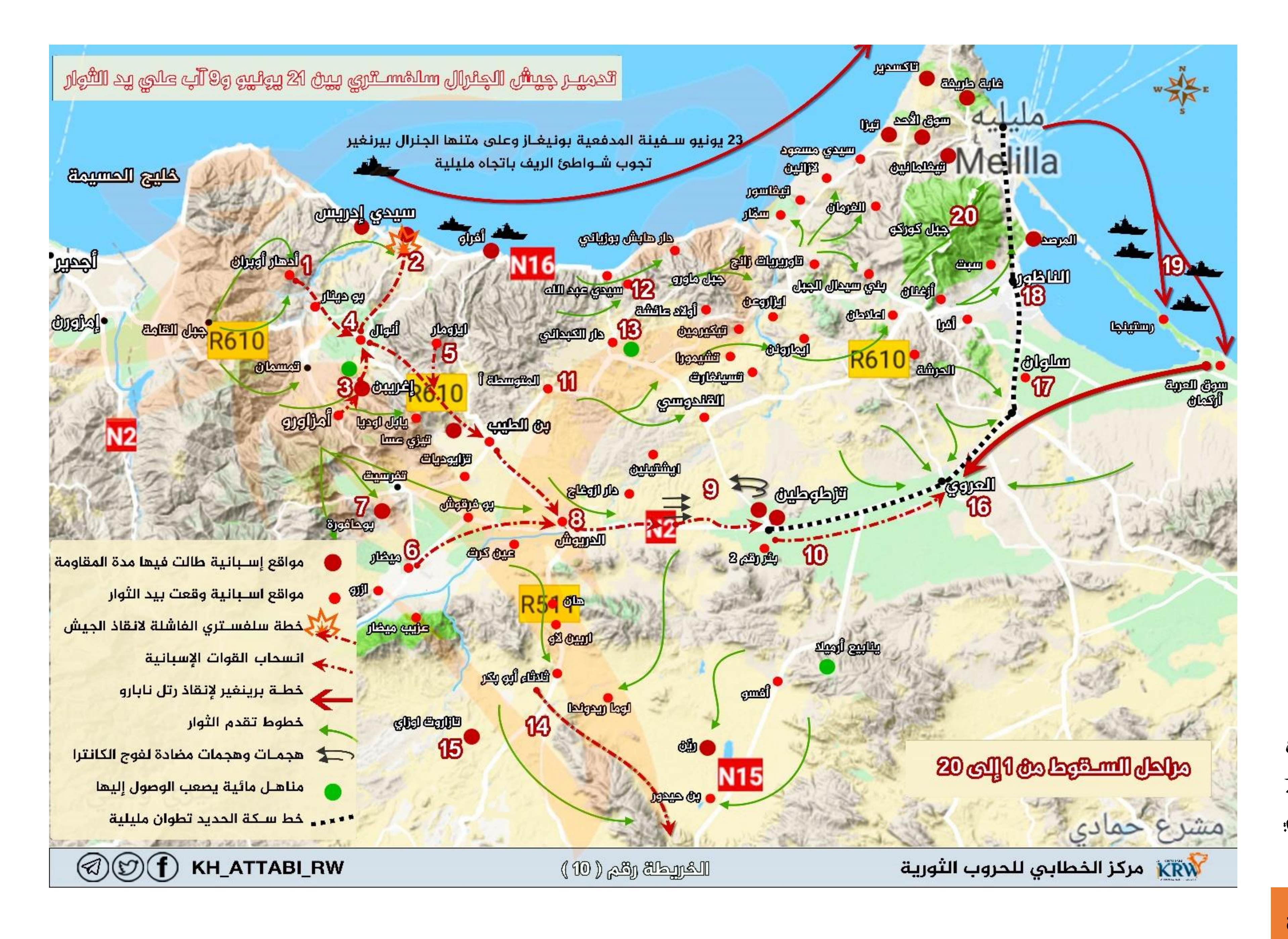
[٦٥] كتاب معركة أنوال لمحمد بن عزوز حكيم.

[٦٦] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

قوة وبشكل يفاجئ الثوار، وحدد يوم ٢٤ يوليو/تموز موعدا لهذا الهجوم، لكن جنديين من المرتزقة أبلغا الخطابي بهذا القرار، فاتخذ مسبقا الاحتياطات اللازمة والتدابير الضرورية. ويوم ٢٤ يوليو/تموز بدأ الإسبان في قصف محيط معسكر الثوار بالطائرات والمدافع، ومساء نفس اليوم هاجم عدد من المرتزقة بقيادة المدعو "بوثنشنوشث" خنادق المجاهدين، لكن قتل هذا الأخير جعل بقية المرتزقة ينسحبون من المعركة عائدين صوب منازلهم حاملين معهم الأسلحة التي حصلوا عليها من عند الإسبان. وبعد هذا الهجوم الفاشل تيقن الأمير أن سلفستري سينسحب إلى ما وراء أنوال، لذلك أصدر أوامره بقطع خط العودة والسيطرة على جميع المسالك المؤدية إلى بلدة بن طيب وإلى غيرها من المراكز التي يسيطر عليها الإسبان، وذلك من خلال تمركز القوات الثورية وكمونها على المرتفعات وقمم التلال والأحراش الشجرية.

وفعلا بعد أن أيس سلفستري من وصول الدعم العسكري الذي طلبه، رفض التفاوض مع عبد الكريم رغم إلحاح بعض قادة الجيش على ذلك (مانيلا مثلا)، وقرر الانسحاب من أنوال يوم ٢٥ يوليو/تموز على الساعة العاشرة صباحا بعد تدمير معظم الآليات العسكرية، وتم الانسحاب بشكل فوضوي دفع عنه الإسبان ثمنا غاليا، حيث تفرقت قواتهم في الأودية الريفية، ووقع العديد منها في كمائن الثوار، كما أنهم تعرضوا لخسائر كثيرة بسبب مناوشات المرتزقة والسكان المجاورين. ولم يبق داخل معسكر أنوال إلا كتيبة من الجنود تدعى فرقة "كاسا دوري دي الكنترا" يقودها المدعو "نافارو" كان قد أُوكل إليها مهمة تغطية الانسحاب، حيث توجهت صوب بلدة بوفرقوش، ثم بلدة الدريوش فتزطوطين، لتستقر أخيرا في معسكر أعروي يوم ٢٩ يوليو/تموز، وقد وصل عدد الجنود الذين انسحبوا من أنوال وبقية المراكز الإسبانية واستقروا في هذا المعسكر إلى قرابة الثلاثة آلاف.[٦٧]

[٦٧] ورد في بعض المصادر الإسبانية أن سلفستري عندما سقطت مراكزه في أدهار أوبران وسيدي إدريس وإغريبن، ومع بداية تعرض بقية المراكز المنتشرة جنوبا للإبادة، قرر الانسحاب من أنوال، غير أنه لم يستطع مواجهة ضباطه ومسؤوليه بعار الهزيمة التي ألحقها به الثوار، فانتحر قبل بداية سحب القوات من أنوال. بينما ورد في المصادر المغربية والعربية، أن سلفستري كان يراقب انسحاب الجيش من أنوال على قمة مرتفعة برفقة الكولنيل موراليس، وهناك لمحه أحد الأهالي المسلحين، فتسلل نحوه وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا. على إثر ذلك قام الكولونيل موراليس بالفرار نحو بن الطيب غير أنه لقي مصرعه أيضا على أيدي الأهالي المسلحين قبل أن يبلغها. وبعد مقتل سلفستر وموراليس تولى الجنرال نافارو قيادة ما تبقى من الجنود وعلى رأسهم سرايا الكنترا.


تدميـر جيـش الجنـرال سلفسـتري بين 21 يونيو و9 آب على يد الثوار
23 يونيو سـفينة المدفعية بونيغـاز وعلى متنها الجنرال بيرنغير تجوب شـواطئ الريف باتجاه مليلية
مراحل السـقوط من 1 إلى 20
مواقع إسـبانية طالت فيها مدة المقاومة
مواقع اسـبانية وقعت بيد الثوار
خطة سلفسـتري الفاشلة لانقاذ الجيش
انسحاب القوات الإسبانية
خطـة بيرنغير لإنقاذ رتل نابارو
خطـوط تقدم الثوار
هجمـات وهجمات مضادة لفوج الكانتـرا
مناهـل مائية يصعب الوصول إليها
خط سـكة الحديد تطوان مليلية
خليج الحسيمة
سيدي إدريس
أجدير
إمزورن
مليليه
Melilla
الناظور
العروي
تزطوطين
بن الطيب
الدريوش
أنوال
إغريبن
أمزاورو
مشرع حمادي
KH_ATTABI_RW
الخريطة رقم (10)
مركز الخطابي للحروب الثورية

1. 1 يونيو: سقوط قمة أدهار أوبران ومقتل كافّة الضباط وخسارة كل المدفعية.
2. من 15 إلى 20 يونيو: أفشل خطة سلفستري لإعادة رسو جيشه بمساعدة أرواخو.
3. من 17 الى 21 يونيو: ملحمة لفرقة بيتيز في إغريبن ونجاة 36 من أصل 244 رجلا.
4. صباح 22 يونيو: بداية الهجوم الريفي على أنوال، الجيش يتمزق، انتحار الجنرال سلفستري.
5. ظهيرة يوم 22 يونيو: الانسحاب من إيزومار وترك المدافع بسبب الهزيمة ووقوع ألف قتيل.
6. صباح 23 يونيو: إبادة رتل رونيدو في ميضار، ونجاة 37 رجلا من أصل 606.
7. مساء يوم 23 يونيو: قتال يائس للنقيب بلانكا في بوحافورة، ونجاة ثلاث من أصل 130 رجلا.
8. مساء 23 يونيو: فوج نابارو يخرج من دار دريويش.
9. يوم 23 يونيو: سرايا الكانتترا يفتحون طريق ايفان وينقذون رتل نابارو.
10. شفق 23 يونيو، كانت آخر هجمات بريمودي ريفيرا وفرسانه.
11. من 22 الى 28 يونيو في المتوسطة أ: ملحمة لسرية النقيب اسكريبانيز نجاة رجل واحد من أصل 85 رجلا.
12. صباح 25 يونيو: استسلام وقتل بالجملة لطابور أرواخو في سيدي عبد الله ومقتل أكثر من 900 رجلا.
13. ظهيرة 25 يونيو: أمادورو يرفض الاستسلام في دار الكبداني ويقتل أمام جنوده.
14. 25 يونيو: رتل غارثيا يهرب من ثلاثاء أبو بكر إلى المنطقة الفرنسية، ينجو 492 رجلا من أصل 1500.
15. ليلة 25 يونيو: مقتل بيرنال ودونياسي بعد رفضهما الهروب أو الاستسلام.
16. من 29 يونيو الى 9 آب في جبل عروي: حصار واستسلام وإبادة رتل نابارو ومقتل 2000 رجلا.
17. 2 آب في سلوان: إعدام المستسلمين و500 قتيلا.
18. 2 آب في الناضور: استسلام بيدرو أغورين ونجاة 156 رجلا ثم يحتلون المرصد و71 جندي ومستعمر يعدمون.
19. من 2 الى 4 آب: خطة بيرنغر للرسوّ في ريستينغا من أجل إنقاذ فرقة نابارو في العروي.
20. 20 آب، الريفيون يقصفون مليلية بالمدفعية.

خلال هذا الانسحاب تحررت تباعا العديد من المراكز (قشلة بومجان، اثماميست، بن طيب، دار بوزيان، الدريوش، دار الكبداني...) وأغلبها دون قتال يذكر، حيث استمر الثوار والسكان المسلحون في مطاردة الإسبان بعد أنوال، وأوجعوهم بالمضايقات والكمائن المستمرة إلى أن وصل من تبقى منهم إلى جبل العروي وحاولوا التحصن فيه، فتم محاصراتهم هناك منذ ٢ حتى ١٢ أغسطس/آب. وفي ٢ أغسطس/آب أيضا اقتحم المجاهدون مدينة الناضور، وتمكنوا من تحريرها، غير أنه في هذا التحرير وقعت بعض الشوائب، حيث قام الأشخاص حديثي العهد بالثورة بسلوكيات غير منضبطة، فكان بعضهم يفكر في صنع البطولات لنفسه، والاستحواذ على

ممتلكات الإسبان داخل المدينة، مما دفع الأمير الخطابي إلى إرسال فرقة من المجاهدين الأكفاء إلى الناظورلحماية المدنيين الإسبان وممتلكاتهم وفرض النظام والانضباط. وبعد يوم واحد من تحرير الناظور (٣ أغسطس/آب) تم تحرير بلدة سلوان.

رجوعا إلى مركز العروي[٦٨] الذي تحصن داخله أزيد من ثلاثة آلاف جندي بينهم ٧٠ ضابطا، فبعد عشرة أيام من الحصار المتواصل، وبعد فقدان الماء والطعام، انهارت القوات المتمركزة فيه معنويا وماديا، فقبل الجنرال نافارو التفاوض مع الثوار، وتوسط في هذه المفاوضات: إدريس بن سعيد الكاتب بالإقامة العامة بتطوان وبن شلال أحد أعيان قبيلة بني بويفرور. وصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بضمان انسحاب المحاصرين بأمان والتحاقهم بمليلية مع ترك جميع أسلحتهم داخل المعسكر. لكن عند تنفيذ هذا الانسحاب يوم ١٢ أغسطس/آب، قام بعض الجنود الإسبان بإطلاق النار على بعض المجاهدين، وكان رد هؤلاء مدمرا، حيث أجهزوا على كل الجنود المتواجدين بالمعسكر، وكانت الحصيلة أزيد من ألفين قتيل بين الإسبان و٧٠ بين المجاهدين، وتم أسر أزيد من ٤٠٠ آخرين، بينهم نافارو نفسه. ولم ينج من الموت في هذا الانسحاب الانتحاري سوى ضابط واحد، هو لويس كاسادو ايسكوديرو، وعشرة من الجنود، وفوج الخيالة الذي بقي متماسكاً رغم انهيار بقية الفيلق. ولقد غضب الأمير كثيرا من الأحداث التي وقعت بالعروي ودار الكبداني وسلوان، وقام باتخاذ تدابير صارمة تمثلت في معاقبة كل ثائر يقتل أسيرا أو مستسلما.[٦٩]



جثث الإسبان بعد معارك أنوال





تجمع للثوار في معركة أنوال

ومع سقوط المراكز الإسبانية في الشرق الواحد تلو الآخر، قرر برينغير في الغرب أن يوقف تقدمه نحو تازروت الذي مخططا له في ٢٢ يوليو/تموز ١٩٢١، وقرر إرسال تعزيزات إلى الشرق، فأرسل رتلا بقيادة فرانكو[٧٠] نحو

[٦٨] احتله الإسبان في يونيو ١٩١٤، وكان مركزا استراتيجيا بحكم موقعه، فهو يبعد عن مليلية نحو ٤٠ كلم، ويشرف على سهل بوعارك، ومنه يمكن حماية مناجم جبل إيكسان وخط السكة الحديدية، وقد استعمل لاحقا كنقطة تواصل بين قيادة دريوش والناظوروبين أنوال ومليلية.

[٦٩] الدكتور عمر المعلم: نفس المصدر السابق.

[٧٠] فرانسيسكو فرانكو (بالإسبانية: Francisco Franco) (٤ ديسمبر ١٨٩٢ - ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥)، قائد عسكري تولى رئاسة إسبانيا من أكتوبر ١٩٣٦ وحتى وفاته في سنة ١٩٧٥، وصل إلى السلطة بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩). كان من القادة

الشمال إلى سبتة ثم أبحروا إلى مليلية. وبمجرد وصولهم في ٢٣ يوليو/تموز، احتلوا مواقع دفاعية في ضواحي مليلية غير أنه منع من قبل برينغير من التقدم أكثر خوفا من كمائن الثوار. ومن هناك شاهد فرانكو القوات الإسبانية في الناظور والعروي تباد عن بكرة أبيها، وقد طلب مرارا من السلطات أن يشارك في فك الحصار عنهم، إلا أن طلبه كان يرد بالرفض. ثم بعد عدة أشهر، وبعد أن قرر الخطابي عدم دخول مليلية، قام برنغير بتثبيت خطوط دفاعية صلبة حول مليلية، وشرع فيما سماه عمليات الاسترداد، التي مكنته بعد ذلك من استرداد الناظور والعروي ودريوش وبن طيب من جديد، ولكن هذه المرة بخطا ثابتة سيأتي معنا ذكرها في الفصول القادمة.

كانت خسائر الإسبان في هذه معارك الانسحاب الشرقي فادحة بأتم معنى الكلمة، وكانت غنائم الثوار كبيرة وعظيمة، وفي هذا الصدد يقول الخطابي: "ردت علينا هزيمة أنوال ٢٠٠ مدفعا من عيار ٧٥ أو ٦٥ أو ٧٧، وأزيد من ٢٠ ألف بندقية، ومقادير لا تحصى من القذائف وملايين الخراطيش، وسيارات وشاحنات، وتموينا كثيرا يتجاوز الحاجة، وأدوية، وأجهزة للتخييم، وبالجملة، بين عشية وضحاها. وبكل ما كان يعوزنا لنجهز جيشا ونشن حربا كبيرة. وأسرنا ٧٠٠ أسير، وفقد الإسبان ١٥ ألف جندي ما بين قتيل وجريح".[٧١]. بينما يقدر المؤرخ الإنجليزي روبرت فورنو الخسائر الإسبانية في هذه المعركة على الشكل التالي: "١٨٠٠٠ قتيل، وفي مقدمتهم قائد الحملة الجنرال سلفستري (لم يعثر أحد على جثته، كما أنه لم يعثر عليه حيا)، و١١٠٠ أسير، وفي مقدمتهم الجنرال نافارو (تروي المصادر الأجنبية أنه تم إعدامه من قبل الريفيين)، اغتنام ١٩٥٠٤ بندقية و٣٥٢ رشاشا و١٢٩ مدفعا، إضافة إلى المواد العسكرية الأخرى كالملابس والخيام والعربات والتغذية."[٧٢]

وفي المقابل تفيد شهادة ضابط إسباني، أوردها المؤرخ الإنجليزي روبيرت فورنو، أن خسائر المغاربة كانت تساوي ١ على ٣٠ قتيل إسباني، ثم يورد الحصيلة النهائية للخسائر الإسبانية على الشكل التالي: "جنرال واحد وستة

الذين عاشوا حرب الريف الثالثة وقد اشتهر هو ورجاله بوحشيتهم في معاملة الأسرى، حيث كان يقتلهم ويمثل بجثثهم ويعلق رؤوسهم أمام الزوار.

وفي صيف سنة ١٩٣٦ وتحديداً في ١٨ يوليو ١٩٣٦ قام فرانكو بانقلاب عسكري ضد حكم الجبهة الشعبية الذي كانت إسبانيا تحت حكمه، وكانت تتكون من حكم الديمقراطيين والاشتراكيين، وقد قاومت الجمهورية الإسبانية الثانية هذا الانقلاب، ومن هنا بدأت الحرب الأهلية الإسبانية، واستمرت الحرب لمدة ثلاث سنوات منذ سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ وبلغ عدد ضحاياها نحو نصف مليون من البشر. وانتهت هذه الحرب بانتصار الجنرال فرانسيسكو فرانكو بمساعدة أساسية من هتلر وموسوليني. وقد أتاحت له هذا الانتصار أن يحكم إسبانيا حكما ديكتاتورياً لمدة ستة وثلاثين عاماً متواصلة حتى وفاته سنة ١٩٧٥ وقد كان عمره آنذاك ٨٣ عامًا.

[٧١] علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي.

[72] Annual 1921: The Reasons for a Disaster

عقداء وثمانية رواد، و١٧٥ضابطا من الرتب الأخرى، و١٧٠٠٠جندي، أما الجرحى من الضباط فقد بلغ ٦٠٠ جريح".[٧٣]

لقد كان لهذا الانتصار الريفي في معركة أنوال صدى واسعا على المستوى الوطني والعربي، فقيل فيه الكثير من الشعر، وقد شاع بعد ذلك أن بعض الأدباء جمع ما قيل عن موضوع هذه الحرب في ديوان سماه "الريفيات". وبعد هذه السلسلة المجيدة من التحرير والفتح، كانت مدينة مليلية قاب قوسين أو أدنى من الريفيين، لكن الخطابي أمر قواته بعدم اقتحامها، ولتحقيق ذلك أرسل رجاله المخلصين لحماية أسوار المدينة ومنع المجاهدين من دخولها، حيث كان بعضهم قد بدأ مسبقا في تخريب المنازل المتواجدة عند مدخل المدينة. ولعل أهمّ الدوافع التي جعلت الخطابي يتخذ هذا القرار: تجنّب العداوة والتصنيف الدولي الذي قد ينتج إثر تحرير هذه المدينة المهمة دوليا بقوات تفتقد للانضباط، وعدم استفزاز الدول العظمى، والتفرغ لترتيب الصف الداخلي الذي أصابته الفوضى وخرج في كثير من الأحيان عن السيطرة.

وبشأن ذلك يقول محمد بن عبد الكريم: "... بانتهاء معركة "العروي" أصبحت على مقربة من مليلية، فوقفت عندها فلم أتقدم إليها، وأحاصرها لأن جيشي كان في أول شأنه، وكان الحذر وعدم التورط في أمور حربية مجهولٌ مصيرها يدفعني إلى ترك المدينة وشأنها. ولما علمت أن الحكومة الإسبانية قد أخذت تعد المعدات لإرسال جيش قوي إلى مراكش، رأيت من الحكمة الرجوع إلى جيشي، والعمل لتنظيمه وتقويته وتعزيزه، وأن أطلب المعونة في ذلك من كل قبائل الريف. وقد أصدرت كذلك أوامري إلى جنودي بمعاملة الأسرى معاملة حسنة، وهو ما أفتخر به ولا آسف عليه، كما أمرتهم بعدم التعرض لمليلية، مخافة إحداث مشاكل دولية"[٧٤].

ويخبرنا محمد أزرقان، وزير خارجية الجمهورية الريفية، في مذكراته، أنه على أبواب مليلية "تفاوض أعيان من المجاهدين الذين من جملتهم السيد محمد بن عبد الكريم، والسيد محمد أزرقان وغيرهم في شأن الاستيلاء على مليلية، وحصل اتفاقهم على عدم الدخول إليها، خشية الفتك بمن فيها من أجانب ومسلمين، ولم يكن معهم وقتها عسكر نظامي يحافظ على ترك النّهب، وقتل النساء والصبيان من الإسبان وغيرهم". فالمبرر الأخلاقي، والمصلحة السياسة، ومقتضيات العدل والإنصاف، وأوامر الشرع، كلها دفعت بن عبد الكريم إلى تجنب دخول مليلية. ومن جهة ثانية بحكم علاقاته واتصالاته بدوائر استعمارية في إسبانيا وفرنسا، فالخطابي كانت "تصله رسائل أوربيّين سامين، بل كان لديه مخبرون ذوو شأن بمدريد وباريس، وحتى في أروقة قصر بوربون، وفي بعض الوزارات، كان يعلم من مصادر مؤكدة أن التنحية التامة للأثر الإسباني، قد تؤدي إلى ردود فعل دولية خطيرة من شأنها أن تكسر في تلك الفترة حركة التحرير التي يقودها، وهي ما تزال في بدايتها، فهاجسه آنذاك كان يتمثل

[73] Annual 1921: The Reasons for a Disaster

[٧٤] روجر ماثيوز: مذكرات محمد بن عبد الكريم الخطابي، ترجمة عمر أبو النصر الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

في الخوف من تدخل فرنسي مكثف، وكان قد حذره كثير من أصدقائه بوشك وقوعه". إن إزاحة الإسبان نهائيا عن الريف، كان يعني أن إسبانيا لم تستطع القيام بالدور الذي خولته إياها المعاهدات السابقة الذكر، مما يمكن أن يؤدي إلى "إعادة النظر في الاتفاقيات المبرمة، ولم يكن الأمير يجهل أن فرنسا ستعترض على ذلك بأية وسيلة، فتوسيع مجال فتوحاته، كان يعني إثارة المعارضة الفرنسية وهو لم يكن يريد إثارتها". كما أن الاستيلاء على مليلية أمر مختلف تماما عن الدفاع عن أرض القبيلة، إنه "إعلان لحرب واسعة النطاق لم تكن لديه بعد وسائل خوضها، سيّما وأن أمل التفاوض كان لا يزال يراوده"، فهو إذن كان يريد أن "يعطي للإسبان -حسب جون وولف- فرصة جديدة للاحترام شروط تعاون جديد مبني على المساواة في الحقوق.. وقد أعلن عن ذلك من سلطته". خاصة وأن الرجل منذ البدء كان يدعو إلى السلم والتعاون بين الريف والإسبان.[٧٥]

والجدير بالذكر، أن الخطابي أقر بعد ذلك أن عدم تحرير مليلية كان خطأ كبيرا منه: "إني آسف لذلك، فإن هذا الأمر كان خطأ كبيرا مني... أجل لقد أخطأت خطأ عظيما، بعدم اقتحام مليلية، فقد كان بإمكاني دخولها دونما معارضة قوية، وكان رجالي في ذلك الحين، قد غلبهم المرح والزهو بانتصاراتهم على الإسبانيين، حتى لقد راحوا يحسبون مهاجمة مليلية نزهة وملهاة، لقد كان ينقصني في ذلك الوقت ما يسمونه بعد النظر السياسي، خصوصا وقد ظهر لي بعد ذلك، أن الأخطاء التي وقعت كان سببها عدم إستيلائي على المدينة، وقد كان بإمكاني أن أطلب ما أريد من رجالي، بعدما بايعوني بالإمارة وانتخبوني أميرا على الريف..." [٧٦]

---

[٧٥] عبد الكريم: ملحمة الذهب والدم.

[٧٦] روجر ماثيوز: المصدر السابق.

الفصل الخامس: التوسّع الثوري في الجبهة الغربيّة.

"يهجمون حين وحيث يكون خصمهم ضعيفاً، ويحاصرون النقاط الضعيفة، ويستغلون معرفتهم بالأرض لتحقيق التفوق، وبمجرد مواجهتهم لقوات تفوقهم يختفون ليقاتلوا في وقتٍ آخر. وهنا في تاغزوت (الجبهة الغربية) أصبح الثوار يطاردون الراعي (قوات الفيلق الإسباني) بدلاً من الخراف (المغاربة المرتزقة)." [٧٧] **خوسي ألفاريس**

أولا: انخراط قبائل غمارة وجبالة في الثورة الخطابية.

كان الفضل في التوسع الغربي يعود كالعادة إلى طبيعة العدوى الثورية وقدرتها على الانتشار بين القبائل، فبعد الانتصارات المبهرة التي تم تحقيقها في الجبهة الشرقية بدأت قبائل الغرب تنخرط بشكل طوعي في الثورة الخطابية. وفي يوليو/تموز ١٩٢١، وصل إلى الخطابي وفد برئاسة عبد الهادي مغوز وحمو العيساوي يمثل قبائل غمارة المتاخمة للريف الأوسط وهي: منيرة البحر، وبني سميح، وبني رزين، وبني خالد. وطلب هذا الوفد فتح جبهة غربية ضد الإسبان، فوافق الخطابي على ذلك، وبعث شقيقه امحمد نحوهم يوم ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢١، وتوغل في تخوم غمارة الغربية، فرحّب به الزعماء المحليون، ولكن بعض أعيان غمارة الذين يخدمون الإسبان ومكائد الشريف أحمد الريسوني حالت دون حدوث الانضمام الكامل على الرغم من جهود دامت قرابة السنة ونصف.[٧٨]

ثم حينما عاد امحمد من مهمة ديبلوماسية كلفه بها شقيقه في فرنسا دامت ثمانية شهور (انتهت يوليو/تموز ١٩٢٣)، تم توجيهه إلى المنطقة الغربية لاستكمال الحلقات الجهادية هناك. فتحرك المجاهدون في قوة بلغت نحو ٦٠٠ مقاتل، جلهم من بني ورياغل، وعبروا كلا من بني يطفت وبني بويفراح ومسطاسة ومتيوة الريف. ويمكن أن نفهم من ذكر هذه المواقع أن هذه المناطق كلها كانت قد أصبحت في معسكر المجاهدين، ولهذا عبرتها القوات الثورية باطمئنان. وحل المجاهدون في تراب غمارة عابرين كلا من بني رزين وبني سميح وبني كرير وبني بوزرا، وأقاموا في قبيلة بني زيات، وهناك بدأت أولى مناوشاتهم ضد القوات المتمركزة على ساحل مناطق غمارة والمنتشرة بين شفشاون ووادي لاو.[٧٩]

---

[77] (Contributions in Comparative Colonial Studies) José E. Alvarez - The Betrothed of Death_ The Spanish Foreign Legion During the Rif Rebellion, 1920-1927-Praeger (2001).

[٧٨] محمد عربي المساري: نفس المصدر.

[٧٩] أبو العباس أحمد السكيرج: نفس المصدر السابق.

لم يكن الوضع في غمارة سليما بسبب نفوذ الطريقة الدرقاوية، ذلك أن التطور الحاصل في الأوضاع كان ينطوي على تهديد نفوذ زعمائها. وقد صدرت الأوامر من زعيم الزاوية الدرقاوية إلى أنصاره تحثهم على منع بيع الخبز للمجاهدين الذين كانوا من بني ورياغل في غالبيتهم. كما كانت بعض الفئات في غمارة تسعى لتسليم الثوار إلى الإسبان مقابل مكافآت مالية. وقد بقيت القوات الثورية معتصمة في مواقعها شبه محاصرة، وخاصة في ميناء الجبهة، كما كانوا يتعرضون أحيانا إلى هجمات شرسة من قبل عملاء الإسبان. وفي إحدى هذه الهجمات عمل الإسبان على تنظيم نزول عسكري في غمارة قوامه بعض الريفيين المقيمين بتطوان يؤطرهم القائد سليمان الخطابي، ولكن عملية النزول فشلت ورد المرتزقة على أعقابهم، إلى أن تم استعمالهم فيما بعد خلال فترة الهجوم المضاد المشترك الإسباني الفرنسي.

ومن المعلوم أن الصعوبات التي نشأت مع غمارة في أول الأمر لم تكن فريدة من نوعها، ولا مقتصرة على تلك المنطقة. فقد وقعت مواجهة مسلحة دامت ثمانية أيام بين المجاهدين وعصابة عمرو ولد حميدو المرنيسي، وكان هذا القائد قد انحاز إلى المجاهدين زمنا، وسقط أخ له شهيدا في إحدى المعارك الجهادية، ثم جنح إلى التعامل مع الفرنسيين في ١٩٢٣. وتمكن الإسبان أيضا من استمالة أعيان بني كرير وبني سميح، وطرف من بني رزين وبني خالد، وطرف من منيرة الريف وزرقت وبني كميل. واجتمع أعيان هؤلاء بالجبهة، بزعامة الشريف حسن بن صالح الرزيني، واتفقوا على الهجوم على تارجيست صحبة الشريف محمد سليطن بن الخمليشي، بينما يهجم الشريف الرزيني المذكور على بني بويفراح. وجرت معركة بعد فشل مفاوضة بالهاتف تولاها عن الثوار ازرقان. فانكسر المتآمرون وفر من بقي منهم إلى فاس.[٨٠]

كان تعامل الخطابي مع التوترات الغمارية مزيجا بين اللين والقوة، فقام بمضاعفة قواته هناك لتزيد عن الألف، وجعل عليها قائدا مقتدرا من بني ورياغل يدعى عبد الكرم الحتاش. وقد تمت مضاعفة الأعداد والعتاد لردع الخونة والمنافقين وتخويفهم، وفي نفس الوقت لتشجيع الشرفاء من قبائل غمارة ليأخذوا دورهم السيادي بين قبائلهم. ولم يمر من الوقت إلا القليل وليبدأ عملاء الإسبان يفرون في المنطقة واحدا تلو الآخر، ولتنخرط كل القبائل الغمارية ضمن الثورة الخطابية، وقد جعل بن عبد الكريم أعيان القبائل قادة لها إكراما لهم، فعيّن على بني سميح القائد عبد السلام البوهالي، وعلى بني كرير القائد السي علي، وعلى بني رزين القائد اليزيد بن صالح، وعلى بني بوزرا القائد بن يوسف، وعلى بني زيات القائد أحمد البقالي، وعلى بني منصور القائد السي أحمد، وعلى بني سليمان القائد محمد المحرش -بعد عزل القائد البويحياوي الذي كان متوليا لها من قبل نظرا إلى سوء تصرفه-، وعلى بني خالد القائد السي المكي الوزاني الذي عزله بعد ذلك لسوء عمله، وولى محله القائد إبراهيم

---

[٨٠] محمد عربي المساري: نفس المصدر.

الخالدي والقائد تاج الدين الخالدي. وقد حصل بدخول هذه القبائل في الطاعة رعب كبير للقبائل المخالفة، وكان الغماريون فعلا أشداء على الإسبان كما حسنت مسيرتهم الثورية. [٨١]

وكان التحاق هذه القبائل بالثورة ينطوي على مغزى مهم جدا، فقد كان سببا في تعزيز قوة الثورة التي وجدت نفسها توسعت رقعتها وازدادت من حيث الكثافة العددية. وتبعا لإحصاء رسمي نشر بعد انتهاء الثورة فإن إقليم غمارة الشاون كان يضم ١٤ قبيلة فيها حوالي ١٠٩,٧٩٥ نسمة، ومساحته ١٣٠ كم مربع. بينما كان في إقليم الريف ١٨ قبيلة يبلغ تعدادها ١٢٢,٢٦٠ نسمة، وكانت مساحته ٣ ، ٤٧٥ كم. وعليه، فمن حيث المساحة أصبح اتساع التراب المحرر أكثر من ضعف التراب المحتل، بينما كان عدد السكان قد وصل إلى حوالي نصف سكان منطقة النفوذ الإسباني. هذا من الناحية العددية، أما من الناحية السياسية، فإن انضمام غمارة أضاف بعدا وحدويا للحركة الثورية، ذلك أنه أدى فيما بعد إلى انضمام قبائل جبالة، ليصبح هناك تكتل ريفي/ غماري/ جبلي، وفي هذا ما فيه من وحدة سياسية ذات مغزى كبير تفوق جانب تذويب الحساسيات القبلية الذي هو في حد ذاته مكسب ثمين. [٨٢]

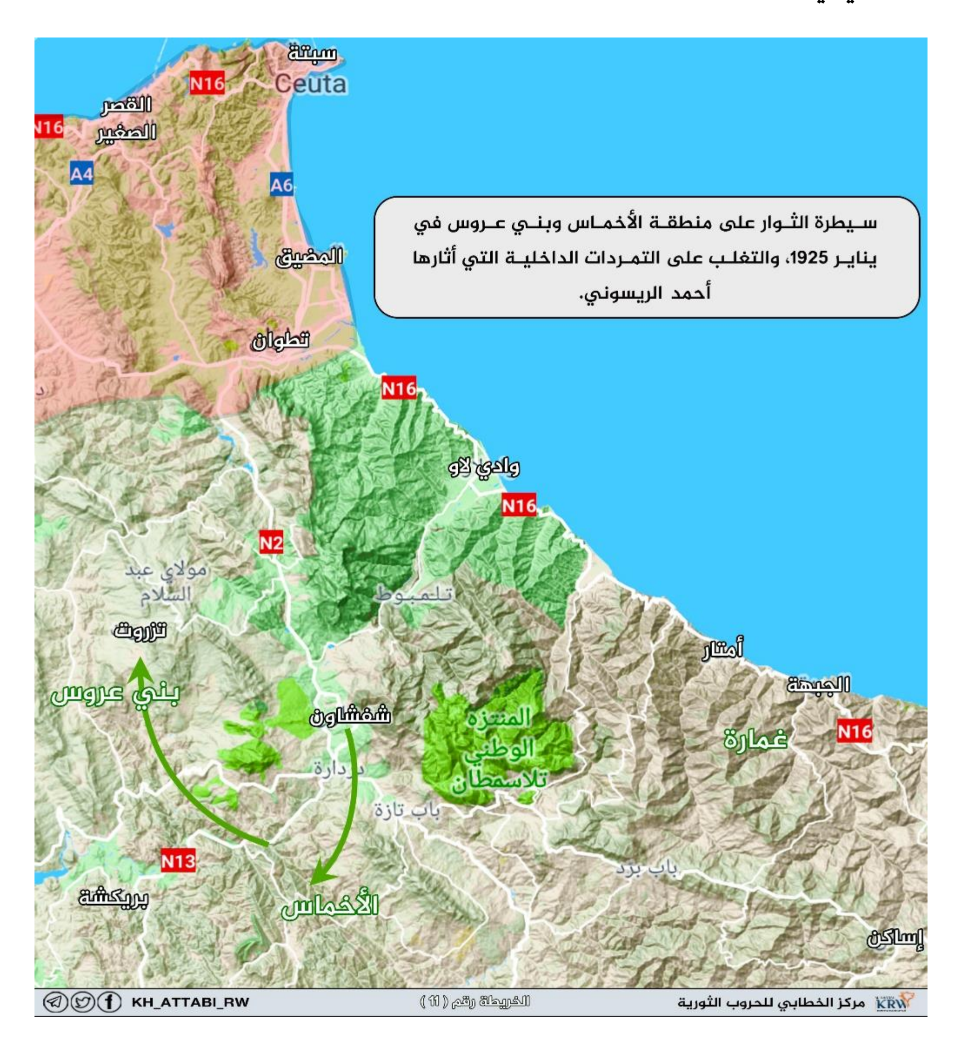
وتلقائيا بعد انضمام غمارة، بدأت الوفود من جبالة تتوافد على الخطابي، وكان على رأسهم القائد أخريرو، الذي كان يعمل مع الشريف أحمد الريسوني سابقا، ثم انشق عنه بسبب ما ظهر عن الأخير من مهادنةٍ للإسبان وسعيٍ لتحقيق المجد الشخصي. وقد أصبح أخريرو هو القائد الميداني للعمليات العسكرية التي حصلت بعد ذلك طيلة سنة ١٩٢٤ و١٩٢٥، وكما سيأتي معنا في البحث، فإن هذه العمليات قد تسببت في اندحار القوات الإسبانية المتمركزة في منطقة الشاون وانسحابها، وتحرير مدينة شفشاون الاستراتيجية. ولكن نصر محمد بن عبد الكريم لم يقنع الشريف أحمد الريسوني بضرورة التوحد مع الثورة الخطابية، بل جعله يغار أكثر فأكثر ويؤلب القبائل على الخطابي أكثر فأكثر، وكان من سعيه أن دفع قبيلة الأخماس إلى التمرد والخروج على الثوار بالسلاح، وكان ذلك بعد تحرير شفشاون بشهرين، فحاول الخطابي مفاوضتهم، وأرسل لهم بعض قادته، فما كان منهم إلا أن ألقوا عليه القبض، وجاءوا به إلى الشريف الريسوني فسجنه عنده في بني عروس بتازروت. ولما علم الخطابي بالخبر أمر أخريرو بجمع العسكر لإغاثة المجاهدين، فتوجه إلى الأخماس بنحو ألف مقاتل، وكان ذلك في يناير/كانون الثاني ١٩٢٥، فتفرقت القبيلة المذكورة، ثم توجه إلى بني عروس وأوقدوا النيران في وسطها، ودارت رحى الحرب، فكانت الغلبة على الريسوني فأسروه مع ابن أخيه المسمى مولاي علي وصهره محمد الزلال. واستولوا على جميع ما وجدو لديه من العدة والذخائر الحربية الكثيرة، وأطلقوا سراح الأسرى الذين كانوا بحوزته. وبهذا

---

[٨١] أبو العباس أحمد السكيرج: نفس المصدر السابق.

[٨٢] محمد عربي المساري: نفس المصدر.

استقر الأمر للثورة الخطابية في جبالة، للتوسع بعد ذلك بشكل طوعي إلى قبائل منطقة لوكوس، الذين هددوا بدورهم النفوذ الإسباني في القصر الكبير والعرائش.[٨٣]



ثانيا: الانهيار العسكري الإسباني في الغرب.

عادت الحملات الإسبانية بالنشاط سنة ١٩٢٢، وانطلقت قوات الاحتلال من مليلية نحو الناظور والعروي والدريوش، فاكتفى الخطابي في المحور الشرقي بتفريغ بعض المجموعات الصغيرة التي بقيت طيلة أمد الحرب تعمل على تنفيذ المناوشات والإغارات المتواصلة وحصار بعض المراكز أحيانا من خلال قطع الإمدادات عنها، ثم حوّل بعد ذلك جهده الرئيسي نحو الريف الغربي، وكانت أهم خطوط الاتصال للمواقع الإسبانية هناك هي الطريق الممتدة بين تطوان وشفشاون ونهر لاو الذي يصب في البحر المتوسط، وكانت للقوات الإسبانية العديد من المواقع المتقدمة شمال وشرق وجنوب شفشاون بهدف حماية طرق الإمداد بين مراكزها الكبرى في شفشاون والزيات وتطوان.

[٨٣] أبو العباس أحمد السكيرج: نفس المصدر السابق.

ومن جديد كانت هذه المنطقة مثالية مثالية جدا -بحكم تضاريسها الجبلية الوعرة وأوديتها السحيقة وأحراشها وغاباتها الكثيفة- لتطبيق الاستراتيجية الخطابية، المتمثلة بتحفيز القبائل لتنخرط في الحرب، ومن ثم استهداف خطوط إمداد مراكز العدو بشكل متواصل، لتحاصَر القوات المعادية داخل مراكزها وتفقد معنوياتها وتنهك مع الوقت، ثم لتنسحب بشكل عشوائي وتقع في الكمائن الثورية المعدة مسبقا. وقد تمكن بن عبد الكريم فعلا من الحصول على ولاء قبائل غمارة كما مر معنا.

كان القائد العام للجبهة الغربية هو امحمد الخطابي، بينما كان القائد الميداني للقوات الثورية هو أحمد أخريرو. بدأ الثوار يستهدفون أولا المراكز المتقدمة شرق شفشاون، فقاموا بقطع الإمدادات عن مركز أمتار في ١٦ فبراير/شباط ١٩٢٤، وتصدو للسفينة "كاتالونيا" التي كانت تقوم بإمداد قوات "أمتار" مستعملين مدفعين من الغنائم، انطلاقا من المرتفعات المُطلّة على الساحل، فانسحبت السفينة إلى قادس بإسبانيا، ومع انسحاب السفينة بقيت الإمدادات تصل إلى أمتار حصرا عن طريق الجو إلى أن انهارت حاميته مع الوقت.

وفي مارس/آذار اشتدت المعارك فترة وجيزة في الريف الشرقي مما أدى لاستدعاء بعض التعزيزات من الريف الغربي، ونتيجة لمرض الريسوني ودخوله في العديد من المفاوضات المشبوهة مع الإسبان بدأ الأخير يفقد السيطرة على قبائل جبالة، فلم تعد الهدنة بينه وبين الإسبان ذات تأثير يُذكر، لأن القبائل عمليا بدأت تتأثر وتنقاد لحركة الخطابي، وتخرج عن هدنة الريسوني لتستهدف المراكز الاسبانية المتوزعة على الجهة الغربية.

وبعد سقوط المراكز المتقدمة شرق شفشاون، شرعت القوات الثورية في قطع طرق إمداد المراكز الإسبانية المنتشرة على طول وادي لاو، فتم محاصرة مراكز كوبا درسا وسولانو وتاغزوت، وتم قطع الإمداد الذي كان يأتيهم إما من شفشاون أو من شاطئ لاو. وقد حاول الجنرال فرانكو بعد وصول التعزيزات قيادة رتل إسباني مطعّم بالمرتزقة المغاربة انطلاقا من شاطئ لاو، وذلك للسيطرة على جبال تيرينس وأودية أبو خارين المحيطة بوادي لاو من أجل تأمين الوادي، غير أنه فشل في ذلك يوم ٤ يوليو/تموز ولم يفلح في تطهيره.



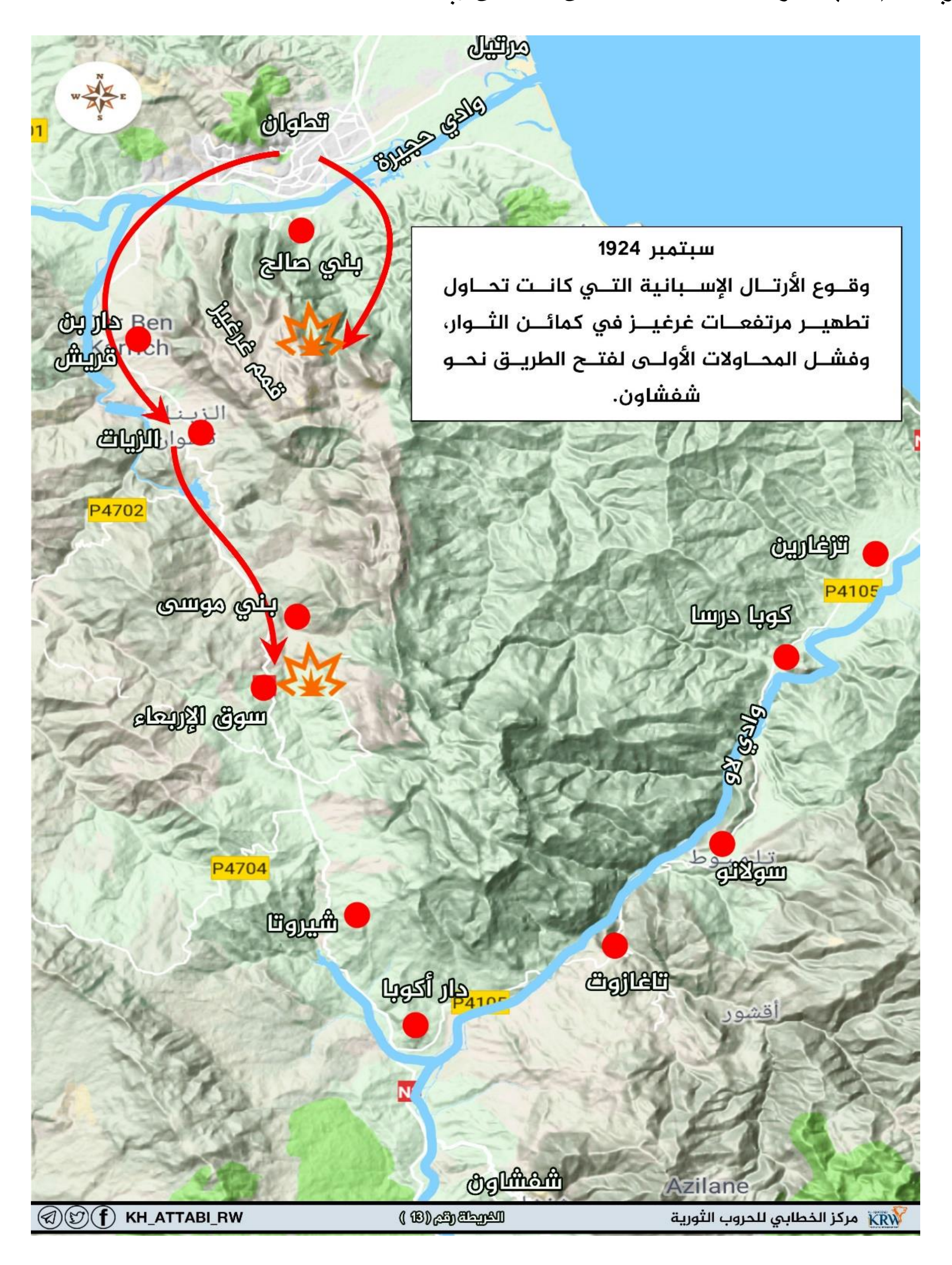
بعدها في ٦ يوليو/تموز، نجح الإسبان برتل موحد تحت قيادة سيرانو وبالتنسيق مع القوات الجوية في طرد الثوار من كوبا دارسا، ولكن بعد أن تكبد الرتل الإسباني المهاجم انطلاقا من تيزغارين خسائر فادحة جدا، ومن وقتها لم يسترد الإسبان المبادرة، وبقيت قواتهم في وضعٍ دفاعيٍ منذ ذلك الوقت. مع الزمن، كانت الكمائن المتواصل على طرق الإمداد والمناوشات والقصف المستمر على المراكز الإسبانية في وادي لاو سببا في اقتناع القائد بريمو دي ريفارا بضرورة الخروج الكامل من وادي لاو وشفشاون وبني عروس، وهو ما يعني الانسحاب من ٤٠٠ نقطة كانت موزعة على كل منطقة الشاون. تم اتخاذ قرار الانسحاب في ٢٠ أغسطس/آب ١٩٢٤، وقد خيّر ريفارا أن ينقل القوات إلى خطوط دفاعية أفضل في تطوان (خط إستيلي)، مع الحفاظ على طرق إمدادها بين طنجة وسبتة والعرائش.

المشكلة الحقيقة التي واجهت القيادة الإسبانية أن الانسحاب لن يكون ممكنا في ظل الحصار الخانق الذي فرضه الثوار على معظم المراكز، لأن شفشاون نفسها أصبح طريقها نحو تطوان مهددا بالانقطاع، بل إن تطوان كانت تتعرض للقصف بشكل دوري من قبل رماة الثوار الذين كانوا يتسللون نحو قمة جبال غرغيز (تبعد عن تطوان ٧ كلم)، ويقومون بقصف القوات الإسبانية في تطوان بالمدفعية الثقيلة. وقد جاء في بعض المصادر أن اختيار هذا الجبل لنصب المدفعية كانت فكرة ضابط فرنسي منشق يعمل مع الثوار. قررت القيادة الإسبانية في ظل هذا الوضع ترتيب ما تبقى من القوات من أجل مؤازرة المراكز المحاصر في وادي لاو، وفتح طريق الانسحاب لها نحو شفشاون، وفي الوقت نفسه يجب على الإسبان أن يقوموا بتأمين طريق الانسحاب لقوات وادي لاو وشفشاون نحو تطوان.

وبين أغسطس/آب وحتى سبتمبر/أيلول فشل القائد فرانكو في فك الحصار عن المراكز التي كانت منتشرة في وادي لاو، وبعد عدة محاولات يائسة تعرضت جميعها لكمائن مدمرة قرر القائد في ٣٠ أغسطس/آب ١٩٢٤ أن يترك القوات في مراكز سولانو وتاغزوت لتواجه مصيرها بمفردها، والذي كان طبعا الإبادة، بينما تمكن من إخلاء شاطئ لاو وتزغارين بصعوبة. وفي ٦ سبتمبر/أيلول خرج رتل إسباني من تطوان بدافع حماية الطريق وتأمين انسحاب قوات وادي لاو، إلا أنه تعرض لكمين مدمر في زيات. وبعدها بيوم واحد، خرج رتل آخر واتخذ طريقا جنوبيا بعيدا عن جبال غرغيز التي كانت منطلقا للثوار، فتعرض أيضا لكمين مدمر في سمسة. وبحلول ١٤ سبتمبر/أيلول كان وادي لاو قد خرج عن سيطرة الإسبان بشكل كامل، كما تمت إبادة أغلب حاميته، ولم يستطع الانسحاب إلا القليل منهم.

بعد خسارته لقواته في وادي لاو، أراد فرانكو أن يمنع قوات شفشاون من أن يصيبها نفس المصير، فطلب من قيادته العديد من التعزيزات، وفعلا انطلقت حملة ضخمة في ١٨ سبتمبر/أيلول للسيطرة على جبال غرغيز وتأمين تطوان وطريقها، غير أن هذه الحملة فشلت في التثبيت على الجبل بسبب الإغارات الكثيفة التي كان يشنها

الثوار على طرق إمدادها. كما انطلقت حملة أخرى أيضا في ٢٦ سبتمبر/أيلول بدافع فتح طريق شفشاون وتطهير سوق الأربعاء، إلا أنها تعرضت أيضا للعديد من الكمائن وباءت بالفشل.



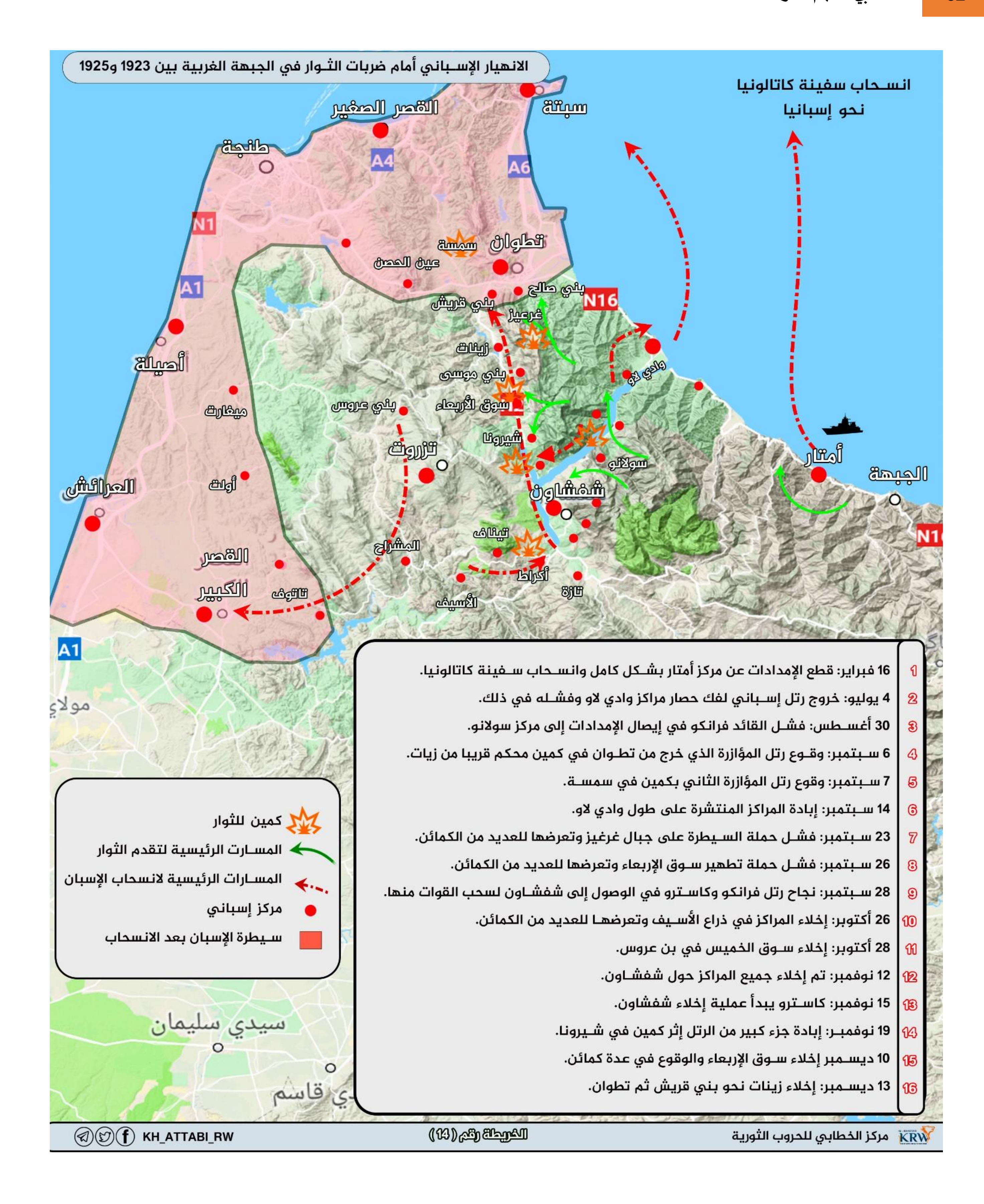
ولم ينجح الجنرال فرانكو وكاسترو في إيصال التعزيزات إلى شفشاون إلا في ٢٨ سبتمبر/أيلول. فأنشأ خلال أكتوبر/تشرين الأول مراكز حماية مؤقتة قريبة من شفشاون في كالا ومسكريلا وغاروسين وغابات تيناف ووادي الأسيف، وذلك بهدف حماية القوات المتمركزة في البلدة إلى حين سحبها، إلا أن مراكز الحماية هذه لم تصمد أبدا في وجه إغارات الريفين، وكانت بين أكتوبر/تشرين الأول ونوفمبر/تشرين الثاني قد سقط معظمها، فتم

سحب القوات من ذراع الأسيف على شفشاون في ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول، كما تم سحب مراكز بن عروس إلى العرائش في ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول أيضا.

في ظل هذا الانهيار السريع أصبحت القيادة الإسبانية ترى سيناريو إغربين وأنوال والعروي يتكرر من جديد، ولم تكن أبدا قادرة على منع سقوط مراكزها أو حتى تأمين انسحاب آمن لقواتها من شفشاون. بدأ الجنرال "كاسترو غيرونا" عملية الإخلاء يوم ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني مستخدما خدعة الدمى المملوءة بالقش، لإيهام الثوار ببقائهم في شفشاون، غير أن الثوار قد اكتشفوا ذلك سريعا لأنهم كانوا قد توقعوا مسبقا وقوع هذا الانهيار وكمنوا له في القمم والمرتفعات. ولسوء حظ الإسبان فقد عرقلت برودة الطقس والأمطار عملية الإخلاء، فحولت مياه الأمطار الطرقات إلى أوحالٍ أعاقت حركتهم وانسحابهم بل وحتى تموينهم، وكانت القوات الإسبانية تحاول يائسة السيطرة على التلال المحيطة بطريق الانسحاب، غير أنها كانت تفشل في معظم المرات، وعند وصول بقايا الرتل إلى "شيروتا" متوجها لسوق الأربعاء، وقع في كمين عظيم يوم ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني أوقع فيه أكثر من ألف قتيل.

توقف بعدها ما تبقى من قوات الاحتلال في سوق الأربعاء للتعافي من آثار المعارك وإعادة تموين الجنود وعلاج الجرحى، ومكثوا ثلاثة أسابيع في أماكنهم بسوق الأربعاء، ولم تحدث مناوشات مع الثوار سوى القليل. ثم في ١٠ ديسمبر/كانون الأول استأنف الإسبان التحرك، وكان تكتيك الانسحاب نفسه، ويقتضي السيطرة على القمم والمرتفعات المطلة على الطريق بينما يتحرك الرتل، وذلك لتأمينه من ضربات الثوار. غير أن هذا الأسلوب لم يفلح يوما مع الثوار الذين تعودوا على الحركة السريعة والإغارة الخاطفة، وفعلا كانت القوات طول طريقها نحو زينات تتعرض للكمائن الضارية خاصة في بني موسى.

تجمع من تمكن من النجاة في بلدة زينات، وكان الطريق إلى تطوان قد أغلق من قبل الثوار المتمركزين في جبال غرغيز، وبعد أن أيست القوات المتجمعة في زينات من قدوم تعزيزات أخرى، قرروا إكمال الانسحاب سريعا إلى تطوان، وفي ١٢ ديسمبر/كانون الأول استكملوا المسير، واتخذوا من تلة "كيريكيرا" نقطة اسناد بالرشاشات لتغطية الرتل. غير أن وجود الثوار في جبال غرغيز كان قاتلا. إذ أن هذه الجبال كانت تسطوا على تطوان وتحكم طُرقها الرئيسية. وقد حاولت القوات الإسبانية المتمركزة في تطوان أكثر من مرة أن تطهّر جبال غرغيز لتأمين انسحاب الرتل، غير أنها كانت تفشل في كل مرة وتتكبد خسائر هائلة أمام سرعة حركة الثوار وتمويههم المحكم وقدرتهم على الالتفاف والتطويق. وبعد أيام شاقة استطاع جزء من الرتل الوصول إلى بني قريش في ١٣ ديسمبر/كانون الأول لينتهوا بعدها إلى تطوان، أما الجزء المتبقي فقد كان مصيره كمصير رفاقه في أنوال.



الانهيار الإسـباني أمام ضربات الثـوار في الجبهة الغربية بين 1923 و1925
انسـحاب سفينة كاتالونيا نحو إسبانيا
سبتة
القصر الصغير
طنجة
تطوان
سمسة
عين الحصن
بني صالح
بني قريش
غرعيز
زينات
بني موسى
سوق الأربعاء
بني عروس
شيرونا
وادي لاو
سولانو
شفشاون
تزروت
أصيلة
ميغارت
أولت
العرائش
القصر
الكبير
تاتوف
المشراح
تيناف
أكراط
الأسيف
تازة
أمتار
الجبهة
سيدي سليمان
A4
A6
N1
A1
N16
1 16 فبراير: قطع الإمدادات عن مركز أمتار بشـكل كامل وانسـحاب سـفينة كاتالونيا.
2 4 يوليو: خروج رتل إسـباني لفك حصار مراكز وادي لاو وفشـله في ذلك.
3 30 أغسـطس: فشـل القائد فرانكو في إيصال الإمدادات إلى مركز سولانو.
4 6 سـبتمبر: وقـوع رتل المؤازرة الذي خرج من تطـوان في كمين محكم قريبا من زيات.
5 7 سـبتمبر: وقوع رتل المؤازرة الثاني بكمين في سمسـة.
6 14 سـبتمبر: إبادة المراكز المنتشرة على طول وادي لاو.
7 23 سـبتمبر: فشـل حملة السـيطرة على جبال غرغيز وتعرضها للعديد من الكمائن.
8 26 سـبتمبر: فشـل حملة تطهير سـوق الإربعاء وتعرضها للعديد من الكمائن.
9 28 سـبتمبر: نجاح رتل فرانكو وكاسـترو في الوصول إلى شفشـاون لسحب القوات منها.
10 26 أكتوبر: إخلاء المراكز في ذراع الأسـيف وتعرضهـا للعديد من الكمائن.
11 28 أكتوبر: إخلاء سـوق الخميس في بن عروس.
12 12 نوفمبر: تم إخلاء جميع المراكز حول شفشـاون.
13 15 نوفمبر: كاسـترو يبدأ عملية إخلاء شفشاون.
14 19 نوفمبـر: إبادة جزء كبير من الرتل إثر كمين في شـيرونا.
15 10 ديسـمبر إخلاء سـوق الإربعاء والوقوع في عدة كمائن.
16 13 ديسـمبر: إخلاء زينات نحو بني قريش ثم تطوان.
كمين للثوار
المسـارات الرئيسية لتقدم الثوار
المسـارات الرئيسية لانسحاب الإسبان
مركز إسباني
سـيطرة الإسبان بعد الانسحاب
مركز الخطابي للحروب الثورية
الخريطة رقم (14)
KH_ATTABI_RW

ومع بداية سنة ١٩٢٥، كان الإسبان قد تمركزوا في تطوان، بينما خسروا جميع المناطق الجنوبية لها وصولا إلى طنجة، ولم يبق معهم في الغرب غير القصر الكبير والعرائش وبعض البلدات المحيطة بهما. وقد كان لنصر شفشاون أثر كبير في انضمام قبائل أنجرة ومنطقة لوكوس للثورة[٨٤]، تماما كما كان الفضل لأنوال في انضمام القبائل الشرقية. وتحققت سيطرة عبد الكريم التامة على شمال المغرب، وبعدها دخلت ٥٥ قبيلة إلى دولته من أصل ٥٨ قبيلة كانت من المفترض أن تكون تحت الحماية الاسبانية. واعترفت الحكومة الإسبانية في تعدادها الرسمي أن خسائرها في الستة أشهر الأولى من عام ١٩٢٤قد بلغت ٢١٢٥٠ قتيلا وجريحًا وأسيرًا.

[٨٤] في ديسمبر ١٩٢٤، تمردت جل قبائل أنجرة وخرجت المناطق غرب سبتة عن السيطرة، فتم تكليف الجنرال سارو والمقدم فرانكو بقمع أنجرة. فقام سارو بتنظيم رتل في تطوان وتم تنظيم رتل فرانكو في دار ريفين. وبحلول ٢٣ ديسمبر ١٩٢٤، كان رتل سارو قد جهز بشكل كامل، وبالتزامن مع رتل فرانكو، شن حملة ضد أنجرة، إلا أن التضاريس الوعرة والدفاع القوي جعل التقدم بطيئًا. ومع استمرار حملة أنجرة على نحوٍ سيء، أُصدرت أوامر إلى فرانكو في أوائل يناير/كانون الثاني ١٩٢٥ لتنظيم عملية إنزال برمائية في ميناء القصر الصغير الشّمالي. وتم تزويده بست سفن إنزال كبيرة، وفوجيْن من الفيلق الإسباني، وبطارية جبلية، ووحدات خدمة مختلفة، إلا أن الطقس والتيارات القوية جعلتا الهبوط مستحيلا فأُلغيت المهمة. وفي مارس ١٩٢٥، نظم الإسبان عملية هبوط برمائية ثانية في القصر الصغير، هذه المرة تحت قيادة الجنرال فيديريكو دي سوسا ريغويوس. وتم تزويده بفوجين من الفيلق تحت قيادة فرانكو وكتيبة من القوات النظامية تحت المقدم ألفاريز. بدأت القوات البحرية الإسبانية الجوية بقصف المدينة في وقت متأخر من يوم ٢٩ مارس. وهبطت الطليعة تحت قيادة فرانكو بسرعة في الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ٣٠ مارس واستولت على الميناء دون معارضة تُذكر. واستمر الإسبان في قصف أنجرة ونشر قواتهم في المنطقة، حيث وصلت قواتهم في المنطقة إلى ١٠ آلاف جندي، لكن الأمر استغرق أكثر من عام لتهدئة القبيلة، إذ لم تعلن القبيلة خضوعها إلا في ١٥ مارس ١٩٢٦ بعد سقوط أجدير وبداية تفكك الثورة الخطابية.

الفصل السادس: تداعيات التحرير على المستوى المحلّي والدّولي.

"إن الوسائل التي يمتلكها (الاحتلال) عادة، لا تمكنه من القضاء على الثوار الذين يعرفون عملهم، ويتمتعون بالتأييد الشعبي. ومن جهة أخرى، فإن قليلاً من الحكومات تتحمل التوترات السياسية والنفسية والاقتصادية الناتجة عن حرب العصابات، حتى لو كانت هذه الحكومات قوية جداً من الناحية العسكرية." [٨٥] **روبرت تابر**

أولا: آثار التحرير على المستوى المغربي.

كانت لهذه الانتصارات المجيدة الكثير من التداعيات على مستوى شمال المغرب، فبعد تحرير أدهار أوبران وسيدي إدريس وإغريبن توسعت دائرة الثورة بشكل هائل، وأصبحت مسألة قتال الإسبان أمرا بديهيا تشارك فيه جميع قبائل الريف وكرت، وفي كثير من الأحيان دون تنسيق حتى مع الخطابي. ولو قمنا بإلقاء نظرة تحليلية إلى الخريطة رقم (١٠) لوجدنا أنه منذ نصر إغريبن ٢١ يونيو/حزيران أصبحت القوات الإسبانية تتعرض للكمائن والإغارات في كل مراكزها الممتدة شمالا وجنوبا، رغم أن الخطابي وقتها كان يركز على تحرير أنوال. وإن كان هذا يدل على شيء، فهو يدل أن الشعب قد أخذ المبادرة وانطلق في الثورة المسلحة بشكل بديهي، وأوقع القوات الإسبانية في مستنقع من الجحيم لم تتوقع يوما أن تقع فيه.

كان الثوار قبل تحرير قمة أدهار أبران قلة مشككا فيها بين السكان، ولكنهم بعده أصبحوا أملا حقيقا بجدوى المقاومة وإمكانية النصر، وهو ما جعل القبائل شمال شرق المغرب تنخرط في الحراك المسلح بشكل تلقائي، وتطرد الاحتلال إلى حدود مليلية. ولم يتوقف الأمر عند الجزء الشرقي من شمال المغرب، بل توسع إلى غربه، حيث القبائل العربية في غمارة وجبالة ولوكوس. ومع الوقت خلال السنوات الأولى من الثورة، كانت معظم القبائل الأمازيغية والعربية شمال المغرب قد انضمت إلى قائد الجهاد وأمير الريف محمد عبد الكريم الخطابي.

وسريعا ما بدأت العدوى الثورية تنتقل إلى جميع سكان المغرب، حيث انطلقت الوفود من فاس خاصة لتلقى الخطابي وتنشأ معه علاقات التعاون والتنسيق، بل إن القبائل في وسط المغرب كانت تنتظر قدوم الأمير باتجاههم لتنتفض على الغزاة تماما كما فعلت قبائل الريف. وقد أكدت بعض المصادر المغربية أن الخطابي كان يريد تحرير مدينة فاس الاستراتيجية، وقد هم بذلك فعلا خلال معاركه مع الفرنسيين، غير أنه أراد التأني مخافة عدم انضباط القبائل الجنوبية المنضمّة إليه حديثا. وقد وصل التعاطف مع الخطابي إلى العاصمة المغربية "الرباط"،

[٨٥] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

حيث أكدت لنا المصادر المغربية أن العلماء هناك والخطباء -وخاصة في قبيلة زور البربرية- كانوا يدعون له فوق المنابر وفي المحافل.[٨٦]

الجدير بالذكر أن بن عبد الكريم بعد صدامه مع الفرنسين سنة ١٩٢٤ قد أرسل بدوره عددا من الرسائل الى زعماء المقاومة المسلحة في منطقة النفوذ الفرنسي يدعوهم فيها إلى مساندته للقضاء على الاستعمار. ومن ضمن رسائله كان يدعو الشعب وعلماءه لتأييده ومؤازرة حركته التحريرية، وكانت تلك الرسائل تعلق على الجدران وتوزع على البيوت، وأثمرت نتيجتها عن ظهور حركة شعبية نذرت نفسها لنشر الدعاية واستنهاض السكان لتأييد الحركة التحريرية، واتُّخذت بعض البيوت مراكز لتجميع الأسلحة وتهريبها من قبل المدنيين إلى إخوانهم المجاهدين. ومن ثمار هذه الجهود أن الناس قاموا بمقاطعة مدارس الحماية وخاصة في العاصمة فاس. وقد أوردت بعض المصادر أن حركة سرية نشأت في وسط المغرب قامت "بمهاجمة المسؤولين الفرنسيين في البلاد وخطفهم وقتلهم بشكل منظم، ردا على السياسات الفرنسية ضد المتعاطفين مع الثورة وتأييدا لجهاد الخطابي في الشمال.[٨٧]

[٨٦] لقد أحدثت رسائل الأمير الخطابي أثرها عند بعض الشعراء الذين أخذوا يشيدون ببطولة الريفيين وكفاح أبناء الشمال المغربي ضد الاحتلال. وقد ترنم الشعب المغربي طويلا بقصيدة شاعت بينهم آنذاك ومطلعها:

يابني المغرب إن الوطنَا   تقتضي سمعته ترك الونا

فاحملوا الصمصام مع سمر القنا   واسألوا الله انتصار الريفيينَ

[٨٧] محمد علي داهش: محمد عبد الكريم الخطابي صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار.

ثانيا: آثار التحرير على الإسبان.

أما على المستوى الإسباني فإن هزيمتهم أمام الخطابي مثلت لهم كارثة حقيقية، وكان وقعها عليهم فضيعا حتى كاد جيشهم في الجبهة الشرقية أن ينهار كلية، مما دفع بالمسؤولين الإسبان إلى تغيير سياستهم الاستعمارية وتكثيف قواتهم والاستنجاد بالدول الأوروبية الأخرى لتحديث ترسانتهم العسكرية. وبمجرد انتشار خبر الانتصارات الخطابية حل بإسبانيا وابل من الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكلما كانت الثورة تزداد قوة كانت جبهة العدو تشهد مزيدا من الانكماش والتدهور والتفكك. وقد شهدت سنة ١٩٢٢ أحداثا جسيمة تدل على ذلك، مثل استقالة الكولونيل "ميلان أستراي" مؤسس "الفيلق الإسباني الأجنبي" من منصبه،[٨٨] تلك الاستقالة التي كان لها دوى كبير في ظهور منظمات باسم "لجان الدفاع"، تطالب بإصلاح الأحوال المادية للجيش وتصفية الفساد الإداري، وقد انتهى الأمر بالملك ألفونصو الثالث عشر أن حظرها ومنعها.

كما أن الرأي العام الإسباني كان شديد القلق على مئات الأسرى (حوالي ٦٠٠) الذين كانوا بحوزة الثوار. وانقسم الرأي العام السياسي إلى حد كبير في كيفية معالجة الموقف مع بن عبد الكريم بين أنصار الشدة وأنصار اللين. ومن العسكريين أنفسهم من كان يرى ترك المغرب لأهله رغبة في توفير الدماء والذهب الذي كانت تستنزفه الحرب. وشاعت في صحافة إسبانيا عبارات مثل "المغرب مقبرة الشباب الإسباني"، و"المغرب كيس مثقوب"، وانتهى الأمر بانقلاب عسكري ضد الحكومة الإسبانية سنة ١٩٢٣، وإعلان الديكتاتورية العسكرية بقيادة الجنرال بريمودي ريفيرا[٨٩] "لتقويم الحياة السياسية"، كل ذلك بسبب القضية المغربية. وقد جاء الديكتاتور أول أمره بفكرة "بدت انهزامية" للضباط العسكريين الآخرين وهي: "الجلاء الكامل من المغرب". ولكنه تراجع بعد ذلك عنها تحت ضغط اليمينيين، وبعد تشجيعات كل من بريطانيا وفرنسا ليقرر الإجلاء الجزئي عن منطقة الشاون فقط.[٩٠]

---

[٨٨] خوسيه ميلان-أستراي إي تيريروس (٥ يوليو ١٨٧٩ - ١ يناير/كانون الثاني ١٩٥٤) كان جنديًا إسبانيًا وأول قائد ومؤسس الفيلق الإسباني، وشخصًا بارزا في وقت مبكر من نظام فرانثيسكو فرانكو في إسبانيا. كان ضابط معروفا بجسده المشوه خلال فترة وجوده في الجيش حيث فقد ذراعه اليسرى وعينه اليمنى وأصيب عدة مرات في الصدر والساقين.

[٨٩] ديكتاتور أرستقراطي وضابط عسكري. ولد بإسبانيا في الثامن من يناير/كانون الثاني سنة ١٨٧٠م، استلم منصب رئيس وزراء إسبانيا منذ ١٩٢٣ إلى ١٩٣٠ وقاد وبدعم من الملك ألفونسو الثالث عشر والجيش انقلابا عسكريا استوحاه من انقلاب موسوليني في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ ثم عينه الملك رئيسا للوزراء، فوعد بالقضاء على الفساد وتجديد إسبانيا. ومن أجل القيام بذلك علق الدستور وأرسى الأحكام العرفية وفرض نظام رقابة صارم وأنهى نظام تداول السلطة للأحزاب المتناوبة.

قال بريمو دي ريفيرا في البداية أنه سيحكم لمدة ٩٠ يومًا فقط، لكنه فضل البقاء في السلطة. فأسس الدكتاتورية على شكل مجلس عسكري تحت سلطة صورية للملك (١٩٢٣-١٩٢٥)، ثم تلتها إدارة مدنية (١٩٢٥-١٩٣٠) برئاسته أيضا. وتمكن من حل مشكلة المغرب بفضل إنزال الحسيمة ١٩٢٥.

[٩٠] محمد العربي المساري: نفس المصدر السابق.

طور الديكتاتور فكرته فيما بعد بشأن الانسحاب فاتجه إلى تحرك تكتيكي يهدف إلى تجميع القوات في قواعد انطلاق جديدة مع إعادة تنظيمها، وفي مرحلة من الحرب أعرب ريفيرا عن الرغبة في التفاوض مع الخطابي، وأبلغ ذلك إلى الحاج عبد السلام بنونة، وهو وزير المالية لفترة قصيرة في الحكومة المغربية، وقد تولى إبلاغ هذه الرغبة إلى زعيم ريفي آخر مقيم بطنجة يدعى عبد الكريم اللوه. كما قام الديكتاتور الإسباني بتجديد الاتصال مع الشريف الريسوني في الغرب ليقوم بمواجهة تمدد الخطابي، إلا أن توسع الثورة نحو مناطق غمارة ثم جبالة كان له أثر مباشر في إفشال خطط الإسبان.

ثالثا: آثار التحرير على المستوى الدولي.

وقف الرأي العالمي من الحركة التحريرية الريفية موقفين متقابلين بين مؤيد ومعارض. فالتيار المعارض هو بطبيعة الحال، التيار الاستعماري الذي له مصالح كثيرة ومشاريع لها علاقة بالمستعمرات، خاصة في الشمال الإفريقي، حيث كان من الطبيعي أن يقف هذا التيار مدافعا ومؤيدا لكل السياسات التي كانت ترمي إلى تقوية النفوذ الاستعماري وخدمة أطماعه، ولكن بأقل التضحيات. وقد انضافت إليه، ومن تلقاء نفسها، أصوات يهودية كانت تعتبر نجاح الثورة الريفية بمثابة القضاء الأكيد على تواجد الجاليات اليهودية بالشمال الإفريقي.

وقد سجل شكيب أرسلان في فصله عن حرب الريف أن "الحاصل في المستعمرات هو سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض، فلا تجد قطرا تحت استعمار أمة أوروبية قامت فيه ثورة، إلا وضعت جميع البلدان الاستعمارية أيديها على قلوبها الواجفة، ترجو أن ينتهي الخطب بظفر الدولة الاستعمارية، حتى لا تدب الثورة إلى المستعمرات الأخرى، ويتبع بعضها أثر بعض. والإسلام في نظر أهل أوروبا أمة واحدة مهما تفككت أجزاؤه وتباعدت أقطاره."[٩١]

أما في البلدان الفقيرة والشعوب المضطهدة، كما كان الحال في أمريكا اللاتينية وشرق آسيا والعالم الإسلامي، فقد كانت شعوب القارة الأمريكية الجنوبية تنظر إلى الخطابي بمثابة بطل ثوري عالمي يشبه عندهم سيمون بوليفار[٩٢]. كما اعتبرت الحركات التحررية محمداً أستاذا فذّا في فنون الثورات، ومرجعا أساسيا في التكتيكات الحربية، مناضلا نبيلا في طريق الحرية.

---

[٩١] أرسلان: حاضر العام الإسلامي.

[٩٢] عسكري وسياسي فنزويلي وُلد في كاراكاس عاصمة فنزويلا في ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣. هو مؤسس ورئيس كولومبيا الكبرى، وواحد من أبرز الشخصيات التي لعبت دورًا هامًا في تحرير الكثير من دول أمريكا اللاتينية التي وقعت تحت طائلة الحكم الإسباني منذ القرن السادس عشر مثل كولومبيا وفنزويلا والإكوادور وبيرو وبوليفيا وبنما.

لقد أصبح محمد عبد الكريم الخطابي رمزا وقدوة لدى الكثير من زعماء الثورات، أمثال هوشي منه[٩٣]، وماوتسي تونغ[٩٤]، وعمر المختار[٩٥]، وتشي جيفارا[٩٦]، وفيديل كاسترو[٩٧].

---

[٩٣] هو شى منّه (١٩ مايو ١٨٩٠ - ٢ سبتمبر ١٩٦٩) الرئيس الأول لفيتنام الشمالية (١٩٤٥ - ١٩٦٩) ورئيس الوزراء فيها (١٩٤٥ - ١٩٥٥) ومؤسس الدولة الفيتنامية الشمالية، ورائد النهضة القومية في الهند الصينية. خاض مع رفاقه حروبا محدودة ضد الاستعمار الفرنسي. سنة ١٩١٧، التحق بالحزب الشيوعي الفيتنامي. وعام ١٩٤٠ دخلت اليابان الحرب ضد فرنسا فاحتلت فيتنام وبسطت نفوذها مكان الفرنسيين، فواصل هو شى منه نضاله السياسي والعسكري ضد اليابانيين. توفي في أيلول ١٩٦٩ دون أن يحقق حلمه التاريخي بتحرير الجنوب وإقامة دولة فيتنام الموحدة، لكن مع استمرار القتال من قِبل الثوار وتحريرهم للمدن الفيتنامية الجنوبية الواحدة تلو الأخرى وتراجع القوات الأمريكية استطاعت قوات الفيتكونغ في ٢٩ نيسان ١٩٧٥ إسقاط العاصمة سايجون نفسها وتغيير اسمها فورا إلى مدينة "هو شي منه".

[٩٤] ولد ماو في ٢٦ ديسمبر ١٨٩٣، كان زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ ١٩٣٥ حتى وفاته. كان سياسياً وقائداً عسكرياً صينيًا. أخذ ماو على عاتقه تمدن الصين وتحويلها إلى أمة عصرية قوية، بدأ بالعناية بالتعليم والتصنيع والصحة. حوّل النظام الاقتصادي من رأسمالية إلى اشتراكية. توفي في ٩ سبتمبر ١٩٧٦ عن عمر ناهز (٨٢) عاما، ودفن في بوابة الصين التي أصبحت تعرف بضريح ماو تسي تونغ.

[٩٥] أحد أشهر المقاومين العرب والمسلمين. ولد عمر المختار سنة ١٨٥٨، وحارب الإيطاليين في ليبيا لأكثر من عشرين عامًا خلال عدد كبير من المعارك، حقق خلالها في صفوف القوات المحتلة خسائر كبيرة وفادحة، إلى أن قُبض عليه من قِبل الجنود الطليان، وأجريت له محاكمة صوريّة انتهت بإعدامه شنقًا سنة ١٩٣١.

[٩٦] إرنستو "تشي" جيفارا (١٤ يونيو ١٩٢٨ - ٩ أكتوبر ١٩٦٧) المعروف باسم تشي، ثوري كوبي ماركسي أرجنتيني المولد، وهو طبيب وكاتب وزعيم حرب عصابات وقائد عسكري ورجل دولة عالمي وشخصية رئيسة في الثورة الكوبية. أصبحت صورته المنمقة منذ وفاته رمزاً في كل مكان وشارة عالمية ضمن الثقافة الشعبية.

[٩٧] ولد سنة ١٩٢٦ وتوفي سنة ٢٠١٦، وهو قائد الحركة الثورية الكوبية سنة ١٩٥٦، واجه فيها حكومة باتيستا الخاضعة للنفوذ الأمريكي. أصبح رئيسا لكوبا سنة ١٩٦٠ بعد إطاحته بنظام باتيستا. وهو شيوعي ملحد، قام بتطبيق الاشتراكية في الحكم وفرض نمط الحزب الواحد. قادت أمريكا ضده عدة محاولات للإطاحة به إلا أنه أفشلها جميعها. تنازل عن رئاسة كوبا سنة ٢٠٠٨، وتوفي في عمر يناهز التسعين عاما.

الفصل السابع: الحكومة الثورية في المناطق المحرّرة.

"أنا لا أريد أن أكون أميرا ولا حاكما، وإنما أريد أن أكون حرّا في بلدٍ حرّ، ولا أطيق من سلب حريتي أو كرامتي...

لا أريدها سلطنة ولا إمارة ولا جمهورية ولا محمية، وإنما أريدها عدالة اجتماعية، ونظامًا عادلاً يستمد روحه من تراثنا." [٩٨] **محمد بن عبد الكريم الخطابي**


علم جمهورية الريف

بعد انتصاره في أنوال وانسحاب القوات الإسبانية عن الريف، دعا محمد بن عبد الكريم الخطابي القبائل إلى اجتماع عام في معسكره، وعقد مؤتمرا شعبيا عاما حول ضرورة الدفاع عن الريف وتأسيس نظام سياسي ينظم حياة السكان، فتم تشكيل مجلس عام للشورى عرف بالجمعية الوطنية وذلك في ١٨ سبتمبر/أيلول ١٩٢١، يتمثل دور هذا المجلس في تنظيم عمليات التجنيد والتدريب والتوسع العسكري، وإدارة الشؤون المدنية والاجتماعية والسياسية للبلاد.

وفي ١ فبراير/شباط عام ١٩٢٣، أُعلن رسميا عن دولة الريف التي تم تسميتها "الجمهورية الاتحادية لقبائل الريف"[٩٩]، واتخذ لها علم أحمر اللون تتوسطه نجمة خضراء ضمن هلال أخضر في معين أبيض. عاصمتها كانت أجدير، أما حاكمها ورئيسها فهو الأمير محمد عبد الكريم الخطابي. وكبداية إصلاح اقتصادي اعتمدت الدولة

---

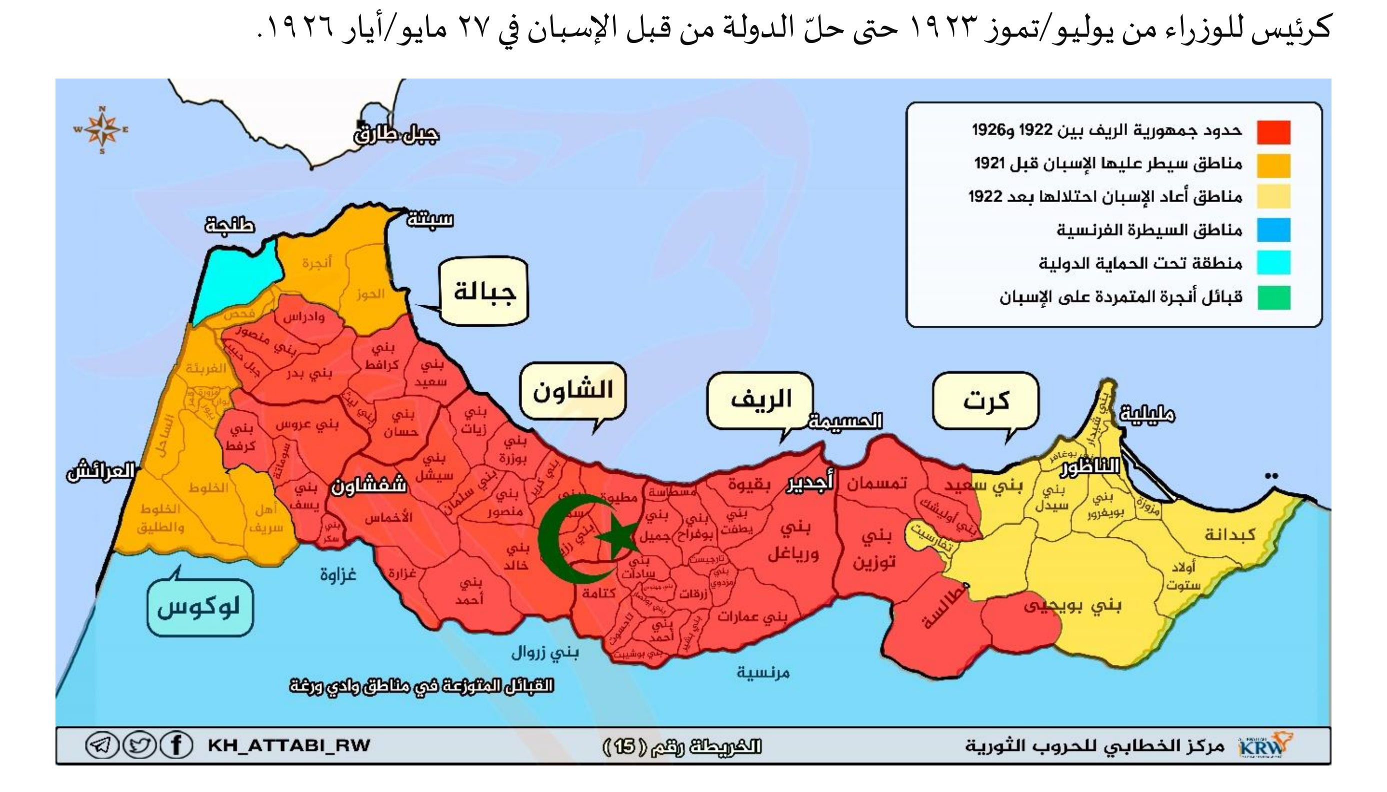
[٩٨] عبد الكريم الخطابي وحرب الريف Muḥammad Sallām Amzayān

[٩٩] بالنظر إلى طريقة اختيار الخطابي كأمير على الريف وطريقة تسييره لشؤون الناس فيه وطبيعة اتخاذ القرار في الحكومة، نعلم أن الخطابي باختياره لاسم "الجمهورية" لم يقصد أبدا إقامة نظام علمانيّ الفلسفة، بل على العكس من ذلك فقد كانت مرجعيته لا تخرج عن الشريعة الإسلامية، وكان اختيار الحاكم والولاة في دولته لا يتم بنمط ديمقراطي مباشر بل برضى أهل الحل والعقد من أعيان القبائل وكبراءها، والغالب أن اتخاذ الخطابي لهذا الاسم يريد به أهدافا دعائية، ليدفع عن دولته شبهة الكيان الديني بالمفهوم المشوه لدى الغرب، وهو ما يفسر أن جميع مراسلاته الدبلوماسية لم ترد فيها كلمة الجمهورية بل "حكومة الريف" أو "إمارة الريف". لم يشأ تسمية كيانه السياسي بالسلطنة أو المملكة حتى لا يصنف خارجا عن السلطة المغربية، وحتى لا يأخذ عنه الشعب المغربي انطباعا سلبيا لما ترسخ في أذهانهم سابقا من صورة وحشية عن الجهات المتمردة التي كانت تسعى للسلطة باسم الدماء الملكية.

والراجح أن الخطابي لم يكن يريد نظاما مطابقا للأنظمة الغربية في كل شيء، ولا نظاما كالأنظمة الملكية المتوارثة، ولا نظاما شبيها بنظام الخلافة القهرية كالذي كان قائما بعد الخلافة الراشدة، بل أراد الجمع بين هذا وذاك في نموذج مثالي يجمع إيجابيات كل واحد منها، بحيث يكون نظام دولته عصريا مؤسسا على الفنون الإدارية والقانونية المتطورة، وفي نفس الوقت موافقا لأعراف ودين الشعب المغربي ومراعيا لرأي أعيانه ووجهائه. وهو ما يعني تأسيس الدولة وفق الاجراءات والنظم الغربية المتطورة، دون احتكار الحكم في عائلة بعينها، ودون نقل فلسفة الإلحاد التي ظهرت في أوروبا بعد الثورة الفرنسية.

لنفسها عملة رسمية أسمتها "الريفان"، كما حددت عيدا وطنيا رسميا في يوم استقلالها (١٨ سبتمبر/أيلول). وقد كان عدد سكان الريف في تلك الفترة يبلغ حوالي المليون نسمة، يقطنون مساحة تبلغ ٢٨ ألف كيلومتر مربع.

بدايةً كان الخطابي يشغل منصب رئيس الدولة ورئيس الوزراء في نفس الوقت، ثم تم تعيين الحاج الحاتمي كرئيس للوزراء من يوليو/تموز ١٩٢٣ حتى حلّ الدولة من قبل الإسبان في ٢٧ مايو/أيار ١٩٢٦.



أولا: المؤسسات الدستورية للدولة:

كانت القوانين والدساتير والنظم الداخلية والإجراءات القانونية في الدولة الريفية تعود بالأساس إلى ثلاثة مراجع تشريعية:[١٠٠]

١. المجلس العام.
٢. الميثاق الوطني.
٣. الدستور.

[١٠٠] محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار.

١) المجلس العام (الجمعية الوطنية):

وقد مر الحديث عن مهامه وصلاحياته، حيث يضم أعيان القبائل وشيوخها، والقيادات الثورية الرفيعة، وهو الجهة الرسمية التي أعلنت عن استقلال الريف، وتشكيل الجمهورية برئاسة الخطابي، وتشكيل الحكومة أواخر سنة ١٩٢١.[١٠١]

٢) الميثاق الوطني:

شرع المجلس العام في صياغة ميثاق وطني ليكون منهجا عاما للثورة يرشد الشعب خلال كفاحه ونضاله من أجل الحرية والاستقلال والسيادة، وينظم التعامل مع الدول الأخرى على أساس المصلحة الوطنية والاعتراف بحقوق البلاد في السيادة والاستقلال والمنافع المتبادلة. فكانت أولى مهام الجمعية الوطنية بعد تشكيلها صياغةُ هذا الميثاق، ليكون أيضا مرجعا ومنطلقا لدستور الدولة. وقد تأسس الأخير على جملة من الثوابت:[١٠٢]

١. عدم الاعتراف بكل معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية، وخاصة معاهدة ١٩١٢.[١٠٣]
٢. جلاء الإسبان عن تطوان والعرائش وكل المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الإسبانية الفرنسية سنة ١٩١٢، فلا يبقى لإسبانيا سوى سبتة ومليلية.
٣. الاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية.
٤. يجب على إسبانيا أن تدفع تعويضات للريفيين عن الخسائر التي ألحقتها بهم جراء الاحتلال في السنوات الاثني العشر الماضية، كما يلزمها أن تدفع فدية لتحرير الأسرى الذين وقعوا في قبضتنا.
٥. انشاء علاقات ودية مع كافة الدول دون تمييز، وعقد معاهدات تجارية معها.

٣) الدستور:

عقد المجلس العام (الجمعية الوطنية) اجتماعات عديدة لوضع دستورٍ للبلاد المحررة، يقوم على أساس سلطة الشعب. وقد أُخذ بعين الاعتبار أثناء صياغة الدستور ظروفَ الحرب التي كانت تشهدها المنطقة، بحيث قام

---

[١٠١] محمد علي داهش: المصدر السابق

[١٠٢] رشدي الصالح ملحس: سيرة الأمير محمد الخطابي

[١٠٣] تم توقيع هذه المعاهدة في ٣٠ مارس ١٩١٢، تنازل بموجبها السلطان عبد الحفيظ عن سيادة المغرب لصالح الدول الأوروبية، جاعلا المغرب تحت الحماية الفرنسية والإسبانية والدولية. انقسمت المغرب بمعاهدة فاس إلى ثلاث محميات:

١) المنطقة الشمالية والمنطقة الصحراوية في الجنوب تحت الحماية الإسبانية.
٢) المنطقة الوسطى تحت الحماية الفرنسية.
٣) مدينة طنجة خضعت لحماية دولية بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا.

الخطابي بتركيز كل السلط في يده، ليتمكن من مجاراة الظروف المتغيرة بفاعلية، واتخاذ القرارات الحاسمة في الحرب والسلم دون تعطيل. وبهذا الصدد يقول الخطابي: "وضعت دستورا للبلاد مبدؤه سلطة الشعب، وجعلت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في يد الجمعية الوطنية، أي أن الدستور لم يفصل بين السلطتين وفقا للقواعد الدستورية الأوروبية، وجعلت رئيس الجمهورية رئيسا للجمعية الوطنية، ويحتّم هذا على كل شيخ وزعيم وقائد من أعضاء المجلس تنفيذ المقررات التي تُقرّها الجمعية، وهؤلاء مسؤولون عنها تجاه الرئيس بصفته رئيس الحكومة، والرئيس مسؤول عنها إزاء الجمعية".[١٠٤]

تضمّن الدستور أربعون مادة، من ضمنها البنود التالية:

١. يعدّ رئيس الجمهورية رئيسا للمجلس العام (الجمعية الوطنية).
٢. على أعضاء المجلس العام تنفيذ قرارات التي يقرها المجلس حتى لو كانوا أثناء المشاورة مخالفين لها، وهم مسؤولون عن ذلك أمام رئيس الجمهورية بصفته رئيسا للمجلس، والرئيس معرض أيضا بدوره للمساءلة عنها أمام المجلس.
٣. تشكيل الأجهزة الحكومية، وتعين الوزراء لإدارة شؤون الحكم وتنظيم الأحوال الداخلية للبلاد.
٤. اختيار علم الدولة.
٥. جعل أجدير عاصمة للدولة، ومعسكرا لجيشها.[١٠٥]

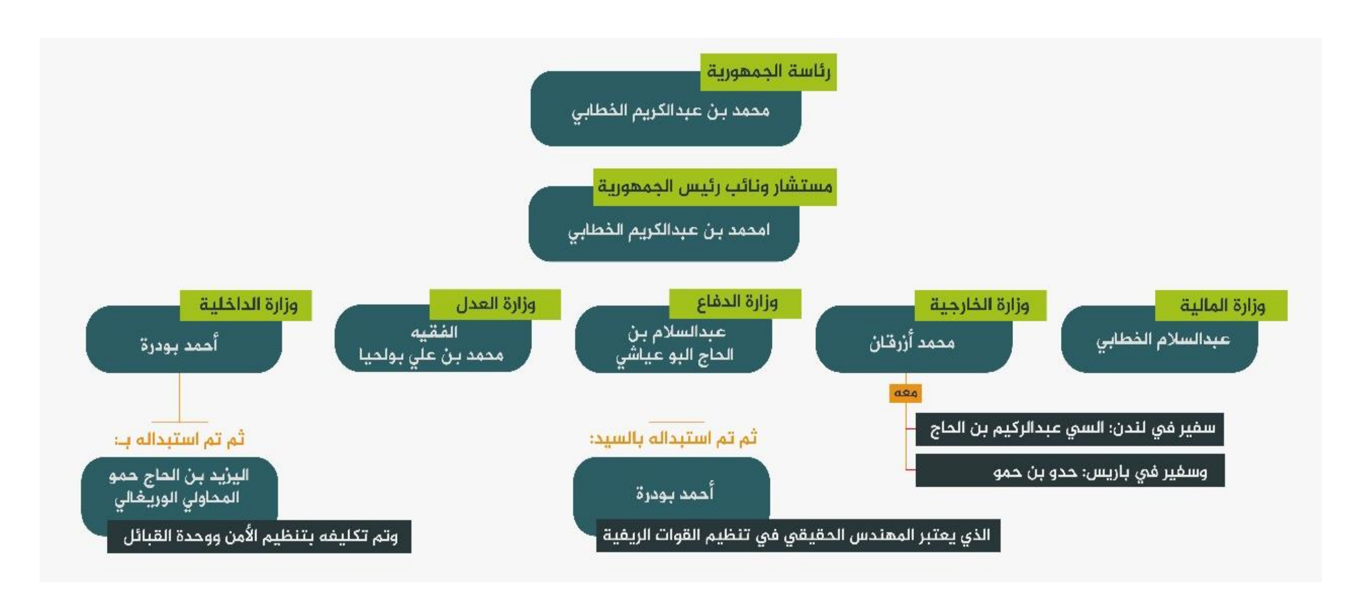
[١٠٤] الباحث المغربي سليمان الريسوني: نفس المصدر السابق.

[١٠٥] سيرة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها _ رشدي الصالح ملحس.

ثانيا: الحكومة.

لم ينص دستور الجمهورية إلا على تعيين أربعة مناصب رئيسية، وهي: رئاسة الوزراء، ووزارة الخارجية، ووزارة المالية، ثم وزارة التجارة، أما بقية الوزارات كالداخلية والدفاع، فقد جعل الدستور تعيينها من اختصاص رئيس الجمهورية. وإلى جانب الوزراء وكبار موظفي الدولة ممن عرضنا لوظائفهم سابقا، كان الخطابي محاطا بمجموعة من المستشارين يحظون بالكثير من التقدير.[١٠٦]

وحسب المصادر فإن التعيينات في الدولة الريفية كانت على الشكل التالي:



كما قام الخطابي بتعين بعض المراقبين والمساعدين في بعض الوزارات من أجل إدارة شؤونها ومتابعة سير العمل فيها، ومن هذه التعيينات:[١٠٧]



---

[١٠٦] عبد الرحمن اليوسفي: "المؤسسات الدستورية للجمهورية الريفية" ضمن كتاب "عبد الكريم وجمهورية الريف".

[١٠٧] رشدي صالح ملحس: سيرة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها.

وقد أعلن الخطابي عن تشكيل حكومته بمنشور رسمي مراعيا التقاليد الدبلوماسية السائدة آنذاك بين دول العالم، ثم أبلغ هذا المنشور إلى الدول الأوربية وعصبة الأمم. واتجه ابن عبد الكريم بعدها إلى تنظيم الأحوال الداخلية للمنطقة، فاعتمد نظام الحكم المركزي، وجاء النظام الإداري على الشكل التالي:

- قطاعات إدارية عسكرية يديرها الباشوات (القائد العسكري للمنطقة)، ويقع مقرها المركزي في المدينة المهمة بالقطاع.
- وحدات إدارية ضمن قطاعات الإدارة المدنية تُدعى المحاكم (المحافظة)، يديرها المندوب (المحافظ)، ويساعده نائبٌ وقوة من الشرطة.

يرتبط قادة القطاعات الإدارية بوزارة الداخلية، وعلى هذا فالتنظيم الإداري يعبّر عن الصيغة المركزية والمحلية في الدولة. وقد روعي في تقسيم القطاعات الإدارية مجموعة القبائل التي تقيم في كل واحد منها، حيث كان يتولى تنظيم أمور كل مدينة قائدٌ يكون في نفس الوقت زعيما محليا أو شيخا للقبيلة، ويكون تابعا لرئيس الوحدة الإدارية (مندوبا عنده).

كما عينت الحكومة عددا من المفتشين مرتبطين بها مباشرة، يتولون مهمة مراقبة القادة، وحسن تسييرهم للأمور المدنية للأهالي. والمحاكم التي تقع في مراكز الوحدات الإدارية (المدن المهمة) تكون عادة مقرا للباشوات والمندوبين في نفس الوقت، كما أنها مزودة بالحرس والهواتف، وفيها المخازن الخاصة بالسلاح، وهو ما أوجد مرونةً وتنسيقا كاملا بين الموظفين العسكريين والمدنيين.[١٠٨]

كان من مميزات أسلوب الحكم عند الخطابي أنه كان يرأس اجتماعات شهرية لقادة المناطق الإدارية بغية تسهيل الاتصال والتنسيق بين مختلف أجهزة الحكومة[١٠٩]. وكان لهذا التنظيم الإداري على مستوى المدن والمناطق الكبرى أثره الكبير في ربط الوحدات الإدارية الصغيرة والكبيرة ببعضها البعض تحت حكم مركز ومتماسك. كما ظهرت إيجابيات هذا التنظيم في تسريع حشد القوات العسكرية عند الحاجة، ويعود ذلك بالأساس أن الوحدات الإدارية كانت وحداتٍ عسكرية بنفس الوقت[١١٠].

[١٠٨] محمد العلمي: زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي / والبو عياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٠٩] محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار.

[١١٠] البو عياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

ثالثا: المؤسسة العسكرية.

لم تقم دولة الخطابي نتيجة اتفاقات سياسية أو صناعة دولية، بل قامت بعد نضال مرير وحرب طاحنة ومسيرة طويلة من البذل والعطاء، فهي ذات طبيعة حربية وعسكرية بالأساس قبل أن تهتم بالجوانب الخدمية والسياسية. هذا ما جعل الخطابي يخصّ الجيش باهتمام كبير على مستوى التنظيم والتدريب والتسليح والتعبئة. وقد استطاع أن يكوّن جيشا منظما من رجال القبائل يؤمن بحرية بلده واستقلاله ويقاتل جيوشا أكبر منه عددا وأكثر تقدما في معداته العسكرية. ساعده في ذلك الجنود الريفيين ذوي الخبرة العسكرية اللذين انشقوا عن الجيش الإسباني ونقلوا تجاربهم إلى الثوار، بالإضافة إلى استقطاب بعض الخبراء الأوروبيين أمثال الألماني جوزيف كليمس المعروف بـ "الحاج ألماني" الذي كان يعمل بالمخابرات الألمانية ثم انضم إلى الجيش الريفي وتزوج بريفية واستقر بالمنطقة.[١١١]

١) نظام التجنيد:

قُدّرت نواة الجيش الريفي قبل تحرير جبل أدهار أوبران بـ ٣٠٠ مقاتلا متطوعا. إلا أنه بعد الانتصارات المبهرة التي حققها الثوار في سيدي إدريس وإغريبن وأنوال، تدفق المجندون إلى صف الثوار وازدادت أعدادهم وتعاظمت عدتهم. وقد وصل عدد الثوار المنتظمين بعد أنوال مباشرة إلى حدود الخمسة آلاف مقاتل، ثم ازداد العدد كثيرا بعد التمدد نحو تطوان ودخول قبائل غمارة وجبالة ولوكوس إلى الثورة الخطابية، ليصبح سنة ١٩٢٥ وفقا لبعض المصادر مقاربا لستين ألف مقاتل من القوات النظامية والرديفة. ونتيجة لهذا التطور، كان لابد من تنظيم تلك القوات على أسس عصرية تراعي حاجيات البلاد الدفاعية. وكان الخطابي هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، إضافة إلى كونه رئيسا عاما للجمهورية.[١١٢]

الجدير بالذكر أن نظام التجنيد في المراحل المبكرة من الثورة كان قائما بشكل أساسي على مبدأ التطوع، غير أن الخطابي بعد إعلانه للدولة وانخراط القبائل تحت قيادته ونفوذه، أمر بتطبيق نظام عسكري إجباري يقتضي إلزام كل قبيلة بتقديم نصف رجالها الذين تتراوح أعمارهم بين سنّ البلوغ والخمسين سنة. وعلى هذا الأساس طلب الخطابي من أعضاء المجلس العام إحضار لوائح بأسماء جميع القادرين على حمل السلاح لفرزهم وتنظيمهم. وسيأتي معنا في الفصل الحادي عشر من البحث تفصيل عن التشكيل العسكري الذي اعتمده الخطابي وأنواع الأسلحة التي كان يستخدمها الثوار.

[١١١] علي الإدريسي: نفس المصدر السابق.

[١١٢] رشدي صالح ملحس: نفس المصدر السابق.

٢) التسليح الثوري:

كانت القبائل الريفية تمتلك السلاح بشكل نسبي قبل انطلاق الثورة، حيث كان أفرادها يشترون قطع الأسلحة الإسبانية التي أصبحت تطرح في السوق السوداء بكثرة بعد سنة ١٩١٢، كما قام الإسبان أنفسهم يلعبون دورا كبيرا في توفير الأسلحة لرجال القبائل كجزء من سياستهم في صنع التناحر الداخلي وتفكيك اللحمة الريفية، وبحسب الخطابي "فإن السلاح كان موجودا عند أكثر الناس في الريف كما أن شراءه كان أمر هيناً، حتى أننا كنا نشتريه من الإسبان بالأقل من المال."[١١٣] كما كانت الانتصارات المتكررة على الإسبان **هي المصدر الأساس والأول للحصول على الأسلحة النوعية وخاصة الثقيلة**. وحتى بعد إطباق الحصار على الدولة الريفية من قبل الإسبان والفرنسين سنة ١٩٢٥، لم تكن ذخائر غنائم أنوال وشفشاون قد نفذت بعد، وبحسب الخطابي: "لم أكن بحاجة إلى شيء من السلاح يحمل إليّ من الخارج، وقد أشرت إلى سبب ذلك، وهو أن ما غنمناه في معركة أنوال وشفشاون من الذخائر وأنواع العتاد الحربية حتى ما يتصل بأسلاك التلفون وغيرها، كانت كثيرة، بحيث أنها كانت كافية لحاجات الجيش الريفي مدة طويلة... والواقع أننا لم نفكر مطلقا بالسعي للحصول على ذخائر وأعتاد حربية من الخارج، هذا عدا أربعمائة بندقية، اشتريناها من أحد التجار الأجانب حملها إلينا بواسطة باخرة انكليزية، وأما ما بقي من البنادق والخرطوش والمعدات الأخرى التي كان جيشنا بحاجة إليها، فقد أغنانا الاسبان عن شرائها باستخلاصنا منهم المقادير الوفيرة من هذه الأنواع في المعارك التي انتصرنا بها، والتي يعرف العالم من أخبارها شيئا كثيرا، ويجب أن أضيف الى ذلك أيضا ماكنا نستخلصه في المناوشات الصغيرة، فإن هذه إذا عدّت وجمعت كانت قدرا عظيما، ولكني لست أنكر أن تهريب السلاح في المنطقة الاسبانية كان أمرا واقعا، وأن أكثر هذا السلاح المهرب كان يصير إلى الريف في آخر الأمر، فكنا نأخذ حاجتنا منه، فيتضح من ذلك أن الذخائر الحربية كانت متوفرة لدى الجيش الريفي، وأن الحاجة لم تكن تدعو والحالة هذه إلى استجلاب شيء من الخارج، هذه هي الحقيقة، وهذا ما كان يقع دائما."[١١٤]

الجدير بالذكر أن الخطابي قد قام بتطوير صناعة الأسلحة وصيانتها، فأنشأ معملا لصيانة العتاد الحربي في منطقة "أعكبا" ببني بو عياش يضم مجموعة من حرفيي النجارة والحدادة، وفيه تمت صناعة القنابل اليدوية بأسلوب محلي، وتمت صيانة وتطوير المدافع والرشاشات والبواريد بشكل متواصل.[١١٥] كما كان ابن عبد الكريم يمتلك زورقين بخاريين وستة قوارب تجديف،[١١٦] وكان يستخدمها لنقل القوات بين الجبهات. وكان أيضا يمتلك

---

[١١٣] عمر أبو النصر: بطل الريف الأمير محمد عبد الكريم.

[١١٤] عمر أبو النصر: نفس المصدر.

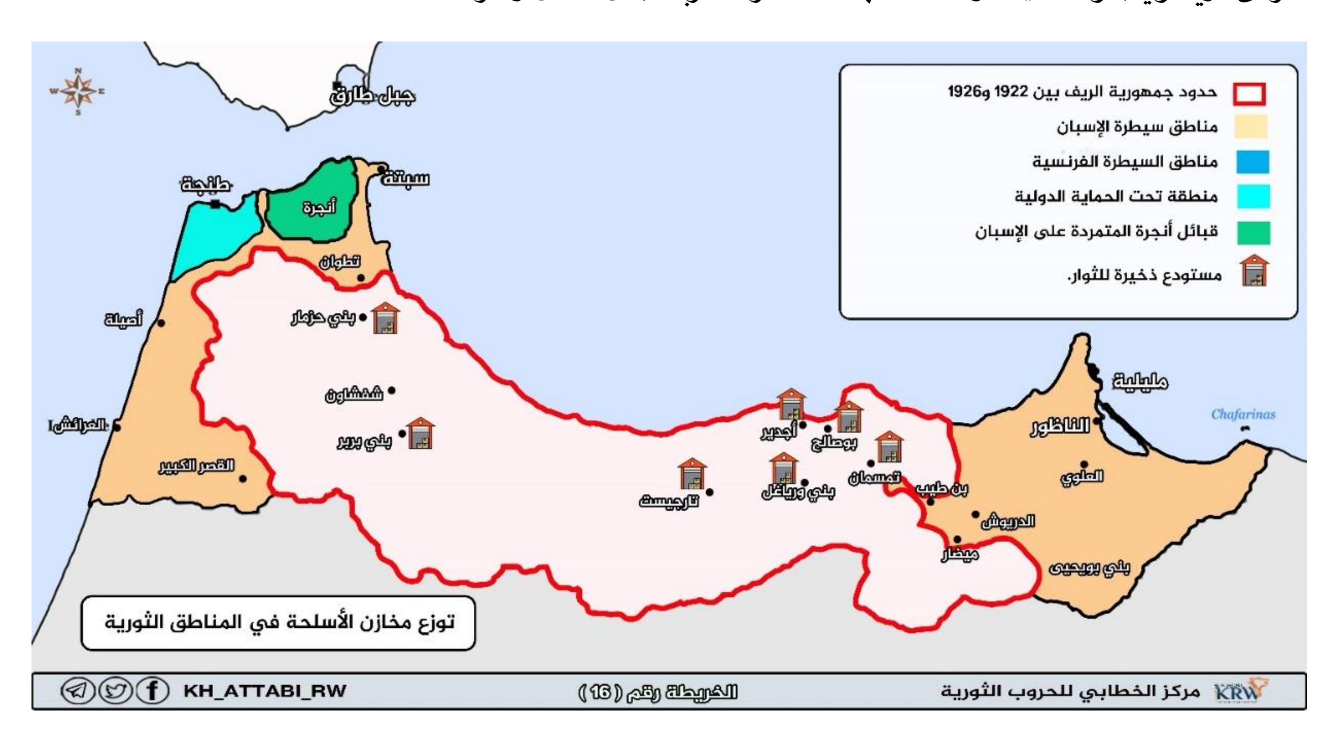
[١١٥] كان المعلم محمد التمسماني هو المسؤول عن هذا المعمل، وقد كان يعمل سابقا في معامل الحديد بطنجة قبل أن تقوم الحرب مع الإسبان.

[١١٦] كتاب: "المغرب مراحل فرض التهدئة" للجنرال مانويل غوديد لوبي.

ثلاث طائرات حربية، غير أنه لم يقم باستخدامها، ويقول في هذا الصدد: "إن الضرورة العسكرية كانت تقتضي أن يكون لدي بعض الطائرات أعزز بها نفوذي وأؤثر بواسطتها على قبائلي وأبعث بواسطتها الخوف في قلوب الإسبانيين، حين يرون أن خصمهم ليس أقل منهم عدة وعددا". [١١٧] كما يقول في موضع آخر: "كنت أستطيع أن أضحي بأي شيء من أجل أن تُحلق طائرة ريفية فوق الخطوط الاسبانية، وكان في مقدوري بهذه الطريقة أن أثبت لقبائلي بأنني مسلح بطريقة حديثة، أما أعدائي فإنهم من جهتهم كانوا يتأثرون من رؤية طائرة ريفية تحلق فوق سماء العرائش، أو تطوان، أو مليلية". [١١٨]

٣) مخازن الأسلحة الثورية:

كان لابد للأسلحة والذخائر الكثيرة التي غنمها الريفيون من مخازن تحفظها، لذلك فقد أشرف الخطابي على توزيع المستودعات لتغطي معظم مناطق الريف، بحيث يكون مكانها مناسبا للعمل السريع أثناء الطوارئ، ومرنا في تسليح وتذخير القوات الشعبية، وإمداد خطوط الرباط ومراكز العمليات. وقد كانت أماكن هذه المستودعات على درجة من السرية حتى لا يتسرب خبرها الى طيران العدو فيتلفها. وبحسب مراسل جريدة السعادة فإن الفرنسيين قد عثروا في نهاية أيلول سبتمبر/أيلول عام ١٩٢٥ على مخزن للذخائر الريفية، وكان محفورا تحت الأرض، ويحوي بيوتا عديدة وزعت عليها الذخائر الحربية بكل اتقان وحرفية...



---

[١١٧] الباحث المغربي سليمان الريسوني: نفس المصدر السابق.

[١١٨] سليمان الريسوني: نفس المصدر.

من أهم تلك المخازن:

- المخزن المركزي في قرية أوغار ببني ورياغل قرب أجدير. كان يحتوي مختلف الآلات الحربية.
- مخزن بوهم ببني ورياغل وكان يحتوي ٣٠ مدفعا وقذائف الطائرات وآلات حربية أخرى.
- مخزن في قرية بو صالح في أعالي نهر غيس وهو مخزن خاص بالرشاشات ولم يعرف بالضبط كم كان فيه.
- مخزن في ظهر السلوم في تارجيست.
- أما بقية المستودعات الأخرى التابعة للمراكز الحربية فقد كانت في المحاكم.

رابعا: جهاز الأمن.

استخدمت حكومة الريف نوعين من قوات الأمن الداخلي لتوطيد الاستقرار داخل البلاد:

١) **قوات الشرطة العلنية:** توزعت في مختلف مناطق البلاد بعد تقسيمها إلى وحدات إدارية، إذ عينت الحكومة قوة من الشرطة لتساعد القائد أو الباشا في تنظيم الوحدة الإدارية التي يتولى أمرها.

٢) **القوات الأمنية السرية:** شكلت الحكومة جهازا سريا لمكافحة الجواسيس، وإيصال المعلومات عن كل شخص يعمل ضد مصالح البلاد والحكومة، وكان هذا الجهاز مكونا من مجموعات سرية تتألف من ٥ رجال و٥ نساء في كل منطقة من مناطق البلاد. [١١٩]

كان هذان الجهازان أيضا مكلفان بتنفيذ قرارات الحكومة، مثل:

- منع الأفراد من حمل السلاح للأسباب الشخصية.
- الإنذار بالقتل لكل من يعتدي على أوروبي مستأمن أو يقتل أسيرا.
- إعدام كل شخص يدان بالتجسس لصالح الإسبان أو الفرنسيين ضد مصلحة البلاد.[١٢٠]

وعن حالة الاستقرار الأمني، كتب الصحفي سكوت مورو الذي زار الريف عام ١٩٢٥ فقال: "إن القانون والنظام مطبق في جميع أنحاء البلاد، وإن الاقتتال بين الأهالي قد انتهى، فخيّم الأمن على الممتلكات وطرق المواصلات، وإن العدالة والأمن أمام القانون قد تحققت في ظل السلطة الريفية". كما كتب الصحفي السويدي اليكساندر

---

[١١٩] محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار

[١٢٠] رشدي الصالح ملحس: سيرة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها.

لانكلي مراسل جريدة المانشستر غارديان في نيسان أبريل/نيسان ١٩٢٦ عن زيارة ماضية للريف: "إن سلطة عبد الكريم تبدو مطلقة، وقوانينه على سبيل المثال ضد النزوات الشخصية والقبلية تبدو نافذة، إنك تستطيع النوم على الشارع في الريف، ولكنك لا تستطيع ذلك في النطاق الفرنسي والإسباني.[١٢١] وقد ورد في مذكرات بعض قادة الاحتلال أن الإسبان والفرنسيين عندما احتلوا الريف مرة ثانية وجدوا دولة متكاملة، ولم تستطع أي دولة منهم أن تضيف شيئا من الخدمات على ما وصل إليه الخطابي من إدارة ناجحة، بل ما كان منهم إلا أن يتركوا كل شيء كما هو عليه.

خامسا: الجهاز القضائي.

كان للعمل القضائي دور كبير في تحقيق الاستقرار الداخلي بين القبائل والحفاظ على وحدتها، لذلك فإن الخطابي قد اهتم به اهتماما خاصا، واعتنى به عناية فريدة، وأنشأ العديد من المحاكم على امتداد الريف، فكانت المحكمة المركزية في أجدير، بينما توزعت فروعها في آية قمرة، وأكشاب بتمسمان، وتارجيست، وأخريرو في بني حزمار، ومحكمة بني بربر. وظهرت لأول مرة مؤسسة السجون في الريف، وكان أغلب تمركزها في أجدير.

بعد إعلان الجمهورية في ١٩ أيلول عام ١٩٢١، تم انشاء مؤسسة القضاء القائمة على مبادئ الشريعة الإسلامية التي كان يرى الخطابي فيها أنها كفيلة بكل احتياجات الإنسان في ميدان الحياة العامة، وعلى ذلك تشكلت وزارة العدل تحت إشراف الفقيه محمد بن علي بولحيا الذي أسس مجلسا مركزيا للقضاء في البلاد وسماه "محكمة الشعب"، ويتكون المجلس من القضاة المرموقين وعددهم خمسة عشر مستشارا.[١٢٢] وبعد تقسيم البلاد الى وحدات إدارية تم تعين قاضي في كل وحدة، كما تم تعين قاضي لكل قبيلة أو عدة قضاة للقبيلة الواحدة لحل المشاكل الداخلية للقبيلة وإتمام قضاياها الاجتماعية كالزواج والطلاق وغيرها.[١٢٣]

لقد منع الخطابي الثأر، وجرّم الانتقام، وفعّل مبدأ القصاص، وبعد أن كان أفراد القبائل يأخذون حقوقهم بأيديهم في الحروب الداخلية، أصبحت المحاكم ترد الحقوق لأهلها دون حاجة لسفك الدماء بغير حق. كما منع الخطابي العقاب بالسوط، ومنع أيضا استعمال الرصاص إلا في الحرب. وألغى استخدام اللفوف[١٢٤] لما فيها من

---

[١٢١] محمد علي داهش: المصدر السابق.

[١٢٢] محمد محمد عمر القاضي: أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي.

[١٢٣] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٢٤] يكاد أغلب المؤرخين يتفقون على أن اللف أو اللفوف يعني نوعا من الوحدة القبلية، تؤسس للدفاع المشترك، حيث أن الحلف يبني على أساس كتابة عقد بين الطرفين يدعى " أمكون"، ويعتبر اللفوف أكبر تجمع في النظام القبلي، وغالبا ما يقوم على أساس المصالح المشتركة، وأحيانا بغض النظر عن مشروعية هذه المصالح. لكن مع ذلك تبقى كل قبيلة محتفظة باستقلالها الذاتي، وهو ما يسمى بلغة العصر، النظام اللامركزي.

إضعاف لمركزية الدولة. كما عمل أيضا على منع كل الممارسات القبلية التي اعتبرها سلبية، دونما أن يمس مع ذلك بمؤسسة القبيلة، بل عمد على العكس من ذلك إلى إدراجها ضمن نظامه الاجتماعي الجديد القائم أساسا على حكم الشريعة الإسلامية. حيث بادر الخطابي إلى إلغاء الأحكام العرفية المخالفة لثوابت الإسلام، وأقام مقامها أحكام الشريعة، كما أعطى للقضاء حق النظر في المسائل الجنائية فضلا عن المدنية... وأدخل إصلاحات كثيرة على قوانين المِلكِية، وتوزيع المياه، فأصدر قانونا موافقا لمذهب الإمام مالك يقتضي مصادرة الأرض التي يعجز صاحبها عن استثمارها، وأمر بإسنادها إلى من يقدر على حسن التصرف فيها.[١٢٥] وحرّم على الناس التعلق بالأولياء، وحارب الطرقية، باستثناء الزاوية الناصرية التي كان يعتبرها أكثر اعتدالا. ومما ذكره أحد مرافقيه أن تحفظه كبير تجاه الطرقيين، وكان يقول إن على المرء أن يختار بين السبحة والجهاد. وأفشى في أصحابه عقلنة بعض العادات، مثل الحد من أمد حفلات الزواج فكان من المعتاد أن تستضاف العروس كل يوم في دار، فألغى تلك العادة وخفف المهور. وكان يأمر بعدم انتهاك الحرمات وبالمحافظة على الصلاة، ومنع التدخين. وشجع على مشاركة النساء في المعارك بالسماح لهن بحمل الماء إلى المجاهدين، في معركة جرت في سيدي إدريس، ورخص لهن حمل البصل والزيت والأعشاب إلى ميدان القتال لاستعماله في الإسعافات المستعجلة.

وكان الخطابي في تعيناته تقيا أمينا حازما، حيث كافح الفساد، وحذر من تعاطي الرشوة، ومنع أصحابه وولاته من قبول الهدية، وكان يقول: "إن الهدية أخت الرشوة". كما حرم على نفسه وأخيه وعمه شراء العقارات بعد أن وضعتهم الظروف في مواقع التصرف بأموال المسلمين.[١٢٦] وقد ساعدت تنظيمات الثورة وقواعد السلوك فيها على اتقاء الوقوع في الانحراف، وكان عدد الجنايات التي وقعت قليلا جدا.

الجرائم في النظام القضائي لجمهورية الريف على ثلاثة أصناف:

١) جرائم سياسية واضحة كالتجسس والخيانة.
٢) جرائم جنائية كالقتل والمنازعات الشخصية.
٣) جرائم اجتماعية مثل الغش والزنا والقذف...الخ.

لعل هذا القرار الذي أصدره الخطابي كان بعد أن طلبت قبائل هوارة التي كانت تحت نفوذ الفرنسين نصرة القبائل الريفية، وجاؤوا إلى القائد علوش بن شدي الكتمومي المرابط في صنهاجة السرائر، أمام المواقع الفرنسية، وقدموا الذبائح بين يديه لكي يدخل قبيلتهم في الجهاد ضد الفرنسيين (طقس اللف). فقبل القائد ذلك العرض، وكتب به إلى وزير الحربية، فما كان من الأمير إلا أن أصدر الأمر بعزله، بل وتم سجنه لاستجابته لنداء هوارة دون إذن القائد العام. وحوكم أمام المجلس الحربي لاتخاذه مبادرة سياسية هي من اختصاص القيادة العليا التي كانت تحتاط كثيرا قبل أن تقرر فتح الجبهة الجنوبية.

[١٢٥] الدكتور محمد أشتاتو: دراسة أنتربولوجية تاريخية: النظام السياسي بالريف في عهد الخطابي.

[١٢٦] محمد العربي المساري: نفس المصدر السابق.

وتنوعت العقوبات بحق كل صنف من أصناف الجرائم، حيث كانت عقوبة الإعدام رميا بالرصاص تقع على المدانين بالتجسس والخيانة، أما المسائل المتعلقة بالنظام العام والقضايا الاجتماعية، فقد كانت العقوبات بين الحبس والتغريم. وكان جهاز الأمن الداخلي هو أداة التنفيذ القضائية.

سادسا: الجانب الاقتصادي في دولة الريف.

في مطلع سنة ١٩٢٣ بدأ عبد الكريم يفكر في إحداث عُملة خاصة بدولته، فبعد أن قرر رفقة عمه وزير المالية عبد السلام الخطابي تسمية عملته الريف بـ"الريفان"، كلف الخطابي أخاه امحمد بأن يتعاقد مع بعض البريطانيين لسكّ ورقتين من الريفان، واحدة من فئة "واحد ريفان" حمراء اللون، وأخرى من فئة "خمس ريفانات" خضراء اللون، وكان الريفان الواحد يعادل ما مقداره "بزيتا" واحدة من العملة الاسبانية.[١٢٧]

وبعد استقدام عملة الجمهورية قرر عبد الكريم أن يفرض تداول "الريفان" بشكل إجباري. "ويظهر أن ترويج هذه الأوراق كان يرتكز على عقد مبرم بين أحد الرعايا الانكليز المعروفين في المغرب، وبين امحمد الخطابي، والذي يرخص فيه لهذا الرجل البريطاني أن ينشئ بنكا للحكومة في الريف يكون مركزه أجدير من أجل ترويج هذه الأوراق وإذاعتها، وتقديم القروض، لكن هذا البنك لم ير النور، حيث لم تكن هناك ضمانة مالية، ولم يكن هناك رصيد جيد من الذهب لهذه الأوراق، مما جعل رجال القبائل يرفضونها لأنها لا تحمل قيمة حقيقية." [١٢٨]



عملتان ورقيتان، مقدار الأولى واحد ريفان، والثانية خمسة ريفانات.

[١٢٧] البزيتا الإسبانية استعيض عنه باليورو (يورو) في ١ كانون الثاني / يناير/كانون الثاني ١٩٩٩. واحد يورو يعادل ١٦٦،٣٨٦ بزيتا.

[١٢٨] محمد حسن الوزاني في كتابه "حياة وجهاد".

موارد الحكومة الريفية:

كانت موارد الحكومة الداخلية تتألف من عدة مصادر:

- **الضرائب الدينية (الزكاة):** كانت تدفع للدولة نقدا أو على شكل موارد زراعية. ويلزم الفلاحون بزراعة أرضهم وإلا سحبت منهم لغيرهم ضمانا لعدم تركها بدون زراعة. وقد قدرت مدخولات الزكاة السنوية بمبلغ ٧٥٠ ألف بزيتا إسبانية[١٢٩].

- **الضرائب المدنية**، وكانت على نوعين: الأولى تسمّى التيجان، وهي ضريبة مفروضة على الثروات (المحاصيل، العقارات، رؤوس الماشية، السلع التجارية...الخ)،[١٣٠] وكانت محدودة بما تفرضه الحكومة على هذه الثروات.

- **الغرامات**، وقد كانت تفرض على الجماعات الخارجة على السطلة المركزية، كما حدث مع قبيلة بني زروال التي فُرضت عليها غرامة قدرها نصف مليون بزيتا إسبانية سنويا، ومع قبيلة الأخماس التي غرمها عبد الكريم ٢٠ ألف بزيتا سنويا، وكلا القبيلتين كانتا في منطقة الشوان.[١٣١] ولعل المبرر لهذه الضريبة أن القبائل الثائرة المتمردة على الثوار يجب معاقبتها بما يردع غيرها عن ذلك، وكما سيأتي معنا بشكل مفصل فإن قبيلة الأخماس انقلبت على الثوار وحاولت الغدر بهم بعد تحرير شفشاون، وقبيلة بني زروال تمردت أيضا خلال سنوات الثورة وحاول بعض أفرادها اغتيال الخطابي.

- **تبرعاتُ القبائل وتسليحُها لجنودها ومقاتليها**، وكما مر معنا فإن الجيش الشعبي كان مكتفيا ذاتيا من الشعب، وكانت كل قبيلة تتولى بنفسها تسليح وتذخير وإطعام رجالها الذين ترسلهم للحرب أو الرباط، حتى لو اقتضى الأمر بيع بعض الدواب أو الممتلكات الخاصة. وقد كان هذا الأمر بين قبائل الريف واجبا اجتماعيا ذاتيا مقدسا ومقدما على كل شيء.

---

[١٢٩] محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار.

[١٣٠] تنبيه: ذُكرت الزكاة في بعض المراجع كمورد من موارد الثورة، وذكرت ضريبة التيجان أيضا كمورد آخر، وكلاهما تقريبا يعتمدان على نفس المصدر، وهو المحاصيل والعروض التجارية والمواشي، فلعل ضريبة الزكاة هي نفسها ضريبة التيجان، ولعل كل ضريبة منهما مختلفة عن الأخرى، والحقيقة أننا لم نجد في المراجع العربية أو الأجنبية ما يحسم لنا هذه المسألة، فوجب التنبيه هنا.

[١٣١] محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار، كما جاء لنفس المؤلف "أن الجنرال الإسباني أوائل انطلاق الثورة أراد تفكيك القبائل الريفية، فجمع في مؤتمر عام القيادةَ العسكرية الاسبانية مع وجهاء القبائل الموالية للإسبان، للحديث حول أوضاع الريف. وهنا قام الخطابي بتغريم كل من حضر من الأعيان ١٥٠٠ بزيتا، ومن العوام ٢٥٠ بزيتا.

- **فداء الأسرى**، حيث استطاع الخطابي الحصول على ٤ ملايين بزيتا إسبانية عام ١٩٢٣ بعد عملية تبادل أسرى معركة أنوال. كما أن رسوم الجمارك كانت من أهم الموارد الخارجية للدولة، حيث شكلت الضرائب المفروضة على السلع الواردة أو الصادرة من فاس والجزائر مداخلا ديوانية هامة.

ولقد شكلت أموال الزكاة وفداء الأسرى والضرائب بأنواعها المختلفة مبلغا كبيرا من المال في خزينة الحكومة الريفية، وبحسب الخطابي: "فلقد كانت مالية الريف منظمة تنظيما حسنا، وكان داخل الخزينة يقرب من مائتي مليون بيزيتا (بزيتا)، وكانت موارد الحكومة من الضرائب التي كنت أفرضها على بعض القبائل الثائرة، ومن الفدية التي كانت إسبانيا تدفعها ثمنا للأسرى الذين كانوا يسقطون بيد رجالي، وهذه كانت تدر على خزائني مبلغاً عظيما من المال في كل سنة".[١٣٢]

وقد كانت الموارد المالية تحفظ في الخزينة العامة للمال، وكان المسؤول عنها هو عبد السلام الخطابي وزير المالية، فهو من يتولى الإنفاق ومراقبة مصاريف الدولة بمساعدة متصرف ومساعد المالية أحمد بوجبار، وكان مقر الوزارة في بلدة كمون قبل أن تسقط بيد الفرنسيين. [١٣٣]

سابعا: الإصلاحات الخدمية.

كان الخطابي يدرك أن لا شيء يمكنه إخراج المنطقة من الجهل الذي أصابها في ظل الحرب والانغلاق القبلي، سوى تعليم حديث ومتطور. لذا فقد حاول تنظيم قطاع التربية والتعليم من خلال إنشاء عدد من المدارس الحديثة تُلقى فيها المواد العصرية بدل المدارس التقليدية التي ترتبط بالمساجد، وقد حاول إرسال أفواج من الطلبة إلى مصر وتركيا قصد إتمام الدراسة لكن ظروف الحرب حالت دون ذلك، كما أنه نشر في الصحف الجزائرية إعلانات دعائية بقصد جذب المدرسين إلى الريف.

واهتم الخطابي باللغة العربية اهتماما خاصا، فقد جاء في المادة ٢٢ من النظام التعليمي في حكومة الريف: "لا يجوز للأستاذ إلقاء الدروس بالبربرية ولا مخاطبة التلاميذ بغير العربية إلا عند الاضطرار، وذلك لتنتقش العربية في أذهانهم بتكرارها على مسامعهم. كما لا يسمح لهم بالتكلم فيما بينهم بالبربرية داخل المدرسة لتكون العربية فيهم ملكة، وبذلك يقع النفع سريعا إن شاء الله وتظهر الفائدة ويتم المقصود." [١٣٤]ولم يقتصر جهد المدارس والحكومة على التعاليم الدينية فقد توجه اهتمامها نحو تنظيم التعليم تنظيما حديثا، وتم تأسيس وزارة المعارف والتعليم التي قامت بإنشاء ثلاث مدارس على النهج الحديث:

---

[١٣٢] عمر أبو النصر: بطل الريف الأمير محمد عبد الكريم.

[١٣٣] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٣٤] التربية والتعليم في برنامج محمد بن عبد الكريم الخطابي: تقديم وتحليل مخطوط. عبد الرحمان الطيبي والحسين الإدريسي

١. مدرسة أجدير: أدخلت فيها مناهج دراسية جديدة بمبادرة من الخطابي نفسه، شملت الرياضيات والعلوم والقواعد العسكرية، وعين على إدارتها أحد علماء بني ورياغل، وهو الفقيه محمد بن الحاج حدو من قرية ازغار، وكانت تحظى باهتمام الخطابي بشكل مباشر ويشرف على زيارتها كلما سنحت له الفرصة، كما وضع راتبا شهريا للمدير بلغ ١٠٠ بزيتا، وكان مبلغا مغريا في ذلك الحين.
٢. مدرسة زاوية أدوز بقبيلة بقوية، كان مديرها الفقيه محمد شبال أحد علماء غمارة، وعُين له راتب شهري ١٠٠ بزيتا أيضا.
٣. المعهد الديني في شفشاون عين عليه الفقيه العمرتي بنفس المرتب ١٠٠ بزيتا أيضا.[١٣٥]

أما القطاع الصحي فلم يستطع أن يقدم الخطابي فيه الكثير بسبب افتقاد الخبرات والكفاءات والمؤسسات الطبية في ظل الحرب، وبسبب الحصار الأوروبي الذي منعه من استيراد الأدوات الضرورية واستقطاب الخبرات اللازمة. وقد صرح الخطابي لأحد الصحفيين الأجانب "بعد سنة ١٩٢٠ أخذنا نشعر بالحاجة إلى الأدوية، فإن طائراتكم كانت تجرح الكثير منا، وإني أذكر أن قنبلة واحدة أطلقتها إحدى طائراتكم علينا، جرحت ما يقرب من ستين نفرا... وعلى أثر ذلك اضطررنا لطلب المعونة من جمعيات الصليب الأحمر الأجنبية للعناية بمرضانا وجرحانا"[١٣٦] لكن دون جدوى. فكان لامتناع المنظمات الإنسانية عن مساعدة الريفين دورٌ كبير في تفاقم الأزمة الإنسانية شمال المغرب، وفي هذا الصدد يقول الخطابي: "يسوؤنا أن نرى جمعية الصليب الأحمر من الأمم النصرانية من غير تمييز جنسية ولا قومية تهتم بالجرحى الاسبانيين وأسراهم الذين بقوا في أيدينا، وتبعث لهم بكميات من الدراهم، وترسل لهم الأطباء ليقوموا بمداواة الجرحى، وليس لنا من جمعياتنا من يصلنا".[١٣٧] الجدير بالذكر أن الخطابي قد همّ بإنشاء مشفى متطور في أجدير إلا أن فقد الطاقم الطبي وحملات الاجتياح التي شنها الإسبان والفرنسيون سنة ١٩٢٥ حالت دون ذلك.

كان من أبرز إصلاحات الخطابي؛ تطوير المواصلات وتعبيد الطرق الرئيسية لربط القطاعات الإدارية ببعضها البعض وتسهيل نقل الإمدادات وقت الحرب، فقد عملت حكومة الريف على تعبيد الطرق تحت إشراف موح موزور الأجديري لتسهيل المواصلات السريعة سواء للسيارات الثلاث التي كانت تمتلكها الثورة أو لتنقلات القوات المسلحة والعربات والذخائر، فشُقت الطرق المعبدة لتربط العاصمة أجدير ببقية مناطق البلاد. تمّ تعبيد طريق أجدير-تارجيست وطوله ٦٥ كم، وطريق أجدير-بني بويفراح وطوله ١٠ كم، إضافة إلى طريق أجدير-أربعاء نويرت، ومن تويرت الى اكتزناية. كما خططت حكومة الريف لشق طريق يربط شرق البلاد بغربها وجنوبها، ويمتد

---

[١٣٥] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٣٦] رشدي صالح ملحس: نفس المصدر السابق.

[١٣٧] رشدي صالح ملحس: نفس المصدر.

من مليلية إلى تطوان عبر تارجيست-باب برد-باب تازة-شفشاون - تطوان. عرف ذلك من خلال التصاميم التي عثر عليها الإسبان بعد انتهاء الثورة الريفية، وقد اعتمد الإسبان هذا التصميم بعد ذلك.[١٣٨]

ومن أجل تسهيل المواصلات البريدية عبر هذه الطرق إلى مختلف المناطق ونقل التعليمات والأوامر الخاصة بالمراكز الحربية، أسست حكومة الريف مصلحة بريد في أجدير من أجل التسريع في نقل التعليمات، وكان ذلك قبل استخدام الهاتف على ما يبدو، وكان الرقاس (المراسل) يقوم بمهمة ساعي البريد، وهو يستطيع قطع ٨٠ كلم في كل ليلة حاملا الرسائل السرية الخاصة بالقيادة، وإذا صادف كمينا من قبل الأعداء، كان يحرق الرسائل وينتحر.

حاول الخطابي تجاوز حالة المواصلات البرية باستخدام الهاتف، ذلك أن الظروف الحربية وتتابع العمليات العسكرية في جهات القتال تتطلب الإسراع في معرفة المواقف الحربية من كل جهة وإيصال التعليمات والأوامر من القيادة إلى المراكز الحربية والادارية في البلاد بسرعة. وكانت معدات إنشاء شبكة مواصلات هاتفية متوفرة لدى الثوار خلال ما تم اغتنامه في معركة أنوال عام ١٩٢١. وقد نجحت الجهود في إنشاء هذه الشبكة بشكل كامل عام ١٩٢٣، بعد أن استعان الثوار بخبرات الأسرى الاسبان، وبعض الانكليز الذين تعاطفوا مع الحركة التحررية في الريف، حيث أنشؤوا محطة للإرسال اللاسلكي في أجدير.



إن إصرار الريفيين على إقامة هذه الشبكة الهاتفية قد جعلهم يستخدمون الأشجار والأدغال كإجراء ضروري لحين توفر الأعمدة اللازمة. وقد تم ربط جميع المراكز الحربية والمحاكم المدنية ببعضها وبالعاصمة أجدير، فأصبحت القيادة العسكرية على اتصال مستمر بوحداتها العسكرية المتحركة في مختلف الجهات، الأمر الذي

[١٣٨] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

سمح لها بتنفيذ عمليات مشتركة في ميدان واسع. ولعل ما كتبه مراسل جريدة الشيكاغو تربيون الأمريكية في مقابلة له مع الأمير في يونيو/حزيران عام ١٩٢٣ كان صحيحا تماما، وهو أن الأمير عند اشتداد المعارك كان يقضي (١٨) ساعة يوميا في إصدار الأوامر إلى ضباطه وجنوده المتواجدين في المراكز الحربية عبر شبكة الهاتف، والتعرف على طبيعة سير العمليات الحربية.[١٣٩]

إنه من خلال هذه الإصلاحات الجذرية التي أدخلها الخطابي على المجتمع الريفي، والتي مازجت ما بين تطبيق الشريعة والتوزيع العادل للثروة، تبرز شخصية الخطابي خريج القرويين المشبع بعلوم الدين، بالقدر الذي تظهر فيه شخصية القائد المطلع على أحدث النظم العصرية سواء الرأسمالية أو الاشتراكية. إن هذه الخصوصية التي مكنت الخطابي من دمج الجوانب الإيجابية التي تضمنتها أعراف الريف من جهة، وصنعتها العلوم الغربية من جهة أخرى، جعلته محل توافق بين الجميع، بين الريفيين والشيوعيين والقوميين والإسلاميين والبربر.

ثامنا: السياسة الخارجية للحكومة الثورية.

١) السياسة الخارجية تجاه المجتمع الدولي:

لقد أولى الأمير الخطابي اهتماما بالتوجه إلى الرأي العالمي للحصول على اعتراف دولي باستقلال دولته، وحاول إثارة قضية الريف في عصبة الأمم بجنيف السويسرية، وأرسل أخوه امحمد سنة ١٩٢٢م إلى أوروبا قصد الاتصال بالعالم الخارجي وإثارة الحقائق والأوضاع في المغرب، وبعدها كثف الاتصالات مع مختلف البلدان، وخاصة المتقدمة منها، ودعم حركة الصحافة والإعلام، وأرسل الرسائل التي توضح رؤية الدولة الوليدة إلى لندن وروما وباريس، وإلى جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، وإلى الأحزاب الغربية والاتحادات المهنية، مما جعل العديد من البعثات السياسية الأجنبية والكثير من الصحافيين يتوافدون لمشاهدة الوقائع الميدانية في الريف، ثم يعودون لنقل رسالة الخطابي إلى كل العالم.

كما أراد الخطابي فتح علاقات سياسية واقتصادية وديّة مع المحيط الدولي وتمهيد الطريق للبعثات الدولية من وإلى الريف، وقد جاء في بيان الجمهورية: "في يوليو/تموز ١٩٢١ أبلغنا سفراء بريطانيا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا في طنجة أننا قد أعلنا جمهورية الريف، ونحن نخوض حربا رابحة ضد إسبانيا للدفاع عن استقلالنا، وسنستمر في ذلك حتى تحقيق السلام والحرية والاعتراف باستقلالنا، بما في ذلك جميع مناطق الجمهورية، المتمدة من الحدود مع المغرب حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ملوية إلى المحيط الأطلسي.

نحن الريفيون لسنا مغاربة بالقدر الذي يعتبر فيه الانجليز أنفسهم مختلفين عن الهولنديين. ربما هذا الاختلاط العرقي هو الذي يجعلنا مثل الانجليز في سعينا المطلق للاستقلال ورغبتنا في إجراء اتصالات مع باقي أمم العالم..

[١٣٩] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

ومن خلال هذا الإعلان ندعو جميع الأشخاص من مختلف مناطق العالم ومن مختلف الدول القدوم لاكتشاف المناطق المجهولة عبر علماء وجيولوجيين وكيمياويين ومهندسين لأهداف تجارية وليس لأهداف حربية.

نحن ندافع عن مناطقنا ضد غزو القوات الإسبانية التي تحاربنا تحت ذريعة اتفاقية الجزيرة الخضراء. هذه الاتفاقية تعلن استقلال وسيادة سلطان المغرب ووحدة بلاده والحرية الاقتصادية بدون تمييز. وتماشيا مع اتفاقنا مع النقطتين الأخيرتين التي تصب في مصلحة السلطان، نطالب بالشيء نفسه لبلدنا الذي لم يسبق له أن أدى ضرائب للمغرب أو توصل بمساعدات للتنمية، ونحن بصدد تحقيق الحرية الاقتصادية بدون تمييز في جمهوريتنا. وعليه، فنحن نعين ممثلا تجاريا للتنمية الخاص بالموارد التي تزخر بها بلادنا لجذب رجال الأعمال من جميع الأمم بشكل يتمسك بالتنظيم والسلام والازدهار." [١٤٠]

ولم يغفل الخطابي في رسائله التي كان يعدها للمناسبات والمحافل الدولية التأكيدَ على المعاناة الإنسانية المشتركة للشعوب الخاضعة للاستعمار وضرورة الوقوف المشترك لمواجهة هذا التحدي الاستعماري الغاصب. ففي رسالة وجهها إلى المؤتمر الطلابي في بوينس آيرس بالأرجنتين بمناسبة الذكرى المئوية لمقاتلي بيرو الذين سقطوا ضحية الاستعمار جاء فيها: ".. ليس هنالك حق مقدس أكثر من حق الشعوب في تقرير مصيرها، أكثر من حقها في اختيار النظام الذي يتلاءم مع عقليتها ورغباتها.. إن الشعب المغربي يناضل من أجل نفس الأهداف التي ناضل من أجلها أبطال شعبكم.. نحن نريد إنشاء ثقافة قائمة على مبادئ السلام والعدالة" [١٤١]

كما أدلى في تصريحه لصحيفة الديلي ميل البريطانية: ".. نحن قوم نحب السلام ولكننا نأبى المذلة والضيم، وها نحن قد عاهدنا الله والشرف العربي أن ندافع عن استقلالنا الذي يهدده الأجنبي الغاصب، نحن لا نحب الحرب ونحبذ السلام على شرط إجابة مطالبنا العادلة، أما إذا أراد عدونا حربا فلتكن حربا أبدية بيننا، ولتهدر دماء الأبرياء على مذبح استعمارهم الوحشي البعيد عن الإنسانية وفي سبيل مطلبنا المشروع". [١٤٢]

ولاحقا حاولت جمهورية الريف الحصول على الاعتراف الرسمي كدولة من طرف عصبة الأمم في رسالة موجهة إلى هذه الهيئة في أبريل/نيسان ١٩٢٢، ولازالت هذه الرسالة موجودة في أرشيف الأمم المتحدة التي ورثت عصبة الأمم، إلا أن العصبة رفضت الاعتراف بدولة الخطابي في ذلك الوقت، لأنها كانت تحت تأثير النفوذ الفرنسي الذي تعهد باحتلال المغرب، وكان يسعى لمنع أي محاولة استقلال فيه.

ويمكننا اختصار ملامح السياسة الخارجية للخطابي في المحاور التالية:

---

[١٤٠] علي الإدريسي: نفس المصدر السابق.

[١٤١] محمد علي داهش: كتاب دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر.

[١٤٢] محمد علي داهش: نفس المصدر السابق.

- التخفيف من العداء الدولي تجاه دولته، وتحييد الدول الأوروبية بقدر المستطاع، لكيلا تدخل في حلف مع إسبانيا ضد الريفيين.
- الحصول على اعتراف دولي باستقلال الريف من قبل المنظمات الدولية أو الدول العظمى.
- فتح علاقات سياسية واقتصادية وديّة مع المحيط الدولي وتمهيد الطريق للبعثات الدولية من وإلى الريف.

٢) السياسة الخارجية تجاه إسبانيا:

أدى انهزام الإسبان في المغرب بهذه الصورة المذلة إلى اضطراب الأوضاع السياسية في إسبانيا ذاتها، ومن أجل احتواء الثورة بأقل الخسائر، عرضت إسبانيا على الخطابي الاعتراف باستقلال الريف المغربي شريطة أن يكون استقلالاً ذاتيا خاضعًا للسيادة الإسبانية، وهو ما قابله الخطابي وأهل الريف بالرفض القاطع. لقد كانت المفاوضات تجري بين الطرفين، ونجد في مراسلات القيادة الثورية اعتزازًا بالنفس، في الوقت نفسه نجد أيضا رغبة منهم في تألف الإسبان وإقناع حكومتهم بواقع الأمر وضرورة فتح علاقة ودية مع دولة الريف. يتجلى هذا في خطاب محمد أزرقان وزير خارجية الخطابي:

"إن الحكومة الريفية -التي تأسست على قواعد عصرية وقوانين مدنية- تُعتبر مستقلة سياسيا واقتصاديا، آملة أن تعيش حرة كما عاشت قرونا، وكما تعيش جميع الشعوب، وترى لنفسها أحقية امتلاك تراثها قبل كل دولة (..) وإننا نعجب أيضا كيف أنكم تجاهلتم أن مصالح إسبانيا نفسها هي مسالمة الريف، والاعتراف بحقوقه واستقلاله، والمحافظة على علائق الجوار، وتمتين عرى الاتحاد مع الشعب الريفي عوضا عن التعدي عليه وإهانته وهضم حقوقه (..) ولا يسعني إلا أن أصرح لكم تصريحا نهائيا أن الريف لا يعدل ولا يغير خطته التي سار عليها، وهو أنه لا يفتح المخابرة في الصلح إلا على أساس اعتراف إسبانيا باستقلال الريف."[١٤٣]

ونتيجة لهذا الإصرار، بين ١٩٢١ و١٩٢٣، قرر الإسبان إعادة اعتبارهم بالقوة العسكرية، وأعادوا انتشار جيوشهم بين شرق وغرب الريف، وقاموا بشن حملة اجتياح من مليلية استطاعوا خلالها استرداد الكثير من المواقع كما سيأتي معنا بالتفصيل في الفصل المقبل، وعند وصولهم إلى تيزي عزة كانت قواتهم قد تعرضت لاستنزاف كبير، فلجؤوا إلى التفاوض مع الخطابي، وكانت جولات التفاوض تبوء بالفشل لثبات الخطابي على شرط الاستقلال الكامل، فتندلع الحرب من جديد. وفي سبتمبر/أيلول ١٩٢٤، نشبت معركتان في محيط مدينة تطوان، انتصر فيهما الثوار مجددًا، فرجع الإسبان بعدها مرغمِين على التفاوض، ملوحين بحلٍّ وسط هذه المرة، مفاده احتفاظ إسبانيا بالساحل في مقابل أن يبقى الداخل ريفيًّا، فكان رد الريفيين على ذلك العرض رفضا

---

[١٤٣] رشدي الصالح ملحس: سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

قاطعًا، حيث صرح محمد بن محمادي[١٤٤] المستشار السياسي لحكومة الريف: "إن الثوار في موقع الغلبة وإسبانيا مغلوبة"،[١٤٥] واشترط لعقد الصلح أن تدفع إسبانيا تعويضات مادية وأن تعترف باستقلال الريف، فرُفضت الشروط الريفية، لتندلع الحرب مرة أخرى.

٣) السياسة الخارجية تجاه فرنسا:

أثار الانتصار الريفي قلق الفرنسيين، وأرعبهم إعلان حكومة الريف سنة ١٩٢١م، فقد كان ذلك يهدد وجودهم في كل المغرب، بل في كل مستعمراتهم شمال إفريقيا، حيث كانوا يعلمون جيدا أن امتداد العدوى الثورية إلى مناطق نفوذهم في إفريقيا لم يكن إلا مسألة وقت. يتضح هذا الشعور الفرنسي في المراسلات التي كانت بين المارشال ليوطي[١٤٦] وقيادته، فقد كان الأخير يصنف الخطابي على أنه رجل له مؤهلات قائد يفهم مزايا الحرب على الطريقة العصرية، ويوجّه في رسائله تحذيرات متواصلة إلى حكومته بشأن نية الخطابي القيامَ بدولة إسلامية، وقد ورد في بعضها: "ها هي ذا دولة إسلامية تتكون في شمال المغرب، إنه الخطر عينه. إن العالم الإسلامي كله يرقب الحرب الدائرة الآن في الريف بكل اهتمام. إن هذه الثورة المعلنة في الريف تهدد نفوذ كل الدول الأوروبية ذات المصالح الاستعمارية في البلاد الإسلامية. إنها تهدد فرنسا في شمال إفريقيا وغربها، وتهدد بريطانيا في ممتلكاتها الإسلامية وفي الهند"، "ولا يمكن أن يكون هناك شيء أخطر على نظامنا من إنشاء دولة إسلامية وحديثة على مقربة من فاس ... جاعلة عبد الكريم قطبا جاذبة لا فقط للمنشقين - الثوار في الأطلس - من أتباعنا، بل ولهذه العناصر المغربية والشابة منها على وجه الخصوص التي وسعت مداركها المستقبلية الأحداث الجديدة في الشرق والتي طورت في فكرها مطامح العداء للأجانب"، "إن سماحنا لعبد الكريم بتحقيق أي انتصار علينا، إنما يعني قيام امبراطورية عربية إسلامية على شاطئ البحر المتوسط، وهو ما يعني أيضا فتحا إسلاميا لأوروبا من جديد، وهو أمر لا يمكن التسليم به".[١٤٧]

ورغم التصريحات الفرنسية العدائية تجاه ثوار الريف، بقيت سياسة الخطابي تجاه فرنسا تتسم بالمرونة واللين، واستمر ذلك حتى أواخر سنة ١٩٢٤، الوقت الذي حاول فيه الفرنسيون الزحف على بعض مناطق الريف. وبحسب الخطابي: "الحقيقة أن الفرنسيين لم يكونوا راضين أصلا عن قيام دولة الريف، وقد حملناهم

---

[١٤٤] السيد محمادي الحاتمي، المستشار السياسي والكاتب العام للحكومة، نفي إلى مدينة آسفي وفي بداية السبعينات انتقل إلى سلا التي توفي ودفن فيها في ١٤ يوليوز ١٩٧٥.

[١٤٥] ويكيبيديا نقلا عن مصادر إسبانية.

[١٤٦] لوي هوبير غونزالف ليوطي، جنرال فرنسي، وأول مقيم عام للمغرب بعد احتلاله من ١٩١٢ حتى ١٩٢٥، ومنذ سنة ١٩٢١ أصبح مارشال فرنسا.

[١٤٧] الدكتور علي الإدريسي: نفس المصدر السابق.

إلى أقصى حدود المجاملة حتى تركنا البلاد المجاورة لهم على حالتها، ولم نحاول إدخالها في نظامنا الجديد ولم ندرب رجالها على أساليب القتال الحديثة".[١٤٨] كما أرسل وزير خارجية الحكومة الثورية تهديدات عديدة إلى المبعوث الفرنسي في أجدير: ".. بمحاولتهم الآن السيطرة على بني زروال -في منطقة الورغة- فإن الفرنسيين سيسببون لنا ضررا كبيرا وسيتحملون تبعا لذلك ضررا ليس بأقل منه، إنك لا تجهل أننا قد حققنا نجاحا كبيرا ضد إسبانيا ... بيد أن جمهور الريفيين لا يقيم فرقا بين الأجانب ... نحن نعرف قوة فرنسا ونقدر قيمتها... ولكن يجب على السلطات الفرنسية أن تعلم أنها إن أرادت أن تتقدم في هذا الوقت سواء لدى قبيلة بني زروال أو قبيلة متيوه، أو سواء في أية نقطة أخرى... فإن الحرب بيننا، ولا يمكننا أن نتصرف بشكل آخر، وكل الريفيين مستعدون للموت من أجل قضيتهم"[١٤٩] رغم كل هذا لم تنثن القوات الفرنسية عن عدوانها ومساعيها الدنيئة ضد الثوار.

وكان قائد القوات الفرنسية ليوطي قد بدأ مسبقا سنة ١٩٢٢ في الاعتداء على الريف اقتصاديا، حيث قامت قواته باحتلال مناطق وادي ورغة جنوب الريف بحجة حماية تلك المنطقة من عواقب الثورة، لكن الغرض الحقيقي كان قطع الطرق الأساسية بين الريف وسائر أجزاء المغرب لمنع وصول النجدات الشعبية إليه، وحرمانه من مصدر اقتصادي مهم، حيث أن مناطق وادي الورغة كانت تعدّ المصدر الرئيس للريفيين الذي يمدهم بالغلات الزراعية وخاصة القمح والزيتون. في نفس الوقت، بدأت المخابرات الفرنسية باعتقال المتعاطفين والمهربين المتعاونين مع الثورة في مناطق نفوذها، كما قامت بدعم حركات التمرد على الخطابي المتمثلة في بعض المفسدين من شيوخ الطرق الصوفية وزواياها، أمثال عبد الكريم بن عمر الشريف الدرقاوي الذي كان يخدم نفوذ الفرنسيين في بني زروال.[١٥٠]

والحقيقة أنه عام ١٩٢٤ كان الفرنسيون قد عزموا بشكل نهائي على خوض المعارك ضد الثوار لإخماد ما كانوا يطلقون عليه بالتمرد، وقاموا بتقوية العديد من الحصون والثكنات وبتعزيز القوات العسكرية المرابطة على حدود الريف، وشنوا عدوانا في إقليم وزان على القسم الغربي لمنطقة وادي ورغة الخاضعة لحكومة الريف، واحتلوها أوائل عام ١٩٢٤، ثم بدؤوا بتحصينها ضد أي هجوم مقابل، وقد برر (هريو) رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك، العدوان الفرنسي على نفوذ الثورة الريفية كما جاء في جريدة السعادة المغربية قائلا: "إننا نقاوم أعمال الريفيين في الواجهة الشمالية دفاعا عن حقوقنا الشرعية وعن مصالح السكان المخلصين لنا"!! [١٥١] إن جهود

[١٤٨] الدكتور محمد علي داهش: صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار.

[١٤٩] محمد علي داهش؛ معركة البيان، مجلة دراسات عربية.

[١٥٠] تقع منطقة بني زروال غرب بلدة تاونات، جنوب الريف. وقد كانت حسب اتفاقية ١٩١٢ من ضمن نفوذ الإسبان، إلا أنها منذ البداية كانت تحت إشراف الفرنسين، لأنها كانت تمثل خطوط دفاعهم الأولى عن فاس. وقد انتقلت إليهم رسميا باعتراف إسباني في ٢٥ يونيو ١٩٢٥.

[١٥١] جريدة السعادة (المغربية في ٢٦ أيار - مايو – ١٩٢٥).

الفرنسيين العدوانية تجاه الثورة كانت تؤكد نوايا مبيتة أخرى، وهي العمل على وراثة الإسبان وضمّ الشمال المغربي بعد القضاء الثوار. تماما كما كانت النوايا الإسبانية أثناء الحرب العالمية الأولى تصب في الاتجاه نفسه. وقد أشار الكاتب الفرنسي أندريه برتون في جريدة الأومانتيه الفرنسية ما يشير إلى طبيعة النوايا الفرنسية بقوله: "إن الفرنسيين في قرارة أنفسهم يحبذون أن يتغلب ابن عبد الكريم على الإسبان ليجليهم عن الشمال وحينئذ يتذرع الجيش الفرنسي باحتلاله"[١٥٢]

وكما سيأتي معنا في الفصل المقبل فإن الصدام العسكري قد وقع فعلا بين الثوار والفرنسيين في أبريل/نيسان ١٩٢٥، وقد كانت نتائجه مرعبة بالنسبة للفرنسيين حيث وقعت قواتهم في هزيمة منكرة، واتسع نفوذ الثوار مهددا المراكز الأساسية للفرنسين وعلى رأسها تازة وفاس كما سياتي معنا بالتفصيل. وبين أبريل/نيسان ويونيو/حزيران كانت المعارك الجنوبية قد حسمت لصالح الخطابي، وفي تلك الأثناء كانت فرنسا تمر بمخاض عسير انتخابي وصراع مع الأحزاب الاشتراكية واليسارية الرافضة للحروب الاستعمارية، مما منع استقدام أي تعزيزات فرنسية في البداية. فتم استنزاف الفرنسيين ماديا وجسديا ومعنويا في تلك المعارك حتى اضطروا إلى التراجع نحو خطوط دفاعية خلفية أمام تازة وفاس مباشرة، ولم تقم بعدها القوات الفرنسية بإعادة محاولة الزحف على الريف منفردة، لأنها تيقنت أن الثورة الريفية لا يمكن إخمادها بمقدرات دولة واحدة. وبين ١٩٢٥ و١٩٢٦، كان الاحتلال الفرنسي والإسباني قد جهز لحملة اجتياح مشتركة وشاملة، من كل الجهات، من الشرق والغرب، ومن الشمال ومن الجنوب. وهذا ما سنتحدث عنه في الفصول القادمة.

هذا، وقد حرصت القيادة الثورية على إبقاء الجسور مع الفرنسيين حتى بعد هذه المعركة، فأعربت عن رغبتها في إحلال السلام والعودة إلي سياسة المفاوضات. ففي يونيو/حزيران ١٩٢٥، أرسل امحمد الخطابي رسالة إلى مجلس النواب الفرنسي أكد فيها: أن الفرنسيين هم الذين بدؤوا العدوان، وأن الشعب يقاتل دفاعا عن حريته وهو "لا يقاتل إلا عن واجب، ولا يدافع إلا عن حق، ولا يبتغي من كل ذلك إلا أن يعيش كالأمم حرية واستقلالا، ومع مجاوريه بالمسالمة والوئام..." وأدان فيها عدوان الفرنسيين وتحرشاتهم وأطماعهم في المنطقة وعزوفهم عن التفاهم، وقال: "إنهم لو أعارونا التفاتة وحصل حسن التفاهم، لم نقع في مثل ما وقعنا فيه من الحرب والخراب، ولأمكننا أن نعيش بالصداقة والصفاء مع دوام المعاملة الحسنة والصداقة الودية مع كل مجاورينا".[١٥٣]

كما أعلن الأمير الخطابي في أواخر يونيو/حزيران ١٩٢٥ عن رغبته في التفاهم مع الفرنسيين، فقد ذكر جابرييللي Gabrielli المراقب المدني الفرنسي في تاوريرت، وكان شديد الاهتمام بأحداث الريف، أنه قابل الأمير الخطابي وأكد له بأنه يأسف للوضع الحالي بين الريف وفرنسا، وأنه كان دوما تملؤه الرغبة في السلام، وأنه سعى إلى التفاهم

---

[١٥٢] أحمد عبد السلام البو عياشي: كتاب حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٥٣] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

معها، وأنه لايزال مستعدا لذلك على أن لا يغيب عن البال طموح الشعب الريفي وتطلعه نحو التحرر والاستقلال، وأشار إلى أن قيام الصراع مع الفرنسيين كان بسبب عدوانهم على مناطق بني زروال وقصفها بالطائرات في وقت الذي لم تهاجم فيه قوات الثوار أي مركز فرنسي. كما أشار الأمير إلى فرض الفرنسيين الحصار على الريف. ورغم ذلك فإنه لايزال مستعدا للصلح، وأكد أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأن تعترف فرنسا باستقلال الريف، وهو الشرط الأساسي الذي لا جدال فيه... [١٥٤]

إن تلك المحاولات الدبلوماسية التي كانت تقوم بها الحكومة الثورية لم تكن تعني أبدا إيقاف القتال الذي استمر حتى أواخر يوليو/تموز ١٩٢٥، ومما ساعدها على الاستمرار حالة الالتفاف والتضامن الشعبي معها، حيث انضمت إلى الثورة الكثير من القبائل الشمالية لتازة، وهي التسول والبرانس وغزناية.

٤) السياسة الخارجية تجاه المخزن (الحكومة المغربية):

خلال العقد الأول من القرن العشرين، كانت العلاقة بين قبائل الريف والحكومة المركزية للمغرب تتسم بالتوتر غالبا، لأن الأخيرة كانت ترسل العديد من الحملات التأديبية للريف، بدافع محاسبة المتمردين على الإسبان، الذين يغيرون على السفن والمقرات الإسبانية، فيتسببون في خسائر فادحة عادة ما توقع الحكومة المركزية في الحرج، وتضطرها إلى الاعتذار ودفع التعويضات المالية. وكانت القوات الحكومية التي تجتاح الريف بدافع ملاحقة المتمردين، تمارس/آذار النهب والسلب في حق السكان، وتتصف بالقسوة والشدة، وتنزل العقاب بالجميع دون تمييز بين المذنب والبريء.

بسبب هذه السياسات أصبحت سلطة الحاكم المغربي على شمال المغرب ضعيفة جدا إن لم تكن معدومة، كما أن انضواء الحاكم المغربي تحت الحماية الفرنسية وتعهده بتنفيذ اتفاقيات الاحتلال جعل قيمته وسمعته تصغر لدى القبائل والمكونات الثورية إن لم تنعدم أصلا. في ظل كل هذا لم يكن مقبولا لدى الخطابي أن يدخل في طاعة السلطة المحلية المغربية، لأن ذلك يتنافى مع قيمه التي خرج من أجلها. لقد ناضل ابن عبد الكريم من أجل الحرية السياسية والاستقلال، وجاهد مع رفاقه في سبيل رفع الهيمنة الأجنبية عن أرض الريف وأرض المسلمين عامة، فكيف يقبل بالدخول في منظومة سياسة ترسخ ركائز الاحتلال وتدعم نفوذه.

قد يعتبر الكثير من المحللين هذا التوجه دعوى انفصالية، لكنه في الحقيقة ليس كذلك لمن تعمق في دراسة السياق التاريخي لحركة الخطابي ودراسة شخصية وفكر الخطابي نفسه، لأن محمد منذ البداية كان يحمل رؤية واسعة الأفق، كان ينادي بوحدة المسلمين جميعا، وكان يذكّر اتباعه دائما بحال الأمة في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ودليل هذا انطلاقه من قبيلته بني ورياغل نحو توحيد الريف البربري، ثم وصولا إلى القبائل العربية في

---

[١٥٤] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

الشمال الغربي للمغرب، ثم ترؤُّسه في مرحلة المنفى للجنةٍ تدعو إلى تحرير المغرب العربي الذي يشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. وكل ما صدر عنه من تصريحات قد يفهم منها أنه يريد الانفصال بالريف عن المغرب، أو يريد التمرد عن السلطان المغربي بالإطلاق، أو أنه يتجنب تصنيف حركته ضمن التمردات الإسلامية[١٥٥]...الخ كل هذا ليس إلى سياسة دعائية تأولها الخطابي، وليست إلا خططا تكتيكا لتخفيف العداوة الخارجية، في ظل السير نحو هدفه الاستراتيجي المنشود، وهو تحرير كل المغرب من عدوان الاحتلال، ثم كل العالم الإسلامي مرورا بالمغرب العربي.

والخلاصة أن الخطابي لم يكن انفصاليا بالمعنى السلبي الذي تحمله هذه الكلمة، ولم يحمل طيلة حياته أية أفكار عنصرية تجاه أي عرق أو مذهب، بل كان رجل أمة، واسع الأفق، بعيد النظر، ولم يمنعه من الدخول تحت سلطان المغرب خلال الثورة أو حتى بعد الاستقلال إلا أنه كان يريد حرية حقيقة لا حرية مزيفة، ولم يكن حكام المغرب الأقصى أو حكام المغرب العربي ككل في ذلك الوقت إلا أذرع وظيفيّة للاحتلال تعمل لصالحه من أجل تثبيت عروشها على حساب شعوبها وأوطانها.

إذا فالخطابي كان ينظر إلى حاكم المغرب كجهة خاضعة للاحتلال وكجزء منه، لذلك فإنه كان يرفض الدخول تحته، وفي نفس الوقت لم يكن يريد معاداته أو التصادم معه، بل حاول أكثر من مرة تألفه واستمالته وتحييده عن الصراع. ومما يدل على ذلك أنه عند تعيينه أميرا على الريف قام بإرساله برقية إلى الحاكم المغربي يوسف بن الحسن الأول مرفقة بهدية رمزية، ليبرهن له أنه لا يريد معادات الدولة أو التصادم معها، وقد نقل محمد ازرقان عن الخطابي أنه قال: "وفي نيتي أن أكتب أيضا للسلطان مولانا يوسف وأوجه هدية إليه على قدر الحال ليتحقق بأننا منقادون لأوامره التي يقضي الدين علينا بطاعته فيها، خصوصا حين بلغه مبايعتكم -أي الشعب- لنا بالإمارة

---

[١٥٥] جاء في تصريح أدلى به الخطابي لمندوب جريدة الوجورنال: (انظر: حاضر العالم الإسلامي، ص ٢٠٠، ج ٣) "إن حربنا وطنية لا دينية، وهم يقولون إن مرادنا هو أن نطرد من المغرب جميع الإفرنج، وهذا كذب. نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف... أنا ممن يرون إطلاق الحرية الدينية للمسيحيين في بلادنا... الأديان كلها صالحة. ديانتكم صالحة لكم وديانتا صالحة لنا. ويكفي للاتفاق على هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الإرادة من الجانبين"، وفي سنة ١٩٢٥ حينما تجددت الحملة عليه بدعوى أنه جزء من حركة إسلامية مناهضة للغرب، أدلى ابن عبد الكريم بحديث لصحافيين أميركيين (ص ٩٢، الوزاني في حياة وجهاد، ج٢) استنكر فيه أن يتم الربط بين حركته والحركة الإسلامية في العالم، مبينا أن ترديد "ذلك ليس له إلا هدف واحد هو تخويف الفرنسيين والإنكليز وإرغامهم على معارضة حكومة الريف في صراعها مع إسبانيا". والحقيقة أن هذه التصريحات لابد من وضعها في سياقها لفهم الدوافع الكامنة وراءها. والظاهر أن هذا التملص من الحركة الإسلامية لا موجب له إلا تلافي تضافر جهود الأوروبيين إلى جانب الإسبان، في وقت حرج من تطور الأوضاع سنة ١٩٢٥. ويمكن أن ندرج جميع المواقف من هذا القبيل في نطاق التعبيرات التكتيكية التي تجتهد بعض الحركات السياسية في إطلاقها بسبب ظروف معينة.

فيظن أننا خارجون عن الطاعة، وبالكتابة إليه ينجلي هذا الوهم -ما أوحي إليه الفرنسيون- عن الحضرة الشريفة.."[١٥٦]

وقد أوردت المصادر أن الأمير بمجرد تنصيبه، قائدا للجهاد، أوفد مساعده محمد بوجبار، (كاتب وزارة المالية) حاملا هدية إلى البلاط، على قاعدة قادة الجهات حينما يتولون مقاليد الأمور. ووصل الموفد إلى الرباط التي قدم إليها من فاس، ولم يتيسر له أن يقابل السلطان، ولا أن تقبل منه الهدية لا بالإقامة العامة ولا بفاس، وقد رجع بوجيبار إلى الريف دون طائل. وترك الهدية عند عبد العزيز الحلو، صهر التاجر محمد بن العباس جسوس المستخدم في المجلس البلدي في فاس. والظاهر أن هذه الرحلة قد تمت بتاريخ ٢٨ محرم عام ١٣٤٢ موافق ١٠ أيلول/ سبتمبر/أيلول ١٩٢٣، وكانت المهمة تشتمل على زيارة فاس للاتصال بالكولونيل شاستوني، ومدينة الرباط للاتصال بالماريشال ليوطي والسلطان، وباريس للاتصال بالحكومة الفرنسية، وكان هدف البعثة إيصال هدية إلى السلطان وإقناعه بالعدول عن السير في ركاب الاستعمار، والإعراب له عن رغبة الأمير ورجاله في جمع شمل الشعب المغربي للتحرير حتى الجلاء عن الوطن كله، ولجميع قوات الاحتلال الأجنبية.

وفي إحدى تصريحاته للصحافة الفرنسية، سئل الخطابي عن موقفه من فرنسا والسلطان معا، "يقال عنك إن مرادك هو الوثوب على المراكز الفرنسية في ورغة، وإذا خرقتها، زحفت إلى فاس حيث يبايعك القوم في مولاي إدريس سلطانا على المغرب". فأجاب محمد: "هذه كلمات رجل مسلوب العقل، وأنا ولله الحمد أظن نفسي عاقلا". وقال في الحديث نفسه: "كاتبت السلطان مولاي يوسف مرارا بأن يضع حدا لتعدي الإسبنيول بما له من صفة سلطنة المغرب فلم يجاوبني ولا مرة واحدة".[١٥٧]

وهكذا فبعد أربع سنوات من الانتصارات المتوالية، كان الخطابي ملتزما بشكل دقيق بسياسته المرنة تجاه السلطان المغربي، غير أن الأخير كان بتحريض من السلطات الفرنسية قد كرر مرارا نداءات سلبية بخصوص الحرب التحريرية التي قادها الخطابي. وقد قال في إحداها مخاطبا الفرنسيين بتاريخ تموز/ يوليو/تموز ١٩٢٥: "أنا لن أتعامل مع بن عبد الكريم، وأتوقع منكم أن تخلّصوا المغرب من هذا المتمرد"[١٥٨]

---

[١٥٦] محمد العربي المساري: كتاب محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة للوطن.

[١٥٧] محمد العربي المساري: نفس المصدر.

[١٥٨] محمد العربي المساري: نفس المصدر.

الفصل الثامن: الرجوع الإسباني في الشرق والصدام مع الفرنسيين في الجنوب.

"إن حرب العصابات تعادل حرباً ثورية، إنها امتداد للسياسة باستعمال السلاح.

وطالما أن أولئك المكلفين بالصراع ضدها لا يفهمونها، فلن يجدوا أية وسيلة استراتيجية أو تكتيكية لتحقيق النصر. أما إذا فهمها أولئك الذين يقودونها، فإنها لن تخيب مطلقاً، مهما كانت الظروف، لأن الحرب الثورية لن تبدأ إلا عندما تتوافر ظروف نجاحها."[١٥٩] **روبرت تابر**

أولا: حملات الاسترداد الإسبانية في المحور الشرقي.

ذكرنا في الفصول الأولى من البحث أن معارك الانهيار الشرقي للإسبان قد توقفت بصدور قرار الخطابي الذي يقتضي عدم تحرير مليلية، وفي أغسطس/آب كان الثوار قد أبادوا فعلا معظم القوات التي كانت تحت قيادة سلفستري، بحيث لم ينج منها في أنوال والعروي والناظور ومناطق بني سعيد وبني بو يحيى إلا المئات القليلة من أصل ٢٦ ألفا. وهذا ما استدعى من الجنرال بيرنغير أن يوقف زحفه الغربي نحو تازروت، ويرسل بمعظم قواته من سبتة في ٢٣ يوليو/تموز نحو مليلية بقيادة فرانكو، إضافة إلى التعزيزات التي تم استقدامها من إسبانيا، ليقوم الأخير بتثبيت خطوط دفاعية قوية على ضواحي مليلية. وقد جاء في بعض المصادر أن تعداد الجنود الذين قامت إسبانيا بحشدهم أواخر سنة ١٩٢١ للقضاء على الثورة الخطابية قد بلغ ١٥٠ ألف جندي. وكان معظم هؤلاء قد نزل فعلا في مليلية، بين أغسطس/آب وسبتمبر/أيلول ١٩٢١.

في ١٤ سبتمبر/أيلول ١٩٢١ انطلقت عمليا معارك الاسترداد بإشراف من الجنرال برنغير وبقيادة عملياتية لثلاث من أبرز القادة العسكريين الإسبان في تلك الحقبة: سانخورخو وفرانكو وميلان أستراي، فبدؤوا أولا بفك الحصار عن نقطة "إل مالو" وهي عبارة عن حصن منيع في دار حميد قريبا من مليلية. وفعلا استطاعت كتيبة من الجنود الإسبان فك الحصار في ١٥ سبتمبر/أيلول، إلا أن الثوار قاموا بنصب مدفعيتهم في منتصف الليل تجاه المعسكر، وألقوا عليه وابلا من المدفعية الثقيلة، مما تسبب في فناء القوات هناك التي كان على رأسها العريف "سيسيسو تيرورو".

وفي ١٧ سبتمبر/أيلول ١٩٢١، شنّ الإسبان هجومًا كبيرًا على الناظور في الساعة السابعة صباحا، وتقدموا من سيدي حميد نحو البلدة، غير أنهم تعرضوا لنيران المدفعية الثورية المنصوبة على جبل كوركو، فتعاملوا معها سريعا بشتى أنواع القصف المدفعي البري والبحري والجوي، ومع ذلك استطاع الثوار عرقلة تقدم القوات الإسبانية باستخدام الرشاشات ونيران البنادق في مضيق أمادي، وأصابوا القائد ميلان أستراي في صدره فتم

---

[١٥٩] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

إجلاؤه. بعدها، قاد فرانكو لوحده القوات الإسبانية على طول المرتفعات فوق المضيق، وعلى الرغم من تعرضهم لنيران كثيفة، إلا أنه استطاع تطهير حافة المضيق من رجال القبائل حتى جبل أربوس، بعد أن تكبد قرابة الخمسين قتيلا.

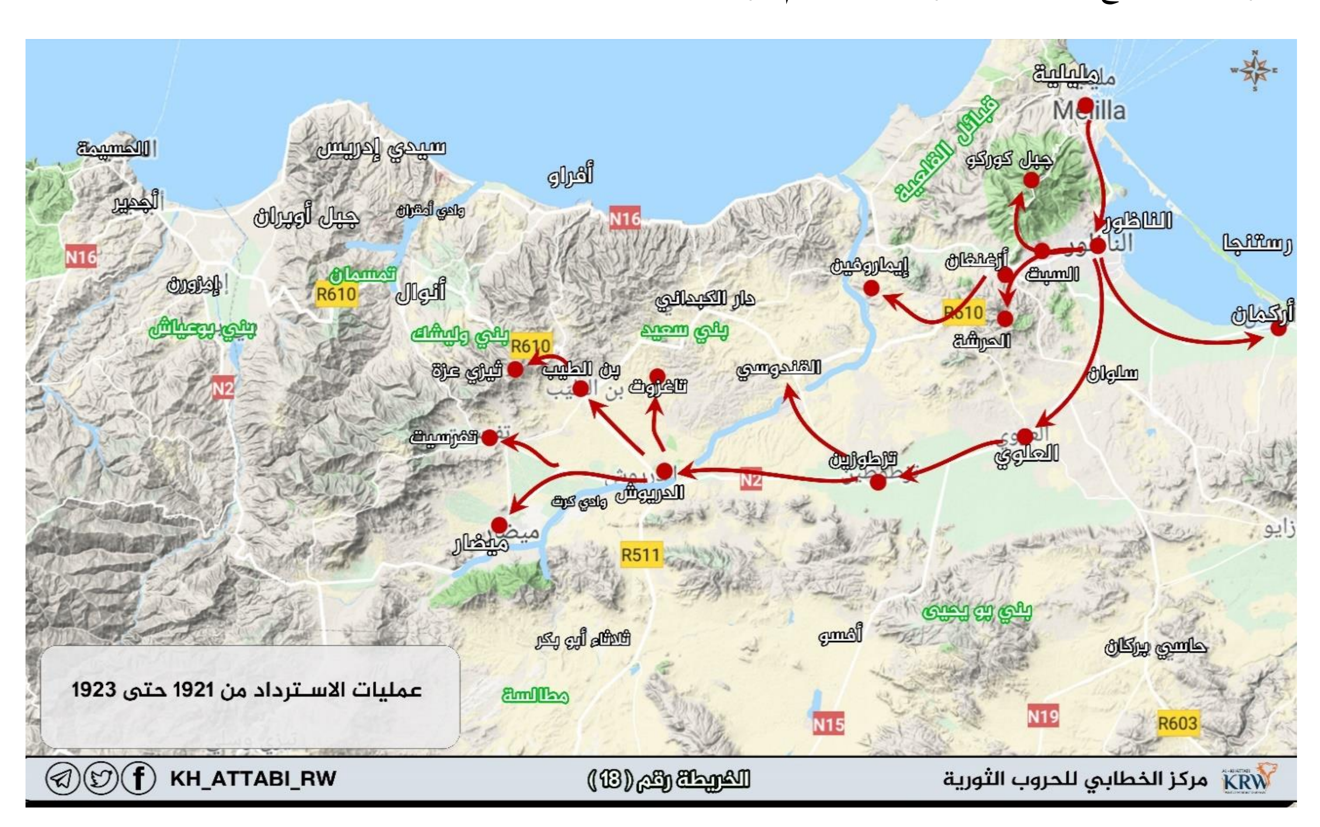
بعد سيطرته على الناظور، استمر فرانكوا في حملة الاسترداد، واستطاع في ٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢١ أن يبسط سيطرته على أودية وخنادق بلدة السبت بعد أن تكبد قرابة المائتي قتيل. وفي ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢١، سيطر رتل سانخورخو على موقع الثلاثين، كما سيطر نفس الرتل في ٨ أكتوبر/تشرين الأول على بلدة أزغنغان، ولم يصل العاشر من أكتوبر/تشرين الأول إلا وقد استطاع الإسبان أن يسيطروا بشكل كامل على جبل كوركو بعد قتال عنيف جدا كلفهم قرابة الـ ١٥٠ قتيلا.

بعد تأمين جبل كوركو والناظور، بدأ فرانكو بالزحف نحو الغرب، فوصل بلدة العروي وسيطر على قمتها الاستراتيجية في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢١، وهناك وجدو جثثا متعفنة لـ ٨٠٠ إسبانيا كانوا قد قتلوا في أغسطس/آب بعد انهيار أنوال، فاشتغلوا بدفنهم. ثم في ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢١، استمرت حملات الاسترداد غير أنها كانت تتقدم ببطء بسبب الظروف الجوية والأمطار الغزيرة، واتجهت شمالا لتصل إلى منطقة الحرشة وإيماروفين.

ومع بداية سنة ١٩٢٢، كان الاسبان قد سيطروا على بلدتي طزطوطين والدريوش التي تحوي محطة استراتيجية للقطار، وعند وصلوهم لهذه البلدات في ١٠ يناير/كانون الثاني أصدر فرانكو تعميما بمنع الممارسات الانتقامية في حق ممتلكات الريفين في خطوة منه لتسهيل عمليات تجنيد المليشيات الرديفة. وقد بقي الإسبان طيلة يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط يقومون بعمليات تحصين منطقة الدريوش لأنها كانت تتعرض لهجمات قوية من الثوار. ثم في مارس/آذار انطلقت عمليات الاسترداد نحو مناطق بني سعيد وبني وليشك، ففي ١٤ مارس/آذار أدخل الإسبان ٦ دبابات إسبانية من طراز شنايدر و٦ دبابات من طراز FT-17s في حادثة تحصل لأول مرة في الحرب الريفية، وقد كان أول عمل لسرية الدبابات ضد قبيلة بني سعيد في ١٨ مارس/آذار ١٩٢٢، وكان التقدم مشتركا تجاه بلدة تاغزوت بين القوات البرية والدبابات. بدأ العمل في الساعة السادسة صباحا، وتقدمت الدبابات بسرعة ٤ أميال في الساعة سابقةً مشاة الفيلق الإسباني. وقد كانت مواجهة الدبابات تجربة جديدة لثوار بني سعيد لكنهم تعلموا طريقة مواجهتها وتكيفوا معها بسرعة. فحينما لم توقف نيران البنادق الدبابات، صعد رجال القبائل عليها وطعنوا طواقمها وأطلقوا النيران عليهم في فتحات الرؤية. ومع غياب المشاة لإسناد الدبابات لم تستطع الأخيرة فعل شيء تجاه ذلك. ومع إخفاقات إقلاع المحركات المستمرة واستعصاءات الأسلحة وعدم وجود إسناد من المشاة، أوقفت الدبابات العمل وانسحبت. وترك الاسبان دبابتين في الميدان. لكن مع نهاية

مارس/آذار أعادت القوات الإسبانية الكرة من جديد واستطاعت فعلا السيطرة على تاغزوت ولم تنجح محاولات الثوار في استردادها رغم ما تكبده العدو من خسائر.[١٦٠]

وصلت حملات الاسترداد في أكتوبر/تشرين الأول إلى بن طيب وتفرسيت وميضار، واستطاع الإسبان فعلا في ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٢ السيطرة على بلدة تيزي عزة في خطوة نحو الوصول إلى المرتفعات المطلة على أنوال وامزاورو، غير أن الثوار استطاعوا مع بداية نوفمبر/تشرين الثاني استباق الإسبان إلى هذه المرتفعات، وأصبحوا بذلك في موطن جغرافي يسطوا على القوات المتمركزة في البلدة وطرق إمدادها، مما أدخلها سريعا في حصار خطير وخانق. وطيلة الشتاء اضطر الإسبان إلى حفر الخنادق والأنفاق للصمود في بلدة تيزي عزة، وكانت طرق إمدادهم تتعرض للانقطاع بشكل مستمر، مما كبدهم قرابة الألفين قتيل.



ومع بداية سنة ١٩٢٣، لم تستطع القوات الإسبانية أن تتقدم أكثر من هذا، إذ بدأت مراكزها التي أعادت إنشاءها تتعرض بشكل متكرر للحصار والإغارة، فدخل الاحتلال مرحلة من الاستنزاف الدفاعي، بينما حاول الثوار أكثر من مرة استرداد المناطق التي زحف إليها الإسبان بين ١٩٢١ و١٩٢٣ غير أنهم أيضا لم يفلحوا في ذلك، وبقي الموقف فيما يشبه التوزان الاستراتيجي بين الطرفين، ولم تتجاوز القوات الإسبانية تيزي عزة إلا بعد بداية الحملات المشتركة مع الفرنسيين في ١٩٢٥، وسيأتي معنا ذكرها بالتفصيل في الفصول القادمة.

[160] Steven's Balagan, Spanish and Portuguese Military History.

الجدير بالذكر، أن أنظار الخطابي اتجهت منذ ١٩٢٣ نحو الغرب (تطوان-شفشاون). وفي خطوة لإعادة كسب المبادرة، أراد ابن عبد الكريم استدراج الإسبان إلى الجهة الغربية التي كانت طبيعتها الجغرافية ومناخها وبنيتها التحتية مناسبة جدا لتنفيذ العمليات النوعية التي يتقنها الثوار. ومع ذلك، فالعمليات الثورية في القطاع الشرقي لم تنقطع أبدا، وفيما يلي معظم العمليات التي تم تنفيذها من يونيو/حزيران ١٩٢٣ وحتى ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٥:[161]

- في ٥ يونيو/حزيران ١٩٢٣: محاولة إسبانية لفك الحصار عن تيزي عزة، يتكبد الإسبان فيها أكثر من ٢٠٠ قتيل.
- خلال سبتمبر/أيلول ١٩٢٣: هاجم الثوار ٧٠ موقعًا إسبانيا من أصل ٧٦ على خط الجبهة في القطاع الشرقي، وامتدت هجماتهم طيلة ٢٨ يوما من الشهر.
- خلال أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٣: هاجم الريفيون ٣٨ موقعًا إسبانيا من أصل ٧٦، وامتدت هجماتهم طيلة ٢٣ يوما من الشهر.
- خلال نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٣، هاجم الثوار ١٠ مواقع إسبانية من أصل ٧٦، وامتدت هجماتهم طيلة ٧ أيام من الشهر.
- خلال شهر ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٢٣، هاجم الثوار ٤٨ موقعًا إسبانيا من أصل ٧٦، وامتدت هجماتهم طيلة ٢٣ يوما من الشهر.
- من ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٣ وحتى يناير/كانون الثاني ١٩٢٥ لم تحدث عمليات مهمة في القطاع الشرقي لأن الخطابي كان مشغولا بالصدام مع الفرنسيين في الجنوب وبتحرير مناطق الشاون ولوكوس في الغرب.
- في يناير/كانون الثاني ١٩٢٥، هاجم الثوار ١٩موقعا إسبانيا من أصل ٧٦ على خط الجبهة في القطاع الشرقي، وامتدت هجماتهم طيلة ١٣ يومًا.
- وخلال شهر فبراير/شباط عام ١٩٢٥، هاجموا ٣٥ موقعاً واستمرت هجماتهم طيلة ٢١ يوماً.
- وفي مارس/آذار ١٩٢٥، هاجموا ١٦ موقعا طيلة ١٢ يوما. وفي أبريل/نيسان ١٩٢٥، هاجم الثوار ٣٣ موقعًا طيلة ٢٢ يوما.
- وخلال شهر مايو/أيار من عام ١٩٢٥، هاجموا ٤٧ موقعًا طيلة ٢٣ يوما.

[161] Steven's Balagan, Spanish and Portuguese Military History.

- وفي أواخر مايو/أيار وأوائل يونيو/حزيران ١٩٢٥، شن الثوار أيضًا هجومًا قويًا على المواقع المتقدمة في تيزي عزة في الشرق.
- وخلال شهر يونيو/حزيران عام ١٩٢٥، هاجموا ٤١ موقعا إسبانيا، وامتدت هجماتهم ٢١ يوما.
- وفي شهر يوليو/تموز عام ١٩٢٥، هاجم الريفيون ١٨ موقعا طيلة ١١ يوما.
- وخلال شهر أغسطس/آب عام ١٩٢٥، هاجموا ٤٢ موقعا طيلة ٢٠ يوما.
- وفي سبتمبر/أيلول ١٩٢٥، هاجموا ٤٤ موقعا طيلة ٢٠ يوما.
- وفي أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٥، هاجموا ١٩ موقعًا طيلة ١٣ يوما. وفي نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٥، ضربوا ١٣ موقعًا طيلة ١٠ أيام.
- وخلال ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٥، أغاروا على ١٦ موقعا.

ثانيا: الصدام العسكري مع الفرنسيين.

بعد إصرار الفرنسيين على رفض التعامل السلمي وتنفيذ سياسة عدائية تجاه الريف، وسيطرتهم على مناطق وادي ورغة ومناطق بني رزوال، عقد الخطابي في مارس/آذار ١٩٢٥ مجلسا ضم ممثلي جبالة وغمارة والريف وصنهاجة، وقرر بعد استنفاد الصبر وكل الوسائل السلمية أن يخوض المعركة مع الفرنسيين، وعين شقيقه امحمد وأحمد أخريرو قادة للحملة، وحشد لها ما يقارب الستة آلاف مقاتل من الريف وغمارة وجبالة. فبدأ أولا بإخضاع بني زروال واستئصال حركة الدرقاوي، فلم يؤخذ معه ذلك سوى ثلاثة أيام، ثم انطلق جنوبا في حركة خاطفة نحو فاس. وقد ورد في كتاب الضابط الفرنسي هنري كليريس "عملية تازنة" (Henry clerisse ; in Tache de Taza)؛ أن "الطلقة الأولى في تلك الهبّة انبعثت من بني زروال من لدن عناصر مؤيدة لابن عبد الكريم وقعت في ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٢٥، حينما قامت حركة مؤلفة من ١٥٠٠ رجل من بني مسارة وبني يحمد وغزارة بالهجوم على زاوية حليفنا الدرقاوي في أمجوط. وهذا الهدف الذي قصده المجاهدون يدل على مبلغ الحنق الذي كان يخامرهم على الطرقيين. حيث قاموا بنهب الزاوية وإشعال النيران فيها."[١٦٢]

كان التنظيم الفرنسي الدفاعي بين تازة ووزان على طول وادي ورغة تحت قيادة الضابط شامبرون، ويتألف من ١٨ كتيبة من المشاة، و٦ أسراب من الفرسان، و١٢ بطارية مدفعية. وقد كانت هذه القوات مقسمة ضمن ٣ قطاعات، مع ٣ مجموعات متحركة، وبإجمالي ٢٥٠٠٠ جنديا متوزعين على جبهة طولها ٤٠٠ كم، مسنودة بسلاح الطيران. وقد كان من سيئات هذا النظام الدفاعي عدمُ وجود قوات احتياطية للدفاع. ولأن الاحتياطات الكافية مفقودة، كانت هذه القوات الفرنسية المرابطة تضطر التحرك بشكل مستمر، وهو ما أرهق الدواب والآليات، وأضعف أيضا التواصل بين القوات والترابط التنظيمي بينهم.

بدأ القتال في أبريل/نيسان عام ١٩٢٥، وفي تلك الأثناء لم يتفاجأ الفرنسيون بالهجوم الخطابي، لكنهم تفاجؤوا وصدموا من أسلوب الهجوم الذي لم يتوقعوه من الثوار الريفيين البدو، فقد كانت تشكيلاتهم العسكرية في غاية التنظيم، وكان جنودهم مدربين على استخدام مختلف الأسلحة ابتداء من البنادق الحديثة وصولا إلى المدافع الرشاشة والثقيلة، وكانت دقة رماياتهم عالية جدا، واستطاعوا التنسيق بين الهجمات مع القيام بعمليات تسلل ناجحة بإدارة ناجحة وسيطرة كاملة على القوات. لقد شعر الفرنسيون في تلك المرة أنهم (على عكس توقعهم) يجابهون حربا نظامية حقيقة. كما فاجأهم أيضا تفاعل القبائل المحلية في خط ورغة تزامنا مع هجوم الخطابي، فقد اندفعت قبائل صنهاجة والحبانية وكزناية وبني مسطرة والمطالسة والتسول...الخ المتاخمة للمناطق المحررة دفعة واحدة ملبية نداء الجهاد، ووقعت انتفاضة عارمة في أبريل/نيسان ١٩٢٥ في خط واسع وصل حتى سهول الغرب وهدد مدينة فاس. وحدث ذلك بشكل يوحي بأن تلك الهبة موعودة من القدر بنصر حتمي. ولربما صورت

---

[١٦٢] محمد العربي المساري: نفس المصدر السابق.

النتائج العسكرية الأولى لتلك الهبة أن هناك ديناميكية تدفع قوات المجاهدين نحو تقدم لا يوجد من يوقفه، مما كاد يذكر بأنوال وما تبعها.

توالت الأحداث بسرعة مما يدل على حماس المقاتلين. تمركزت القيادة الخطابية في بني بربر لقربها من ميدان القتال، وأعلنت الجهاد العام في كل المغرب، وربطت فورا محاور العمل بخط هاتفي، وحضر الأمير الميدان وجال فيه. لقد تمت مهاجمة كل من بني در كول، والبيبان، وتافرانت. وفي الغرب تمت تنفيذ هجومات في تروال، وتعرضت مدينة وزان إلى هجوم قامت به حركة رديفة تتألف من ٣٠٠٠ مقاتل لتلتقي بقوات أخريرو الآتية من الشاون. وتقدمت قوات الثوار في منطقة الورغة على خط لا يقل طوله عن ٨٠ كم، يمتد من شمال غرب وزان حتى مصب نهر الورغة، واستطاعت إسقاط معظم حصون الفرنسين على ضفتي النهر، ثم واصلت تقدمها في المنطقة، فدخلت قبيلة الحبانية متجهة صوب سوق الأربعاء إلى حيث الطريق المؤدية إلى فاس، واعترف شاهد عيان من العسكرين الفرنسيين -وهو Gavardie- بتفوق الريفيين وقدرتهم على محاصرة القوات الفرنسية من كل جهة ومواصلة الزحف حتى أسوار فاس، و إزاء ذلك اتخذت القوات الفرنسية الاحتياطات اللازمة لصد الهجوم الريفي، حيث انقسمت إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول كلف بالدفاع عن مخافر الحدود نفسها، وتوزع القسم الثاني إلى ثلاثة كتل لحماية خط سكة الحديد بين (الجزائر-تازة -فاس-مكناس-الرباط)، أما القسم الثالث فقد بقي احتياطيا لحماية فاس.[١٦٣]

مع بداية شهر مايو تمكن الثوار من تحقيق انتصارات حاسمة على القوات الفرنسية، إذ استطاعوا إسقاط (٤٨) حصنا فرنسيا من أصل (٦٦)، في مقدمتها حصن بييان، مطار عين مديونة، بو عادل أشعار، عين الجنان، واسكار، اسوال، تروال، بني دركول. وبوضوح، أصبحت المناطق التي تم إخضاعها في وقت سابق مهددة من جديد، وكذلك الحواضر الكبرى بما فيها فاس التي شاع أنها ستستقبل بن عبد الكريم في ٢ تموز/ يوليو/تموز ١٩٢٥ في يوم عيد الأضحى.[١٦٤] وعلى إثر ذلك، اضطرب الرأي العام الفرنسي، اضطرابا جعل القيادة الفرنسية في المغرب وعلى رأسها ليوطي في وضع حرج، حتى أنهم فكروا في الانسحاب من المنطقة كلها بعد أن هدد الثوار تازة.

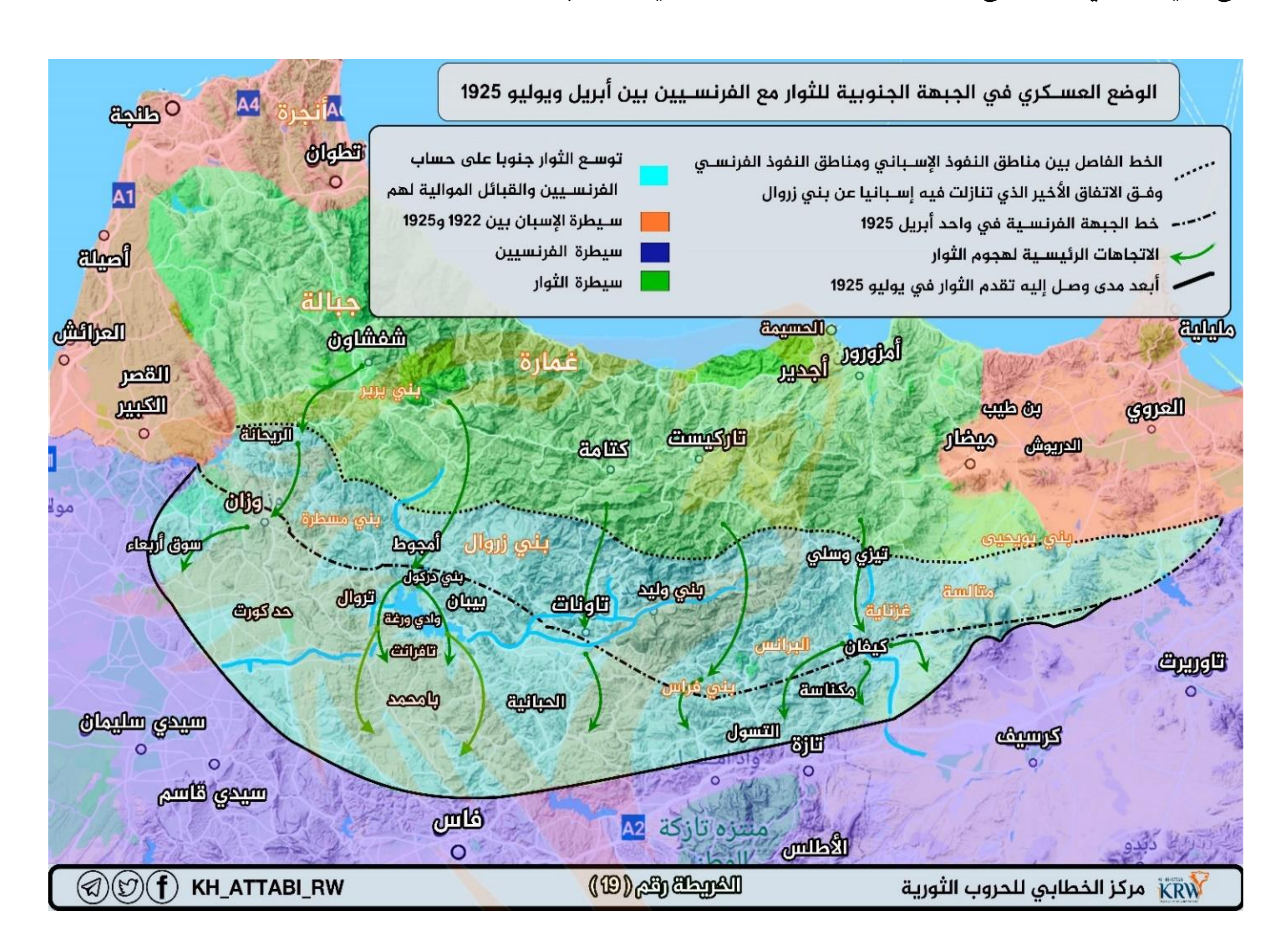
وقد كانت فاس هي المحور الرئيسي للهجوم الثوري في البداية، باعتبارها عاصمة المحمية الفرنسية المغربية، إلا أن قوة النقاط هناك، دفعت الخطابي لتحويل محور الهجوم الرئيسي إلى القطاع الشرقي نحو طريق وجدة-تازة-فاس (تازة تحديدا)، ليقطع طريق إمداد فاس من الجزائر. كان الفرنسيون قد أعدوا خطة للانسحاب من تازة، إلا أن قرار القيادة قد جاء بالصمود في تازة مهما كلف الأمر، ليستطيع الفرنسيون الثبات فيها بعد نشر آخر

[١٦٣] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

[١٦٤] محمد العربي المساري: نفس المصدر السابق.

كتيبتين متبقيتين لديهم، فاستطاعوا ببالغ الجهد انقاذ الموقف، لكن مع عدم قدرتهم على استرجاع المبادرة في لحظتها.

وفعلا في يونيو/حزيران تأزم الموقف الفرنسي بشكل أكبر في قطاع تازة، فقد حاول الثوار الوصول إلى المناطق التي لم تكن قد خضعت بعد للنفوذ الفرنسي، والتي كانت تقع جنوب هذه المدينة، كما حاولوا الوصول أيضا إلى منطقة الأطلس التي لم تكن هي الأخرى خاضعة لهم، وإزاء الضغط اضطر الفرنسيون إلى إخلاء تازة من الأهالي الأوربيين حتى يتمكنوا من الحصول على حرية العمليات الحربية، ونشبت معركة في تازة أدت إلى هز الرأي العام الفرنسي وبشكل أجبر الحكومة على تغيير قياداتها، وأن تبدأ بعمليات واسعة النطاق لتحول دون اتحاد الأطلس مع الريف، لكي لا تنقطع الصلة بين المستعمرة الجزائرية والمغربية.



وبعد ثلاثة أشهر من بدء الحملة، كان قد قتل من الفرنسيين ٢,٦٤٠ رجلا، وجُرح ٧,٥٥٩ آخرون، أما المفقودين فقد بلغ عددهم الـ ١,٢٢٠. [١٦٥] وقد حصل الريفيون، خلال حروبهم مع الفرنسيين على ٥١ مدفع ثقيل، و ٢٠٠ مدفع رشاش، وأعداد كبيرة من البنادق والقنابل اليدوية والذخائر، كما استولوا على معدات طبية قيمة، ووقعت بأيديهم أعداد من الأسرى الفرنسيين والسنغاليين.

كان الرأي الثوري العام يحضّ على مواصلة التقدم لتحرير المدن المغربية الكبرى مثل تازة وفاس، إلا أن الأمير عدل عن ذلك بالرغم من إمكانية تحريرها، ورغم مطالبة القبائل المحيطة بدخول القوات الريفية إلى مناطقهم، لمؤازرتهم على سحق الجيش الفرنسي. وقد تم ذلك بسبب خشية الأمير من قيام بعض القبائل بمهاجمة المدن بعد انسحاب الفرنسيين منها، الأمر الذي قد ينجم عنه وقوع بعض حالات النهب والسلب، هذا فضلا عن خوفه من تدميرها من قبل القوات الفرنسية وخاصة مدينة فاس لكونها مشعل العلم. ورغم هذه التبريرات إلا أن ذلك كان خطأ كبيرا، إذ كان من الممكن في ذلك الوقت إنهاء الوجود الفرنسي، وقد أشار إلى ذلك إدريس بن الأمير الخطابي، حينما أخبر عن أبيه أنه كان يعتقد أن تقصيره عن دخول فاس يعدّ من إحدى أخطائه الكبيرة.

أنشأ الأمير الخطابي خطا دفاعيا يمتد بين ناحية وزان إلى ناحية قبيلتي مطالسة وبني بو يحيى، أما في الشمال الغربي فقد اتخذ موقفا هجوميا تجاه الإسبان، فقد رأى أن الدفاع ضمن المدى البعيد قد يستنزف إمكانات المجاهدين القتالية، لذلك قرر القيام بعمليات هجومية على المراكز الاسبانية الموجودة بالقرب من مدينة طنجة، كبني مصور والفحص وغيرها، وذلك لفصل تطوان وسبتة عن العرائش والقصر الكبير. وفعلا استطاعت القوات الثورية الاستيلاء على أربعة مراكز إسبانية جوار طنجة خلال أسبوع واحد. ويبدو أن الأمير وهو في صراعه مع الفرنسيين أراد استغلال ضعف الموقف الإسباني في هذه المرحلة ومحاولة إخراج إسبانيا من حلبة الصراع بالقضاء على وجودها في شمال المغرب للتفرغ بعد ذلك للجبهة الجنوبية مع الفرنسيين. إلا أن الاتفاق الفرنسي الإسباني حال دون ذلك كما سيأتي معنا.

[١٦٥] ويكيبديا نقلا عن مصادر اسبانية، Making Morocco: Colonial Intervention and the Politics of Identity (Jonathan Wyrtzen)

الفصل التاسع: حملات الاجتياح الفرنسية الإسبانية وسقوط الدولة.

"دخلت على عبد الكريم في خندق أمامي، والطائرات الإسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة؛ فوجدته مبتسمًا، مرحًا، مقبلا، يضرب ببندقيته الطائرات... فتعجّبت من هذه الظاهرة البشرية الفريدة" [١٦٦]

فانسن شون مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون الأمريكية

أولا: التحالف الإسباني الفرنسي.

كان تدهور موقف الفرنسيين في تلك الفترة بعد الهزائم التي تكبدوها في الجبهة الجنوبية في يونيو/حزيران ١٩٢٥، سببا في إقناع القيادة الفرنسية بضرورة إجراء تقييم شامل، فقام الجنرال الفرنسي بيتان[١٦٧] نائب رئيس المجلس الحربي الأعلى في فرنسا (وهو شخصية مؤثرة وحاكمة في الجيش) بزيارة المغرب بنفسه لمعرفة الأوضاع والاطلاع عليها. كان بيتان بحكم تجربته في الحرب العالمية الأولى (وما فيها من حرب الخنادق) قد عرف أن الوضع في المغرب يمثل حرباً حقيقيةً نظامية شاملة، بعكس ما كان ينظر لها الجنرال ليوطي -الذي رأى الحرب حربا استعمارية محدودة يمكن حسمها بالحلول السياسية المخادعة للشعب الريفي التي تسندها بعض الحملات العسكرية- اعتقد بيتان بأن الحل الوحيد يكمن في الاجتياح العسكري الشامل، حيث اعتبر عدوه عبارة عن دولة معادية منظمة، وليس حركة انفصالية فوضوية، وأن القضاء عليه يستلزم تعبئة عامة لفرنسا بكل طاقاتها وإمكاناتها.

قفل بيتان عائدا إلى وطنه، ليعمل على تسوية جميع الخلافات مع إسبانيا، والتنسيق للقيام بعملية مشتركة كبرى ضد الخطابي، في الوقت الذي أعد فيه جيشا فرنسيا بلغ تعداده ١٤٢ ألفا، مردفين بـ ٢٠ ألفا من الجنود المغاربة الذين كانوا ضمن مليشيات مرتزقة أعدها الحاكم المغربي، مجهزين بأحدث الأسلحة من الدبابات والعربات المصفحة، مع زيادة عدد أسراب الطائرات، ومع اعتماد هيكلية تنظيمية للقوة المُعدّة نفس التي اعتمدت في الحرب العالمية الأولى.

والحقيقة أنه بعد الهزائم المخزية التي ألحقتها الثورة الخطابية بالإسبان شمالا والفرنسيين جنوبا، شعر الطرفان بضرورة توحيد الطاقات من أجل تحقيق المصالح المشتركة. وسرعان ما رحبت إسبانيا بمبادرة فرنسا ووافقت على عقد مؤتمر في ١٧ يونيو/حزيران استمرت أعماله حتى ٢٥ يوليو/تموز من سنة ١٩٢٥. كما حدث

---

[١٦٦] كتاب الأسطورة لعبد الرحمن سعيد الوليلى - عظماء منسيون الجزء الأول لل د. محمد موسى الشريف.

[١٦٧] فيليب بيتان (بالفرنسية: Philippe Pétain) (٢٤ أبريل ١٨٥٦ - ٢٣ يوليو ١٩٥١) كان عسكري ورجل دولة فرنسي أكرم بلقب المارشال في ١٩١٨. رئيس الدولة الفرنسية (١٩٤٠-١٩٤٤) ورئيس الوزراء (١٩٤٠) ووزير الحربية (١٩٣٤)

لقاء بين الجنرال بريمودي ريفيرا والمارشال بيتان في مايو/أيار من العام نفسه، حيث وضعت اللمسات الأخيرة على الاتفاقيات المبرمة بينهما ضد الثورة الخطابية.

وقّع الطرفان الفرنسي والاسباني عدة صفقات اقتصادية وسياسية وعسكرية للعمل بصورة مشتركة[١٦٨]، وقد نص الاتفاق الأول المنعقد في يونيو/حزيران ١٩٢٥ على وضع رقابة بحرية مشتركة على معظم السواحل المغربية، وتشمل جزءا كبير من سواحل المنطقة الخاضعة للنفوذ الفرنسي، وسمح هذا الاتفاق للسفن الحربية الاسبانية بالالتجاء إلى بعض الموانئ الجزائرية، كما سمح للسفن الفرنسية بالالتجاء لبعض الموانئ الخاضعة للنفوذ الاسباني للتمون منها. وقد تم إبلاغ الدول الأوربية الأخرى بهذا الاتفاق بعد يومين من التوقيع عليه، وكان يمثل الخطوة الأولى في عمليات تطويق الثورة من جهة البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.[١٦٩]

تلا ذلك اتفاق جديد بين الطرفين، وهو مكمل للاتفاق الأول ويقضي بمنع تهريب الأسلحة والعتاد إلى دولة الريف عن طريق البر. وفي ١١ يوليو/تموز تعهد الطرفان بعدم عقد صلح منفرد مع الأمير، وكانت هذه أخطر الاتفاقات السياسية لمواجهة الخطابي وأشدها خطرا عليه، لأنها غلقت عليه أبواب القيام بصلح منفرد مع أي طرف منهما، وبالتالي التفرغ لمواجهة الآخر. وفي ٢١ يوليو/تموز عقد الطرفان اتفاقا لمراقبة التهريب من منطقة طنجة الخاضعة للحماية الدولية، وطلبت إسبانيا في هذا الاتفاق حق تعقّب الثوار إلى داخل هذه المنطقة، وهددت بإعادة فتح مسألة طنجة التي كانت الدول الأوربية قد أنهتها بشكل دبلوماسي في اتفاق ١٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٣، إلا أن فرنسا نصحت إسبانيا بعدم تغيير اتفاق طنجة في ذلك الوقت حتى لا تثير مخاوف إنجلترا. وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن شاركت انجلترا في عملية مراقبة سواحل المنطقة الدولية، وأرسلت أربع سفن حربية بهدف تحقيق ذلك.

وعلى أية حال فقد تعاونت هذه الأطراف الاستعمارية الثلاثة في تضييق الخناق على الثورة. ولما كان من الصعب في عمليات الحصار البحري أن تقضي بمفردها على مقاومة الثوار (لأن الخطابي لم يكن يعتمد على إمدادات

---

[١٦٨] جاء في (Steven's Balagan, Spanish and Portuguese Military History.): "اتفق الفرنسيون والإسبان على ست اتفاقات تتعلق بالمغرب:

١. وقف واردات الأسلحة إلى المغرب (٢٢ يونيو).
٢. عرقلة تدفق الذخائر والأغذية إلى الريف الأوسط عبر البرّ (٨ يوليو).
٣. شروط السلام لتقديمها للريفيين (١١ يوليو).
٤. حالة طنجة (٢١ يوليو).
٥. تحديد الحدود الفرنسية الإسبانية (٢٥ يوليو).
٦. العمليات العسكرية المشتركة في حال رفض الريفيون شروط السلام (٢٥ يوليو)"

[١٦٩] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

البحر بشكل أساسي)، فإن فرنسا وإسبانيا استمرتا في وضع اتفاق آخر أواخر يوليو/تموز، تم خلاله إقرار أسس التعاون العسكري البري والجوي بين الطرفين. وقضى هذا الاتفاق بالسماح لطائرات كل من الطرفين بالتحليق فوق منطقة نفوذ الأخرى لتعقب الثوار، إضافة الى اتفاق مبدئي على حدود منطقتي نفوذ كل منهما. وكان مما تم الاتفاق عليه هذا المؤتمر شروط الصلح التي ستعرض على الخطابي، وقد نصت هذه الشروط على البنود التالية:

١) قبول الحماية الاسبانية والفرنسية قبولا صريحا، مع ضمان الحرية التامة لأهل الريف في الشؤون الزراعية والاقتصادية تحت سيادة سلطان المغرب الأقصى.

٢) تبادل الأسرى.

٣) إصدار عفو عام عن الأعمال العسكرية والسياسية التي ارتكبت بعد ١ يناير/كانون الثاني ١٩٢٠.

٤) تقوم قوة من البوليس يحدد عددها مستقبلا بالمحافظة على الأمن في أراضي القبائل.

٥) إطلاق الحرية التجارية في هذه المنطقة وفي المعاهدات الدولية، وخاصة النواحي الجمركية.

٦) تسليم معظم الأسلحة التي يحملها الثوار، خاصة الثقيلة، وحظر المتاجرة بالأسلحة والذخائر في هذه المنطقة.[١٧٠]

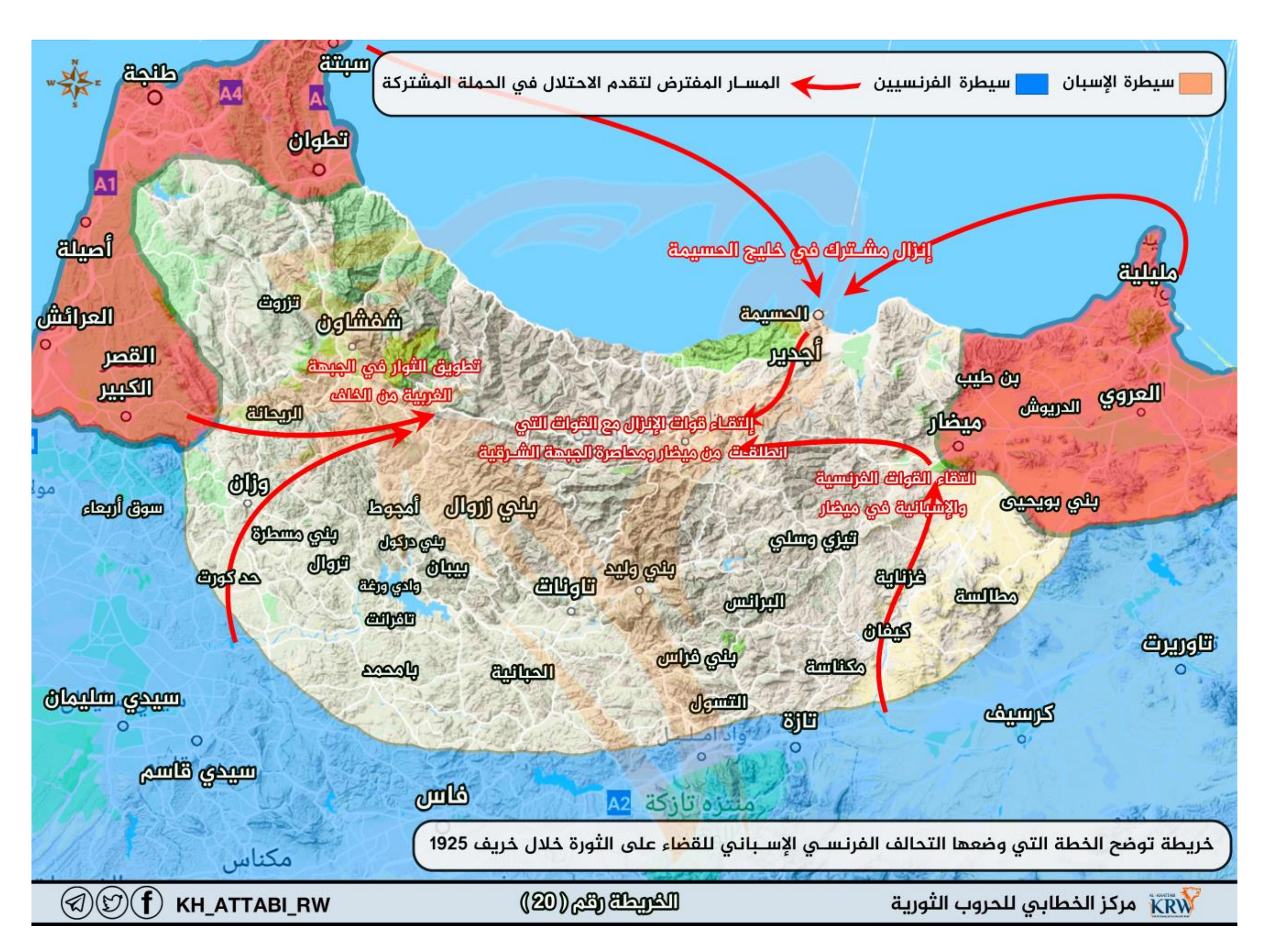
تجاهل هذا الاتفاق الخطابي ودولته، وكأنه رسالة مفادها ألا مكان لهما في المستقبل الذي يريده المحتلون للريف، فقد كانت بنوده مقتصرة على ما يخص القبائل والشعب بشكل مباشر، إضافة إلى تأكيده على عودة الاحتلال إلى المناطق التي تم تحريرها. وبعد صياغتها تم إرسال الوثيقة التي تحوي هذه البنود إلى الخطابي، فرفض استقبالهما والدخول في أي مفاوضات مالم تقبل الحكومتان الفرنسية والإسبانية الاعتراف سلفا باستقلال الريف. وفي المقابل لم يكن من الفرنسيين والإسبان إلا رفض أي اعتراف بالاستقلال مؤكدين على معاهدة الحماية التي وقع عليها السلطان المغربي سنة ١٩١٢. ومن هنا فصاعدا كان على الثورة الخطابية أن تدخل حربا شاملة ضروسا مع دولتين من القوى العظمى الأوربية في وقت واحد.

ولأن المرحلة الآن قد أصبحت مصيرية، قام الخطابي بعقد مؤتمر عام في أجدير، جمع فيه الزعماء السياسيين والقادة العسكريين، وأطلعهم على تطور الموقف المعادي وخطورة المرحلة القادمة. وقد قررت القيادة الثورية خلال المؤتمر وضع قواعد عسكرية جديدة وشاملة لمواجهة الحلف الإسباني الفرنسي، لعل أهمها: تقسيم ميدان المواجهة العسكرية إلى جهتين للعمليات: أولهما، الجبهة الشرقية وتضمّ القطاع الاسباني والفرنسي الشرقي الذي يمتد شمالا من سواحل الريف وبني بوفراح، إلى تازة جنوبا. ويتولى الخطابي بنفسه قيادة هذه الجبهة. أما الجبهة الغربية، فتضم القطاع الإسباني الفرنسي الغربي، وتمتد شمالا من خط غمارة تطوان وضواحي طنجة، وتصل جنوبا إلى صنهاجة والميدان، وهي تحت قيادة امحمد شقيق الخطابي.

[١٧٠] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

ثانيا: حملة الاجتياح الأولى من سبتمبر/أيلول وحتى أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٥: (الإنزال البحري في شواطئ الحسيمة).

منذ سنة ١٩٢١، لم تستطع أطراف الاحتلال أن تحقق نصرا حاسما ضد الثورة الخطابية بشكل فردي وبشن حملة من محور واحد. لذا، فقد أصبحت السياسة الآن تعتمد على فتح العديد من الجهات في نفس الوقت، مما سيستنزف الثوار ويحقق خرقا في خطوطهم الدفاعية. وقد كان الهدف الرئيسي لكل هذه الحملات هو الوصول إلى مركز ثقل الثورة، مناطق قبيلة بني ورياغل وخاصة أجدير. قرر الفرنسيون والإسبان في أغسطس/آب ١٩٢٥ شن حملة عسكرية باتجاه الريف الأوسط انطلاقا من البحر شمالا، ومن بن الطيب شرقا، ومن تازة جنوبا ومن القصر الكبير ووزان غربا.



وتمهيدا لذلك تقرر أن تنزل إسبانيا جيشا في شواطئ الحسيمة[١٧١] بهدف الهجوم من هناك على أجدير عاصمة الثورة، ثم مواصلة الزحف نحو الجنوب الشرقي والغربي، فيما يقوم الجيش الفرنسي في الوقت نفسه بهجوم

[١٧١] كانت فكرة الإنزال في خليج الحسيمة في قلب الريف قد طُرِحت لدى الإسبان منذ ١٩١٢، لكن لم يبدأ الإسبان بوضع خطط جدية لها إلا في ١١ مايو ١٩٢٥. فأمر ريفيرا رئيس الأركان المغربي، الجنرال إغناسيو ديسبوخول، بالبدء في التخطيط للإنزال في الحسيمة منذ مايو ١٩٢٥. وخلال الفترة من يونيو إلى أغسطس ١٩٢٥، أجرى لواء سارو الإسباني تدريبات للإنزال المزمع في

كبير من الجنوب باتجاه كيفان فيزحف نحو الشمال حتى يتصل بالجيش الاسباني في ميضار فيوحد الطرفان حركتهما العسكرية لإحاطة جبال الريفي الشمالية الشرقية وقطع خطوط اتصال الثوار فيضطروا إلى الاستسلام. أما في الجبهة الغربية فقد صمم الفرنسيون على القيام بهجوم كبير من وزان على أن يهجم الإسبان انطلاقا من القصر الكبير حتى يتصلوا بالفرنسيين على ضفاف نهر لوكوس، وبذلك يستطيعون خرق البلاد شرقا وغربا فينحصر الثوار في منطقة محدودة. ولأن موسم الأمطار لم يبق لقدومه غير شهرين ونصف، فإن انتهاء الحملة كان مقررا مع حلول فصل الشتاء. وبحسب الجنرال ريفيرا في تصريح أدلاه لمراسل جردية "الانفران سيجان" الفرنسية الذي نقلته جريدة السعادة (المغربية): "... عزمنا أن نقضي على عبد الكريم قبل حلول فصل الشتاء، إذ ليس المقصود قطع جزء أو أجزاء من الأفعى، بل الواجب يقضي بسحقها سحقا كليا... ولذلك يتحتم أن نستأصل جرثومة الخطر الريفي، وهذا ما سيكون في أمد غير بعيد..."[١٧٢]



ومع علمه الراسخ بالإنزال الوشيك في الحسيمة، رفض ابن عبد الكريم إرسال تعزيزات إضافية لقواته الجنوبية والشرقية. وبدأ الثوار في مراقبة كثيفة للساحل من سيدي إدريس إلى وادي لاو. وبدأ الخطابي منذ ماي ١٩٢٥ في تحصين ساحل بني ورياغل. فوضع حقل ألغام بدائية على بعد حوالي ١٠٠ متر من الساحل، تدعمه خنادق وتحصينات أرضية، كما قام بتوزيع ما يقارب العشرين مدفع على سواحل الحسيمة بين خفيف وثقيل. وقد عرف الإسبان بوجود ١٠٠ موقع دفاعي على الأقل، وكان لكل موقع ٣٠ أو ٥٠ أو ١٠٠ جنديا، هذا غير رماة المدفعية والرشاشات.[١٧٣]

كما حاول الخطابي إفشال الحملة عبر أخذ زمام المبادرة الاستراتيجية وضرب مركز الثقل الإسباني في الغرب، حيث هاجم الثوار المواقع الإسبانية المتقدمة في تطوان. وكان مركز كوديا طاهر في جبال غرغيز هو الأشد تضررا، إذ قام الثوار بالاقتحام عليه عدة مرات في ٣ سبتمبر/أيلول ١٩٢٥، وتدمير خيامه ودريئاته، وقطع خطوط الاتصال إلى تطوان. غير أن رتل المؤازرة الإسباني تمكن بعد ذلك من اختراق الطوق الناري الثقيل لمدفعية الثوار بغرض تعزيز النقاط وإعادة إمدادها، لكن حتى مع وصول الإمدادات أحيانا إلى مركز كوبا طاهر، كان الأخير غالبا ما يعود إلى الحصار من جديد. الجدير بالذكر أن هذا الموقع كان بالنسبة للطرفين بمثابة مفتاح السيطرة

الحسيمة في ريو مارتين. وفي البداية كان الأمر مجرد طليعة، لكن في منتصف يونيو تم إبلاغ كل قادات الوحدات بشمولهم في العملية. ومع المزيد من الوحدات، أصبحت التدريبات معقدة بشكل متزايد وشملت المحاكاة النهائية جميع الأرتال الثلاثة للواء.

[١٧٢] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

[١٧٣] وفقًا للمخابرات الإسبانية، فبحلول ٣ سبتمبر ١٩٢٥، كان الخطابي قد ركّز ٥٠٠٠ رجل و٢١ مدفعًا حول خليج الحسيمة.

على تطوان، وكان سقوطه بيد الثوار سيؤدي إلى تعطيل الإنزال الإسباني في الحسيمة، واضطرار الإسبان إلى سحب القوات المخصصة للإنزال نحو استرداد تطوان، غير أن ذلك لم يحدث لسوء حظ الثوار.

بدأت الجيوش الاسبانية والفرنسية بتنفيذ حملاتهما المشتركة في ٨ سبتمبر/أيلول ١٩٢٥، وكان مجموع القوات المعادية قد فاق الـ ٤٠٠ ألف جندي، بينما لم تكن قد فاقت أعداد الثوار الستين ألفا. وقد بدأت البوارج الحربية تظهر عند السواحل الشمالية قاصدة خليج الحسيمة للهجوم على أجدير.[١٧٤] فيما بدأ الجيش الفرنسي بالهجوم من منطقة كيفان، ومما هو جدير بالذكر أن اثني عشر طيارا أمريكيا قد تطوعوا بقيادة الكولونيل سويني كمرتزقة في هذه الحرب إلى جانب القوات الفرنسية ضد الثوار، وقاموا بتوجيه العديد من الضربات الجوية في شفشاون والحسيمة وأجدير، وقد اعترف المارشال ليوطي بدور هؤلاء المرتزقة الأمريكان، وبحسب تصريحه لصحيفة لونون، فإن "هذه الوحدة -وحدة الكولونيل سويني- التي تتميز بروح التفاني والقيم العليا لأعضائها، قد قامت يوميا بتنفيذ المهام الصعبة، مهام الارتباط والاستكشاف والقصف، حتى أنها حققت خلال ستة أسابيع ٩٠٠ عملية حربية وألقت (٤٠) طنا من القنابل."[١٧٥]

دارت بين الجانبين معارك شديدة في الشمال، فبعد عمليات إنزال وهمية في شاطئ سيدي إدريس وشاطئ وادي لاو،[١٧٦] هاجمت القوات الإسبانية سواحل الحسيمة وقامت بأكبر إنزال بحري جوي شهده المغرب في تاريخه، حيث تم نقل ١٣٠٠٠ جندي من سبتة ومليلية، عبر ٢٤ سفينة نقل حربي إسبانية وفرنسية، واجتاحوا شاطئ "إجداين" و"صباديا" المتواجدين في منطقة الحسيمة. كان القائد العام للعملية هو الجنرال "بريمو دي ريفيرا"،

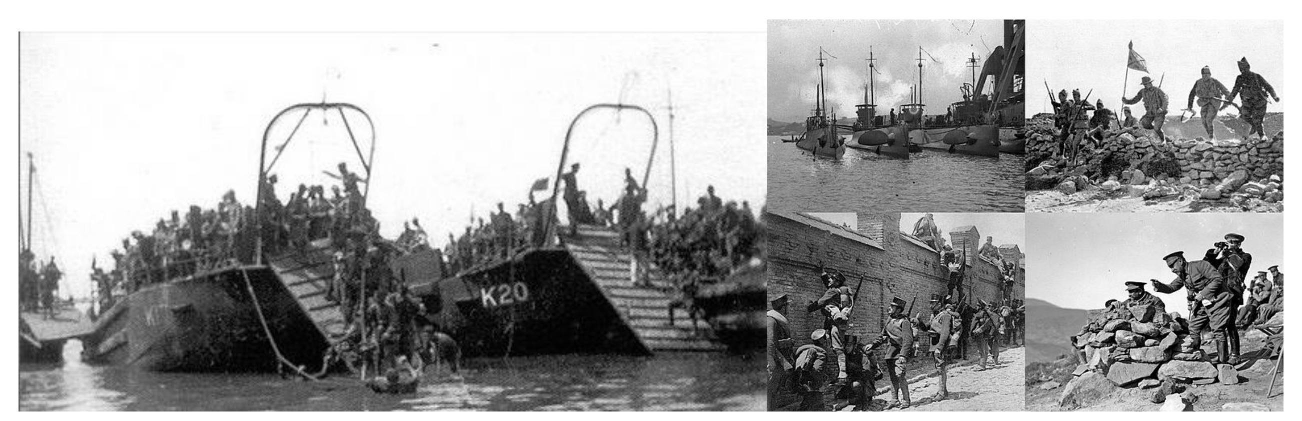
---

[١٧٤] في ١ سبتمبر ١٩٢٥، أصدرت القيادة الإسبانية التعليمات النهائية للقادة المشاركين في عملية إنزال الحسيمة، وكانت الخطة المقترحة كالتالي: في ٥ سبتمبر، يقوم لواء سارو بمغادرة سبتة. وفي ٦ سبتمبر: يقوم سارو بقصف وادي لاو في فترة ما بعد الظهر ويحاكي الإنزال هناك، ثمّ يبحر إلى الحسيمة في المساء. بينما يغادر لواء بيريز مليلية ويبحر إلى سيدي إدريس ويقصف مواقع الريفيين ويحاكي الإنزال هناك مع البقاء بعيدا عن الشاطئ. وفي ٧ سبتمبر: في الساعة الرابعة (فجراً)، ينزل أول رتلين من لواء سارو على شاطئ صباديا ويُؤمّن التل الجديد. بحيث يتم بعد ذلك إتاحة المجال لإنزال ١٢ سفينة تابعة للواء بيريز. ثم في ٨ سبتمبر: في الصباح، يهبط لواء بيريز إما في كالا بونيطا أو كالا قويمادو.

[١٧٥] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

[١٧٦] في ٥ سبتمبر، انطلق لواء سارو من سبتة وريو مارتين وأبحر إلى وادي لاو. كما بدأ لواء بيريز في مليلية بالصعود في السفن، واستكمل ذلك بحلول الساعة السابعة صباحا يوم ٦ سبتمبر، فأبحروا إلى سيدي إدريس. من الساعة الثامنة والربع صباحا إلى الساعة السادسة عصرا، قام أسطول شمال أفريقيا ولواء سارو بعمليات ضد وادي لاو. وقصف الأسطول التلال خلف البلدة، ثم من الساعة ١٢:٠٠ إلى الساعة ١٤:٠٠ انطلقت القوات البرية في سفن الإنزال لتحاكي إنزالا في الوادي. وفي إحدى النقاط، اشتبكت مدافع رشاشة ريفية بسفن حربية إسبانية مسلحة بمدافع عيار ٣٠ سم، وفي الساعة السادسة مساءً، تحرك الأسطول تحت غطاء من الدخان. وقام لواء بيريز والسرب الفرنسي بشن هجمات إشغال مماثلة ضد سيدي إدريس من الساعة الخامسة إلى الساعة الثامنة مساءً.

أما القائد الميداني لقوات الإنزال فقد كان الجنرال "خوسي سانخورخو"[١٧٧]، الذي قَلَّدَهُ الملك ألفونسو الثالث عشر لقب ماركيز الريف[١٧٨] بعد انجازاته في الحرب. ومن بين القادة العسكريين الذين شاركوا في العملية الكولونيل "فرانسيسكو فرانكو"، والذي ذاع صيته بعد هجوم الحسيمة، ورُقي إلى رتبة جنرال بفضل أداءه المتميز.



مشاهد حقيقية لإنزال الحسيمة ١٩٢٥

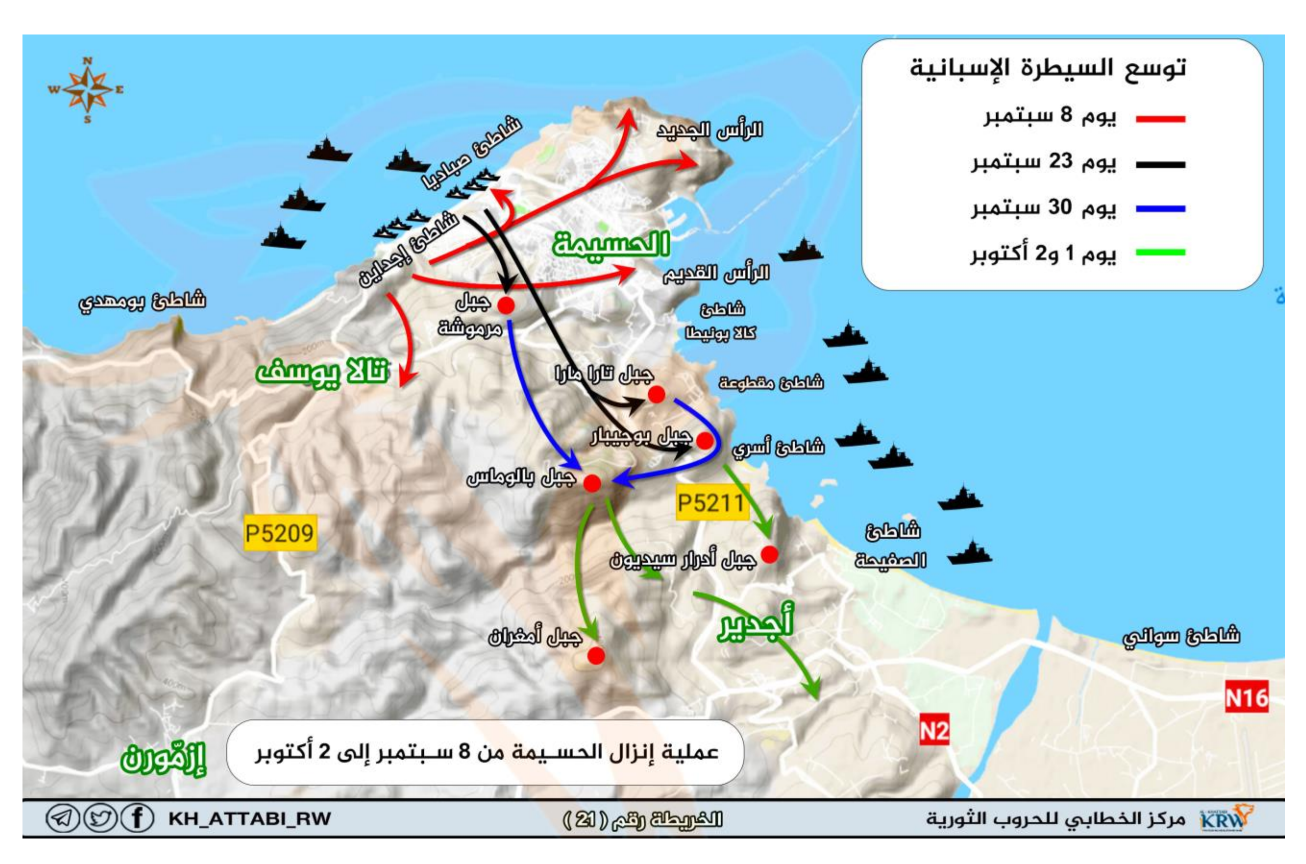
في صباح ٨ سبتمبر/أيلول ١٩٢٥، في الساعة السادسة والثلث أو السادسة والنصف صباحا، بدأت ٥٠ سفينة بحرية إسبانية وفرنسية بقصف بطاريات الريفيين العشرين المتراكمة قريبا من الشواطئ. ولمدة أربع ساعات قصف الأسطول الإسباني مواقع الريفيين على المنحدرات خلف شاطئ صباديا وبطاريات المدفعية الريفية في الرأس البحري الجديد. وفي الساعة الثامنة والنصف صباحا، انضمت ٧٦ طائرة إلى الهجوم. وبحلول الساعة ١١ قبل الظهر، كانت القاطرات البحرية وزوارق المدفعية تسحب سفن إنزال لواء سارو باتجاه شاطئ صباديا. وكان يملأ هذه السفن التي تعود للحرب العالمية الأولى ٨٠٠٠ جندي وثلاث بطاريات مدفعية و١٠ دبابات. وفي الساعة ١١:٤٠ وعلى بعد ١٠٠٠ متر، أبحرت سفن الإنزال بمفردها. إلا أن التيارات القوية دفعت السفن على طول الساحل إلى شاطئ إجداين. وقد كانت هذه صدفة محظوظة، على الرغم من أن الإسبان لم يكتشفوا ذلك إلا لاحقا، حيث علموا بعد ذلك أن ثوار بقوية الذين كانت مهمتهم حراسة شاطئ إجداين قد تم إرسالهم للراحة في منازلهم وقت الإنزال، فكان الشاطئ خاليا من القوات الدفاعية الثورية.

---

[١٧٧] خوسي سانخورخو إي ساكانيل (٢٨ مارس ١٨٧٢ - ٢٠ يوليو ١٩٣٦) فريق أول في الجيش الإسباني، قَلَّدَهُ الملك ألفونسو الثالث عشر لقب ماركيز الريف بعد انجازاته في حرب الريف، خصوصا خلال عملية إنزال الحسيمة. شغل مناصب مهمة في فترة ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا وخلال الأيام الأولى للجمهورية الثانية، لكن سرعان ما اختلف مع النظام الجمهوري الجديد، فتزعم من إشبيلية محاولة انقلابية فاشلة في أغسطس ١٩٣٢، بعدها تم إلقاء القبض عليه ثم سجنه، وخففت عنه عقوبة الإعدام، وتم الإفراج عنه، ولجأ للبرتغال. وفي سنة ١٩٣٦ شارك مع النخبة العسكرية التي قامت بانقلاب يوليو ١٩٣٦. سافر في ٢٠ يوليو بالطائرة لقيادة المناطق التي تمردت على حكومة الجمهورية، وتعرض لحادث أثناء محاولة اقلاع الطائرة وتوفي حينها.

[١٧٨] هو لقب نبالة إسباني، أنشأه الملك ألفونسو الثالث عشر، بموجب المرسوم الملكي الصادر في ٢٦ مايو ١٩٢٦، لفائدة القائد العسكري خوسي سانخورخو، جزاء لأدائه في عملية إنزال الحسيمة.

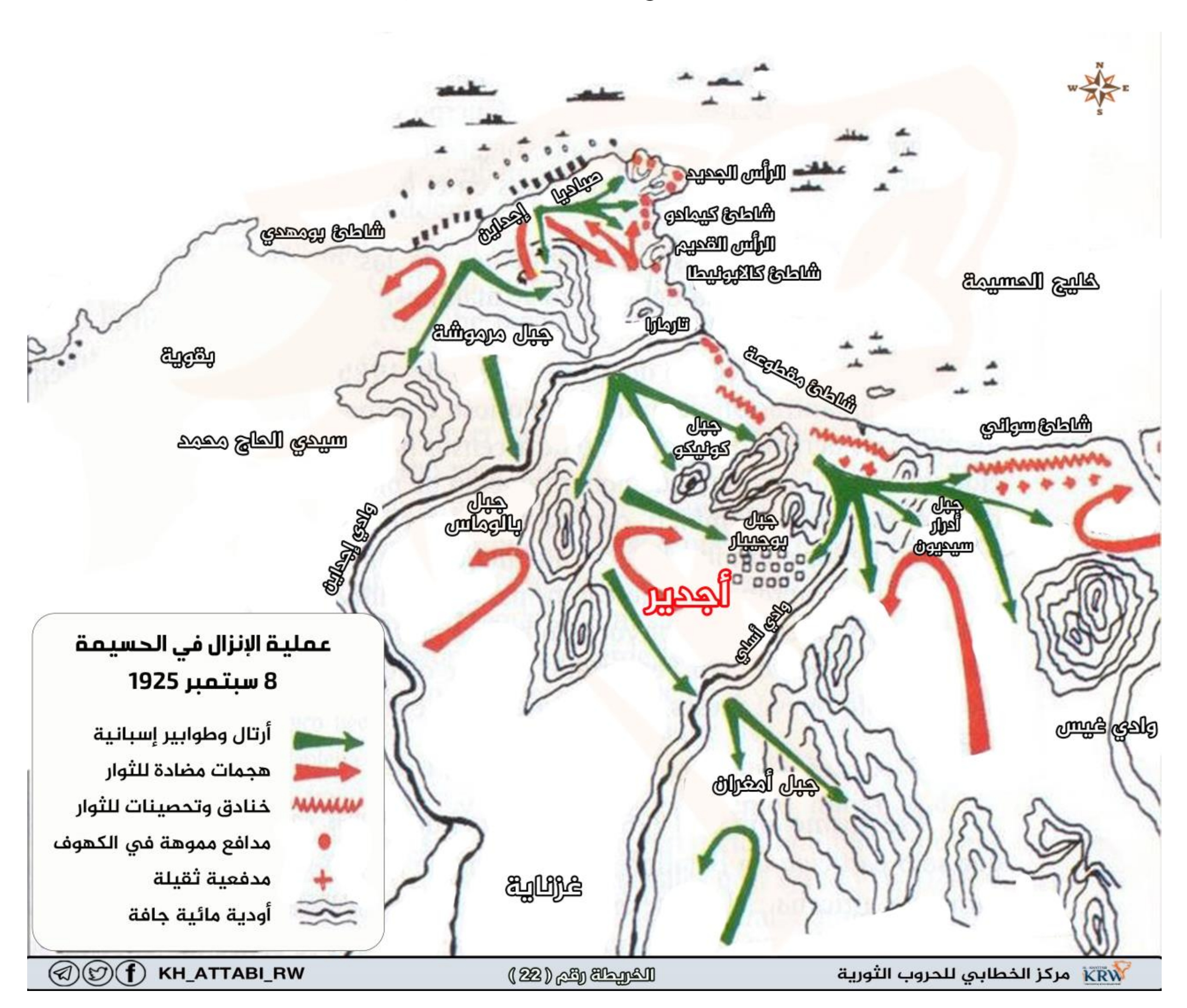
قصفت مدفعية الريفيين سفينة إنزالٍ إسبانية أثناء اقترابها، وبدأت نيران المدافع الرشاشة والبنادق الريفية تحصد أرواح الجنود عندما حطّت هذه السفينة الإسبانية على مسافة ٥٠ متراً من الشاطئ. قاد فرانكو الفيلق المختلط المغربي والإسباني في الطليعة ليصطدم بألغام كثيفة في شاطئ إجداين وصباديا، فاستلزم نجاح العملية تحييد الألغام، قبل أن يتم إنزال ٩٠٠٠ جندي في الساعة الواحدة. اشتد بعد ذلك قصف المدفعية الريفية على موقعيْ الإنزال، وخلّف خسائر بشرية في صفوف الإسبان، ولم تتمكن القوات الإسبانية من تأمين إنزال الـ ٤٠٠٠ المتبقين إلا بعد القصف الجوي المكثف للدفاعات الريفية. قام الإسبان بعد ذلك بإنزال دبابات رينو إف تي-١٧ وشنايدر سي ايه ١، والتي لم تكن لها في الواقع أية فعالية حربية ملموسة لحظة الإنزال، اللهم إلا بعض الإرهاب المعنوي والنفسي الذي خلقته لدى المقاومة الريفية التي لم يسبق لمعظم جنودها أن شاهدوا مدرعات من قبل.



قام الإسبان بتثبيت موقع الإنزال وتأمينه خلال أسبوعين من المعارك، وحتى هذا الوقت كان الثوار قد خسروا ٢٠٠ قتيلا ومدفعا ثقيلا واحدا وأربعة مدافع رشاشة و٣٠٠ بندقية. وفي ٢٣ سبتمبر/أيلول، قررت قوات الاحتلال التوسع نحو الجنوب للسيطرة على المواقع المرتفعة القريبة من مواقع الإنزال. ومع بداية أكتوبر/تشرين الأول كانوا فعلا قد سيطروا على المرتفعات الإستراتيجية المطلة على موقع الحسيمة. وانتهت العملية العسكرية بشكل كلي في ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٥، بعد أن تم احتلال أجدير[١٧٩]. وقد كانت معارك الدفاع عن العاصمة

[١٧٩] استطاعت طليعة غوديد، المتمثلة بحركة مليلية بقيادة الرائد إنريكي فاريلا الاستيلاء على أجدير في ٢ أكتوبر ١٩٢٥، وأحرقت منزل عبد الكريم ومنازل أقاربه.

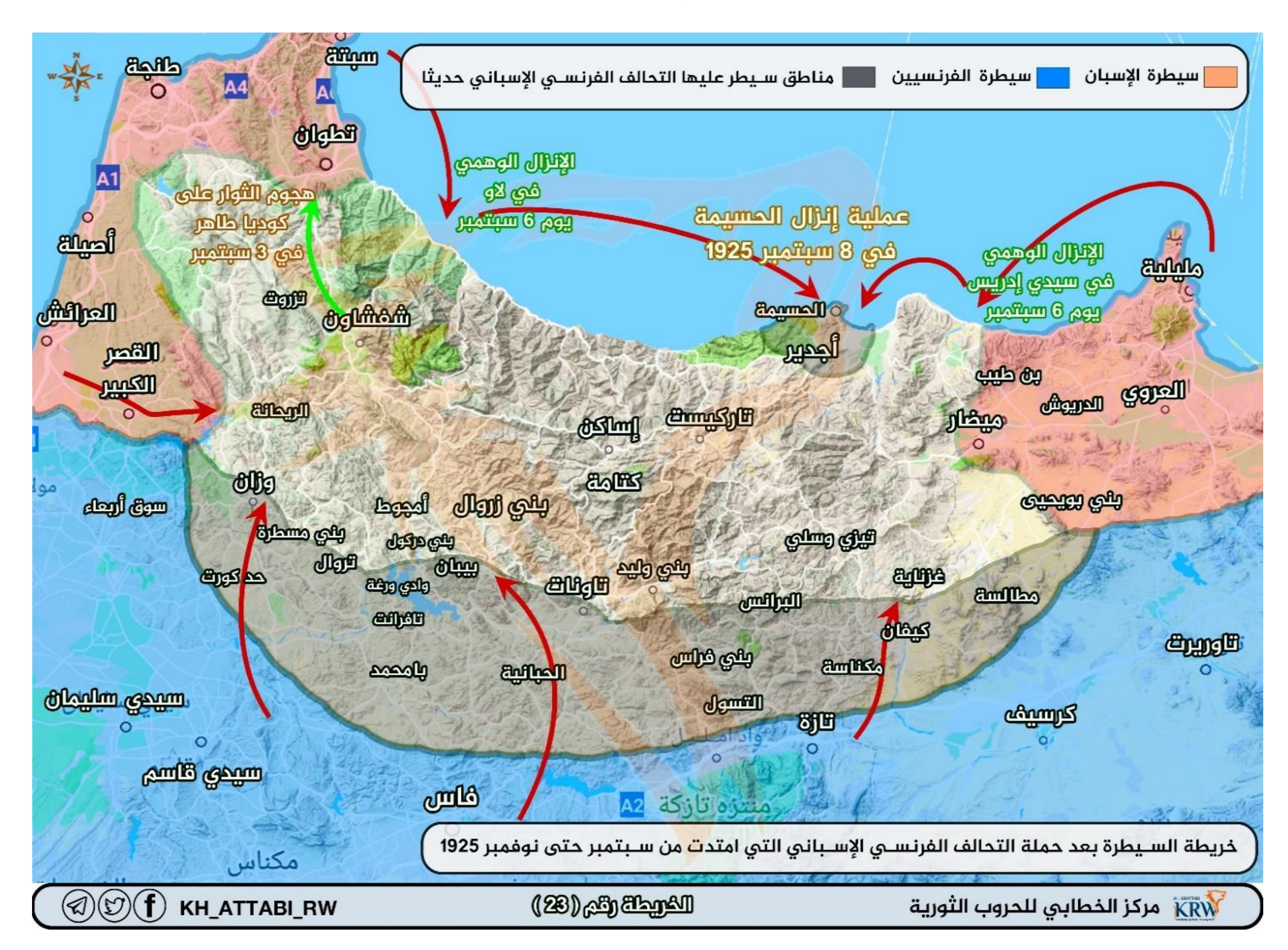
شرسة جدا، ولم يكن الثوار يوفرون شيئا في صد هذه الحملات، حتى أن أحدهم كان إذا نفذت ذخائره لا ينسحب من موقعه، بل ينتظر الإسبان ليشتبك معهم بالقنابل والسلاح الأبيض. وقد أجمعت المصادر العربية والأجنبية أن الواحد من الريفين في هذه الحملة كان لا ينسحب عن موقعه حتى ولو بقي لوحده، فلم يكن الإسبان يسيطرون على جبل أو بلدة إلا وقد استشهد جميع من فيه عن بكرة أبيهم.



أما بالنسبة للمحور الشرقي والجنوبي فقد انطلقت القوات الفرنسية من كيفان ووزان، وكان تعدادها ١٦٠ ألف جندي من ضمنهم ٧٥ ألف إسباني بقيادة المارشال بيتان، إلا أنها عجزت عن تحقيق تقدم كبير،[١٨٠] ولعل ذلك يعود لسببين؛ يعود الأول إلى المقاومة الشديدة التي أبدتها القوات الثورية هناك، خاصة أن الخطابي بعد سقوط أجدير في سبتمبر/أيلول، توجه بأغلب قواته إلى وزان ووكيفان، فاستطاع صد التقدم الجنوبي طيلة شهر أكتوبر/تشرين الأول. أما الثاني، فيعود إلى عدم تركيز الاحتلال على هذا المحور مقارنة بمحور أجدير، فقد كانت الحملة الرئيسية مركزة في الشمال حيث كان الفرنسيون والإسبان يخططون لاحتلال أجدير ومناطق بني ورياغل، إذ كانوا يعدونها المركز الأساسي لثقل الثورة الخطابية. وفعلا كان احتلال أجدير صاعقة على القبائل

[١٨٠] في ١٦ سبتمبر ١٩٢٥، استطاع الجنرال الفرنسي برونو احتلال موقع بيبان الاستراتيجي.

حديثة العهد بالثورة، حيث أنها لم تكن عاصمة الدولة الخطابية والثورة الريفية فحسب، بل كانت سلة غذائية مهمة لأهل الريف، بما تحويه من بساتين خصبة وثروة مائية، وقد ظن الكثير أن خسارتها تعني سقوط الدولة والثورة معنا. واستغل الإسبان والفرنسيون هذا فبدؤوا بمخاطبة زعماء القبائل في السر، وقاموا بإلقاء المناشير عبر الطائرات، ووعدوا جميع من يعتزل القتال ويلتزم بيته بالعفو والصفح.



اضطر الخطابي وباقي القيادات الورغيالية أن يخرجوا رفقة أهلهم من أجدير، واتخذت القيادةُ الثورية من تارجيست مقرا لها، ومع بداية شهر نوفمبر/تشرين الثاني بدأت الأمطار بالهطول وتعطلت الأعمال العسكرية الإسبانية والفرنسية واضطروا إلى اتخاذ تموضع دفاعي طيلة الشتاء، أما الخطابي ورفاقه فقد عادوا إلى تنفيذ ما يتقنونه: حرب العصابات. ويذكر أمين سعيد عن بعض النقاد العسكريين الأجانب الذين علقوا على الهجوم الفرنسي-الاسباني المشترك بأنه لم يحقق لقادة الجيش ما كانوا يطمحون في بلوغه، وذلك بسبب مقاومة المجاهدين وصمودهم، وقالوا أيضا، أن نزول الإسبان في خليج الحسيمة زاد موقفهم دقة واضطرهم إلى توزيع قواتهم، مما ساعد قيادة الثورة على نقل جزء من قواتها إلى منطقة تطوان حيث هاجمت مراكز الإسبان واضطرتهم إلى استقدام نجدات عسكرية جديدة. كما أخفق الفرنسيون في جبهتي تازة ووزان، فلم يسجلوا تقدما يذكر رغم ما بذلوه من الجهود والضحايا، واعترف بانليفي في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول من سنة ١٩٢٥ أمام

مجلس النواب الفرنسي بأن نفقات هذه الحملة كلفت فرنسا (٩٥٠) مليون فرنك، وأن خسارتهم من القتلى بلغت ١٦٧ قتيل و٥٣٠٦ جريح.

وعلى هذا فإن الطرفين الاستعماريين قد فشلا في القضاء على قوات الريف بشكل كامل وفي شق البلاد الى قسمين، ولم يؤد الموقف العسكري إلى نتيجة حاسمة بالرغم من سقوط أجدير، فقد استمر الوضع العسكري على حالة الدفاع طيلة فصل الشتاء حتى بداية مايو/أيار ١٩٢٦، حيث استكمل الطرفان الاستعماريان هجومهما الكاسح ضد الثوار.

ثالثا: حملة الاجتياح الثانية في ماي ١٩٢٦ (الانهيار الداخلي واستسلام الخطابي).

اضطر بيتان تحت خطر فقدان مكاسبه إلى العودة للاستعانة بأساليب ليوطي الاستعمارية السياسية التي كانت تهدف لاجتذاب القبائل في مناطق السيطرة الجديدة والمحيطة. فعمل على إقناع القبائل القريبة بترك الخطابي، ترغيبا وترهيبا، وكان الترغيب مقابل الأموال والوعود بتأمين حمايتهم بواسطة الطيران والقوات المغربية الفرنسية، بينما كان الترهيب باستعراض الآلة الحربية الفرنسية على الحواضر السكانية، وما تتضمنه هذه الآلة من قصف للحواضر السكانية والحقول الزراعية والمنابع المائية بأشد أنواع المواد المتفجرة والسامة أحيانا. وفي هذا الوقت بين نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٥ وماي ١٩٢٦، عملت القوات الفرنسية والإسبانية على بناء الطرق والمرافق اللوجستية والتحصينات في المناطق المحررة حديثا، واستطاع الطيران الفرنسي في تلك الأثناء تحقيق التنسيق العالي مع القوات البرية والجواسيس على المستوى التكتيكي، وكثف من استخدام وحدات التصوير والاستطلاع لكشف التحصينات الريفية.

وقد كان لظروف الريف خلال هذه الفترة أثرٌ كبير في ترجيح كفة القوات الاسبانية والفرنسية المتحالفة، إذ أن عدم التكافؤ المالي والبشري والفني بين الطرفين أدى إلى تعاظم الأزمات داخل الصف الثوري، فالحرب التي دامت خمس سنوات ضد دولتين من القوى العظمى، والخسائر الجغرافية والمادية التي أصابت الثوار بعد إنزال الحسيمة، أدت إلى تناقص العامل البشري لدى الثوار، وبحسب المصادر فإن الخطابي كان قد خسر ما يقارب العشرين ألف شهيدا طيلة سنين الحرب، فلجأ في الآونة الأخيرة إلى إطلاق سراح معظم السجناء علهم يشاركون في العملية الدفاعية. كما أن حركة التمرد الداخلية أصبحت أكثر خطورة وتهديدا في موضع الضعف هذا، وقد بدأت فعلا بعض القبائل في بني توزين وبني مصباح والأنجار بالتحرك، فحاول أفراد من بني توزين في يناير/كانون الثاني ١٩٢٦ اغتيال الخطابي، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل. وفي ٢٩ يناير/كانون الثاني ١٩٢٦، تمردت بعض القبائل الغربية وهاجمت قوات أحمد أخريرو في جبالة. وفي ١٥ مارس/آذار ١٩٢٦، أعلنت فئات مقاتلة في جنوب

تطوان من بني هوزمار ولاءها للإسبان وانشقاقها عن الثورة. وبحسب الخطابي: "لقد كنت في موقف محفوف بالاضطرابات والمخاطر بسبب ثورة بعض القبائل". [١٨١]

وأيضا كان لبعض الطرق الصوفية المنحرفة (الدرقاوية، الوزانية، الكتانية) نشاط كبير في هذه المرحلة، حيث أصطف رجالها مع الفرنسيين ضد الثوار. وكان لهم دور كبير في الدعاية الدينية المثبطة، وقد استصدر محمد بن عبد الرحمن الدرقاوي وحميد الوزاني وعبد الحي الكناني فتوى دينية ادعوا فيها "أن القرآن لا يدعو إلى مقاومة قوات الحماية" وروجوا دعاية عن الخطابي ورفاقه بأنهم "خارجون عن القانون وعن ولي الأمر". [١٨٢]

كما كان للحصار الاقتصادي أثره الكبير، فبعد رجوع الفرنسين لمناطق وادي ورغة، وبعد سقوط مناطق بني ورياغل، وبسبب القصف المنهج للحقول والأشجار والمنابع المائية، دخل الثوار وحاضنتهم في مجاعة عظيمة، ندرت معها الأقوات وغلت فيها الأسعار بشكل كبير، وفي ظل العدد الكبير من المصابين والجرحى، كان الريف يخلوا من الكوادر الطبية والأدوية الأساسية. أدى كل هذا أخيرا بالخطابي أن يعلن قبوله التفاوض مع المحتلين في ربيع ١٩٢٦ أملا في الاحتفاظ بنوع من الاستقلال. وقد استغل الاحتلال هذه المبادرة فأملى شروطا صعبة على الثورة، وأرسلها عن طريق ممثل الصليب الأحمر الدولي "كوردن كانينغ" (canning) الذي وصل إلى تارجيست، والتقى هناك بامحمد الخطابي شقيق الأمير، فعرض عليه رغبة الحكومتان الفرنسية والإسبانية للوصول إلى اتفاق يقضي بمنح الريف نوعا من الحكم الذاتي، وقد تضمن مشروع الاتفاق المعروض بعض القيود التالية: [١٨٣]

١. الموافقة على الحكم الذاتي تحت السيادة الروحية للسلطان.
٢. ترك الباب مفتوحا للتجارة والتعريفات الجمركية المقررة في المغرب.
٣. إنشاء قوة من الشرطة لحماية الأمن في البلاد وسحب بقية السلاح الثقيل والنوعي من الثوار.
٤. عدم دخول الريف في أية معاهدة مع الدول الأجنبية على أن تمثل إسبانيا وفرنسا مصالح الريف الخارجية.
٥. تكون تطوان عاصمة الحكم الذاتي.
٦. تشمل منطقة الحكم الذاتي قبائل نهر ورغة وجبالة إضافة الى قبائل الريف.

---

[١٨١] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

[١٨٢] محمد علي داهش: نفس المصدر السابق.

[١٨٣] محمد علي داهش: نفس المصدر السابق.

جاء في بعض المصادر أن الخطابي قد أبدى قبوله لهذه البنود أمام كانينغ، غير أنه نبهه على عدم قدرته في منع القبائل من مواصلة النضال انطلاقا من الجبال في غمارة وجبالة، بل ستستمر حرب العصابات إلى أمد بعيد. والظاهر أن الخطابي كان يريد من هذا القبول كسب الوقت لتنظيم صفوفه الداخلية، فقد انصرف في الوقت ذاته إلى إعادة تنظيم قواته وتحصين مواقعه الدفاعية استعدادا للحرب. كان المقيم العام الفرنسي في ذلك الوقت "تيودور سيغ"[١٨٤] يؤمن بأن الاجتياح العسكري لن يحسم الأمر وأن حل الأزمة سلميا هو الطريقة المثلى لوقف التمرد الريفي، فسار إلى باريس في فبراير/شباط ١٩٢٦، واجتمع مع رجال حكومته، وحثهم على فتح باب المفاوضة بين الطرفين مهددا بالاستقالة في حالة رفض مطلبه هذا، فعاد إلى الرباط واتصل بالأمير الخطابي طالبا إرسال مندوبين عنه للبحث في شؤون الصلح، فأوفد الأمير القائد حدو، فاجتمعا وتباحثا واتفقا على موعد عقد مؤتمر في وجدة.[١٨٥]

ورجوعا إلى السياق العسكري قبل المضيّ في مجريات مؤتمر وجدة، لم تكن المناوشات العسكرية تتوقف بين الطريفين، ففي أواخر فبراير/شباط ١٩٢٦، شنّت مدفعية أحمد اخريرو جنوب تطوان قصفًا عنيفًا ودقيقاً على المواقع الإسبانية، مما دفع الإسبان لشنّ هجمة كبيرة بغرض تحييد المدفع الريفي. حيث انطلقت في ٤ مارس/آذار ١٩٢٦ حملة إسبانية من تطوان تجاه موقع مدفعية الثوار بقيادة العقيد لويس أورغاز والعقيد ميلان أستراي، وشاركت فيها أربعة أرتال للمشاة و١١ بطارية مدفعية. واستطاع الرتل الاستلاء على قمة من جبال غرغيز تدعى "لوما ريدوندا"، إلا أن الهجوم الثوري المضاد أوقع مجزرة في الإسبان، وتلقى ميلان أستراي رصاصة في وجهه أثناء الإشراف على العملية الدفاعية، أفقدته عينه اليمنى وأحدثت له ندبة قبيحة. بالرغم من ذلك تولى العقيد براتس قيادة رتل أستراي واستمر التقدم رغم نيران مدفعية الثوار والأحوال الجوية السيئة، فاستطاعت الحملة في ٧ مارس/آذار ١٩٢٦ الاندفاع عبر الجبال نحو جنوب غرب "كوديا طاهر" وتطويق موقع الريفيين في جبل بو زيتون، وبعد الظهر تم الاستلاء على المدفع الثوري الذي سام تطوان سوء العذاب لمدة ستة أشهر، **فكان احتلال هذه القمم خسارة للثورة وطوق أمان لتطوان.**

وفي أبريل/نيسان عام ١٩٢٦، تم عقد مؤتمر الصلح بين الطرفين الإسباني والفرنسي من جهة وممثلي الحكومة الريفية من جهة أخرى، وقد ضم الوفد الثوري محمد أزرقان وزير الخارجية وحدو محمد البقيوي وأحمد شدي الورياغلي، ومثل الفرنسيين الجنرال سيمون قائد الفرقة الفرنسية، وبونسو رئيس شعبة الشؤون الإفريقية في وزارة الخارجية الفرنسية، والقومندان أدي كلو الموظف في الإقامة العامة بالرباط، كما ضم الوفد الاسباني

[١٨٤] تيودور ستيج "**Théodore Steeg**" سياسي فرنسي، ولد في ١٩ ديسمبر ١٨٦٨ في ليبورن (جيروند) وتوفي في ١٩ ديسمبر ١٩٥٠ في باريس. كان الحاكم العام للجزائر في الفترة من ٢٨ يوليو ١٩٢١ إلى ١٧ أبريل ١٩٢٥. ومن ٤ أكتوبر ١٩٢٥ إلى ١ يناير/كانون الثاني ١٩٢٩، كان مقيمًا عامًا للمغرب.

[١٨٥] محمد علي داهش: محمد بن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي.

لويس البثبان رئيس قسم المغرب في وزارة الخارجية، والقائد أجيلار، والكابتن دون سيكل. والظاهر أن مساعي الاحتلال كانت منذ البداية تريد استغلال المفاوضات في تفكيك الوحدة الداخلية للثورة وفض القبائل عن الخطابي، ومما يدل على ذلك أيضا الرسائل التي كانت توجه للقبائل منفردة، وتتضمن عفوا عاما ووعودا بالمكانة السياسية والنهضة الاقتصادية. **حتى أنهم قاموا بدعوة بعض زعماء القبائل إلى مؤتمر وجدة كممثلين عن قبائلهم في رسالة إلى وفد الحكومة أنهم لا يمثلون غير شريحة قليلة من سكان الريف.**

في ٨ أبريل/نيسان ١٩٢٦، تم افتتاح المؤتمر في معسكر بريو في وجدة، وسلّم الجنرال سيمون شروط الصلح لمحمد أزرقان ليقدمها إلى الأمير الخطابي، وقد نصت هذه الشروط على:

١. اقصاء الخطابي وأسرته عن الريف.

٢. تقديم الطاعة للسلطان يوسف بن الحسن الأول.

٣. تسليم السلاح.

٤. السماح لقوات الاحتلال بالتمركز في عدد من النقاط الاستراتيجية.

أما الرد الريفي على تلك الشروط فقد ورد في مذكرة أعدها الخطابي بنفسه وقد جاء فيها:

١. "لا جدال في أننا معترفون بسلطة صاحب الجلالة الجالس على عرش المغرب، ونحن ننتهز هذه الفرصة لنجدد ولاءنا له، ونود أن نعلن أن مسألة كهذه لم تخطر لنا على بال كي تطرح على بساط المناقشة، إذ لا تزيد على كونها سفسطة ودسيسة جديرة بالاعتراض عليها، لأننا لم نفكر قطعا المطالبة بالعرش، وإذا قبلنا الرد عليها فرغبة منا في إقفال هذا الباب.

٢. لا مانع لدينا من تبادل الأسرى لأنه عمل إنساني يتفق مع المبادئ التي نسير عليها.

٣. أما بشأن خروجنا من الريف أنا وشقيقي، فيمكن أن نقبل أنا وهو إذا أعطي للحكومة الريفية ضمان كاف بالإبقاء على كيانها دولة مستقلة بعيدة عن كل احتلال عسكري أو تدخل أجنبي يمس هذا الاستقلال مع الاعتراف بسلطة السلطان الروحية.

٤. وأما بشأن نزع السلاح واحتلال المناطق الاستراتيجية فنحن نرفضها رفضا باتا قبل الحصول على ضمانات جدية"[١٨٦]

استمرت المباحثات بين الطرفين عدة أيام، وأخيرا اشترط الفرنسيون والاسبان للشروع في المفاوضة، إطلاق سراح الأسرى قبل كل شيء، ثم الاستمرار بالمفاوضات حول بقية البنود. إلا أن الوفد الثوري رفض هذا الشرط

[١٨٦] أمين سعيد: ثورات العرب في القرن العشرين.

قبل الشروع في مناقشة البنود الأخرى، وهنا أعطى الاحتلال للوفد الثوري مهلة أقصاها ثلاثة أيام للموافقة وإلا فإن الحملات العسكرية ستنطلق من جديد، وعلى إثر ذلك عقد الأمير الخطابي مؤتمرا عاما في ٢٩ أبريل/نيسان ١٩٢٦ ضم جميع المسؤولين المدنيين والعسكريين، فاختاروا المقاومة حتى النهاية بالإجماع.

وفي الوقت نفسه وقبل سماع رد الخطابي، كان الطرفان الاستعماريان، قد استكملا استعداداتهما العسكرية والتموينية لمباشرة الحملة ضد مركز القيادة في تارجيست، بل إنهما أصلا خلال المفاوضات لم تتوقف حملاتهما العسكرية، ففي ١٥ أبريل/نيسان ١٩٢٦، شنت ثلاثة فرق مؤلفة من ٣٠٠ ألف جندي فرنسي الهجوم الربيعي على ٤٠ قبيلة بقيت موالية لعبد الكريم. وكان للهجوم ثلاثة محاور: وهي الجنوب الغربي والجنوب الشرقي. وفي أواخر أبريل/نيسان ١٩٢٦، كانت القوات الفرنسية والإسبانية اندفعتا بعمق ١٠ كم داخل مناطق قبيلة مطالسة والتقت القوات لدى سوق السبت لعين عمار الاستراتيجي بعد أن سيطرت على عين زاهرة وتيزي وسلي.

تزامنا مع التقدم العسكري جنوبا، وفشل مفاوضات وجدة، قام الاحتلال في مطلع مايو بتسويق دعاية سلبية ضد الخطابي ورفاقه، ليظهر أمام القبائل أنه متمسك بالسلطة وأنه لا يريد السلام للريف، وأنه المتسبب في هذه الحملات التي تحدق الآن في بلدات المدنيين. وفي هذه المرحلة لم يبق تحت طاعة الخطابي غير بضعة آلاف من الجنود معظمهم من بني ورياغل. ومع فجر ٨ مايو ١٩٢٦ شرعت قوات الاحتلال بهجوم عام على خط لا يقل طوله عن (٤٥٠) كم، وذكرت بعض المصادر أن عدد القوات الاستعمارية المهاجمة بلغ أكثر من (٤٥٠) ألف جندي (من ضمنهم ٣٠٠ ألف فرنسي، و١٢٠ ألف إسباني، وأكثر من ٢٥ ألف مرتزق مغربي)، أما قوات الثورة الريفية فلم يكن عددها يزيد آنذاك عن بضعة آلاف مقاتل، خاصة بعد الدعاية السلبية الضخمة التي وجهها الاحتلال نحو قبائل الريف لفضهم عن الخطابي.

في ١٠ ماي بعث الإسبان بخمسين ألف جندي إلى القوات الفرنسية التي كانت تتقدم جنوبا نحو بني ورياغل وتمسمان وبني توزين، بينما انطلقت في ٨ ماي أربعة أرتال ضخمة من عدة اتجاهات:

١) رتل الجنرال غيرونا من أجدير بتجاه الجنوب.

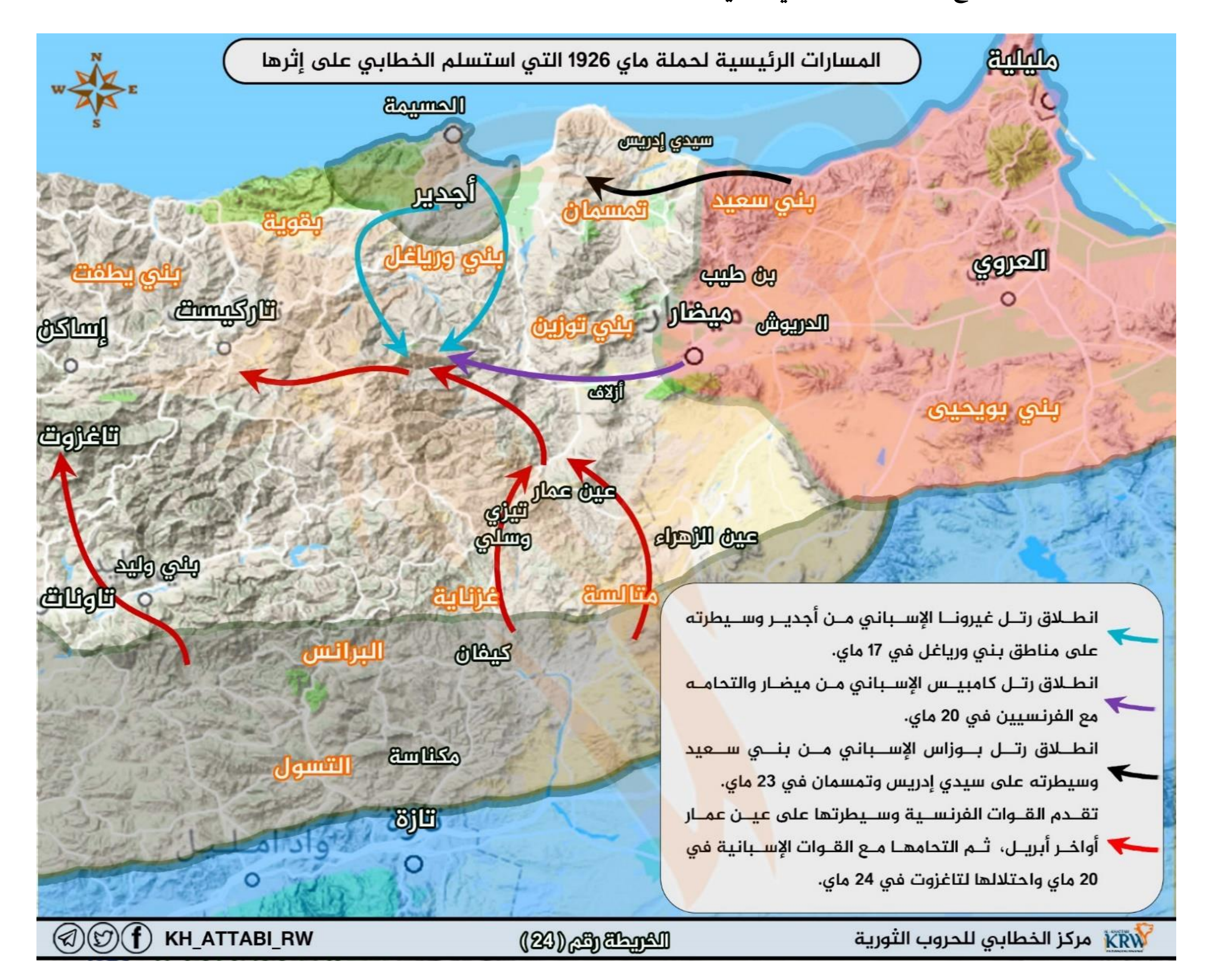
٢) رتل العقيد ميغل بونتي من سيدي بورقبة باتجاه الشمال.

٣) رتل العقيد ميغل كامبيس من ميضار باتجاه الغرب.

٤) رتل العقيد سبستيان بوزاس من مناطق بني سعيد نحو تمسمان.

قاد الجنرال غيرونا رتله من أجدير ضد الثوار على وادي ابرلوكين جنوب إجدير. كانت مواقع الريفين في وادي ابرلوكين محصنة ومموهة جيدا ومسنودة بالمدفعية، مما تسبب لغورونا في فقد ألف جندي بين قتيل وجريح. إلا أنه تمكن من السيطرة على ضفاف الوادي في نفس اليوم وإكمال المسير نحو الجنوب. وفي ١١ ماي قطع غيرونا

وادي غيس ووصل إلى حدود واد نكور، وفي ١٧ ماي كان رتل غيرونا قد سيطر على جميع مناطق بني ورياغل جنوب أجدير وأخضع بعض عشائر بني توزين.



في نفس الوقت، انطلق رتل العقيد ميغيل بونتي من تيزي وسلي وعين عمار، وانطلق أيضا رتل العقيد ميغيل كامبينس من ميضار، وفي ٩ مايو/أيار أبدى الثوار مقاومة بطولية عند بلدة أزلاف غرب ميضار، إلا أنهم اضطروا للانسحاب في النهاية. واندمجت هذه الثلاثة أرتال (رتل غيرونا، رتل بونتي، رتل كامبيس) يوم ٢٠ ماي مع بعضها البعض. وانقسمت منطقة الريف إلى قسمين، قسم شرقي محاصر في تمسمان وبودينار وامزارو وبعض البلدات الأخرى، أما القسم الغربي فكان في تارجيست وما حولها، وقد كان الخطابي قد غادر تارجيست في ١٦ ماي نحو بلدة سنادة في مناطق بني يطفت.

أما رتل العقيد سبستيان بوزاس الذي انطلق من منطقة قبيلة بني سعيد نحو تمسمان، فقد لقي مقاومة ضعيفة في ٨ مايو/أيار، وخلال تقدمه استطاع السيطرة على شاطئ سيدي إدريس وأنوال. وفي ٢٣ مايو/أيار كان قد اخضع كل منطقة تمسمان المحاصرة. هنا كان الاحتلال قد أطبق السيطرة على الجهة الشرقية بأسرها، وفي ٢٤ مايو/أيار ١٩٢٦، انطلقت قواته مجتمعة نحو تاغزوت ثم تارجيست، وبمجرد السيطرة عليها اتصل الخطابي

بالفرنسيين، وبدأ التفاوض مع العقيد كوراب، فاشترط عليه إطلاق جميع الأسرى بشكل مسبق، وعندما فعل ذلك استقبلته الحامية الفرنسية في تاغزوت بتاريخ ٢٧ ماي ١٩٢٦، وانتهت بذلك الثورة الخطابية في الريف.

أما الجبهة الغربية، فقد بقي القائد أخريرو على نشاطه العسكري، ففي ١٠ مايو/أيار ١٩٢٦، شن هجوما على خط بريمو دي ريفيرا جنوب موقع ريو مارتن الساحلي، ونجح بعزل ثلاثة مواقع مهمة، كما وصل إلى مسافة ١١ كم من تطوان. غير أن الإسبان وجهوا رتلا بقيادة العقيد براتس، واستطاع في ١٩ ماي استرداد جميع المناطق التي تم تحريرها. وحتى بعد استسلام الخطابي بقي القائد الشجاع أحمد أخريرو يواصل جهاده في جبالة طيلة ٦ أشهر حتى قتل في ٣ نوفمبر/تشرين الثاني في إحدى معارك صد الحملات الإسبانية.

وعلى ضوء هذه النتائج انطلقت مباحثات باريس لإعادة ترتيب الأوراق والدخول في مرحلة ما بعد الثورة الريفية، وقد "عززت اتفاقية باريس التعاون بين فرنسا وإسبانيا في المغرب، وهو التعاون الذي أعطى نتائج سياسية وعسكرية ممتازة منذ يوليو/تموز ١٩٢٥". ونشرت صحيفة "نوتيسيرو ديل لونس"، يوم ١٢ يوليو/تموز ١٩٢٦، بعض الإيضاحات حول نتائج مؤتمر باريس منها:

- الاتفاقية الفرنسية-الإسبانية الجديدة لا تخرج عن إطار الخطوط العريضة التي رسمتها اتفاقية مدريد المبرمة بين البلدين قبل ذلك بسنة.
- تمت الموافقة على نظام الحدود البحرية والبرية.
- يمكن للقوات الفرنسية أن تتدخل في المنطقة الإسبانية إلى أن تتم "تهدئة" شمال المغرب.
- محاربة التهريب والبحث عن "غير المرغوب فيهم" في المنطقتين، موضوع تم تركه لاتفاقية منفصلة بين البلدين.
- انسحاب القوات الفرنسية من المواقع التي احتلتها سيتم متى كانت القوات الاسبانية قادرة على أن تحل محلها.
- مسألة الحدود ستحسم في عين المكان؛ وذلك وفقا للخطوط العريضة التي رسمتها الاتفاقية الفرنسية - الإسبانية لسنة ١٩١٢.
- حصل الاتفاق بشأن مصير عبد الكريم "النفي".

هكذا تم القضاء على الانتفاضة الريفية في شكلها الثوري المنظم، وحصل الاتفاق بين القوى الاستعمارية بناء على المصالح المشتركة من جهة، وعلى استراتيجيات كل طرف على حدة من جهة أخرى. ومن بين قادة الحركة الريفية الذين استسلموا للفرنسيين مع عبد الكريم كان هناك عبد السلام، ومحمد الخطابي، ومحمد أزرقان، ومحمد بوجيبار، وعبد الكريم بن حدو، وولد الحاج، والفقيه بولحية. ومما صرح به عبد الكريم للفرنسيين عقب استسلامه مباشرة -نقلا عن المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجرون- : "حضارتكم مبنية على الحديد والنار: إنكم

تعتبرون أنفسكم متحضرين بامتلاككم لأسلحة فتاكة، بينما تعتبرونني إنسانا متوحشا لأنني لا أملك سوى خراطيش وبنادق أدافع بها صيانة لكرامتي!".

رابعا: دور الأسلحة الكيميائية في حسم المعركة.

الحقيقة أن استسلام الخطابي لم يكن فقط نتيجة الحملة الأخيرة رغم أنها كان لها الدور الأساسي في ذلك، بل لو رجعنا إلى ما قبلها لوجدنا أن الضغوط الأجنبية لم تتوقف أبدا منذ أنوال ١٩٢١، فقد تعرض الريفيون إلى حصار سياسي واقتصادي وإعلامي، من قبل السلطة المغربية ومن قبل الدول الاستعمارية على حد سواء، كما أن المناوشات العسكرية المستمرة والتمردات الداخلية التي كان يشجعها الإسبان والفرنسيون غرب الريف وجنوبه لم تتوقف أبدا حتى النهاية، وفوق كل هذا كان القصف الجوي والمدفعي لا يهدأ عن الحواضر السكانية الريفية، ولعل أخطر أنواع هذا القصف وأشدها تأثيرا على نفسية الريفين كان القصف الكميائي. وكان هدف هذه الحملات الجوية: "التدمير الممنهج للقرى والمواشي، وتشريد جميع أنواع التجمعات والأسواق، وقبل كل شيء، حرق المحاصيل، وتدمير الآبار والعيون"، واستخدم الإسبان القذائف الحارقة والمتفجرة والغازات السامة في قصف يومي تقربا طيلة سنوات الثورة.

كانت الهجمات الجوية عام ١٩٢٤ هي المرة الأولى التي تُسقط فيها الطائرات غاز الخردل على الريف، أي قبل عام واحد من توقيع اتفاقية جنيف "لحظر الاستعمال الحربي للغازات الخانقة أو السامة". وقد استمر إلقاؤها حتى نهاية الحرب. ورغم التستر على القصف الكيماوي الإسباني، إلا أن بعض المراقبين العسكريين والطيارين وثقوا ذلك، مثل "بيدرو توندرا بوينو" Pedro Tonda Bueno الذي تحدث في سيرته الذاتية (أنا والحياة -التي نشرت عام ١٩٧٤- عن إمطار الطائرات للغازات السامة، وما ترتب عنه من تسميم للأراضي بالريف. كما دوّن عن ذلك "إغناسيو هيدالغو دي سيسنيروس" في سيرته الذاتية بمؤلفه Cambio de rumbo (تغيير المسار)، حيث يكشف كيف قاد شخصيا عددا من الهجمات الكيماوية بهذه المنطقة.

بعد سنوات، وفي عام ١٩٩٠، كشف اثنان من الصحافيين والمحققين الألمان، "روديبرت كونتس" و"رولف-ديتر ميلر"، في عملها: (الغاز السام ضد عبد الكريم: ألمانيا، إسبانيا وحرب الغاز في المغرب الإسباني، ١٩٢٢-١٩٢٧)، كشفا أن القصف بالكيماوي قد حدث بالفعل. كما أثبت المؤرخ البريطاني "سيباستيان بالفور"، من كلية لندن للاقتصاد، في كتابه (عناق الموت) استخداما واسع النطاق للأسلحة الكيماوية في هذه الحرب، متحققا من ذلك بنفسه بعد دراسته للعديد من المحفوظات الإسبانية والفرنسية والبريطانية. ووفقا لبحثه، فإن إستراتيجية القوات الإسبانية كانت تقتضي اختيار المناطق المكتظة بالسكان كأهداف لقنابل الغازات السامة. ووفقا لسيباستيان بلفور، فإن دافع الهجمات الكيماوية يستند في المقام الأول إلى الثأر لقتلى الإسبان الذين قضوا في معركة أنوال يوليو/تموز ١٩٢١.

وفق شهادة مصدر مغربي فإن الطائرات التي كانت تلقي المواد الكيميائية كانت تقلع من الدريوش، وكانت المواد التي تحملها تتسبب للسكان بالعمى. ومنذ ذلك اليوم، والريف يتصدر المركز الأول من حيث نسب مرضى السرطان على مستوى المغرب.

الفصل العاشر: الخطابي بعد الثورة.

"ليس هناك نجاحٌ أو فشل، انتصارٌ أو هزيمة، بل شيءٌ اسمه الواجب، وأنا قد قمت به قدر استطاعتي"[١٨٧]

محمد بن عبد الكريم الخطابي

عندما استسلم محمد بن عبد الكريم للفرنسيين صبيحة يوم ٢٦ مايو/أيار ١٩٢٦، خرج به موكب كبير من مقر إقامته يضم ١٤ ضابطا و٢٧ جنديا فرنسيا، و١١٢ جنديا جزائريا وسنغاليا، و١٠٥ جنديا إسبانيا... ثم نقل إلى فاس التي وصلها يوم ١ يونيو/حزيران ١٩٢٦ رفقة أفراد عائلته ومرافقيه، وبعد ثلاثة أشهر من المفاوضات حول مصير الأمير بين إسبانيا وفرنسا، امتنعت الأخيرة عن تسليمه لإسبانيا ملتزمة بتعهداتها له، فتدخلت انجلترا، واقترحت حلا وسطا تمثل في نفي الأمير إلى جزيرة "لاريونيون"[١٨٨] في المحيط الهندي، فنقل الخطابي إلى الدار البيضاء يوم ٢٧ أغسطس/آب، وفي ٢ سبتمبر/أيلول حُمل رفقة عائلته على ظهر السفينة "عبدة" إلى لاريونيون التي وصلها في ١٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٦. أما رفقاؤه وقادة حركته فقد تم نفيهم وسجنهم أيضا إلى جهات مختلفة داخل المغرب وخارجها، وصادرت الحكومة المغربية أملاكهم.[١٨٩]

وقد عانى الأمير وعائلته من الطقس غير الملائم بالجزيرة والأوبئة التي كانت تنتشر فيها وخاصة الملاريا. ورغم وصول الاشتراكيين إلى الحكم بإسبانيا سنة ١٩٣١، إلا أنهم رفضوا الموافقة لوزارة الخارجية الفرنسية على إطلاق سراح الخطابي، ونفس الموقف اتخذه أيضا الديكتاتور الجنرال فرانكو الذي كان ألد أعداء الأمير، وذلك بعد انتصاره في الحرب الأهلية.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، في فبراير/شباط ١٩٤٧، قررت فرنسا نقل الأمير وعائلته إلى ترابها، فنُفذت عملية النقل في ٣ مايو/أيار من نفس السنة، إذ غادر الأمير لاريونيون على متن الباخرة كاتومبا، وفي ٣١ مايو/أيار نزل الأمير وعائلته المكونة من ٤٢ فردا بميناء بور سعيد في مصر، وطلب اللجوء السياسي هناك، ليبدأ مرحلة

---

[١٨٧] عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، Muḥammad Sallām Amzayān

[١٨٨] لا ريونيون (بالفرنسية: La Réunion، سابقاً Île Bourbon) هي جزيرة فرنسية يبلغ عدد سكانها حوالي ٨٠٠،٠٠٠ نسمة تقع في المحيط الهندي، شرق مدغشقر وتبلغ مساحتها٢،٥١٢ كيلومترا مربعا.

[١٨٩] جميع من استلم مسؤوليات مدنية أو عسكرية لدى الخطابي صدر بحقهم قانون يدعى "ظهير ٩ أكتوبر ١٩٢٦"، وقد أصدره السلطان المغربي سنة ١٩٢٦ بتوجيهات فرنسية، تم بمقتضى هذا الظهير نفي ١٦ شخصا من الريف مع عائلاتهم، ومصادرة جميع أملاكهم المنقولة وغير المنقولة. وقد استمر العمل بهذا القانون إلى يومنا هذا، حيث مات المنفيون جميعا خارج أوطانهم، ولم يقبل حتى بدفنهم في مقابر بلدانهم. من هذه الأسماء التي تم نفيها: محمد أزرقان، حموش بن محمد، السي محمد حدو، عبد الكريم بن حدو، السي عبد السلام بن مقدم، محمد بوجيبار...الخ. أما أملاك الخطابي قد تم إرجاعها سنة ١٩٨١ بعد ضغط سياسي على الحكومة من قبل أولاد الخطابي.

جديدة من نضاله ضد الاستعمار والطغيان بعد ما يزيد عن ٢٠ سنة قضاها في المنفى كان خلالها مواكبا للتطورات السياسية العالمية عن كثب.

مرحلة النضال ضد الاستعماروالطغيان، من ٣١ مايو/أيار١٩٤٧ إلى ٦ فبراير/شباط ١٩٦٣.

بعد فترة قليلة من نزوله مصر، بدأ الخطابي العمل والنضال ضمن مكتب "المغرب العربي" الذي أنشأه الزعماء المغربيون في مصر، وكان حذرا في تعامله مع أطراف هذا المكتب، نتيجة شكوكه في الأحزاب السياسية وعدم ثقته الكاملة في زعمائها، وخلال السبعة أشهر التي قضاها بالمكتب جدد اتصالاته مع رفاق السلاح الذين اشتغلوا تحت قيادته في حرب الريف التحريرية، وعمل على تأسيس لجنة "المغرب العربي" من الأحزاب التي أسست المكتب المذكور، إضافة إلى أحزاب أخرى وشخصيات مستقلة، وفي ٥ يناير/كانون الثاني ١٩٤٨ انتُخب الأمير رئيسا لهذه اللجنة وشقيقه امحمد نائبا لها بصفة دائمة، وبقية الأعضاء تم انتخابهم بصفة مؤقتة، وقد رفض خلال مدة اشتغاله باللجنة عدة عروض من دول أجنبية وعلى رأسها قطبي الحرب الباردة، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، فقد حاول كل منهما تقديم دعم مشروط لمشروعه التحريري في شمال إفريقيا.

أرسى محمد قواعد اللجنة بالقاهرة وأنشأ فروعا لها في لبنان وسوريا، كما وجه عدة رسائل وموفدين إلى مختلف دول العالم الإسلامي لتعريفهم بدواعي وأهداف تأسيس اللجنة. وتزامنا مع ذلك، عمل محمد على تكوين جيش تحرير المغرب الكبير من قدماء المقاومين ومن المتطوعين المغربيين في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، والفارين من التجنيد في الجيش الفرنسي بحرب الهند الصينية، والطلبة الوافدين على المشرق للدراسة والحجاج، فأرسل بعثات طلابية إلى الكليات العسكرية بالعراق وسوريا لتكوين ضباط عسكريين، كما أشرف على معسكرات تدريبية بمصر، وأعد الخطة العسكرية الكفيلة بتحرير المغرب الكبير بشكل شامل، وذلك بتوحيد المقاومة وتكثيفها في تونس والجزائر والمغرب.

لكن طغيان المصالح الحزبية الضيقة وظهور الصراعات بين الزعامات، دفعت الأمير إلى إحداث قطيعة مع لجنة تحرير "المغرب العربي" ودفعه في اتجاه العمل المباشر الميداني الكفاحي في تحد للزعامات السياسية المعتمدة على المهادنة. وكان لتزامن عمليات جيش التحرير الأولى في المغرب والجزائر التأثير البارز على فرنسا، التي سعت إلى التخلي عن تونس والمغرب للإبقاء على الجزائر، وهو الأمر الذي تناغم مع انتهازية ووصولية الزعامات السياسية الحزبية بهذين البلدين، فتم الالتفاف على جيش التحرير بتونس والمغرب، والتوقيع على اتفاقيات استسلامية مع الالتزام بتصفية جيش التحرير وهو ما أنتج استقلالا أعرجا بالبلدين.

واصل محمد الخطابي دعمه للحرب التحريرية في الجزائر، كما ناهض اتفاقية "إيكس ليبان"[١٩٠] التي اعتبرها خيانة للشعب المغربي ومقاومته، واعتبر أن المغرب أخطأ الطريق الصحيح، وقد زاد من حدة موقفه ما حصل في الريف أواخر ١٩٥٨ وبداية ١٩٥٩ من قمع للثورة الشعبية العارمة، وعمل على فضح مختلف الفظاعات والخروقات التي اقترفتها الدولة والمليشيات الحزبية ضد المواطنين العزل. **ومن جهة أخرى رفض دستور ١٩٦٢ ومشاريع العودة إلى المغرب ما لم يتمتع باستقلال حقيقي ويرحل عنه آخر جندي أجنبي.**[١٩١]

---

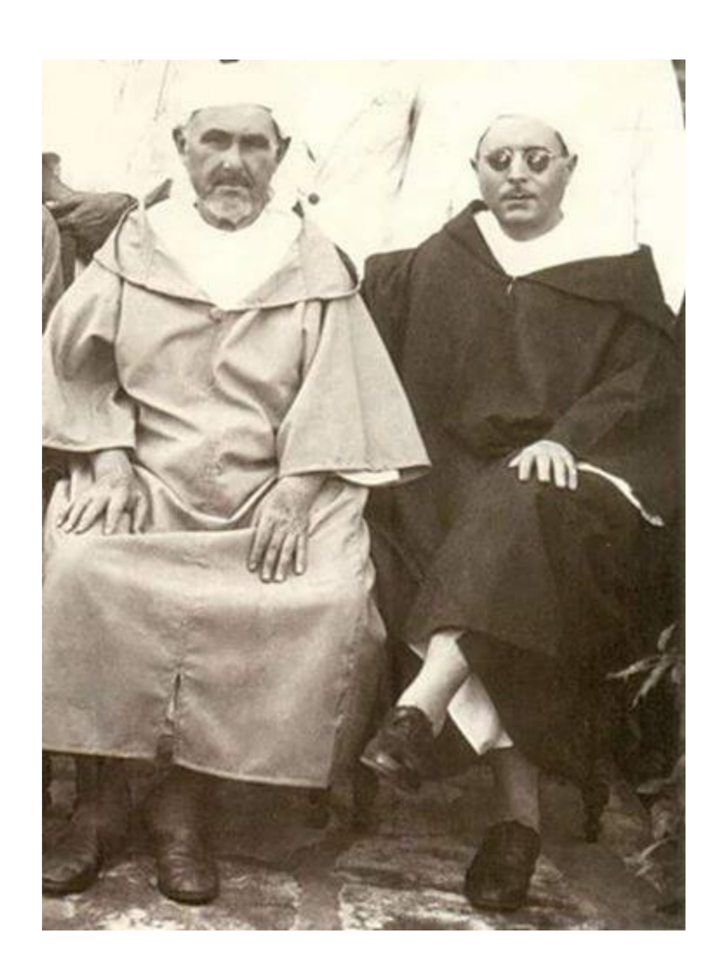
[١٩٠] إيكس ليبان: هي مفاوضات جمعت وفدا من الحكومة الفرنسية مع وفد من الشخصيات الحزبية والسياسية والوجهاء المغاربة عام ١٩٥٥، وضعت معالم حصول المغرب على استقلاله عن فرنسا عبر إنهاء نظام الحماية وبلورة تصور للعلاقات المستقبلية بين البلدين. مهدت تلك المفاوضات لعودة السلطان محمد الخامس إلى عرشه بعد منفاه الذي بدأ في أغسطس/آب ١٩٥٣، وأضحت في المقابل محطة تاريخية مثيرة للجدل حيث يعتبرها بعض المهتمين تكريسا لمرحلة جديدة من السيطرة الفرنسية على مقدرات البلاد وخيراته بشكل غير مباشر.

[١٩١] كانت علاقة الخطابي مع حكام المغرب ما بعد الاستقلال المزعوم مضطربة، وبحسب ابنته عائشة فإنه: "قبل زيارة الملك محمد الخامس للقاهرة في ١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٦٠، قام عبد الخالق الطريس، سفير المغرب في القاهرة، بمساع حثيثة من أجل إقناع الوالد بالالتقاء بالملك، وقام من أجل ذلك بعدة زيارات لبيتنا، لعله يقنعه بذلك، ولم يكل الرجل بل تابع مساعيه إلى آخر دقيقة قبل وصول الملك محمد الخامس، حيث عرج على بيتنا وهو في طريقه إلى مطار القاهرة للقاء الوالد، وقد توّجت هذه المساعي بزيارة الملك محمد الخامس لبيت الأمير والالتقاء به، وكانت هذه الزيارة أول عمل قام به الملك في مصر". وأكدت أنهما تحدثا "عن الوضع العام في المغرب، وعن العدالة الاجتماعية والحقوق المدنية. وكان محمد الخامس يسعى إلى إقناع الأمير بالعودة إلى المغرب، لكن رد الوالد كان أنه لن يعود إلى المغرب حتى يعرف مصير المفقودين الذين ذهبوا ضحية الاختطافات التي عرفها المغرب بعد انتفاضة الريف سنة ١٩٥٨، كما طالب بفتح تحقيق بخصوصها".

وفي سنة ١٩٦١ توفي محمد الخامس، وتولى العرش الحسن الثاني، غير أن العلاقة بين الخطابي والملك الجديد لم تكن على ما يرام، ففي نوفمبر ١٩٦٢ عارض الخطابي أول دستور وضعه الحسن الثاني للبلاد، وكتب أن الدستور ليس إلا "عقدا بين الحاكم والمحكوم، ولابد من موافقة كلا الطرفين على هذا العقد، وإلا بطل من أساسه. ذلك أن هذا العقد جاء نتيجة لتحكّم الحاكم وسيطرته واستبداده، فوضعوه لكي يجعل حدا للحاكم. وما فائدته إن وضع من طرف واحد، وما جدواه إن وضع على وفق إرادة الحاكم". وأضاف الخطابي أن "التنصيص -في هذا الدستور المزعوم- على (ولاية العهد) ما هو إلا تلاعب واستخفاف بدين الإسلام والمسلمين. إذ كلنا يعلم أن مسألة الإمامة، كانت دائما موضع خلاف بين علماء الإسلام منذ بعيد، وما ذلك إلا لعدم وجودها في القانون السماوي".

وكرد فعل على مواقف الخطابي، زار الحسن الثاني القاهرة مرتين دون أن يقوم باستقبال أو زيارة الخطابي، وفي المقابل فإن الخطابي أصر على مطالبه المتمثلة في الاستقلال الكامل، ونبذ الدكتاتورية، وتحقيق الحرية السياسية التامة للشعب المغربي، وبقي على ذلك إلى أن مات في مصر سنة ١٩٦٦ دون أن يقبل الرجوع إلى المغرب التي كانت قد استقلت سنة ١٩٥٦.

وبقي الأمير على نهج المقاومة ثابتا لا يلين ولا يستكين إلى أن أسلم روحه في سن الثمانين يوم ٦ فبراير/شباط ١٩٦٣، ليدفن في مقبرة الشهداء بالعباسية في مصر.[١٩٢]



محمد الخطابي على اليساروشقيقه امحمد على اليمين، التقطت الصورة لهما في مصر.

[١٩٢] مقال "سيرة الأمير الكريم الخطابي من عاصمة الجمهورية إلى القاهرة مثواه الأخير" - جريدة أنوال بريس.

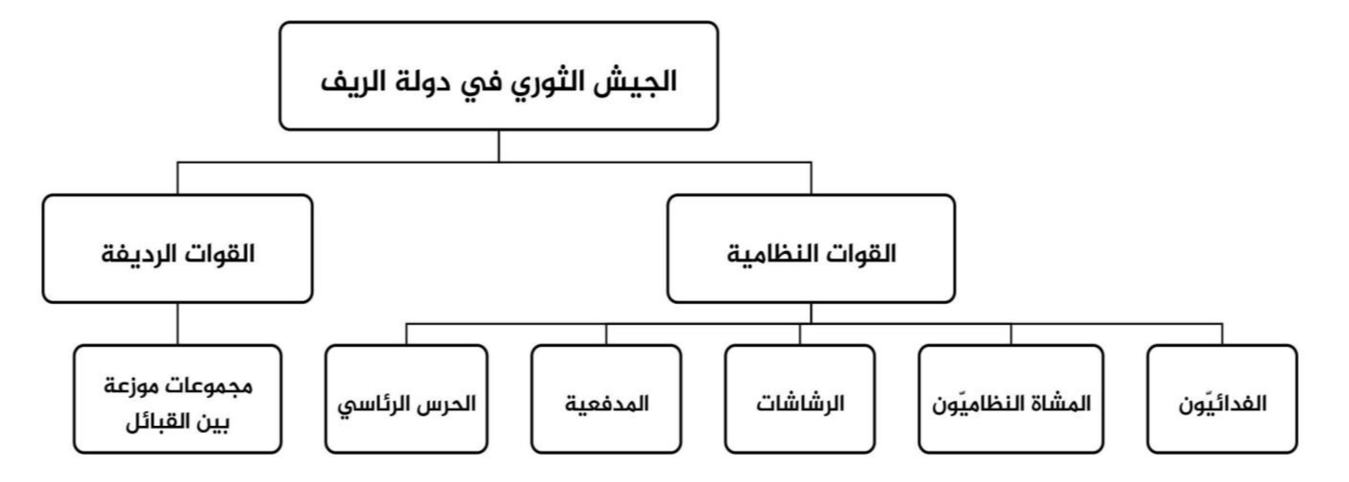
الفصل الحادي عشر: التسليح والتشكيل العسكري في حرب الريف الثالثة.

"إن خبراء الحرب المضادة يعترفون بأن التقنية لوحدها عاجزة عن التغلب على الثوار، ولا تستطيع إلا أن تجعل الحرب أكثر صعوبة وأشد خطراً. فالصراع قبل كل شيء ذو سمة اجتماعية وسياسية" [١٩٣] **روبرت تابر**

أولا: التشكيل العسكري.

١) تشكيلات الجيش الثوري:

كان جيش الخطابي يتألف من نوعين من القوات: القوات الرديفة والقوات النظامية.



١) **القوات الرديفة** يطلق عليها اسم "الجيش الشعبي"، وصل عددها في أوج الازدهار إلى ما يقارب الـ ١٠٠ ألفا، تتكون من رجال القبائل الذين تم تجنيدهم بعد وضع قانون التجنيد الإجباري. ويتوزعون على مجموعات صغيرة بين ١٠ و١٥ رجلا، مرتبطين بزعماء قبائلهم. ليس لهم رواتب ثابتة، وإنما بعض المكافآت المغرية وقت الاستنفارات، وتقسم القبيلة رجالها إلى فرقتين بحيث يكون دوام الواحدة أسبوع أو أكثر ثم تقوم الأخرى بتبديلها، وهؤلاء المتطوعون أغلب نفقتهم على قبائلهم، وليست من ميزانية الدولة.

وهذه القوات دوامها جزئي (أسبوع أو أسبوعين)، فهي لا تتفرغ للأعمال العسكرية بشكل كامل، بخلاف القوات النظامية التي سيأتي ذكرها. وبعد أن يتم تدريب وتسليح القوات الشعبية، تبقى القيادة تتعهدهم

---

[١٩٣] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

بالمتابعة والإشراف وتقوم بتكليفهم ببعض المهام الطارئة، لكنهم في غير وقت الطوارئ يمارسون حياتهم بشكل طبيعي.

٢) **القوات النظامية:** معظمهم من قبيلة بني ورياغل، وهم رجال مفرغون بشكل كامل للأعمال العسكرية وفي استنفار متواصل، لعل عددهم قد قارب العشرة آلاف جندي بعد عام ١٩٢٤، كان من بينهم:

أ. **الحرس الأميري:** (١٥٠) رجلا يختصون في حراسة الخطابي، مدربون بشكل جيد ومفرغون للحراسة بشكل دائم، قائدهم حديدات، وكان يطلق عليهم لقب "الحفاظ"، ويعرف هؤلاء الحرس بالعمامة الخضراء.

ب. **قسم المدفعية:** يضم ٣٥٠ راميا يعملون على ١٥٠ مدفعا تم اغتنامها من الإسبان والفرنسيين، وقد تدرب معظم هؤلاء الرماة على يد بعض الضباط الأجانب، منهم القبطان الإسباني سربيو الذي أسلم وأخلص للثورة الريفية.[١٩٤] وعقيد المدفعية الروسي سيرغي كوغوشي، الذي درب الثوار على مدفعية شنايدر عياري ٧٥،١٠٥ ملم. وأعضاء هذا القسم يرتدون عمامة سوداء.

ت. **قسم الرشاشات:** مزودون بما يقارب المائتين مدفع رشاش. يرتدون أيضا عمامة سوداء. ويقودهم أحمد السويسي.

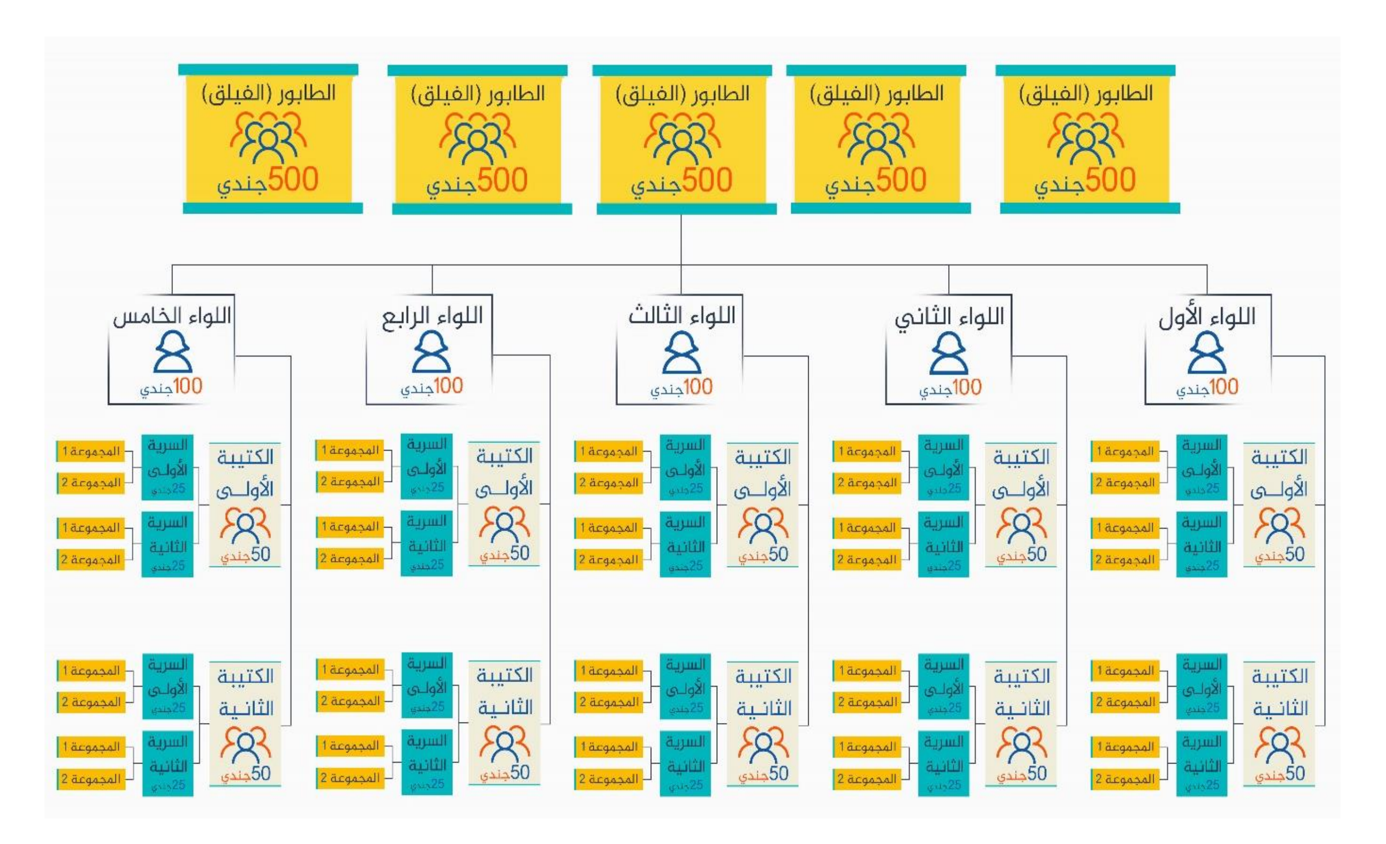
ث. **المشاة:** وهم البقية، ويعدون الإطار السياسي والعسكري للثورة لأنهم كانوا يتصلون جماعات أو فرادى برؤساء القبائل لإعطائهم تعليمات القيادة، وكانوا يمثلون العمود الفقري للجيش.

ينقسم المشاة النظاميون إلى أحياء، بحيث يضم الحي الواحد طابورين، ويضم كل طابور ٥٠٠ جنديا، ويتشكل الطابور من خمسة ألوية، يضمّ كل لواء ١٠٠ جنديا. ويتشكل اللواء من كتيبتين، تضم كل كتيبة ٥٠ جنديا. وفي كل كتيبة سريتين تضم كل سرية ٢٥ جنديا، وفي كل سرية مجموعتين من المشاة. على رأس طابور ولواء وكتيبة ضابط كفء شجاع، يتم اختياره بعناية فائقة. وكان لباس القوات النظامية موحدا، للضباط عمامة حمراء، وللجنود عمامة زرقاء وجلباب قصير. ويحمل الجنود "الأزعبور"، وهي محفظة صغيرة يضعون فيها الرصاص أثناء خروجهم إلى الجبهة. فضلا عن ذلك كان قائد الـ ٥٠ (الكتيبة) فما فوق يحمل مسدسا على يساره.[١٩٥]

---

[١٩٤] البوعياشي - حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

[١٩٥] ملاحظة: مصطلح اللواء والكتيبة والسرية لم يذكر في المصادر المغربية، وإنما ذكرناه هنا وفق هذا التقسيم من باب التوضيح للقراء. كما لم يكن هذا التشكيل العسكري الريفي ثابتا على هذا الشكل طيلة سنين الثورة، فقد كان يتطور أو يضعف بحسب توسع الثوار وقدرتهم على التنظيم.



نموذج تقريبي لهيكلية المشاة النظاميين في جيش الخطابي

ج. **القوات الفدائية:** لم تذكر المصادر لمحة مفصلة عنهم، لكن الراجح أنهم كانوا يتبعون إلى القوات النظامية، وكانوا مجموعة من الشبان الشجعان الذي لا يهابون الموت، والأغلب أن أعدادهم كانت قليلة وموزعين على مجموعات صغيرة، تلقوا تدريبات مكثفة ونوعية. وتتمثل مهامهم في تنفيذ العمليات الانغماسية الصعبة التي تكون فيها نسبة الخطورة عالية جدا.

هذا وقد اختلفت الرواتب الشهرية لأفراد القوات النظامية في جيش الثورة، فكان قائد الطابور يتقاضى راتبا شهريا قدره ١٥٠ بزيتا (بيزيتا)، ويتقاضى قائد الـ ١٠٠ (اللواء) ١٠٠ بزيتا، ويتقاضى قائد الـ ٥٠ (الكتيبة) ٨٠ بزيتا، ويتقاضى قائد الـ ٢٥ (السرية) ٧٥ بزيتا، أما الجنود العاديون بمن فيهم المقدم (قائد الـ١٢ جندي) فيتقاضون ٦٠ بزيتا شهريا.[١٩٦] وكان الخطابي يصرف أوسمة شرفية لتكريم المتميزين.

وقد استخدمت الحكومة الكبار في السن لحماية الأماكن الداخلية والنقاط الخارجية على الحدود والسواحل (الرباط البارد)، وساهم الأطفال والنساء في هذا المجال كذلك، ولم يتوقف استخدامهم عند هذا الحد بل كلفوا في تهيئة وتوريد المؤونة والذخيرة إلى ميادين القتال.[١٩٧] وكان جيش السيدات يتبع جيش الرجال، وكانت المرأة

---

[١٩٦] البوعياشي - حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

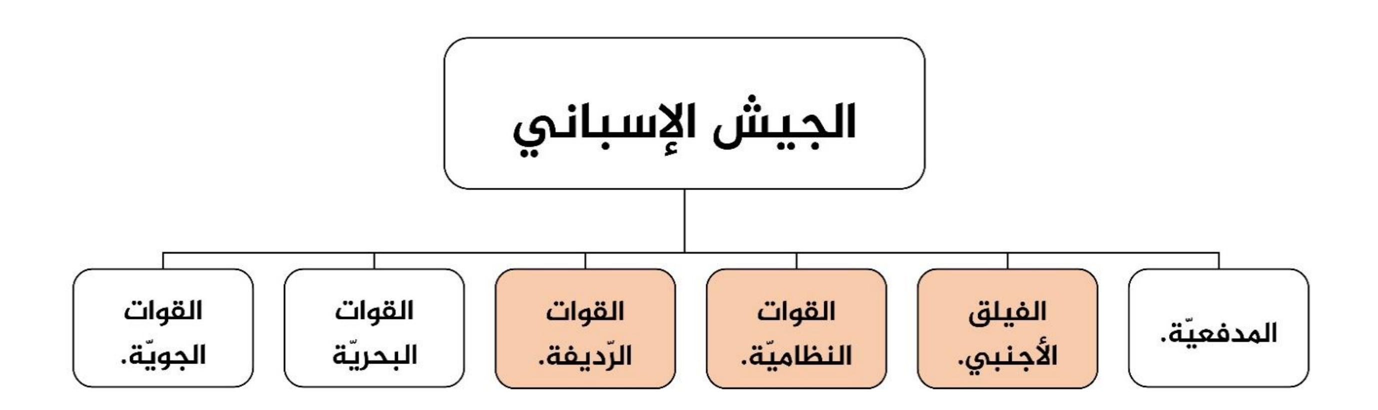
[١٩٧] محمد أمين العمري: الحرب الريفية وسر انتصار الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

أحيانا تقف بجانب الرجل أو من خلفه، تملأ له البندقية كلما فرغت الأخرى التي يستخدمها، كما تحرك همته وتدفعه على الاستبسال.[١٩٨]



الصورة: إمرأة ريفية تستعد لتسليم قذيفة مدفع لمقاومين قصد إطلاقها على مواقع معادية.

٢) التشكيل العسكري الإسباني:



يتكوّن الجيش الإسباني من ثلاث كتل رئيسية غير القوات البحرية والجوية والمدفعية:[١٩٩]

أ) القوات النظامية:

وتتكون من العديد من الأفواج، بحيث يكون للفوج الواحد مقر قيادة، يضمّ هذا المقر: العقيد، والمقدم، والرائد، وأربعة نقباء، وحامل الراية (ملازم)، وواعظ ديني، وقائد الجوقة الموسيقية، وأعضاء الجوقة. ويتكون

[١٩٨] علال الفاسي: حديث المغرب في المشرق.

[١٩٩] التشكيل العسكري الفرنسي مشابه للتشكيل الإسباني، غير أنه يعتمد بشكل أكبر على القوات المغربية الرديفة، سواء النظامية أو غير النظامية.

كل فوج من ثلاث كتائب، بعضها يكون مخصصا لحراسة المستودعات والمراكز، والبعض الآخر يشارك في المعارك. أما الكتيبة فإنها تتكون من:

- **مقر القيادة:** ويضم ٦ رجال. بينهم الرائد، ومساعده (ملازم)، والطبيب، ومهندس السلاح، ومسؤول البوق (عريف)، والطبّال (عريف).
- **٤ سرايا بنادق،** لكل سرية مقر قيادة يضم ١٢ رجلاً من بينهم النقيب، وضابط آخر، وحامل الراية (عريف)، ومسعفان، ومهندسان، و٣ بوقيين وطبّال. كما تضم كل سرية اثنين أو ثلاثة فصائل. على كل فصيلة ملازم ورقيب، وتضم كل فصيلة أربع مجموعات، تتألف كل مجموعة من ثمانية رجال على رأسهم عريف.
- **سرية الرشّاشات:** وتضم فصيلتين، تضم كل فصيلة ٢٠ رجلا.
- **فصيلة المتفجرات.**
- **فصيلة الدراجات.**

الجدير بالذكر، أن المجندين الإسبان داخل القوات النظامية كانوا سيئي التدريب والتجهيز والأجور ويفتقرون إلى "روح التضحية"، كما كانت قيادتهم ضعيفة الكفاءة، وكان ينتشر بينهم الفساد الأخلاقي والتنظيمي.[٢٠٠]

ب) الفيلق الإسباني الأجنبي:

تم تأسيسه في ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٠، وذلك يكمل الضعف الذي كانت تعاني منه القوات النظامية حيث كان قد نخرها الفساد والترهل. ومن ١٩٢٠ وحتى ١٩٢٦ كانت القيادة الإسبانية تقوم بتطوير الفيلق وزيادة أعداده، لتصبح مكوناته سنة ١٩٢٦:

- سرية الخيالة حاملي الرماح.
- فيلقين، يضم كل فيلق أربعة أفواج، في كل فوج ثلاث سرايا بنادق، وسرية رشاشات، وفصيلة مهندسي متفجرات.

ج) القوات المغربية الرديفة للجيش الإسباني:

وهؤلاء على ثلاث فئات:

[200] Steven's Balagan, Spanish and Portuguese Military History.

- **القوات المغربية النظامية**، وقد تم تشكيلهم منذ ١٩١١. كانوا مجموعة من المرتزقة تحت السيطرة الإسبانية المباشرة، وكان ضباطهم خليطا من الإسبان ومن المغاربة الأصليين، أما الجنود فكلهم من المغاربة.
- **الشرطة العسكرية المحلية**، مهامها ضبط الأمن وحماية المراكز وطرق الإمداد، وهي عبارة عن مجموعة من سرايا المغاربة يشرف عليها ملازم إسباني، وتتبع صوريا إلى حاكم المغرب.
- **الحركات (المليشيات)**: عادة ما يكون رجالها مرتزقة من أبناء القبائل. منها ما يقوده ضباط إسبان بشكل مباشر، ومنها ما يقوده رجال مغاربة.

ثانيا: الأسلحة والوسائط المستخدمة في حرب الريف الثالثة.

أسلحة المشاة

السلاح	صورة	المدى المجدي	العيار	الصناعة
بندقية ماوزر طراز 1893		٢٠٠٠ متر	٧*٥٧ ماوزر	ألمانية
بندقية ماوزر بسبطانة قصيرة طراز ١٩١٦	Reference Library - NOT for sale LibertyTreeCollectors.com	٢٠٠٠ متر	٧*٥٧ ماوزر	ألمانية
بندقية غراس طراز ١٨٧٤		٢٠٠ متر	١١*٥٩	فرنسية
بندقية ليبل		٣٠٠ متر	٨*٥٠	فرنسية

بندقية تشاسيبورت		١٢٠٠ متر	١١ ملم	فرنسية
بندقية إيتاين		غير متوفرة	غير متوفرة	فرنسية
رشاش هوتشكيس خفيف طراز ١٩٢٢		٢٠٠٠متر	٧*٥٧ ماوزر	فرنسية
بندقية غراس طراز ١٨٧٤		٢٠٠ متر	١١*٥٩	فرنسية
مدفع رشاش ثقيل هوتشكيس طراز ١٩١٤		٣٨٠٠ متر	٧*٥٧ ماوزر	فرنسية

هاون لافيتي		١٠٠٠ متر	٦٠ ملم	فرنسية
مسدس أسترا (تُعطى للضباط وحاملي الرشاشات)		-	٩ ملم	إسبانية
حمولة قنابل لافيتي طراز ١٩٢١		-	-	فرنسية

المدفعية

المدفع والعيار	الصورة	المدى	الصناعة
شنايدر ١٩١٩ ٧٥ ملم		٩ كم	فرنسية
كروب ١٩٠٣ ٧٥ ملم		٦ كم	ألمانية

مدفع شيوير ١٥٠ ملم		٤,٥ كم	ألماني
شنايدر ١٠٥ ملم		١٢ كم	فرنسية
مدفع تشاموند ٧٥ ملم		٦,٥ كم	مكسيكية
كروب ٧٧ ملم		غير متوفر	ألماني
كروب ٩٠ ملم		٦,٥ كم	ألماني



الخيالة تحمل حربة من طراز ١٩٠٥ (في الصورة خيالة غير إسبانية)

الدّبابات

الدبابة	صورة	التسليح	السرعة	المدى	الصناعة
شنايدر سي أي		مدفع ٧٥ ملم، مدفعي رشاش هوتشكيس ١٩١٤ عيار ٨ ملم	٨ كم/ساعة	٦ كم (المدفع)، ٣,٨ كم (الرشاش)	فرنسية
رينو أف تي -١٧		رشاش هوتشكيس ٨ملم، مدفع بوتياكس أس أي ١٨	٧,٥ كم/ساعة	٣٨٠٠ متر (الرشاش)، ٢٤٠٠ متر (المدفع)	فرنسية

الطّائرات

الطائرة	الصورة	المهمة	التسليح	السرعة	الصناعة
فوكر ٤		استطلاعية	رشاشة أو رشاشتين أماميتين من عيار ٧,٧ ملم، ورشاشة مزدوجة مثبتة في القمرة	٢١٤ كم/ساعة	هولندية
بريستول أف ٢		طائرة مقاتلة، استخدمت في المغرب كإسنادٍ للمشاة	رشاش عيار ٧,٧ أمامي، رشاش أو رشاشين من طراز لويس مثبتة في القمرة، حمولة قنابل زنة ١١٠ كغم	١٩٨ كم/ساعة	بريطانية
دي أتش ٤		قاذفة	رشاشة أمامية عيار ٧,٧ ملم، ورشاشة من طراز لويس، حمولة قنابل زنة ٢١٠ كغم	٢٣٠ كم/ساعة	بريطانية
أس أم ١٦		بحرية استطلاعية	رشاشة عيار ٧,٧ مثبتة في القمرة، حمولة قنابل زنة ٢٣٠ كغم	١٩٤ كم/ساعة	إيطالية
دي أتش ٩		مراقبة، قاذفة	رشاشة من طراز فيكرز، رشاشة أو رشاشتين خلفية من طراز لويس، حمولة قنابل زنة ٢١٠ كغم	١٨٢ كم/ساعة	بريطانية

بريغيه ١٤		استطلاعية ، قاذفة، وهي من أكثر الطائرات التي استخدمت في المغرب	رشاشة فيكرز، رشاشتي لويس، حمولة قنابل زنة ٣٥٥ كغ	١٩٥كم/ساعة	فرنسية
بوتيز ١٥		مطاردة	رشاشة من طراز فيكرز، ورشاشتي لويس	٢٠٢كم/ساعة	فرنسية
أم ١٨		بحرية استطلاعية ، قاذفة	رشاشة فيكرز، أربع قنابل خفيفة	١٨٤ كم/ساعة	إيطالية
عُقاب البحر		بحرية استطلاعية	-	١٥٠ كم/ساعة	بريطانية
فليكسس تاو ٣		بحرية قاذفة	٤ رشاشات فيكرز، حمولة قنابل زنة ١٠٠ كغ	١٤٧ كم/ساعة	فرنسية
بوزارد أف ٤		مطاردة	رشاش فيكرز، حمولة قنابل زنة ٨٠ كغم	٢٣٣ كم/ساعة	بريطانية

جالوت أف ٦٠		قاذفة، ويُعتقد أنها استخدمت لنشر غاز الخردل	رشاشي لويس، وقنابل خفيفة	١٧٠ كم/ساعة	فرنسية
أفرو ٥٠٤		مقاتلة	رشاشة لويس	١٤٥ كم/ساعة	بريطانية

السّفن

السفينة	الصورة	السرعة	التسليح	الصناعة
بارجة الفونسو ١٣		٣٦كم/ساعة	٢٢ مدفع من مختلف العيارات، ورشاشين	إسبانية
بارجة جايمي الأول		٣٦كم/ساعة	٢٢ مدفع من مختلف العيارات، ورشاشين	إسبانية

طرادة منديز نونيز		٢٤كم/ساعة	١٠ مدافع من مختلف العيارات	إسبانية
طرادة بلاس دي ليزو		٢٤كم/ساعة	١٠ مدافع من مختلف العيارات	إسبانية
طرادة راينا فكتوريا يوجينا		٤٧ كم/ساعة	١٣ مدفع من مختلف العيارات	إسبانية
طرادة إكسترامدورا		٣٧ كم/ساعة	١٥ مدفع من مختلف العيارات	إسبانية
مدمرة السيدو		٦٣ كم/ساعة	٥ مدافع من مختلف العيارات	إسبانية

مدمرة فيلاسكو		٦٣ كم/ساعة	٥ مدافع من مختلف العيارات	إسبانية
زوارق طوربيد طراز ٧، ١١، ١٧، ٢٢		٤٨ كم/ساعة	٣ رشاشات و٣ بطاريات طوربيدات	إسبانية
سفينة إنزال من طراز K		١٥ كم/ساعة	سعة حمولة ٣٠٠ جندي	إسبانية
زوارق مدفعية		٢٥ كم/ساعة	٤ مدافع من طراز فيكرز	إسبانية

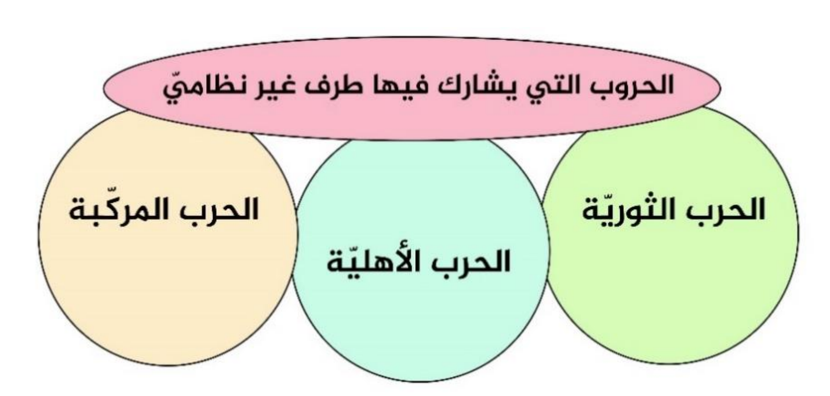
ملاحظة: البنادق التي تم تلوينها هي تلك التي تميز الثوار باستعمالها ولم يكن يعتمد عليها الإسبان، وفيما عداها فقد كان السلاح الريفي مطابقا للسلاح الإسباني. إلا أننا لم نستطع معرفة أنواع الطائرات والسفن التي كانت بحوزة الخطابي.

الفصل الثاني عشر: ضمن أي نوع من الحروب تندرج حرب الريف الثالثة؟

"إن مدى المدفعية والطيران أعظم بكثير من مدى القوس، وتعمل المتفجرات بتأثير يختلف عن تأثير عمل السهم، وتتميز الدبابات بصلابة أكثر من التروس. وشكلت غالبا الشاحنات والهيلوكوبترات وسائل نقل أشد سرعة وأكثر ضماناً من البغال والجمال. إلا أن معضلات القيادة هي نفسها. والعوامل المتبدلة، كالأرض والزمن والمجال والموارد والسكان، وخاصة المعنويات والاستراتيجيات، تحدد دائماً نتيجة المعارك والحملات."[٢٠١] **روبرت تابر**

أولا: ضمن أي نوع من الحروب تندرج حرب الريف الثالثة؟

لا يمكن أن نخوض في الاستراتيجيات والتكتيكات قبل أن نتطرق إلى تحديد نوع الحرب التي نحن بصدد تحليلها، لأننا دون تحديد طبيعة حرب الريف الثالثة فلن نستطيع دراسة الاستراتيجيات والتكتيكات التي اعتمدها كل طرف فيها بشكل موضوعي، ولن نتمكن من تقييم نقاط القوة والضعف لدى كل جهة بشكل دقيق. وكما قلنا سابقا فإن حرب الريف الثالثة لأنها ليست حربا نظامية[٢٠٢] فإنها لن تخرج عن أنواع الحرب التالية: (ثورية، مركبة، أهلية).[٢٠٣]



[٢٠١] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٠٢] **الحرب النظامية:** هي صراع مسلح بين دولتين أو أكثر، يهدف كل طرف فيها إلى تدمير قوات خصمه والسيطرة على أرضه أو جزء منها، **يُستخدم فيها القوات النظامية وجميع أو معظم الأسلحة البرية والبحرية والجوية، في عمليات مشتركة بين مختلف أنواع الأسلحة التي قد تصل إلى الدمار الشامل.** تخوض الجيوش هذه الحرب وهي تتبع إلى حدّ ما القواعد الدولية للحروب، كما تتوقع أيضا من نظرائها الالتزام بهذه القواعد.

[٢٠٣] ما زال تقسيم الحروب وتعريف كل قسم منها مسألة مختلفا فيها بين الباحثين، فمنهم من يقسم أنواع الحروب انطلاقا من الأهداف النهائية للمشاركين فيها (حرب إبادة، حرب استقلال، حرب استعمار...الخ)، ومنهم من يقسمها انطلاقا من طبيعة الأطراف المشاركة فيها (حرب نظامية، حرب عصابات، حرب باردة...الخ)، ومنهم من يقسمها انطلاقا من طبيعة الأسلحة والوسائط المستخدمة فيها (حرب الدبابات، حرب الألغام، حرب الغواصات...الخ)، ومنهم من يقسمها انطلاقا من بيئتها ومجال عملياتها (حرب جوية، حرب برية، حرب بحرية، حرب غابات...الخ)، ومنهم من يقسمها انطلاقا من امتداداها الجغرافي (حرب قطرية، حرب إقليمية، حرب عالمية)...الخ

الحرب الثورية:[٢٠٤] **هي صراع مسلح بين طرف نظامي وآخر غير نظامي**، بحيث يهدف كل طرف للسيطرة على السكان والموارد. وغالبا ما تناضل معظم المجموعات الثورية لتحقيق بعض الأهداف العامة من أجل تقويض شرعية الحكومة المحلية أو الاستعمارية، ولدعم مكانتها الخاصة عند السكان. فيسعى الثوار للتالي:

١. اضعاف قدرة الحكومة المحلية أو الاستعمارية وإزاحتها عبر تقديم خدمات وحكومة بديلة للسكان، أو قد تكتفي بإظهارها مظهر العاجز.
٢. الحصول على الدعم الشعبي من خلال تسويق رسالة سياسية تنطلق من مطالب الناس الحياتية.
٣. اسقاط شرعية الحكومة المحلية أو الاستعمارية من خلال التركيز على فسادها وظلمها ونقاط الضعف فيها للحد من الدعم الدولي الموجه لها، ومحاولة الحصول إن أمكن على اعتراف دولي أو مساعدة دولية للثوار.

فالثورة المسلحة –مبدئيا- هي تنافس سياسي على الشرعية، ولكن لا يظهر للمراقبين إلا من خلال الجانب العنيف من الصراع لأن الطرق السلمية قد تم استنفادها دون أن تعود بأي حلول حقيقية. وتتسم الحرب الثورية بـ:

١. نشوب الصراع بين دولة وجيش نظامي ومجموعات شعبية غير نظامية.
٢. قلة المعارك الجبهوية في المراحل الأولى وكثرة العمليات النوعية المستمرة التي تعتمد بشكل كبير على خفة الحركة، كما تتميز بتكتيكات حرب العصابات التي تشمل الإغارات والكمائن والاغتيالات...الخ.
٣. الاعتماد على الاستراتيجيات طويلة الأجل التي تدوم لأكثر من عقد من الزمان، والتي تشكل كل الجوانب الحياتية (الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية).
٤. يكون الفارق في الحرب الثورية بين المدنيين والثوار ضبابيا، مما يتسبب غالبا في زيادة حجم الخسائر بين المدنيين بسبب السياسات العنيفة التي تمارسها الحكومة المحلية أو الاستعمارية."[٢٠٥]

الحرب الأهلية: هي صراع مسلح يقع بين طرفين محليين، أو أكثر، في أراضي دولة واحدة، نتيجة النزاعات الحادة، وتعذر إيجاد أرضية مشتركة لحلها بالوسائل السلمية، ويكون هدف الأطراف المتنازعة هو السيطرة على مقاليد السلطة في الدولة وممارسة السيادة فيها.[٢٠٦]

---

[٢٠٤] نريد أن ننبه القارئ أنه رغم الخلاف الحاصل بين الأكاديميين حول معاني الثورة المسلحة والحرب الثورية وحرب العصابات والتمرد؛ نحن لا نفرق بينها في هذا البحث، وهذه المصطلحات عندنا في هذا الكتاب على معنى واحد.

[٢٠٥] الفريق الركن الدكتور محمد فتحي أمين، موسوعة أنواع الحروب.

[٢٠٦] دليل وكالة الاستخبارات الأمريكية لتحليل التمرد - الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد.

الحرب المركبة: هي صراع سياسي مسلح بين دولتين، تستخدم إحداهما أو كليهما القوات النظامية والقوات الغير نظامية بشكل متزامن، وتجمع بين أساليب الحرب التقليدية وحرب العصابات، وبعبارة أخرى فإن من يقوم بتطبيق الحرب المركبة يزيد من قوته النظامية باستخدام القوات الغير النظامية الرديفة. من أوضح الامثلة عن الدول التي تستخدم هذا النوع من الحروب هي إيران، إذ أنها تقاتل في لبنان وسوريا واليمن باستخدام حزب الله والحوَثة وبقية المليشيات المسلحة.[٢٠٧]

استنتاج: بالنظر إلى الدوافع الإسبانية والفرنسية التي تدور حول المصالح الاقتصادية وتهدف إلى تدمير قوات التمرد والسيطرة على الأرض، تأتي الدوافع الريفية متمثلةً في الدفاع على الحقوق المشروعة والحصول على الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويسعى الثوار من أجل تحقيق هذه الدوافع إلى استنزاف قوات الاحتلال عبر التكتيكات الغير نظامية وإنهاكها لتقوم بالاعتراف باستقلال الريفيين. ولأن فرنسا وإسبانيا دولتان نظاميتان تخوضان الحرب لقمع مجموعات شعبية غير نظامية تنادي بالاستقلال، ولأن الجماعات الثورية في الريف لم تكن تمثل امتدادا لدولة ما (كما هو الحال في نموذج حزب الله وإيران)، **فإن حرب الريف الثالثة تدخل قطعا ضمن الحروب الثورية (حروب العصابات)، وليست حربا أهلية ولا حربا نظامية ولا حربا مركبة.**

ثانيا: إلى أي مرحلة وصل الخطابي في الحرب الثورية؟

يتفق أغلب من كتب في هذا العلم أن الثورة المسلحة ليست دائما على طابع واحد، وقد قسمها ماو إلى ثلاثة مراحل زمنية متباينة، لكل واحد منها ما يميزها من التكتيكات والاستراتيجيات. ففي المرحلة الأولى "الدفاع الاستراتيجي"، عندما تكون قوات العدو تتمتع بتفوق كبير في الأعداد والقوة العسكرية، يجب على الثوار التّركيز على بناء رؤيتهم وأجهزتهم السّياسية، وتأمين الدّعم من القوى الخارجية، وترتيب هيكليتهم القيادية، وتدريب مجموعة من المجندين سيمثلون فيما بعد القاعدة الصلبة للانطلاق. وفي المرحلة الثانية، التي أطلق عليها ماو "التعادل (التوازن) الاستراتيجي"، يجب أن ينتقل الثوار إلى استراتيجية حرب العصابات، مع التّركيز على هجمات الكر والفر. وكما كتب ماو: "سوف نتخذ في هذه المرحلة حرب العصابات كشكلٍ رئيسي للقتال، ونكمّلها بالحرب المتحركة... وهذه المرحلة سوف تتحدّد مدّتها تبعاً لما يمكن أنْ يحدث من تغيّرات في نسب القوى بين العدو وبيننا، وفي الوضع العالمي." أما في المرحلة الثالثة "الحسم الاستراتيجي"، فينبغي على الثوار التركيز على العمليات الهجومية والتقليدية مع زيادة قوتهم العسكرية.[٢٠٨]

والحقيقة أننا لو نظرنا إلى السياق التاريخي لأشهر الثورات المعاصرة (الكوبية والصينية والسورية والفيتنامية) سنستنتج أن المراحل الثورية أكثر من ثلاث، فهناك المرحلة الأولى التحضيرية، وهي التي ينتظر فيها الثوار تحقق

---

[٢٠٧] طالبان وحزب الله، الخصوم الهجينون في الصراعات المعاصرة، ترجمة مركز نورس للدراسات.

[٢٠٨] ماوتسي تونغ: ست مقالات عسكرية، من مقالته حول الحرب طويلة الأمد.

النضوج الثوري[٢٠٩]، ويستثمرونها لفضح الحكومة الفاسدة أو الدكتاتورية وإعداد قاعدة الانطلاق، أما الثانية فهي مرحلة الانفجار الثوري والمعارضة السلمية، وفيها يحدث أمر ما يؤثّر في الجماهير -قد يكون جريمة تمارسها الحكومة أو القوات الأجنبية- فينطلق الثوار في نشاطهم السلمي، ويُنظِّمون خلالها العديد من المسيرات والمظاهرات والاضرابات الحاشدة التي تنادي الحكومة بضرورة التغيير الجذري. ومع رفض الحكومة لكل هذه المطالب أو بعضها، ينتقل الثوار مع الكتل الشعبية التي تتأثر بهم إلى المرحلة الثالثة، وهي "الصدام السري المسلح"، وفيها يبدأ الثوار بتنفيذ عمليات الإغارة والكمائن والاغتيالات ضد المراكز والحواجز والأرتال الحكومية في المناطق النائية والمدن الكبرى، ويبدؤون بتخريب البنية التحتية التي تعتمد عليها القوات الحكومية. ثم مع الوقت تجد القوات الحكومية أو الاستعمارية نفسها مجبرة على الانسحاب عن المناطق النائية والريفية، لتقوم بتأمين المراكز والمدن والطرق الرئيسية. ومع انسحابها عن تلك المناطق، ومع ظهور المناطق المحررة، تبدأ المرحلة الرابعة، وهي "مرحلة الصدام المسلح الجهوي"، أو ما يمسيه ماو مرحلة التوازن الاستراتيجي.

الجدير بالذكر أن تسميتنا لهذه المرحلة بمرحلة الصدام الجهوي، لا يعني أن الثوار ينتقلون فيها إلى شن هجومات نظامية كالتي تقوم بها الجيوش. في الحقيقة حتى في هذه المرحلة يحافظ الثوار على استخدام الهجومات النوعية على خواصر العدو ومراكزه الضعيفة بشكل مستمر وموسع، كما أنهم لا يدافعون أيضا في هذه المرحلة بطريقة نظامية، بل إنهم يصدون الحملات التي تشنها القوات النظامية المحتلة أو المحلية عبر تكتيكات الدفاع المتحرك والكمائن ووالدفاع في العمق والقتال التقهقري[٢١٠]. وبعد زمن طويل على هذه الحال، تصل الحكومة إلى

[٢٠٩] يتحقق النضج الثوري عندما تصل الشعوب إلى مرحلة تقتنع فيها بضرورة تغيير السلطة القائمة، لما ترسخ في أذهان الناس من صورة سلبية عنها، بسبب قمعها للحريات، وفسادها الأخلاقي، ونهبها لثروات الشعب. عادة ما تكون الشعوب أول عهدها تحسن الظن بالحكومات المحلية أو الاستعمارية، خاصة إن كانت هذه الحكومات تستخدم دعاية كبيرة لإخفاء حقيقة سياستها الدكتاتورية، أو كانت تقدم للشعب إصلاحات اقتصادية ضخمة. وهذا ما قد يجعل انتقال الشعب من مرحلة الاقتناع بشرعية الحكومة إلى مرحلة الاقتناع بضرورة إسقاطها أمرا صعبا للغاية ومستهلكا للوقت، ويحتاج جهدا دعائيا كبيرا من قبل المؤسسات الثورية، الإعلامية والسياسية.

[٢١٠] الدفاع في العمق: دفاع في العمق Defence in depth، هي استراتيجية عسكرية؛ تسعى لتأخير بدلاً من منع تقدم المهاجم، باكتساب الوقت والتسبب في خسائر إضافية بالاستفادة من المسافة. بدلاً عن هزيمة المهاجم بخط هجومي واحد وقوي، يميل الدفاع في العمق إلى الهجوم لإفقاد العدو قدراته الدفاعية لفترة من الوقت أو الهجوم على مساحة كبيرة (الانسحاب أمام القوة المهاجمة الكبيرة وتجنب المعركة معها، ومن ثم العمل على خطوط مواصلاتها وامدادها عبر العمليات الصغيرة والاستمرار في ذلك حتى إنهاك الجيش المتقدم من الناحية اللوجستية ثم تنفيذ هجمات مضادة لتدميره بعد ذلك عند وجود الظروف المناسبة للمدافع)

الدفاع التقهقري: يعني القتال بالتراجع للخلف أي الانتقال من الخط أ في المقدمة الى الخط ب خلفه، ويتم الانتقال في لحظ محددة استنفذ فيها المدافع طاقته واقترب من الانهيار فينقل قواته الى الخط ب مردفا إياهم بقوات جديدة ليبدأ الدفاع من جديد في خط جديد أمام عدو قد أنهك في الخط أ ودخل أرض جديدة لا يعرفها (يستخدم هذه الأسلوب عندما تكون خطة القيادة الانتصار على العدو باستنزافه).

مرحلة متقدمة من الضعف ولم يكن قد بقيَ معها غير بعض المدن الرئيسية، التي تكون أحيانا قد دخلت مسبقا في حصار من قبل الثوار. هنا يقرر الثوار الدخول في المرحلة الخامسة[٢١١]، وهي "مرحلة الحسم النظامي"، أو ما يسميها ماو "الحسم الاستراتيجي"، وفيها يشكل الثوار جيوشهم وأسلحتهم كما تفعل الجيوش النظامية، ويبدؤون بشن معارك اجتياح شامل ضد المراكز التي بقيت بيد الحكومة، محررين واحدة تلو الأخرى وصولا إلى العاصمة. وفي هذه المرحلة يقول عبد الحارث ناسوتيون[٢١٢]- المفكّر والجنرال الإندونيسي المرموق - إنَّ "النّصر النّهائي يجب أنْ يتحقق على يد جيشٍ نظاميٍ في حرب تقليدية، لأنَّ مثل هذا الجيش فقط هو الذي يستطيع إخضاع العدو وشنّ الهجوم عليه".[٢١٣]



نموذج عن المراحل الزمنية التي تمر بها الثورة المسلحة

وعودة إلى الثورة الخطابية، فإن أحداثها لم تكن منفصلة عن التوترات التي حصلت بعد فرض الحماية الفرنسية والإسبانية، وهي في الحقيقة نتاج طبيعي لقمع الانتفاضة التي حصلت إبان الثورة الأولى (١٨٩٤-١٨٩٣) والثورة الثانية (١٩١٤-١٩٠٩). أي أن مرحلة النضوج الثوري في الريف بدأت تتحقق منذ بداية زحف القوات الإسبانية من مليلية وسبتة، وبعد فشل المحاولات السلمية التي صدرت من شيوخ القبائل للإسبان وطالبتهم بالتخلي عن فكرة الاحتلال العسكري (مرحلة الحراك السلمي)، كانت قبائل القلعية وكرت شرقا وقبائل أنجرة وجبالة غربا أول من بدأت الصدام العسكري ضد القوات الإسبانية.[٢١٤]

---

[٢١١] من المهم أن نذكر القارئ أن تطبيق هذه المراحل في الثورات المسلحة لا يعد أمرا حتميا، فقد تتوفر بعض العوامل والظروف، التي تعجل بسقوط الحكومة قبل حتى المرحلة النظامية، كما حدث مع كاسترو في كوبا. وقد تتوفر أيضا بعض الظروف الأخرى التي تجعل الثوار يتوقفون في المرحلة الثانية أو الثالثة، ويقبلون بحل وسط كما حدث في إيرلندا وقبرص.

[٢١٢] عبد الحارث ناسوتيون هو قائدٌ عسكري إندونيسي، ولد عام ١٩١٩م، ودرس في الأكاديمية العسكرية الملكية الهولندية وأصبح ضابطاً في جيش الهند الشرقية الهولندية عام ١٩٤١م، واشترك في الثورة المسلحة ضد قوات الاستعمار الهولندية. تولّى رئاسة أركان الجيش الإندونيسي بعد نيل إندونيسيا الاستقلال عام ١٩٤٩م. توفي عام ٢٠٠٠م.

[213] Abdul Haris Nasution, Fundamentals of Guerrilla Warfare (New York: Praeger, 1965), p. 17.

[٢١٤] الظاهر أن الثورة الريفية لم تمر بالمرحلة الثالثة (مرحلة الصدام العسكري السري)، وذلك لأنها لم تكن في الحقيقة انتفاضة ضد سلطة قائمة بقدر ما كانت عملية نضال ضد قوات أجنبية غازية، تريد احتلال أرض الريف التي كانت تحت سلطة أصحابها

ومع احتدام هذا الصدام سنة ١٩٠٩، دخل الثوار بشكل جليّ وواضح إلى المرحلة الرابعة من الثورة المسلحة (الصدام المسلح الجهوي). فكان أحمد الريسوني من يمثل الجبهة الغربية حيث تصدى مع قبائل جبالة للقوات الإسبانية المتقدمة من سبتة والعرائش، وكان الشريف محمد أمزيان من يمثل الجبهة الشرقية حيث تصدى رفقة قبائل القلعية للقوات الإسبانية القادمة من مليلية. الجدير بالذكر، أن الجبهة الشرقية بعد موت أمزيان سنة ١٩١٢ عانت من ركود واستطاع الإسبان فعلا الوصول إلى حدود الريف الأوسط. لكن القاضي عبد الكريم (الأب) قام سنة ١٩١٩ بتنظيم صفوف الثوار وتدريبهم وتسليحهم، وبدأ بالتصدي للإسبان حتى موته سنة ١٩٢٠، ثم استلم القيادة بعده ابنه محمد سنة ١٩٢١، وأكمل طريق الثورة المسلحة وهي لازالت في مرحلتها الرابعة (مرحلة الصدام المسلح الجهوي)، غير أنه كان أكثر إبداعا، حيث استطاع مع الوقت توحيد القبائل الشرقية والغربية والجنوبية تحت قيادته، في سابقة لم تحدث من قبل في الريف المغربي.

من ١٩٢١ وحتى ١٩٢٦، ورغم تطبيقها لبعض التكتيكات النظامية، لم تخرج الثورة عن المرحلة الرابعة، ولم تستطع الوصول إلى المرحلة الأخيرة (مرحلة الحسم النظامي)، إذ لم يصل الثوار إلى مرحلة حاصروا فيها معظم أو كل المدن الرئيسية في المغرب، ولم يصلوا إلى المرحلة التي يصبح فيها جيشهم النظامي يعادل أو يقرب من جيوش قوات الاحتلال، كما أن الاحتلال الفرنسي والإسباني رغم ما أصابه من ضعف لم يصل إلى مرحلة الانهيار التي تجبره على الانسحاب الكامل والاعتراف باستقلال الثوار. بل بقيت معظم العواصم المهمة بيد السلطة الاستعمارية وظل الفارق على مستوى القوة بين الثوار وعدوهم شاسعا جدا.

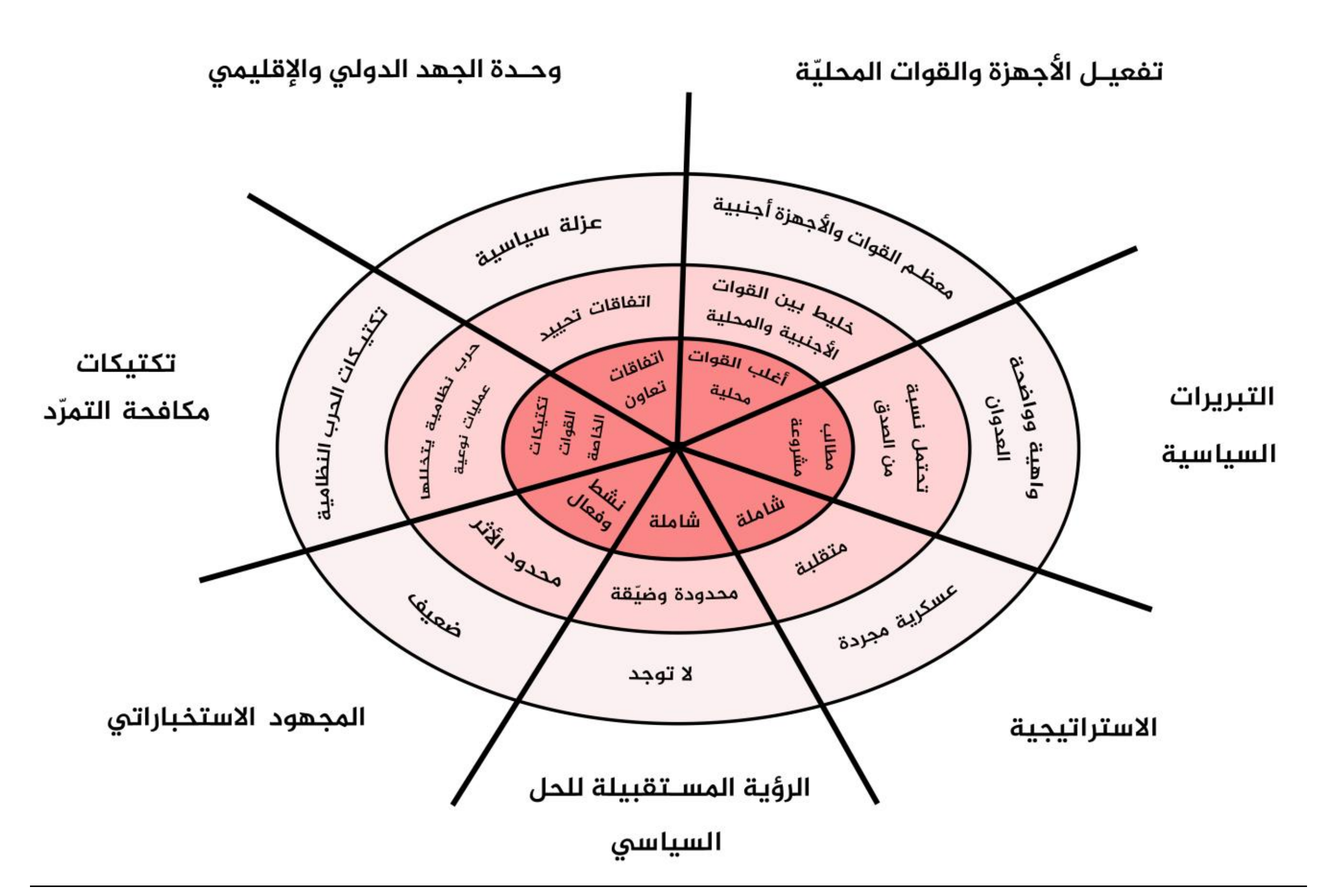
قد تكون الأخطاء الاستراتيجية التي وقع فيها الخطابي هي السبب الفعلي في عدم وصول ثورة الريف الثالثة إلى مرحلة الحسم العسكري النظامي، ولعل بعض هذه الأخطاء كان سببا مباشرا في هزيمة الخطابي. سنتناول هذا بتفصيل في المحاور التحليلية القادمة.

الفعليين. والغالب أن مرحلة الصدام السري تحدث عندما تتمرد المجموعات الشعبية ضد سلطة قائمة مسيطرة سواء كانت محتلة أو محلية، وليس عندما يدافع الشعب على أرضه ضد قوات أجنبية تهم باحتلالها. ففي الحالات الأخيرة تدخل الثورة المسلحة إلى المرحلة الرابعة مباشرة (مرحلة الصدام المسلح الجهوي).

الفصل الثالث عشر: مدى التزام سلطات الاحتلال بمبادئ مكافحة التمرّد.

"إذا حكمنا بحسب التجارب الحديثة، فإن نصراً عسكرياً على حرب عصابات حقيقية يبقى مشكوكاً فيه، إلا إذا لجأنا إلى طرقٍ متقاربة من الإبادة الجماعية، كما فعل الألمان في بعض المناطق خلال الحرب العالمية الثانية." [٢١٥] **روبرت تابر**

بالنظر إلى المراجع التي تحدث عن فنون حروب التمرد، وعلى رأسها الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، نجد أن القوات الحكومية أو الاستعمارية يتوقف نجاحها في قمع الثورات على عدة عوامل رئيسية. وقد جمعنا أهم هذه العوامل في النموذج التالي ليكون مرجعا منطقيا لتقييم سياسية الاحتلال الإسباني والفرنسي، ومدى التزامهم بالمبادئ والتوجهات العلمية لمكافحة التمرد.



نموذج أعدّه مركز الخطابي لتقييم مدى نجاح القوات الحكومية أو الاستعمارية في مكافحة التمرد، بحيث كلما كان تقييم هذه القوات قريبا من المركز كانت أقوى وأقرب لهزيمة التمرّد[٢١٦]

---

[٢١٥] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢١٦] لا يوجد إلى الآن في المراجع العلمية نموذج دقيقٌ يمكّننا من تقييم عمل السلطات التي تمارس حرب مكافحة التمرد، لذلك فقد اضطر مركزنا إلى صناعة هذا النموذج الذي نعتبر أنه قريب جدا من الحقيقة. لا ندعي أن هذه الطريقة التقييمية مصيبة للواقع بشكل كامل، إلا أنها مفيدة جدا لمعرفة نقاط الضعف والقوة الي تعاني منها عملية مكافحة التمرد، وهي بنظرنا قريبة جدا من الواقعية.

أولا: التبريرات السياسية التي تعلنها السلطات المحلية أو الاستعمارية كتفسير للعمليات التي تقوم بتنفيذها.

ينبغي أن يكون لدى السلطات الحكومية تبريرات سياسية مقنعة أو مقبولة على الأقل بين السكان المحليين، بحيث تفضي هذه التبريرات والتفسيرات الشرعيةَ على الممارسات التي تقوم بها السلطات المحلية أو الأجنبية. فكلما كانت التفسيرات السياسية قريبة من مصالح الشعب وحاجياته الأساسية وأمنه الوطني كلما كان التمرد أقل عنفا، وكلما وجد المتمردون صعوبة في الحشد والتجنيد والدعاية. والعكس بالعكس، فكلما كانت التبريرات التي تتبناها السلطات المحلية أو الاستعمارية واهية أو غير مبررة أو واضحة العدوانية، كلما ازدادت قدرة المتمردين على إسقاط مشروعية الحكومة وحلفائها، وحشد السكان إلى صفوفهم.

على سبيل المثال كان تواجد القوات الأمريكية أول أمره في أفغانستان سنة ٢٠٠٢ مبررا نوعا ما، لأنه وقع مباشرة بعد ضربات ١١ سبتمبر/أيلول التي تسببت في مقتل ٣ آلاف مدني أمريكي، وكان مطلب محاسبة الجناة الذي أعلنته القيادة الأمريكية مطلبا مشروعا بنظر الكثيرين حتى بين صفوف الأفغان. وهو ما يفسر عدم حصول مقاومة شرسة في السنوات الأولى من الاحتلال. أما الوضع في العراق فقد كان مختلفا، إذا كان الوجود الأمريكي هناك يفتقر إلى الحجج السياسية المقنعة، ولم يكن بيد القيادة الأمريكية ما يثبت وجود علاقة بين صدام حسين والقاعدة، أو ما يثبت تصنيع صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل، ولم تكن التفسيرات التي قدمها السياسيون الأمريكيين حول إسقاط الدكتاتورية وإقامة الديمقراطية تفسيرات مقنعة أبدا للعراقيين والمسلمين بشكل عام. وهذا ما سرع في وتيرة اندلاع التمرد.

بالرجوع إلى حرب الريف الثالثة، فقد كانت تبريرات دول الاحتلال في العالم الإسلامي خلال بداية القرن العشرين تقريبا متطابقة، حيث كانت الجهات الأجنبية تخفي نواياها الحقيقية[٢١٧] عن شعوب العالم الثالث تحت دعوى الحماية والاستعمار. لذا فقد دخلت إسبانيا وفرنسا المغرب، بحجة حماية البلاد من الأطماع الأجنبية الأخرى، ونقل الثورة الصناعية الأوروبية إلى المغاربة، وتحسين طرق العيش، وتطوير التعليم، وتحديث البنية التحتية...الخ. والحقيقة أن هذه التبريرات رغم أنها تستند إلى حجج ضعيفة، لأن نقل النهضة العلمية لا يحتاج هيمنة عسكرية، كما أن وسائل التمدن شأنٌ داخل للشعوب لا يحق للأطراف الأجنبية أن تجبرها عليه. بالرغم من هذا، فإن هذه التبريرات في ذلك الوقت كانت مقبولة إلى حد ما لدى كثير من السكان المحليين قبل بداية الزحف العسكري، أي قبل ١٩١٢، وقد مر معنا أن عبد الكريم الخطابي (الأب) وولديه قبل ١٩١٥ كانوا يؤمنون بالتعايش السلمي مع الإسبان، وكانوا يرون في الاستعمار الإسباني فرصة لتطوير الريف. لكن بعد إصرار الاستعمار على إخضاع السكان للسلطة العسكرية القمعية، وبعد تعاظم الأزمات الاقتصادية، وانتشار الفقر

---

[٢١٧] لا تخرج الدوافع الحقيقية وراء الاستعمار عن نهب الثروات النباتية والمعدنية والطاقية والحيوانية، والسيطرة على الطرق والمعابر الاقتصادية، وتوفير أسواق استهلاكية لتصريف المنتجات الصناعية.

والمجاعات، لم تعد التبريرات الاستعمارية مقبولة أبدا لدى السكان المحليين، إلا من كانت مصالحهم الشخصية متعلقة بالاستعمار.

والخلاصة أننا نعتقد أن التبريرات التي أعلنها الإسبان والفرنسيون لم تكن بنظر المغاربة مطالب مشروعة، إلا أنها كانت تحتمل عند الكثير منهم نسبة من الصدق، وهو ما جعل التمردات بين ١٩٠٠ و١٩١٢ ضعيفة نوعا ما. لكن بعد سنة ١٩١٢ وما تلاها، أصبحت التبريرات الاستعمارية غير مقبولة أبدا وواهية وواضحة العدوان لدى السكان المحليين، مما جعل التمرّد يشتد أكثر فأكثر بعد ١٩٢٠.

ثانيا: شمول استراتيجية مكافحة التمرد للجوانب الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية.

يعرف دليل وكالة الاستخبارات الأمريكية لتحليل التمرد مكافحةَ التمرد على أنها: "مجموعة من الإجراءات المتخذة بواسطة الحكومة لهزيمة التمرد. وتتكامل وتتزامن مكافحة التمرد الفعالة مع مجموعة من الأنشطة السياسية والأمنية والقانونية والاقتصادية والتنموية والنفسية، والتي تهدف لإيجاد مقاربة شاملة تسعى لإضعاف المتمردين، بالتزامن مع العمل على تعزيز شرعية الحكومة في أعين السكان."[٢١٨]

والحقيقة أن نجاح السلطات المحلية أو الأجنبية في مكافحة التمرد يعتمد بشكل كبير على وجود الاستراتيجية الشاملة لكافة الأبعاد الاجتماعية والأمنية والعسكرية والتاريخية والاقتصادية والنفسية التي تتعلق بالسكان وبمسرح العمليات. وينبغي أن تتوفر لدى السلطات قبل شن حرب مكافحة التمرد قاعدةٌ معلوماتية شاملة عن الطبيعية الديمغرافية والثقافية للسكان (التوزع السكاني، التاريخ، البنية الاجتماعية القبلية أو الحضرية، الدين، المذاهب الفكرية السياسية...الخ). كما أن الدراية الواسعة بالطبيعة الجغرافية والجيوسياسية للأرض، يعد شرطا أساسيا لبناء استراتيجية مكافحة التمرد (المرتفعات، الأنهار، الآبار، والأودية، الغابات، المضائق الجبلية، الطرق، الشواطئ البحرية...الخ). "وتتمثل أفضل ممارسة لمكافحة التمرد في اندماج وتكامل المكونات السياسية والأمنية والاقتصادية والإعلامية التي تعزز الشرعية والفعالية الحكومية وتحد في نفس الوقت من نفوذ المتمردين على السكان. ولذلك ينبغي أن تصمم استراتيجيات مكافحة التمرد لحماية السكان من العنف الذي يمارسه المتمردون مع تعزيز شرعية وقدرة المؤسسات الحكومية على الحكم الرشيد، وتهميش المتمردين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا." [٢١٩]

"غالبا ما تكون القدرات المطلوبة لمكافحة التمرد مشابهة جدا لتلك المطلوبة لعمليات حفظ السلام، من حيث توفير المساعدة الإنسانية، وتثبيت الاستقرار، وإرسال بعثات المساعدة الإنمائية. ومع ذلك فإن القصد من حملة

---

[٢١٨] دليل وكالة الاستخبارات الأمريكية لتحليل التمرد، تعريب مركز حازم للدراسات الاستراتيجية، مراجعة وتقديم أحمد مولانا.

[٢١٩] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات..

مكافحة التمرد يتمثل في بناء الدعم الشعبي للحكومة بالتوازي مع تهميش المتمردين، فهي في جوهرها منافسة سياسية مدعومة بقوة السلاح ضد المتمردين."[٢٢٠] ومتى أهملت السلطات المحلية أو الاستعمارية هذه الجوانب، واقتصرت فقط على المجهود العسكري أو الأمني التنفيذي، دون مراعاة الوظائف الاقتصادية والإنمائية، فإنها ستزيد من حدة التمرد، وستدفع السكان نحو الثورة أكثر فأكثر.

تشمل الوظيفة الاقتصادية والإنمائية في مكافحة التمرد: "الإغاثة الإنسانية الفورية وتوفير الخدمات الأساسية مثل المياه الآمنة والصرف الصحي والرعاية الصحية الأساسية والمساعدة في سبل كسب العيش والتعليم الابتدائي فضلا عن البرامج طويلة الأجل لتطوير الهياكل الأساسية لدعم الزراعة والصناعة، والأنشطة التعليمية والطبية والتجارية. وتشمل أيضا الجهود الرامية إلى بناء القدرة الاستيعابية للاقتصادات المحلية، وتوليد إيرادات حكومية ومجتمعية من النشاط الاقتصادي (وقد يكون الكثير منها سابقا غير مشروع أو غير رسمي). قد تكون المساعدة في إدارة الموارد والهياكل الأساسية الفعالة بما في ذلك تشييد البنية التحتية الرئيسية ذات أهمية حاسمة لجهود مكافحة التمرد."[٢٢١]

لو نظرنا إلى الاحتلال السوفياتي على سبيل المثال، فقد كان يغلب على استراتيجيته التوسعية الطابع العسكري. وعند سطوع نجم الشيوعية أواسط القرن العشرين كان قادة روسيا يحرصون بحماس على نشر أفكارهم الشيوعية بين الشعوب المجاورة. وبالنظر إلى الشعب الأفغاني البدائي والملتزم دينيا، فإن اعتناق الشيوعية بالنسبة له كان أمرا بعيد جدا، ويحتاج إلى توطيدٍ وتدّرج وزمن طويل وخطة شاملة، وعدم مراعاة السوفيات لأعراف وتاريخ وحضارة الأفغان جعلهم يدفعون الثمن غاليا. في المقابل نجد أن الاحتلال الفرنسي في الجزائر دام أكثر من ١٣٠ سنة. ويعود الفضل في هذا إلى الخطة المتكاملة التي طبقها الفرنسيون في الجزائر، والتي انطلقت من دراسة شاملة للجزائريين وانتهجت مسارا متكاملا تندرج ضمنه مجلات التعليم والأمن والصحة والدعاية والقانون والسياسية، والخدمات...الخ.

وعودة إلى حرب الريف الثالثة، نجد أن الإسبان الذين تعهدوا باحتلال شمال المغرب كانوا أول أمرهم يطبقون خطة شاملة على خطوات ثابتة ولو كانت بطيئة. وكما ورد سابقا في سياق الدراسة، فإنهم كانوا ينشؤون علاقات متينة مع وجهاء القبائل، وخاصة بني ورياغل آل الخطابي، ويساهمون في تعليم الريفيين وإنشاء البنى التحتية. والظاهر من المراجع الإسبانية أن القادة الإسبان كانوا على دراية واسعة بأعراف القبائل والسكان المحلين، وعلى إحاطة بطبائعهم الاجتماعية والثقافية. لكن السياق التاريخي يظهر اضطرابا شديدا بدأ يظهر على السياسة الإسبانية منذ ١٩٠٠، إذ أصبح يغلب على السياسة الإسبانية البعد العسكري والأمني العنيف، بعيدا عن

[٢٢٠] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات..

[٢٢١] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.

مراعات ثقافة السكان وطبائعهم وحاجياتهم الحياتية، مما أظهر توترات اجتماعية شديدة، أنتجت في الأخيرة الثورة الخطابية.

بالنظر إلى الأحوال الدولية في ذلك الوقت، فإن إسبانيا كانت قد تجاوزت الحرب العالمية الأولى بركود اقتصادي كبير وتوترات سياسية حادة، كما أنها خسرت قبل ذلك سنة ١٩٠٠ جميع مستعمراتها في أمريكا اللاتينية وكوبا والفلبين، فتعرض المجتمع الإسباني لصدمة عظيمة، جعلته يبحث عن آخر خشبة يتمسك بها ليحافظ على إرثه التاريخي الاستعماري وعلى هيبته بين بين القوى العظمى. في ظل هذه الظروف، ومع التوسع الفرنسي والبريطاني الذي كاد يحيط بإسبانيا من كل الجهات، أصبحت السياسة الإسبانية متسرعةً بعيدة عن الواقعية في كثير من الأحيان، وكات القرارات تتخذ غالبا خوفا من خسارة آخر ما تبقى من المستعمرات (الريف) لصالح بقية القوى الأوروبية. هذا ما جعل الاستراتيجية الإسبانية تفتقد للوضوح والشمولية، وتتسم بالاضطراب والتخبط، قريبةً أكثر إلى الطابعة العسكري القمعي المبني على ردود الأفعال.

وبالمجمل نستطيع القول بأن الهدف السياسي للمغامرة الاستعمارية شمال المغرب منذ ١٩٠٠ كان غير واضحا لدى القيادة السياسية الإسبانية، وأن المشروع الاستعماري فيها كان دون قيمة اقتصادية تُذكر، سوى بعض مناجم المعادن شرق الريف، والتي لم يعتني بها الإسبان كما يجب. ولم يحدث أي استثمار اقتصادي حقيقي، فضلا عن عملية إعمار حقيقية لتوفير الخدمات والتعليم والصحة في سبيل إرضاء سكان الريف وكسب قلوبهم. فقد كان الاتصال مع المحليين بعد سنة ١٩٠٠ يقتصر على رشوة قادات القبائل. ونظرا للعجز السياسي الداخلي الذي كانت تعانيه إسبانيا، فقد كان العمل السياسي في الريف (من محاولات استرضاء القبائل هنا وهناك) جهدا ملقى على عاتق العسكريين واجتهادهم، لا جهدا منظما مدروسا ذا بعد سياسي. وهذا ما يجعلنا نقيم الاستراتيجية الإسبانية أنها **ذات طابع عسكري بحت بشكل عام، ومتقلبة في بعض الأحيان.**

ومن آثار فقدان الاستراتيجية لدى الإسبان: التردد في اتخاذ القرارات والتراجع عن بعضها أحيانا بعد اتخاذها، وقد مر معنا أن بريمو دي ريفيرا قرر الانسحاب الكامل من المغرب سنة ١٩٢٣، لكنه تراجع عنه بعد ذلك تحت وطأة الضغط الداخلي من قبل القادة العسكريين المتحمسين. ومن الآثار السلبية التي عادت سلبا على الإسبان من وراء فقدان الاستراتيجية، أنهم كانوا يوافقون على الهدن التي يطرحها الخطابي، فقط لذات الهدنة، دون وجود رؤية سياسة وعسكرية لاستثمار هذا الوقت في تحقيق أهداف بعيدة الأمد. بعكس الخطابي، الذي كان يستغل هذه الهدن استغلالا محكما لترتيب العمليات الهجومية وحصار المراكز الإسبانية، كما حدث في معركة إغريبن سنة ١٩٢١، أو لنقل القوات نحو جهة حربية أخرى، كما فعل عندما بدأ المفاوضات مع الإسبان في الوقت الذي باشر عملياته الحربية ضد الفرنسيين في الجنوب سنة ١٩٢٥. وبالجمل فإن الضبابية الاستراتيجية لدى الإسبان، مكنت الخطابي من اكتساب المبادرة في أغلب الأحيان، ولولا تدخل الفرنسين، لبقيت سياستهم أسيرة ردود الأفعال.

ثالثا: الاعتماد على الأجهزة الحكومية والقوات المحلية.

اتفقت جميع المراجع التي تحدثت عن فنون مكافحة التمرد أن تقوية السلطات المحلية وتأهيلها وتدريبها وتنظيمها والعمل من خلالها ومعالجة الفساد فيها؛[٢٢٢] عاملٌ حاسم ومؤثر جدا في تحقيق النصر ضد المتمردين. وذلك لعدة أسباب، أهمها:

- وجود القوات الأجنبية بشكل ملحوظ وكثيف يستفزّ السكان المحليين ويعطى للثوار قوة لحشد الشعب نحو الثوران ضد النفوذ الأجنبي، فكلما كان الوجود الأجنبي قليلا وخفيا كلما ضعفت العوامل التي تساهم في تنشيط التمرد. وكلما كانت عمليات مكافحة التمرد تحصل تحت إطار قانوني في مؤسسات الدولية المحلية كلما كانت مشروعةً أكثر بنظر السكان. والحالة المثالية في مكافحة التمرد أن يقتصر الوجود الأجنبي على بعض المستشارين الذين يقدمون التوجيهات والتقنيات، بينما تقوم القوات المحلية في الشرطة والجيش والأمن بكل الأعمال.
- عادة ما تكون العناصر المحلية في الشُّرط والجيش والأمن أقدر على الحركة وتنفيذ العمليات من العناصر الأجنبية، وأقرب إلى اتخذا القرار التكتيكي الصحيح أيضا، وذلك بحكم انتمائها إلى البيئة المحلية الذي يورّثها فهما وعلما أعمق بالثقافات السكانية والطبيعة الجغرافية للمنطقة. وتوكيل هذه القوات بتنفيذ عمليات مكافحة التمرد سيكون له دور إيجابي في تقليل الأخطاء والمظالم، وإضعاف عملية الحشد لدى الثوار.[٢٢٣]
- عدى أن تكثيف العناصر المحلية في أجهزة مكافحة التمرد يخفّف من الخسائر في صفوف القوات الأجنبية، فإنه أيضا يجعل شريحة كبيرة من الشعب لا تريد المشاركة في التمرد، وذلك لأنهم لن يقبلوا باستهداف أبنائهم وأقربائهم. بل حتى إن لم يكن لهم قرابة مع العناصر المحلية، فإن الخوف من الثأر العشائري والانتقامات يلعب دوره في تثبيط الشعب عن الالتحاق بالثوار.

---

[٢٢٢] تشير مجموعةٌ كبيرةٌ من الأدلّة الكمية، إلى أنّ النظام الحاكم الضّعيف وغير الفعال هو أمرٌ حاسمٌ في نجاح انطلاق الثورة. فعلى سبيل المثال، قامت إحدى الدّراسات الأجنبية بتحليل ١٦١ حالة تمرد على مدى أربعٍ وخمسين سنة، ووجدت أنّ الحكومات المركزية الضّعيفة مالياً وتنظيمياً وسياسياً تجعل من حركات الثورة أكثر تفوقاً وجاذبيةً، ويرجع السبب في ذلك لضعف الشّرطة المحليّة أو رعونة الممارسات التي تمارسها الحكومة لمكافحة التّمرد. والعكس صحيحٌ أيضاً. فكلما كان نظام الحكم قويا سيقلّل ذلك من احتمال وقوع الثّورة.

[٢٢٣] نحن نتحدث عن القوات المحلية هنا وهي في حالتها المثالية، أما إن كانت فوضوية وغير منضبطة وينتشر بينها الفساد الاخلاقي والمالي، فإن استعمالها دون تأهيل وهي على هذه الحالة سيعود على مكافحة التمرد بنتائج سلبية.

جاء في الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد: "لا يمكن للفاعل الخارجي مهما كانت درايته وحماسته أن يعوض بشكل كامل ضعف الإرادة أو عدم الكفاءة أو السلوك غير المثمر من قبل الحكومة التي يدعمها، وبالتالي لا يمكن توصيف أي حملة لمكافحة التمرد بأنها جيدة إلا **وفقا لمدى نجاعة الاستراتيجية السياسية التي تعتمدها الدولة المتضررة**. إن تصور (الحكومة الاستعمارية) لدور كل فاعل في مكافحة التمرد (بما في ذلك دورها الخاص) قد لا يتطابق مع تصور الجهات الفاعلة الأخرى أو السكان. بالإضافة إلى ذلك قد يعتبر المتمردون أن التدخل (الاستعماري) يأتي في سياق اعتداء أجنبي على بلدهم، وهو التوصيف الذي قد يتردد صداه لدى السكان المتضررين. وهؤلاء السكان ربما يدعمون أو يقدرون الأمن الذي توفره القوات الأجنبية وقد لا يدعمونه، ولكنهم بكل تأكيد سوف يرونه بمثابة تدخل خارجي ومؤقت؛ لذا فإن ولاءهم على المدى الطويل سيتأرجح مع الفاعل المحلي (الحكومة أو المتمردين) وفقا للجهة التي تلبي احتياجاتهم، وتتسق مع هويتهم السياسية، وتوفر الأمن على أفضل وجه.

ولذلك فإن مكافحة التمرد الفعالة تتطلب أن تقود الحكومة الوطنية الأنشطة الرئيسية لها (في نظر السكان المحليين). ففي ظل الظروف المثالية لا تعمل القوات الأجنبية بشكل مستقل عن الحكومة المتضررة، إنما تضطلع بأنشطة سياسية أو اقتصادية أو غيرها من أنشطة المساعدة الإنمائية بناء على طلب الحكومة." [٢٢٤]

ولو عدنا إلى حرب الريف الثالثة، وقمنا بتقييم الأطراف الاستعمارية انطلاقا من المعايير السابقة، فإن الإسبان احتلوا المرتبة الأسوأ في سلم التقييم، لأنهم عند اندلاع الثورة الخطابية كانوا يعتمدون بشكل كامل على القوات الأجنبية. وحتى مع تطوّر سير الحرب، لم يكن اعتمادهم على العنصر المغربي إلا جهدا فرعيا لا غير. وقد مر معنا كيف استخدموا الريسوني في جبالة سنة ١٩٢٤، وحركة عبد الملك بن عبد القادر الجزائري في الجهة الشرقية سنة ١٩٢٣. كما أنهم لم يكن لهم أي توجه لتقوية مؤسسات الحكومة المغربية في الريف أو العمل من خلالها، إلا ما ذكرته المراجع عن الشرطة العسكرية المغربية التي أسسها الإسبان ثم أتبوعوها إلى سلطان المغرب بشكل صوري بعد أن وضعوا على رأسها ضابطا إسبانيا.

أما الفرنسيون فقد كانوا أفضل حالا، لأن ليوطي وضع السلطان في كنفه منذ البداية، وكان يوجه دعاية مضادة للثوار باسم السلطان، خاصة بعد أن أقنع حاكم المغرب أن الخطابي متمرد يريد السلطة ويسعى إلى الانفصال عن الدولة العلوية المغربية. كما أن القوات المغربية التي كانت تقاتل مع الفرنسيين كانت ضخمة نوعا ما مقارنة بالقوات المغربية الرديفة للإسبان، وقد بلغ عددها خلال الحملات أكثر من ٥٠ ألف مقاتل، من بينها الحركات والميلشيات الشعبية، مثل حركة الدرقاوي وعصابة عمرو ولد حميدو المرنيسي اللذان سبق ذكرهما في الدراسة. وكان الفرنسيون أيضا يمارسون نوعا من الأعمال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تزامنا مع مجهودهم

---

[٢٢٤] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.

العسكري، وعملوا على تقوية الأجهزة المغربية على مستوى الصحة والتعليم والأمن والشرط لمكافحة المتمردين من خلالها. هذا لا يجعل فرنسا طبعا في المرتبة الأولى في التقييم، لكن قطعا يأتي اعتمادها على الأجهزة والقوات المحلية في مرتبة أفضل بكثير من الإسبان.

رابعا: وحدة الجهد الدولي والإقليمي.

جاء في الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد: "عادة ما تتطلب مكافحة التمرد بذل جهود مشتركة من قبل الأطراف المعنية. ومن المستحسن جدا توحيد الجهود على الصعيد الوطني (بين مختلف الوكالات التابعة للحكومة المتضررة) وعلى الصعيد الدولي (بين الدولة المتضررة وجميع الدول الداعمة). لا يمكن تحقيق ذلك بسهولة، ولا سيما في سياق عملية تدخل ائتلافية. ومن ثم فإن من الأمور الجوهرية وجود آليات قوية للقيادة والسيطرة، فضلا عن الجهود الدبلوماسية الرامية إلى الحفاظ على تماسك الائتلاف ودعمه. ويجب النظر في ذلك بالتفصيل في بداية الحملة، وتوفير الموارد والاهتمام الكافي خلالها. وفي سيناريوهات الائتلاف الأكثر تعقيدا، قد يكون تعيين مستشار استراتيجي عام واحد للحكومة المستهدفة هو الوسيلة الوحيدة لضمان توحيد الجهود (يتم ذلك بشكل مثالي من خلال تفويضه وتخويله المسؤولية عن تنسيق جميع المساعدات المدنية والعسكرية الدولية) ...

من الجدير بالذكر أن الاتفاق على تشكيل بعثة متعددة الجنسيات لمكافحة التمرد يوفر أربع مزايا رئيسة:

- **الشرعية:** لأنه عندما تتسق الإجراءات المتخذة لدعم حملة مكافحة التمرد مع القانون الدولي المعمول به، وتحظى بدعم من الكيانات الدولية التي تدين المتمردين في آن واحد، فإن هذا سيساعد على توفير التأييد في كل من الدولة المتضررة والمجتمع الدولي الأوسع نطاقا للتدخل ومواجهة التمرد.

- **القدرة:** سوف يتمكن التحالف متعدد الجنسيات من استدعاء عدد أكبر من القوات وموارد مالية أكثر مما تستطيع (الدولة الواحدة) حشده بمفردها.

- **الكفاءات المتخصصة:** لدى العديد من الحلفاء مزايا نسبية في استعمال الإمكانات المتعلقة بمكافحة التمرد، من قبيل كفاءة نشر القوات، وتطوير قوات الشرطة الوطنية، أو تعزيز النمو الاقتصادي، أو تطوير القدرة الإدارية للمسؤولين المحليين في المناطق عالية المخاطر أو البيئات النائية.

- **التأثيرات الإقليمية:** يمكن للشركاء الإقليميين أن يساعدوا في منع إنشاء ملاذات خارجية، ومنع أو إبطاء انتشار النزاع إلى مناطق أخرى، وتوفير الخبرة المحلية، والاسناد وربما حتى المساعدة الأمنية." [٢٢٥]

---

[٢٢٥] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.

أسوء مراتب التصنيف في هذا العامل أن تعمل الدولة الاستعمارية أو السلطة المحلية في **انعزال** عن الدول الإقليمية والمجتمع الدولي ككل دون أي اتفاقات سياسية أقلها لتحييد هذه الدول الأخرى عن التدخل سلبا ضد عمليات مكافحة التمرد. قد يكون هذا سببا في استعداء الدول المجاورة خاصة القوى العظمى والمنظمات الدولية التي تعتبر نفسها مسؤولة عن قرارات الحرب والسلم وعن حماية حقوق الإنسان في العالم، وهو ما سيوفر فرصة للثوار من أجل الحصول على الدعم الدولي السياسي والمادي. أما المرتبة الوسطى في التقييم **هي انشاء التحالفات الدولية بهدف التحييد والتفاهم فقط**، ومن باب تقاسم النفوذ بالتراضي. والمرتبة الأعلى التي تجعل عمليات مكافحة التمرد ناجحة وفعالة هي **أن يكون للدولة الاستعمارية أو المحلية تحالفات دولية وإقليمية للتعاون في عمليات مكافحة التمرد والقضاء على الثوار.**

رجوعا إلى حرب الريف الثالثة فإننا نعتقد أن إسبانيا خلال مكافحاتها للثورة الخطابية **لم تكن أبدا في عزلة سياسية عن المجتمع الدولي**، فقد مهدت لاجتياح الريف سياسيا بالتفاهمات التي أبرمتها مع فرنسا وبريطانيا وألمانيا منذ سنة ١٩٠٦، والتي نتج عنها تقسيم المغرب إلى منطقة دولية (طنجة)، ومنطقة خاضعة للحماية الإسبانية (شمال المغرب)، ومنطقة خاضعة للحماية الفرنسية (بقية المغرب). **لكن إسبانيا لم تفكر أبدا في إنشاء حلف دولي متعاون على مكافحة التمرد** حتى بعد اندلاع الثورة الخطابية التي أوقعت بالقوات الإسبانية خسائر فادحة غير مسبوقة في تاريخها الاستعماري. لقد استغل الخطابي نقطة الضعف هذه بطريقة مثالية واستطاع أن يتفرد بحرب كل دولة على حدة، فبين ١٩٢١ و١٩٢٤ كان منشغلا بالإسبان، ثم في أبريل/نيسان سنة ١٩٢٥ قام بتهدئة الجبهة الإسبانية واتجه إلى مناطق وادي ورغة ليلحق بالفرنسيين هناك خسائر فادحة، دون أن يتعرض لأي مضايقة من قبل الإسبان الذين كانوا مسرورين جدا بالهدنة وفترة الراحة التي منحهم إياها الخطابي.

لكن في يونيو/حزيران ١٩٢٥، بدأت نقطة الضعف هذه بالاضمحلال، وذلك بفضل النضوج الفرنسي الذي قدر الموقف مباشرة بعد هزيمته في وادي ورغة، واتجه نحو توحيد الجهد مع الإسبان. **وفي يوليو/تموز ١٩٢٥ كان الطرفان قد اتفقا على محاصرة الخطابي اقتصاديا من البر والبحر والجو، والتضيق عليه سياسيا، وعدم الانفراد بصلح معه أبدا.** ثم في سبتمبر/أيلول ١٩٢٥ كان الطرفان قد استكملا خطة الاجتياح المشتركة من محاور عديدة في نفس الوقت. وقد كان توحيد الجهد الأمني والسياسي والعسكري بين الفرنسيين والإسبان هو العامل الأكثر تأثيرا في الحرب، كما كان سببا رئيسيا في تحقيق النصر على حساب الخطابي في ماي ١٩٢٦، والحقيقة أن الفضل في هذا لا يعود للإسبان الذين كانوا يعانون من ضبابية استراتيجية، وإنما للفرنسيين الذين كانوا أصحاب المبادرة نحو توحيد الجهود.

خامسا: الرؤية المستقبلية للحلّ السياسي وتسليم السّلطة وتحقيق المصالحة الوطنية.

ليس من السهل أبدا القضاء على المتمردين في حرب طويلة الأمد، وغالبا ما يحصل في الحروب الثورية أن تنتصر السلطات عسكريا مؤقتا ثم يعود التمرد فينشط من جديد مع الوقت. إن استقرار الأوضاع الأمنية والسياسية والاقتصادية يعتمد على وجود رؤية واضحة للحل النهائي الذي ينبغي أن يكون سياسيا، وشاملا لمعظم أطياف المعارضة. إذا لم تضع السلطات المحلية أو الاستعمارية خيار الحل السياسي والمفاوضات تزامنا مع العمليات العسكرية فإن عمليات التمرد لن تتوقف أبدا. نعم قد تضعف في مرحلة ما، وقد تحقق العمليات العسكرية والأمنية نصرا، لكنه سيعد نصرا تكتيكيا مؤقتا لن يدوم لمدة طويلة.

إن لم تضع هذه السلطات في حسبانها تنفيذ إصلاحات حقيقة في نمط الحكم، فإن دوافع التمرد ستبقى مستعرة. فوجود الإصلاحات الحقيقية في نمط الحكم ونظام الاقتصاد والمعاملات الاجتماعية مع وجود مشروع عفو شامل ومصالحة حقيقية مع المعارضة المتفهمة، يُدخل المتمردين الراديكاليين والأصوليين في عزلة سياسية ويفككهم من الداخل.

وبحسب الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد: "من الأمور الأساسية لاكتساب ثقة السكان ودعمهم: تحسين نوعية الحكم من خلال الإصلاح السياسي وتعزيز سيادة القانون، وتحقيق التنمية الاقتصادية المرجوة. وفي الوقت نفسه ينبغي استخدام مزيج من الدبلوماسية والتفاوض، وأساليب الشرطة، والعمل الاستخباراتي، والقتال العسكري والأنشطة غير القتالية لتدمير أو احتواء أو تهميش أو استقطاب المتمردين. وبالتالي فإن العمل الفعال ينطوي على توازن دقيق بين الأبعاد البناءة (إقامة حكومة فعالة تحظى بشرعية) والأبعاد المدمرة (تدمير حركات التمرد).

خطط مكافحة التمرد ينبغي أن تبحث عن خطوط كسر محتملة حيث يكون توافق المصالح بين القيادة الأيديولوجية وجزء معين من شبكة المتمردين أضعف ما يكون. ويمكن بعد ذلك إنشاء إسفين من خلال استخدام الجزرة (الفوائد السياسية والاقتصادية والإنمائية) والعصا (الاعتقال والإزعاج). يجب أن يكون الأفراد الرئيسيون (المتمردون الذين يربطون القبائل كلها أو التجمعات الأخرى بالقيادة المتمردة) من أولويات المصالحة أو الاحتجاز، ولكن من أجل تحقيق ذلك، فإن الفهم العميق لعلم الاجتماع الإقليمي والدوافع النسبية أمر بالغ الأهمية...

إن الحكومة التي تواجه التمرد ستتطلب درجة من تعديل السلوك السياسي (الإصلاح السياسي الموضوعي ومكافحة الفساد وتحسين الحكم من أجل معالجة المظالم التي أدت إلى اندلاع التمرد بنجاح في المقام الأول. وقد تكون الدول الداعمة قادرة على المساعدة في هذه الإصلاحات." [٢٢٦]

من أهم المحاور التي يجب أن تركز عليها المصالحة السياسية لتثمر عمليات مكافحة التمرد نصرا مستقرا دائما:

- إصلاحات حقيقة في الحكومة على مستوى انتقال السلطة وتشكيل الأحزاب وصياغة الدستور والقضاء والممارسات الأمنية والسجون...الخ مما يخفف المظالم والفساد ويقضى على دوافع التمرد.
- بناء مشروع عفو شامل لتحقيق المصالحة الوطنية، وفتح المجال لكل أطياف المعارضة لتترك السلاح وتشارك في العملية السياسية.
- وضع جدول واضح لانسحاب القوات الأجنبية في الوقت مناسب دون تسريع يفيد المتمردين أو تأخير يؤثر على الدعم الشعبي.
- إشراك القوى الدولية الفعالة في الحل السياسي وعملية إعادة الإعمار وإعادة اللاجئين وتعويض المتضررين ومحاسبة مجرمي الحرب من كلا الطرفين (المعارضة والحكومة المحلية).

بالنسبة إلى الرؤية التي كانت تحملها السلطات الاستعمارية للحل السياسي والمصالحة الوطنية في حرب الريف الثالثة فإننا يمكن ان نستخلصها من بنود المفاوضات التي كانت تحدث بينهم وبين الخطابي بين ١٩٢٢ و١٩٢٦، والتي كان مؤتمر وجدة آخرها. ومن أهم ما يميز هذه الرؤية:

- اضطرابها وتقلّبها: فعند سقوط المناطق الشرقية ووصول الثوار إلى تطوان عرض الاسبان على الخطابي أن يبقى الثوار في الريف يديرون شؤونهم الداخلية بكل حرية بشرط أن يعترف بالحماية الإسبانية وإشرافهم على شمال المغرب. ثم في لحظات قوتهم سنة ١٩٢٦ في مؤتمر وجدة، عرضوا على الخطابي العفو الشامل لكل الثوار بشرط خروجه وشقيقه من الريف وتسليم الأسلحة والاعتراف بالسيادة الإسبانية والسماح للقوات الإسبانية بالدخول إلى المراكز الاستراتيجية.

- رغم قصورها إلا أنه كان يوجد من ضمنها خطاب موجه للجهات الثورية الأخرى، بهدف تفكيكها وتحييدها عن الخطابي، حيث تم توجيه عدة رسائل للثوار السابقين مثل أحمد الريسوني في جبالة، كما تم توجيه رسالة عفو إلى القبائل الريفية خلال مؤتمر وجدة.

- عدم تطرقها لأي اصلاحات سياسية حقيقية تمهد لسلام دائم مع المعارضة، إلا بعض الإصلاحات الاقتصادية المزعومة.

---

[٢٢٦] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.

- فقدانها لأي برنامج يتعلق بسحب القوات الأجنبية في القوت المناسب وتسليم السلطة للجهات المحلية.
- إصرارها على الحسم العسكري والسيطرة على أرض الريف بقوة السلاح وعدم الاعتراف بأي حقوق سياسية للمعارضة إلا تحت كنف السلطان الذي هو طبعا بيدق للاحتلال.

يجعلنا هذا نصنف الرؤية السياسية للسلطات الاستعمارية في المغرب بين سنة ١٩٢١ و١٩٢٦ على أنها **رؤية ضيقة ومحدودة**، اعتمدت بشكل أساسي على العنف، وأهملت العديد من الجوانب الأساسية التي اعتبرناها ضرورية لنجاح مكافحة التمرد، ولهذا السبب فإن بقاء هذه السلطات في المغرب لم يدم طويلا بعد ذلك، إذ سريعا ما عادت عمليات التمرد من جديد حتى بعد النصر العسكري الذي تحقق سنة ١٩٢٦، واستلهمت حركات التمرد الجديدة نشاطها وفكرها الوطني من حركة الخطابي، وهي من أجبرت الاحتلال بعد ذلك على الرحيل سنة ١٩٥٦.

سادسا: المجهود الاستخباراتي.

"المعلومات (التي توفرها الاستخبارات) هي الأساس لجميع الأنشطة الأخرى، وهي التي توفر الروابط التي تسمح للعناصر الوظيفية المنفصلة أن تتعاون كوحدة متكاملة. ويعد جمع المعلومات وصياغتها وتخزينها ونشرها أمرا حاسما في مكافحة التمرد، لمساهمته في تشكيل الوعي والفهم بطبيعة الصراع لدى جميع الأطراف الفاعلة.

يجب أن تستند القرارات في جميع مستويات مكافحة التمرد، على فهم مفصل وواع ببيئة التمرد. وتشمل المعلومات المطلوبة لتوليد هذا الفهم نطاقا أوسع بكثير من المواضيع التي تقع عادة تحت كنف الاستخبارات العسكرية، ففي الحرب التقليدية يحتاج صناع القرار غالبا لمعلومات استخبارية عن العدو، ولكنهم يحتاجون بالمقام الأول في حملة مكافحة التمرد إلى معلومات استخبارية عن السكان. ولذلك يجب أن تتضمن معلومات الاستخبارات الخاصة بمكافحة التمرد الخصائص المميزة للنظم المختلفة في الدولة، بما في ذلك المعارف السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبنية الأساسية والمعلوماتية والبيئية.

على المستوى الاستراتيجي: من المطلوب فهم العوامل السكانية الكامنة خلف التمرد، ومراحل تطوره، والإصلاحات اللازمة لمعالجة أسبابه، ومدى استعداد الحكومة المتضررة وقدرتها على إجراء تلك الإصلاحات وتداعيات التدخل الأجنبي.

على المستوى العملياتي: من المطلوب والضروري فهم نقاط القوة ومواطن الضعف في استراتيجية المتمردين، ونقاط القوة والضعف لدى الحكومة المستهدفة، واحتياجات السكان، وردود الفعل المتواصلة على درجة نجاح الجهود الجارية لمكافحة التمرد.

على المستوى التكتيكي: من المطلوب فهم هوية المتمردين الناشطين وشبكاتهم وخدماتهم اللوجستية وقدراتهم ونواياهم. كما أنه من المفيد جدا أن نفهم آراء واهتمامات المدنيين غير المقاتلين والأمور التي تثير تعاطفهم من أجل التأثير عليهم، واكتساب المزيد من المعلومات الاستخباراتية، وعزل المتمردين.

إن جميع أشكال جمع المعلومات الاستخباراتية لها دور في مكافحة التمرد، ولكن تاريخيا أسهمت المعلومات الاستخباراتية المستقاة من مصادر بشرية (تشمل المدنيين والعملاء والأسرى والمسلحين التائبين) في تحقيق أكبر قدر من النجاح."[٢٢٧]

بالنظر إلى حرب الريف الثالثة فإن السلطات الاستعمارية لم تكن تهمل العمل الاستخباري، غير أنه بسبب ضبابية الاستراتيجية كما مر معنا، وبسبب سيطرة العسكر على القرار السيادي، كان الهدف من كل الجهد الاستخباري تكتيكيا فقط وهو تمكين القوات المحتلة من الدخول إلى الريف والقضاء على الخطابي، ولم يكن الجهد الاستخباري الذي قامت به سلطات الاحتلال استراتيجيا لبناء علاقات دائمة مع السكان المحليين وإقامة سلام طويل الأمد بعد الحرب. كان هذا الجهد متحورا حول كسب الولاءات بين القبائل، وتجنيد العملاء الذين يوجهون الضربات الجوية ويقومون بالعمليات التخريبية، وتحييد الحركات الثورية عن الخطابي. وقد مر معنا كيف كان يعاني الثوار في غمارة سنة ١٩٢٣ من عملاء الإسبان الذين قطعوا عنهم الإمدادات أكثر من مرة وقاموا بالتسلل على مواقعهم كما نسقوا إنزالا بحريا مع القوات الإسبانية في الجبهة. والحقيقة أن هذا المجهود اضطر الخطابي أكثر من مرة أن يدخل في معارك داخلية سنة ١٩٢٣ مع بعض قبائل غمارة بزعامة عميل الإسبان الشريف حسن بن صالح الرزيني، وفي أبريل/نيسان ١٩٢٤ مع أتباع الطريقة الدرقاوية في بني زروال، وفي يناير/كانون الثاني ١٩٢٥ مع الأخماس وأتباع الشريف أحمد الريسوني في تازروت. وحدث أيضا أن اجتمعت الجاهات القبيلة مع القيادة الإسبانية بشكل سري فقام الخطابي بمعاقبتها وتغريمها كما مر معنا.

والحقيقة أن جهد الاحتلال الاستخباري رغم وجوده إلا أنه لم يكن فعالا، **بل كان محدود الأثر غالبا**، خاصة أن الخطابي استطاع القضاء على العملاء والحركات الدخيلة بين ١٩٢١ و١٩٢٦، **وقد كان هذا الجهد ضعيفا جدا أحيانا**، خاصة عندما استهان سلفستري بقدرة الريفيين خلال حملته سنة ١٩٢١، مما تسبب في مقتله ومقتل معظم من معه من القوات. غير أن العمل الاستخباري **شهد نشاطا ملحوظا سنة ١٩٢٥** تزامنا مع ضعف سيطرة الخطابي خلال الحملة المشتركة بين الفرنسيين والإسبان. حيث سُجلت محاولة اغتيال كادت أن تسبب في مقتل قائد الثورة في بني توزين، كما بدأت بعض القبائل الغربية في جبالة وغمارة بالغدر بقوات أحمد أخريرو، وقامت بعض القبائل الوسطى بمصالحة الفرنسيين دون إذن الخطابي.

[٢٢٧] الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.

سابعا: اعتماد التكتيكات الغير نظامية.

غالبا ما يطبق المتمردون تكتيكاتٍ غير نظامية تعتمد على الكمائن والإغارات والمناوشات...الخ. ولأن حركتهم سريعة مقارنة بالقوات النظامية بسبب تسليحهم الخفيف ومعرفتهم الواسعة بالأرض وعددهم القليل، فإن الجيوش النظامية تعجز عن مجاراتهم. تستطيع المجموعات الثورية الصغيرة أن تختفي بين التضاريس الوعرة دون أن تلاحظها القوات المعادية، وتستطيع التحرك والإغارة والمناوشة لمدة طويلة ومتواصلة دون أن تحتاج لأي طرق إمداد، بعكس القوات النظامية التي تتحرك بشكل بطيء وأعداد ضخمة وإسناد جوي ومدفعي، وتتمركز في نقاط معلومة، كما لا يمكن أن تتخلى أبدا عن طرق إمدادها. لذا، يكاد يتفق جميع محللي مكافحة التمرد أن القوات الحكومية أو الاستعمارية لا يمكن أن تحقق النصر في مواجهة قوات العصابات غير النظامية باستخدام القوات والتكتيكات النظامية فقط. **عليها أن تواكب خفة حركة الثواروقدرتهم على المراوغة من خلال تطوير قواتها لتصبح مثيلة للثوار.**

ومن هذا المنطلق بدأت بعض الجيوش تعتمد تشكيل القوات الخاصة، وهي مجموعات صغيرة من الجنود المدربين تدريبا جيدا على فنون الحرب الغير نظامية (الإغارة، الكمائن، التسللات، الاغتيالات...). وتتمثل مهامهم في مؤازرة القوات النظامية وقت الحاجة، وتنفيذ العمليات الخاصة. غير أن القوات الخاصة لا يمكن أن تكون لوحدها حلا كاملا، فقوات الجيش النظامي هي التي تتعرض غالبا إلى الكمائن وهي التي تكون معرضة لهجوم الأعداء بشكل كبير في خطوط الدفاع، والأفضل من أجل تدعيم عمليات مكافحة التمرد، أن يتم أيضا تقسيم القوات النظامية إلى مجموعات صغيرة، قادرة على مواجهة الكمائن بالالتفاف عليها وتطويقها، وقادرة على صد هجومات الثوار عبر تكتيكات الدفاع المتحرك. كما يجب أن تتمتع بقدرة عالية على تطبيق مبدأ حشد وتوزيع القوات لتتجنب التطويق وقت انتشارها وتحقق السيطرة والزخم وقت تمركزها.

"عند مسير المشاة في أفغانستان مثلا، كانت القوات البريطانية تتفرق إلى مجموعات متحركة بشكل مستقل في العمق، بحيث لا يتمكن مراقبو العدو إلا من تحديد موقع قسم واحد فقط في كل مرة. أي أن قوات التحالف عندما كانت تتمكّن من التحرك بسرعة لتطويق الكمين وإغلاق طرق الهروب، كانت قادرةً على إلحاق خسائر كبيرة بالثوار وردع الهجمات المستقبلية. كانت المشاة البريطانية في أوائل القرن الواحد والعشرين تميل إلى المناورة بسرعة على الثوار ونصب الكمائن المضاد لهم، وقد كان لهذا تأثيرٌ رادعٌ وقويٌ على الثورة.

قد يتطلب التصدي لإغارات الثوار كمائن ليلية خارج جدران المراكز. وعلى أقل تقدير، فإنه يتطلب استطلاعاً ليلياً ومعلومات استخبارية موثوقة من السكان المحليين الذين يعيشون قرب المكان. بعد تكبد العديد من الهجمات المباغتة على منازل الفصيلة، تعلم الجنود البريطانيون في أفغانستان تطوير علاقاتهم مع

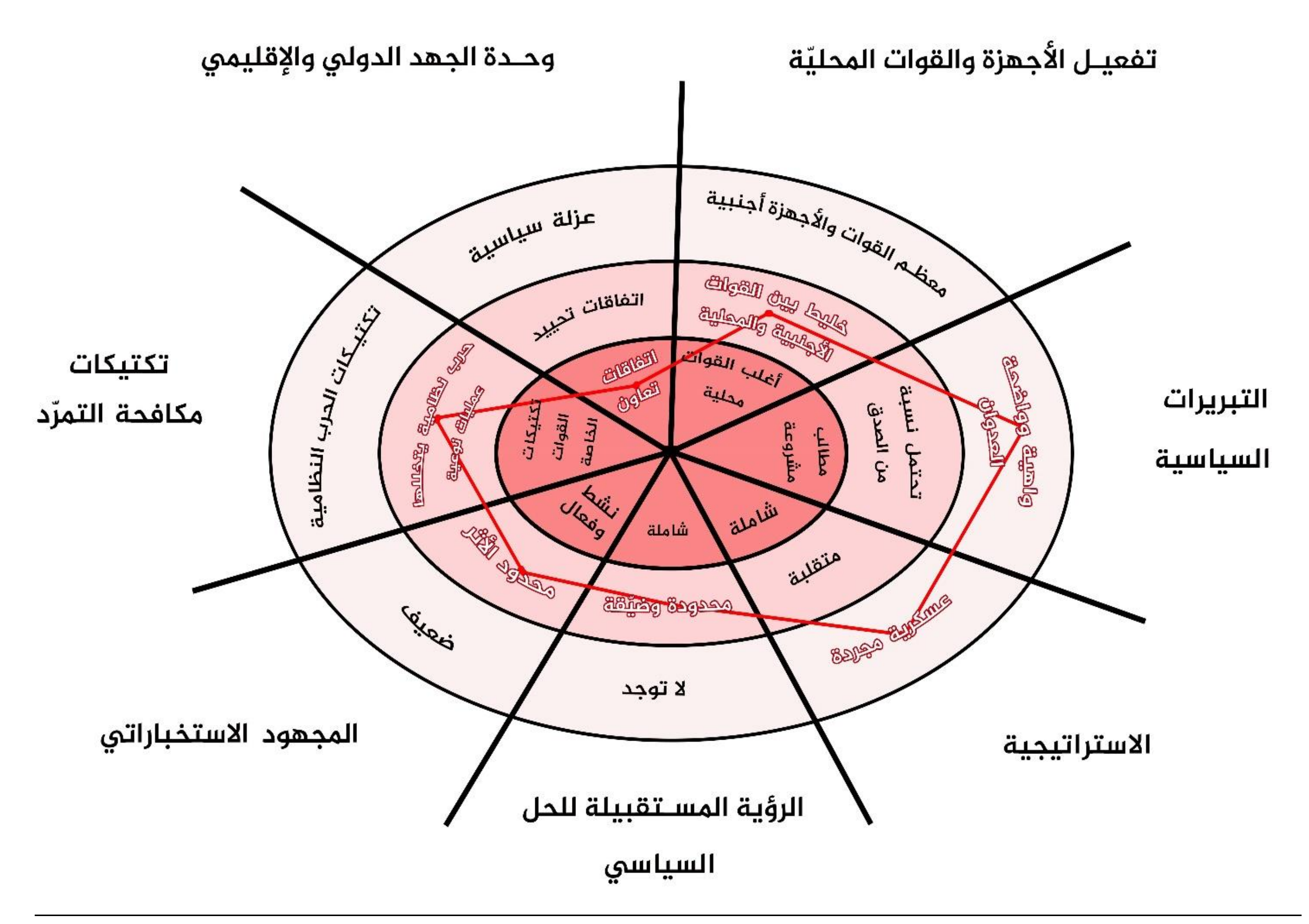
السكان المحليين الذين تعرضت حياتهم أو ممتلكاتهم للتهديد جراء هذه الهجمات، فأعطى الجنود هؤلاء السكان مصابيح يدوية، مع تعليمات لتشغيلها وإغلاقها كإشارة قبل أي هجومٍ وشيك."[٢٢٨]

بالنظر إلى التكتيكات المعتمدة في حرب الريف الثالثة، فإن القوات الإسبانية والفرنسية لم تخرج عن المسار العام للحرب التقليدية، إذ كانت تركز بشكل كبير على تدمير قوات العدو والسيطرة على الأرض باستخدام الأعداد البشرية الكثيرة والوسائط الحربية الجوية والبرية والبحرية ذات الزخم الناري الضخم، تماما كما كانت تقاتل في الحرب العالمية الأولى. غير أن التكتيكات الإسبانية في بعض الحالات الشاذة مالت نحو التكتيك الغير نظامي وخاصة في حملات الاسترداد التي قادها فرانكو في الجهة الشرقية بين ١٩٢١ و١٩٢٣، وقد سجلت المراجع أن فرانكو كان أحيانا يعتمد في الهجوم على التسللات الليلية والمجموعات الصغيرة المدربة والإغارات الخاطفة المفاجئة، كما كان يعتمد أيضا على المليشيات الرديفة التي كانت تقاتل بأساليب حرب العصابات، كحركة عبد الملك بن عبد القادر الجزائري التي مر معنا ذكرها. أما في العكليات الدفاعية، فقد جاء أيضا في المراجع الأجنبية ما يدل على استخدام القوات الإسبانية في القطاع الشرقي سنة ١٩٢٣ لتكتيك الدفاع في العمق، حيث تم تقسيم القطاع الشرقي إلى منطقة حماية متقدمة تمتص صدمة الهجومات الريفية ومنطقة حماية متأخرة تمثل صمام الأمان الأخير. وقد تمركزت الأرتال الإسبانية المخصصة للمنطقة المتقدمة في كل من دار كبداني ودار دريوش وتفرسيت. وكان مقر الفيلق الأجنبي في بن طيب. أما في المنطقة الخلفية، فقد كانت القوات الإسبانية تتركز في تزطوطين والناظور وأزغنغان ومليلية.

وبعض النظر عن الحالات الشاذة التي كانت اجتهاد بعض القادة الإسبان الجريئين والشجعان، فإن المسار العام للتكتيكات التي تم استخدماها في حرب الريف الثالثة **هي تكتيكات نظامية يتخللها بعض العمليات النوعية،** وهذا هو السبب الرئيسي وراء الإبادة التي حظيت بها قوات الاحتلال في الجهة الشرقية سنة ١٩٢١، وفي الجهة الغربية سنة ١٩٢٤، وفي الجهة الجنوبية سنة ١٩٢٥. لقد جعلها الأسلوب النظامي تقوم بتوزيع قواتها في المراكز المتباعدة، وتعتمد على طرق الإمداد المترامية، وتصر على كسب الأرض دون السكان، وتتخذ قرارات الانسحاب والتمركز في أوقات متأخرة، وقرارات التوزع والانتشار بشكل متسرّع، فكان كل هذا نقطة ضعف كبيرة أمام أساليب العصابات التي يعتمدها الثوار في الهجوم.

[٢٢٨] تكتيكات طالبان جنوب أفغانستان بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٨، تأليف كارتر مالكاسيان وجيري ميرل، تعريب مركز الخطابي للدراسات.

خلاصة التقييم:



نموذج تقييم مدى تطبيق السلطات الاستعمارية (الإسبانية والفرنسية) لمبادئ مكافحة التمرد سنة ١٩٢٦

يتضح من التقييم النهائي لمدى التزام السلطات الإسبانية والفرنسية بمبادئ مكافحة التمرد أن الاستعمار لم يكن حقيقة في مرتبة عالية من القوة الاستراتيجية والتكتيكية. ومن بين سبعة عوامل في النموذج، فإن الاحتلال لم يستطع تحصيل المرتبة الأعلى قوّةً إلا في عامل واحد فقط: "وحدة الجهد الدولي والإقليمي"، ولم يحدث هذا إلا في مرحلة متأخرة جدا من الحرب بعد العديد من الخسائر الفادحة، ثم لولا تدخل الفرنسيين ودفعهم نحو هذا التحالف لما حصل أصلا.

لقد عانى الإسبان من ضعف كبير في تبرير عمليات مكافحة التمرّد سياسيا، فكانت تبريراتهم واهية تماما وواضحة العدوانية، وهو ما تسبب في نفور الغالبية من السكان والتحاقهم -أو على الأقل تعاطفهم- مع الثورة الخطابية. كما كان مسارهم الاستراتيجي متقلبا وضبابيا ويغلب عليه الطابع العسكري الصرف، فلا اهتمام بالبنية التحتية ولا تنمية اقتصادية ولا مشاريع إنسانية، فقط الحرب لمجرد الحرب. وهذا ما جعلهم يبقون دائما أمام الخطابي تحت وطأة ردود الأفعال سواء في قرارات الحرب أو السلم. وكان اعتمادهم على الأجهزة المحلية والعناصر المغربية ضعيفا، بل كل من كان تقريبا في الواجهة السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية هم العناصر الأجنبية، وهذا ما زاد الثورة اشتعالا. ومما زادها تسعّرا أيضا، هو محدودية الرؤية السياسية للسلام

المستقبلي في المغرب، إذ لم يكن هناك مشروع مصالحة داخلية شاملة، ولم يتم تحسين نمط الحكم القهري في المغرب، ولم يحدد الاحتلال جدولا واضحا لانسحاب قواته.

أما بالنسبة للمجهود الاستخباري فقد كان محدود الأثر أيضا، لأن القوات الأجنبية لم تكن تحرص على كسب السكان بقدر حرصها على السيطرة على الأرض، وقد كان معظم القادة الاستعماريين ينظرون للريفيين كما كان ينظر لهم سلفستري تماما "رعاعا، متخلفين، لا يستحقون التقدير". ورغم اعتماد الاستعمار على الجهد العسكري بشكل أساسي، إلا أنه كان جهدا تقليديا يعتمد على التكتيكات النظامية التي تعجز عن مواجهة العصابات المحترفة، ولو أن الثوار لم يقعوا في بعض الأخطاء الاستراتيجية لما كان لفرنسا أو إسبانيا أيّ أمل في تحقيق النصر.

الفصل الرابع عشر: مدى التزام الخطابي بفنون الحرب الثورية.

"إن الثوار يستقون قوتهم -كما يقول جيفارا- من حيث أنهم تجاوزوا نهائياً موضوع الارتباط بالأرض، ومن قدرتهم الحركية، واتحادهم مع الشعب المتذمر الذي يتكلمون باسمه، ويشكلون طليعته المسلحة للاحتجاج الاجتماعي المناضل."[٢٢٩] **روبرت تابر**

لم يكن للحرب الثورية في الماضي القريب أي مراجع علمية شاملة، وقد تأثر قادة الثورات في القرن العشرين بالكتّاب العسكريين الذين تحدثوا عن فنون الحرب بشكل عام سواء النظامية أو غير النظامية، كصُن تزو وجوميني وكلاوز فيتز وفولر...الخ. كما استفادوا جدا من دراسة التجارب الثورية على مر التاريخ القديم. غير أن تاريخنا المعاصر أصبح يعج الآن بالمؤلفات الخاصة بحرب العصابات والثورات المسلحة والحروب الثورية، وأصبحت المكاتب الأجنبية والعربية تزخر بالمراجع البحثية حول هذه الظاهرة، بحكم أنها أصبحت الطابع العام للحروب في القرن الواحد والعشرين، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

انطلاقا من مراجعتنا لهذه المراجع الأجنبية والعربية التي أصلت لفنون الحرب الثورية وجدنا أن تقييم أي حركة ثورية يعتمد على أمرين أساسيين:

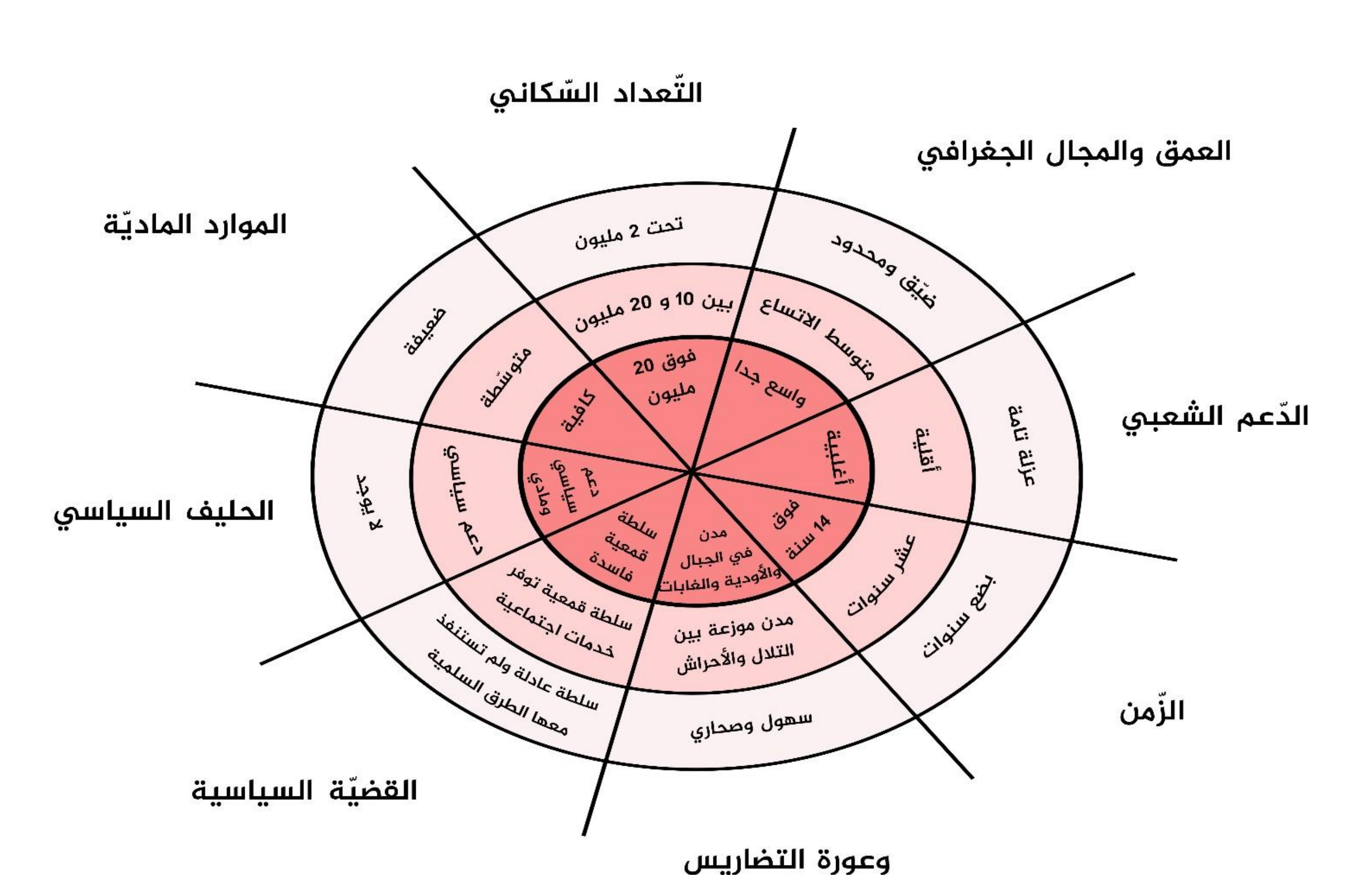
١) مدى استثمار هذه الحركة الثورية للعوامل الخارجية المحيطة بها التي تدعم نجاح الثورة المسلحة.

٢) ومدى التزام هذه الحركة بالمبادئ والاستراتيجيات والتكتيكات التي يجب أن تكون عليها الثورة المسلحة.

---

[٢٢٩] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

أولا: مدى استثمار الخطابي للعوامل الخارجية التي تدعم نجاح الثورة المسلحة.



نموذج أعده مركز الخطابي لتقييم مدى نجاح الحركات الثورية في استثمار عوامل القوة الخارجية[٢٣٠]

١) الدعم الشعبي:

يعد الدعم الشعبي لأغلبية السكان شرطا أساسيا لنجاح الثورة، وذلك لأن الثائر في المراحل الأولى من الثورة يعتمد بشكل كامل على السكان المحليين من أجل توفير:

- المجندين والقوة البشرية الفاعلة.
- الموارد المالية التي تمكنه من دعم عملياته العسكرية والأمنية والدعائية.
- المعلومات الاستخبارية عن قوات ومراكز وتحركات قوات الاحتلال أو القوات الحكومية.
- المأوى والمخابئ والتغطية المناسبة للحركة والتنقل.

[٢٣٠] كما هو الحال في مكافحة التمرد، لا يوجد إلى الآن في المراجع العلمية نموذج دقيقٌ يمكّننا من تقييم عوامل القوة الخارجية للثورة المسلحة، لذلك فقد اضطر مركزنا إلى صناعة هذا النموذج لتقييم الثورة الخطابية. لا ندعي أن هذه الطريقة التقييمية مصيبة للواقع بشكل كامل، إلا أنها مفيدة جدا لمعرفة نقاط الضعف والقوة الي تعاني منها الثورات المسلحة، وهي بنظرنا قريبة جدا من الواقعية.

- شحنات معنوية تطمئن عناصر الثوار وتشجعهم على الاستمرار.

وكما قال روبرت تابر: "فإن الشعب يشكل مفتاح الصراع كله. وفي الواقع، ومهما بدت الفكرة مغيظة للمحللين الغربيين، فإن الشعب هو الذي يقود الصراع. فرجل العصابات ينتمي إلى الشعب، بنفس المقدار الذي لا يستطيع فيه جندي الحكومة أن ينتسب إليه (إذ لو لم يكن النظام قد فقد محبة الشعب لما اندلعت الثورة أصلا). إن رجل العصابات يقاتل بمعونة الجماهير الشعبية المدنية، التي تشكل تمويهه، ومنابع امداده، ومصدر تطوعه، وشبكة اتصالاته، ومصلحة استخباراته، الموجودة في كل مكان والشديدة الفعالية." [٢٣١]

وفي المقابل، إن فقدان الدعم الشعبي بالنسبة للثوار، يعني تجفيف منابع دعمهم المالي والبشري، وتوقف حركتهم، وسهولة كشفهم من قبل قوات مكافحة التمرد التي ستستغل كره السكان للثوار من أجل الحصول على المعلومات اللازمة لحسم الحرب. "بدون رضاء الشعب ومساعدته الفعالة، يتحول رجل العصابات إلى قاطع طريق، ولا يبقى طويلاً على قيد الحياة. ولو استطاع الجندي المضاد للعصيان أن يحصل على المساعدة نفسها، لما وُجد رجل العصابات أصلاً"[٢٣٢]

لو قمنا بتقييم الثورة الخطابية انطلاقا من هذا العامل، لوجدنا أنها حققت فيه أعلى المراتب بامتياز كبير، لقد انطلق الخطابي في يونيو/حزيران ١٩٢١ بثلاث مائة مقاتل كأقصى حد، ثم مباشرة بعد نجاحه في معارك أدهار أوبران وسيدي إدريس وإغريبن قفز هذا التعداد ليصل إلى ٣ آلاف مقاتل منتظمين. أما بعد معارك أنوال بين يوليو/تموز وأغسطس/آب ١٩٢١، فيتضح من سياق المعركة أن السكان المحليين هم من قام بالدور الأكبر في إبادة المراكز الإسبانية المنتشرة على طول القطاع الشرقي، حيث انطلق انخرطت أغلبية قبائل منطقة كرت ومنطقة الريف الأوسط في الثورة المسلحة، ولم تذكر المصادر أن قبيلة واحدة من الإقليم الشرقي قد تخلفت عن الخطابي بعد انتصار أنوال. ثم بين ١٩٢٣ و١٩٢٥، انضمت إلى الخطابي القبائل الغربية في غمارة وجبالة ولوكوس، والقبائل الجنوبية المتوزعة على طول وادي ورغة، ولم يتخلف إلا القليل منها، كقبيلة الأخماس وبني زروال. وتحققت سيطرة عبد الكريم التامة على شمال المغرب، حيث دخلت تحت طاعته خلال هذه الثلاث سنوات ٥٥ قبيلة من أصل ٥٨ قبيلة كانت من المفترض أن تكون تحت الحماية الاسبانية.

لقد استطاع الخطابي بحكم البيئة القيادية التي ورثها من أبيه، وبفضل الشخصية القيادية التي حباه بها الله، أن يجمع في ثورته القبائل الأمازيغية والعربية في حادثةٍ لم تحصل قط من قبل في تاريخ الريف الثوري. وكان لأسلوبه القريب من أفهام الناس وتنظيمه المواكب للطبيعة القبلية دورٌ كبير في تحقيق هذه السيطرة الشعبية. **وكان كل هذا سببا في حصوله على التأييد الشعبي من أغلبية السكان المحليين في شمال المغرب.** بل إن التأييد

---

[٢٣١] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٣٢] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

قد توسع إلى وسط المغرب وجنوبه كما مر معنا سنة ١٩٢٤ عند صدامه مع الفرنسيين في فاس وتازة. ولو أنه عزم على نقل ثورته إلى بقيّة تراب المغرب ولم يُعقِّب، لكان واردا جدا أن يحصل على دعم أغلبية شعب المغرب بأسره.

٢) ضخامة التعداد السكاني:

الحقيقة لا يعتمد نجاح الثورة المسلحة على تحصيل أغلبية الدعم الشعبي فحسب، بل يشترط أن يكون تعداد السكان في قطر الثورة كبيرا لدرجة يستطيع معها توفير الكفاية على مستوى التجنيد والتمويل والحركة. إن قلة الأعداد السكانية في قطر الثورة يهدد الثوار بالاستنزاف، كما أنه يهدد الحاضنة الشعبية بالإبادة، خاصة إذا كانت السلطات المحلية أو الاستعمارية خارجة عن الرقابة الإنسانية.

الحقيقة التي يجب فهمها خلال الحرب الثورية أنه كلما كانت الكتلة السكانية ضخمة، قامت بتوفير مواردٍ وعمق وزادٍ بشريٍ للثوار يمكّنهم من التغيير الجذري. وكلما كانت الكتلة السكانية صغيرة، قلّت موارد الثوار المادية والبشرية، وسهل بذلك حصارهم وتدميرهم مع حاضنتهم، خاصة إذا استعمل العدو أسلحة واسعة التدمير لإبادة السكان الذين يوفرون حاضنة للثوار، كما فعل النظام السوري بسكان حماة في أحداث العقد الثامن من القرن العشرين، أو إذا استخدموا أسلوب المعتقلات البشرية الضخمة، كما تفعل الصين الشيوعية اليوم مع الإيغور المسلمين في تركستان. وهناك أسلوب آخر استخدمه الاتحاد السوفييتي مع المسلمين في القوقاز، وهو الترحيل الجماعي للسكان، حيث قام سنة ١٩٤٤ بترحيل كل سكان الشيشان إلى سيبيريا.

لو نظرنا إلى سكان المغرب الأقصى سنة ١٩٢٠، لوجدنا أن تعدادهم الإجمالي قد كان يقرب من ثمانية ملايين نسمة، غير أن الخطابي قصر عمله الثوري في الشمال المغربي **الذي كان تقريبا بمجمله يحوي مليون ونصف نسمة كأقصى حد**. والحقيقة أن اقتصار الثورة على كتلة سكانية لا تتجاوز المليونيْ نسمة كان له سلبياته القاتلة على الثورة بعد ذلك، فعلى المدى الطويل، اتضح أن الخطابي لم يعد قادرا على الحشد بعد خمسة سنوات من الحرب، حيث كان قد قُتل في صفوفه عشرون ألف مقاتل وأصيب له أكثر من ذلك بكثير، فأصيبت القبائل بالإرهاق بسبب المسؤوليات الحربية الكثيرة الملقاة على كاهلها والتكاليف الباهظة للحرب، وخيّرت خلال الحملات الأخيرة أن تنأى بنفسها عن الصراع قابلة بذلك عروض العفو الفرنسية والإسبانية.

٣) وعورة التضاريس:

"يجب اختيار الأرض المناسبة للحرب الثورية عندما يكون ذلك ممكناً، والمثالي منها ما كان ريفياً أكثر مما هو مديني، وما كان وعراً تكسوه الغابات الكثيفة، والسكك الحديدية الطويلة، والطرق السيئة، مع اقتصاد زراعي أكثر مما هو صناعي. كما أن لتركيز السكان، أو تبعثرهم النسبي، أهمية كبيرة أيضاً. فالمنطقة ذات السكان

الريفيين المبعثرين هي أكثر ملاءمة من منطقة فيها تجمعات سكنية عظيمة، تفصلها مساحات مزروعة غير مسكونة.

ويجب أن توفّر هذه الأرض ملاجئ طبيعية، وعوائق تحدّ من التحركات العسكرية، كالجبال أو المستنقعات العصيّة على الدبابات والشاحنات. وتسمح الأحراش والأدغال بالتخلص من المرصد الجوي، وتشكل الغابات منطلقاً للهجوم السريع والمضمون على السكك الحديدية والطرق، ونصب الكمائن للوحدات الصغيرة. ومع ذلك فإن ثوار العصابات لا يستطيعون انتقاء المنطقة الأكثر بعداً أو وعورة بحثاً عن الأمن، إذ لا بد لهم من البقاء على اتصال دائم مع السكان، حيث يجدون معين المتطوعين، ومصادر التموين، وحيث يمكنهم اختيار المراسلين الذين يؤمنون استمرار اتصالهم مع الحركة السرية في المدن. تفرض تلك الضرورة اختيار إقليم ذي سكان ريفيين مبعثرين ما أمكن، على أن يتواجد فيه عادة ملاجئ طبيعية، وعوائق على تحركات العدو، بالإضافة إلى ميزة أخرى هي أن إقامة الحاميات الحكومية فيه تكون مكلفة اقتصادياً."[٢٣٣]

"على الرغم من أهمية الوعورة إلا أن هناك عناصر أخرى لا بد من توفرها في هذه المناطق.. وهي العناصر التي تساعد على حياة العصابات واستمرارها، وذلك مثل وجود **المياه** السطحية أو على الأقل وفرة المياه الجوفية لإمكانية حفر آبارٍ بها، وقدرة هذه الأرض على **توفير الأطعمة**، سواء لميزاتها الزراعية، أو قربها من الحدود والقواعد الخارجية للعصابات، مما يساعد في شراء المواد التموينية."[٢٣٤]

لو نظرنا على التضاريس التي حظيت بها الثورة الخطابية، لوجدنا أن محيط عملياتها يحده من الشمال البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب الصحراء الكبرى وسلسلة أطلس الجبلية، وهذه ميزة استراتيجية. كما يتخلله سلسلتان جبليتان، هما سلسلة جبال أطلس الريف التي تمتد من كبدانة، مرورا بالريف الأوسط، وصولا إلى جبالة، وسلسلة جبال الأطلس التي تحد الريف من الجنوب. ويفصل بين السلسلتين ممر (تازة-فاس) الاستراتيجي الذي يكاد يكون الممرَّ الوحيد الذي يصل المغرب بالجزائر. وهذه المرتفعات الشاهقة التي تعج بالأحراش والغابات الكثيفة، وتكاد تنعدم فيها الطرق المعبدة، تعد ميزة استراتيجية ثانية للثورة.

أما بالنسبة للثروة المائية والزراعية في شمال المغرب، فيوجد أنهارٌ عديدة على ضفافها سهولٌ خصبة، منها نهر الملوية وطوله ٤٨٠ كم، ويمر في المنطقة الشمالية، ولجريان هذا النهر في المنطقة أهمية اقتصادية كبيرة من حيث ازدهار زراعة الزيتون والكروم والتين والحبوب. هذا غير الأودية الخصبة التي تتوزع على طول منطقة الشمال،

---

[٢٣٣] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٣٤] سيف العدل: الصراع ورياح التغيير.

مثل وادي ورغة، ووادي كرت، ووادي أمقران، ووادي النكور، ووادي غيس، ووادي لاو، ووادي حجيرة. هذا أيضا غير الآبار والعيون الطبيعية.

والخلاصة أن الثورة الريفية تمتعت بمزايا استراتيجية كبيرة في هذا العامل، **وحظيت بطبيعة جغرافية ممتازة لشن الحرب الثورية، تتضمن العديد من الجبال والمرتفعات والغابات والأودية التي تتخللها الكتل السكانية الريفية، والمحاذية للممرات البحرية المفتوحة.** وقد كان لهذه الجغرافيا الفضل الأكبر في إبادة القوات الإسبانية التي كانت متمركزة حول أنوال سنة ١٩٢١، وفي وادي لاو وشفشاون أيضا سنة ١٩٢٤، حيث استثمر الخطابي هذه الوعورة بشكل بديع وملفة للنظر، واستغلها للحركة وتطبيق تكتيكات الإغارة والحصار والكمائن. غير أن الثورة عانت في الفترة الأخيرة أزمات اقتصادية بسبب تقدم القوات الفرنسية وسيطرتها على مناطق وادي ورغة الغنية بالمياه والمحاصيل الزراعية.

٤) العمق والمجال الجغرافي:

تعد وعورة التضاريس عاملا مؤثرا في نجاح الحرب الثورية، غير أن الوعورة لوحدها لا تكفي، إذ يجب توفر عامل آخر شديد الأهمية، وهو "العمق". يجب أن يكون المجال الأرضي للعمليات الثورية عميقا بحيث يصعب على أي قوات اجتياحه بشكل كامل في وقت قصير، أو محاصرته حصارا خانقا. يوفر العمق مجالا دفاعيا للثوار يمكّنهم من امتصاص الحملات الهجومية بتكتيكات الدفاع المتحرك، وإيقافها في وقت مبكر بالقتال التقهقري، ثم العودة على قطع طرق إمداد العدو التي أصبحت طويلة وممتدة، مما يفقد هذه الحملات فاعليتها وجدواها. يوفر العمق للثوار أيضا أماكن تبادلية سواء لقواعدهم المستقبلية أو لتحركاتهم اليومية، كما يسمح لهم بالمناورة الحرة دون الخشية من خطر الوقوع في حصار، فكلما ازداد قطاع العمليات اتساعاً، كلما صعب الاستدلال على الثوار من قبل العدو.

وعودة إلى الثورة الخطابية (١٩٢١-١٩٢٦)، فإننا نظن أنها كانت تعاني فقرا شديدا في هذا العامل، **إذ أن المجال العملياتي الذي اختاره الخطابي لنفسه كان ضيقا جدا مقارنة بقوة العدو وقدرته على الاجتياح.** ورغم أن المغرب كان واسعا جدا، وكان يوفر بمساحته الكبيرة عمقا استراتيجيا، إلا أن الخطابي اكتفى لسبب ما بأقصى الشمال[٢٣٥]، وقد كان هذا خطأ استراتيجيا فادحا، لأن هذا النطاق لم يكن عميقا كفاية لمنع الحصار والتطويق

[٢٣٥] حسب دراستنا للثورة الخطابية وشخصية قائدها نجد أن الأسباب التي كانت وراء هذا الخطأ كالتالي:

- التردد الاستراتيجي الذي كان واضحا في قرارات الخطابي، بعدم تحرير فاس وتازة والتوسع نحو الجنوب، خوفا من مفاسد السلب والنهب، وقد كانت هذه الأسباب واهية حقيقة باعتراف الخطابي نفسه كما مر معنا.

أو ليستوعب حملات الاجتياح الضخمة. وقد اتضح لنا من سياق الدراسة في الفصول الأولى، أن الفرنسيين والإسبان عندما تحالفوا على الثورة أواخر ١٩٢٥، استطاعوا فعلا محاصرتها برا وبحرا وجوا، كما استطاعت حملاتهم العسكرية أن تصل إلى العمق خلال مدة وجيزة أجبرت الخطابي على الاستسلام. ولو أن جهة العمليات كانت واسعة المجال، ولو أنها شملت مثلا مع مناطق الشمال مناطق الوسط وجبال أطلس الشاسعة، لما أمكن أبدا لكل جيوش أوروبا محاصرتها أو اجتياحها بشكل كامل. وقد نجحت الثورة المغربية سنة ١٩٥٥ لأنها عملت في كل المغرب، بينما خسرت الثورة الخطابية لأنها افتقرت للعمق.

٥) الزمن:

يتحدث ماو عن هذا العامل فيقول: "لا بد من الزمن، ليس فقط لتحقيق التعبئة السياسية، لكن أيضاً للسماح لنقاط ضعف العدو الداخلية بأن تتفاقم تحت تأثير توتر الحرب"[٢٣٦]. ليس للحرب الثورية عمر محدد، فكل تجربة تحتاج إلى الزمن بحسب ظروفها الخاصة (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية...). وكلما كانت الحكومة قوية وكان الشعب بعيدا عن القضية الثورية كلما احتاج الثوار إلى عامل الزمن، وذلك من أجل تحقيق عدة أهداف غاية في الأهمية:

- ممارسة التوعية السياسية في الداخل والخارج.
- استنزاف موارد العدو المالية وإنهاك اقتصاده ومعنوياته.
- تفتيت تحالفات العدو الداخلية والخارجية.
- تعرف الشعب على الثوار وقادتهم ونيل ثقته.
- محاولة ضم أو اتحاد كافة الجبهات الثورية.
- بناء تحالفات سياسية للثورة.
- إنشاء اقتصاد مستقل عن إملاءات الداعمين.
- تشكيل قيادات إدارية للمناطق المحررة، وبناء نظام سياسي واقتصادي يلبي متطلبات الشعب.

- المبالغة في السياسية الودية نحو حكومة المغرب والاحتلال الفرنسي، فقد كان الخطابي يخير التهدئة معهم رغم يقينه بإصرارهم على العدوان، وقد اختار عدم التوسع لتأليفهم، والحقيقة أن هذه السياسة لم تكن موفقة أبدا، فالعدوان كان حاصلا لامحالة، وكان على الخطابي أن يستبقه بتوسيع الثورة عندما توفرت الظروف المناسبة سنة ١٩٢٥.
- بناء الدولة المتكاملة قبل وقتها وقبل الانهيار الكامل للحكومة المحلية وانسحاب القوات الأجنبية. فالمؤسسات والأجهزة الحكومية تتطلب طاقة وموارد هائلة، لا يمكن للثوار توفيرها إلا على حساب توسعهم الثوري. كما أن سقوط هذه الدولة عند حملات الاجتياح سيقضي على معنويات الثوار والسكان، وهذا بنظرنا ما حدث فعلا مع الخطابي.

[٢٣٦] ماوتسي تونغ: حرب العصابات.

"يعمل الزمن لصالح الثوار سواء في الريف -حيث ينفق العدو يومياً ثروة طائلة ليطاردهم- أو على الساحة السياسية والعسكرية. ويتبين في هذا السياق مبدأ هام، وهو: كلما احتل العدو أرضاً، ازداد بذلك ما يتوجب عليه الدفاع عنه، وما يقدمه من أهداف للهجمات. ومن جهة أخرى، كلما قاتل رجل العصابات ونجح، ازداد حصوله على وسائل القتال والنجاح من الأسلحة، والمقاتلين والموارد المادية. وهكذا فإن أهداف السلطات الحكومية وأهداف الانتفاضة متناقضة كلياً. فالعسكري يسعى إلى انتهاء الحرب بأسرع ما يمكن بغية تحديد خسائره، وفي حين يسعى الثائر إلى إطالة أمد الحرب، لأن المجال أمامه مفتوح لكسب كل شيء.

ومن المؤكد أن الانتفاضة لا تستطيع تحقيق أهدافها بين يوم وليلة، ولا حتى في فترة زمنية محددة مسبقاً. وهناك نقطة أساسية في نظرية (ماو)، وهي أن المراحل قد تتشابك، وأن حالات الفشل يمكن أن تقع، وأن تضطر وحدات للتحول من جديد إلى عصابات، وأن تتناقل الأيدي بعض الأقاليم عدة مرات."[٢٣٧]

بين الحرب العالمية الثّانية وعام ٢٠١٥، كان هناك ١٨١ حالة ثورية. وبلغ متوسط مُدَدها أكثر من اثنتي عشرة سنة. وقد اعتبر سيث جونز صاحب كتاب "نشوب الحرب الثورية" أن العمر الطبيعي للثورات التي تعتمد حرب العصابات يجب أن يكون ١٤ سنة. ولو عدنا إلى سياق ثورة الريف الثالثة **لوجدنا أن عمرها لم يتجاوز الخمسة سنوات، حيث انطلقت في يونيو/حزيران ١٩٢١ وانتهت في ماي ١٩٢٦، وقد كان جليا أن الخطابي لو أخذ مدة زمنية أطول لاستطاع إرهاق عدوه وفرض شرعيته أكثر فأكثر.**

كيف استطاعت القوات الاستعمارية أن تحسم المعركة سريعا بما لا يوفر زمنا للخطابي لبناء نفسه وإنهاك عدوه؟ لعل ذلك بسبب بعض الأخطاء الاستراتيجية التي وقعت فيها الثورة الخطابية، والتي ذكرنا بعضها فيما سبق وسنذكر بقيّتها في هذا الفصل، ولعلنا في آخر الكتاب نذكر تحليلا شاملا لمجمل أخطاء الخطابي، ويوضح الأسباب المباشرة التي مكنت الاحتلال من حسم الحرب عسكريا.

٦) الموارد المالية:

لا يمكن للثوار أن يمارسوا نشاطاتهم العسكرية والأمنية والسياسية دون توفر دعم مادي، والجماعات الثورية في حاجة دائمة إلى المال لشراء الأسلحة والذخائر والإمدادات اللوجستية والطبية، وتمويل أنشطة الدعاية والإعلام والتجنيد والقضاء ومشاريع الإسكان. وقد تصل ميزانية الجماعة الثورية الواحدة إلى ميزانية حجم دولة متوسطة الحجم. لو ذكرنا مثلا جماعة نمور التاميل في سريلانكا، فقد كانت تنفق قرابة ٣٥٠ مليون دولار سنويا في الثورة المسلحة أوائل العقد الأول من القرن الحالي، وكانت تسيطر على ما يعادل ٤٠ % من الناتج المحلي للبلاد.

من أهم مصادر التمويل التي يعتمد عليها الثوار:

---

[٢٣٧] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

- التبرعات التي يحصلون عليها من المتعاطفين في الداخل والخارج.
- الدعم المقدّم من قِبل الحلفاء الدوليين.
- الموارد الباطنية في المناطق التي يسيطرون عليها، مثل: النفط والغاز ومناجم الذهب والألماس والحديد...الخ
- الموارد الزراعية في الأراضي العامة التي يقومون بتحريرها، كمحاصيل الحبوب والخشخاش والبنّ والأشجار المثمرة.
- الضرائب الدينية أو المدنية التي تفرض على تجارة السكان المحليين ومحاصيلهم الزراعية.
- الغرامات التي تفرض على مخالفي القانون الثوري.
- الضرائب التي تفرض على الحركة التجارية الدولية والإقليمية في المعابر البحرية أو البرية.
- المنشآت الصناعية التي يتم اغتنامها من العدو ثم إعادة تفعيلها.
- أجور الحماية التي تدفعها بعض الشركات الكبرى في مناطق سيطرة الثوار.
- مفاداة أسرى الحرب مع العدو أو المختطفين مع الدول الأخرى.
- عوائد الاستثمارات الكبرى التي يقوم بها الثوار في الداخل والخارج.

كانت الثورة الخطابية تعتمد على أربعة مصادر أساسية، وهي: الضرائب الدينية (الزكاة) والمدنية، والغرامات التي كانت تفرض على القبائل المتمردة، وتبرعاتُ القبائل المالية والعينية، وفداء الأسرى الإسبان والفرنسيين. وبحسب ما ظهر لنا في المراجع العربية والأجنبية، فإن هذه الموارد لم تكن كافية لحاجة الثوار المعيشية، حيث كان سكان الريف يعانون نوعا ما الفقر والفاقة، ويفتقرون إلى العديد من الحاجيات الأساسية، غير أن هذه الموارد كانت كافية لقضاء الحاجة الحربية، وقد مرت معنا شهادة الخطابي في الفصل السابع حول تحقيقه للاكتفاء الذاتي الحربي. **وهذا ما يجعلنا نصنف الموارد الريفية على أنها متوسطة الدخل.**

٧) الحليف السياسي:

في الحالات الثورية التي نشأت منذ الحرب العالمية الثانية، قرابة الـ ٧٠ % من الحركات الثورية التي وصلت إلى مرحلة من القوة مكّنتها من الحسم؛ كانت تتلقى دعما من جهات خارجية. ومن بين ١٨١ حالة ثورية منذ عام ١٩٤٦، تضمنت ١٤٨ حالة منها (٨٢ %) شكلاً من أشكال الدّعم الخارجي.[٢٣٨] توفّر المساعدات الخارجية وسيلةً تساهم في قلب التوازن لصالح الثوار. أثناء الحرب الباردة، قدّمت الولايات المتحدة دعما سياسيا وعسكريا وأمنيا وإنسانيا ضخما للمجاهدين في أفغانستان، وقد كان لذلك أثر كبير في تحقيق النصر ضد السوفييت سنة ١٩٩٠. كما قدم الاتحاد السوفييتي دعما سياسيا وعسكريا للفيتناميين سنة ١٩٧٠، ولكاسترو في كوبا سنة ١٩٦٠، وقد

---

[٢٣٨] سيث جونز: نشوب الثورة المسلحة، تعريب مركز الخطابي.

ساهم ذلك أيضا في حصول الثوار على النصر. كما أن صمود حزب الله ضد الاجتياح الإسرائيلي سنة ٢٠٠٦ كان بفضل الدعم العسكري والمالي الضخم الذي كان يتلقاه من إيران.

للدعم الدولي الذي يحصل عليه الثوار دورٌ كبير في تقليل فارق القوى بينهم وبين الحكومة أو السلطات الاستعمارية، فحصول الثوار على مظلة سياسية لحراكهم من قبل دولة معترف بها في المجتمع الدولي يضاعف من شرعيتهم السياسية، كما أن حصولهم على الدعم المالي أو العسكري يضاعف من قدرتهم الحربية. وأحيانا قد تساعدهم الدولة الداعمة بقوتها العسكرية بشكل مباشر.

المشكلة الأساسية التي عانى منها الخطابي أن ثورته نشأت في ظروف دوليّة صعبة، ففي الحقبة التي انطلقت فيها الثورة الريفية الثالثة (١٩٢١-١٩٢٦) كان أنصارها المتوقَّعون (الدولة العثمانية والألمانية) قد خسروا الحرب العالمية الأولى وتراجع نفوذهم الدولي بشكل كبير. والحقيقة أن حرب الريف الثالثة نشأت في مرحلة زمنية كانت تقريبا جميع الجهات الدولية فيها ضد حركات الاستقلال. بعكس ما عاشته الحركات الثورية مثلا في مرحلة الحرب الباردة بين حلف وارسو وحلف الناتو، إذ كانت دائما في تلك الحقبة (١٩٥٠-١٩٩٠) تجد لنفسها حاضنة وملاذا آمنا في واحد من هاذين المعسكرين.

لم يستطع الخطابي إيجاد الحلفاء رغم أن محاولاته في البحث عنهم كانت جبّارة، ولم يقدر على تخفيف الأعداد الدوليين رغم أنه استفرغ الوسع والطاقة وكل السّبل السياسية في سبيل ذلك. لقد اصطدم بواقع دولي مرير تسيطر عليه الدول الاستعمارية الكبرى التي لم تكن لتقبل أي حركة تحررية، خاصة إن كانت مرجعيتها إسلامية. لم تكن بريطانيا وفرنسا لتخاطر أبدا بدعم حركة ثورية قد تتسبب في نقل العدوى نحو مستعمراتها المترامية. **والخلاصة أن الخطابي لم يحظَ بأي حليف دولي أو إقليمي رغم نشاطه السياسي الفريد.**

٨) القضية السياسية:

إن انخراط الشعب في الثورة المسلحة ودعم المجتمع الدولي للحركة الثورية يعتمد على وجود قضية سياسية تستحق أن تتعاطف معها الجماهير. إذ لا تقوم الثورات على الأنظمة العادلة، ولا يثور الناس عادةً على الحكام النزيهين. "طبيعي أنه لا يمكن أن يحدث شيء من ذلك، إذا لم تتواجد بعض الشروط الاجتماعية والسياسية، التي لا بد من تضافرها لإحداث الوضع الثوري، أو الوضع الثوري الكامن على الأقل. ويقتضي نجاح الانتفاضة وجود مطالب شعبية سلمية، وتوترات اجتماعية، واقتصاد مريض أو راكد، أو حكومة مستبدة." [٢٣٩]

يقول تشي جيفارا متحدثا عن القضية الثورية: "يجب أن نتذكر دائماً بأن هنالك حداً أدنى وضرورياً لا يمكن بدونه ولادة المركز الأول (للتمرد) وتعزيزه. لا بد للناس أن يلاحظوا بوضوح عبثية متابعة الصراع من أجل

[٢٣٩] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

الحصول على أهداف اجتماعية في إطار الحوارات الشرعية. وعندما تتمسك قوى القمع بالسلطة ضد القانون القائم، يمكن اعتبار السلام محطماً. وفي هذه الظروف، يظهر الاستياء الشعبي بأشكال أكثر فعالية...

عندما تتوصل حكومة إلى السلطة عن طريق الاقتراع الشعبي، سواء كان هذا الاقتراع مزوراً أم لا، وتتمسك بالسلطة مع مظهر الشرعية الدستورية على الأقل، فإنه لا يمكن لحرب العصابات أن تندلع، لأن إمكانات النضال السلمي كلها لم تستنفد بعد.

لقد قلنا أن حرب العصابات هي امتداد للسياسة بوسائل مسلحة. ومنطقياً لا يمكن لهذا الامتداد أن يحدث بغتة، إلا عندما تنكشف وتصبح كل الحلول السلمية بلا قيمة. وفيما عدا هذه الحالة، لا يوجد أي أمل بالحصول على الدعم الشعبي اللازم للنشاط الثوري. وحتى يقبل الناس مسؤوليات ومخاطر العنف المنظم، يجب أن يؤمنوا بعدم وجود خيار آخر، وأن تكون القضية ملزمة، وفرص نجاحها معقولة. وربما كان الدافع الأخير هو الأكثر قوة. وعندما تبدو القضية عادلة، ويصبح الموقف لا يطاق، ولا يعود من سبيل ضد الطغيان، لا يبقى إلا طريق العمل. ولا بد عندها من جهد تحضيري ضروري ومنظم، قبل إمكانية افتتاح أية حملة من حرب العصابات." [٢٤٠]

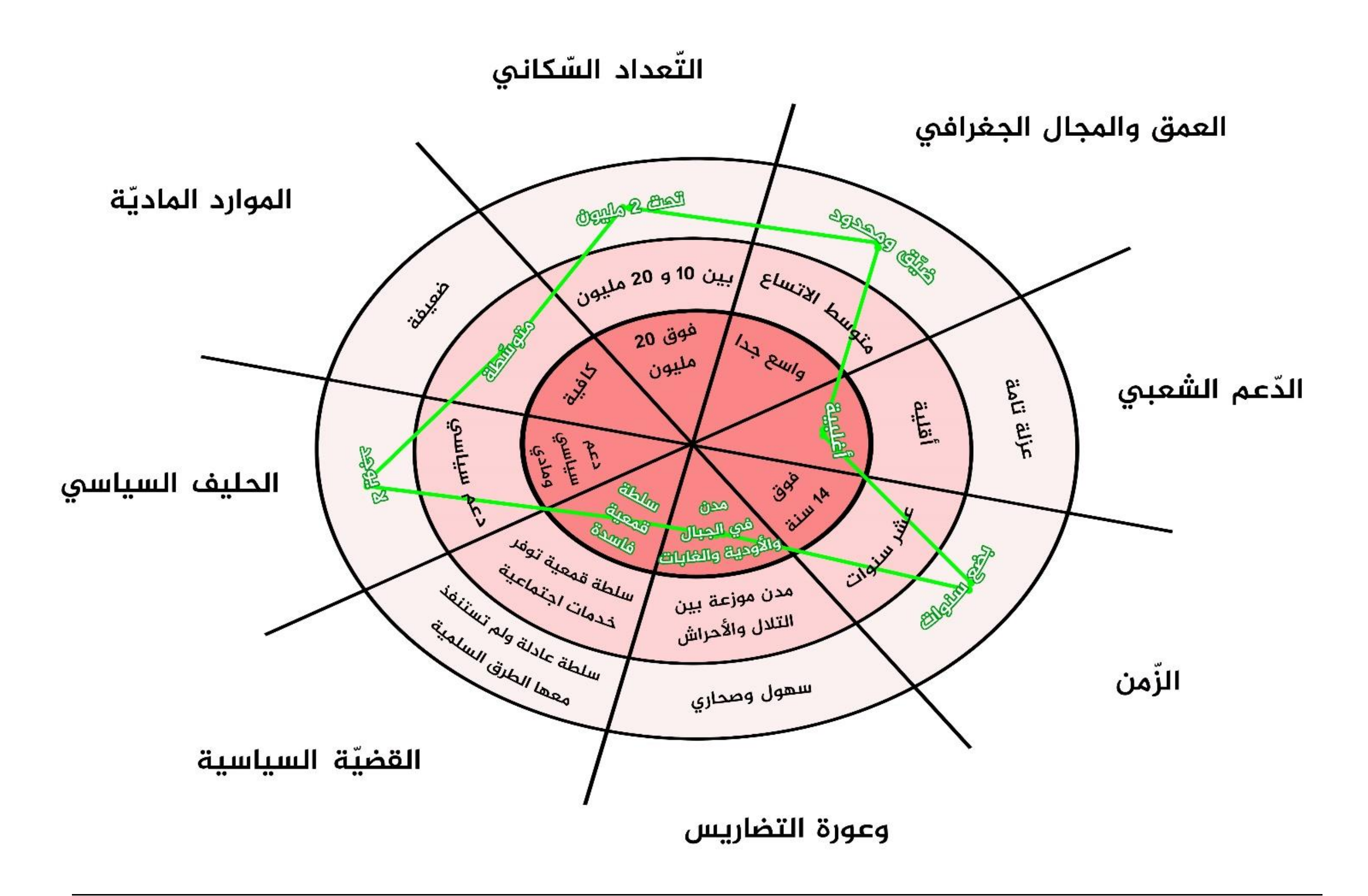
لو نظرنا إلى ثورة الخطابي لوجدنا أنها تملك قضية عادلة بامتياز. لقد دخلت القوات الأجنبية بحجة الإعمار ونقل العلوم والحداثة، ثم اكتشف الريفيون أن شيئا لم يتغير، فلا قلت نسب الفقر، ولا تحسنت الخدمات الإنسانية والصحية في الريف، ولا توفرت فرص العمل والتعليم. لم يكن هناك غير العنجهية العسكرية والازدراء والتحقير والتهميش الذي كان يظهر جليا في تصرفات القادة العسكريين الإسبان وخاصة سلفستري المتكبر وفرانكو المتوحش. وعندما أراد وجهاء القبائل وعلى رأسهم عبد الكريم الخطابي (الأب) أن يغيروا هذه الأوضاع بشكل سلمي، جوبهوا بالرفض القاطع من قبل الإسبان. كما قوبلت ثورة محمد أمزيان العادلة بالحديد والنار.

والخلاصة أن السلطة الاستعمارية في الريف سنة ١٩٢٠ كانت سلطة قمعية متغطرسة ظالمة، يتخللها الكثير من الفساد والانحطاط الأخلاقي، وقد استُنفذت فعلا معها جميع الوسائل السلمية دون أي جدوى. فجاء الخطابي واستغل كل هذا بأسلوبه السياسي البديع، وجعلها قضية تحرر وطني وكرامة إنسانية ونهضة اقتصادية وحرية سياسية وشرف قبلي وواجب ديني مقدس، لقد شملت قضيته كل هذا فكانت ملهمةً لكل سكان الريف والمغرب الأقصى، بل وحتى للأحرار في كل العالم. ولو لم تكن قضية الخطابي عادلة، ولو لم يكن الخطابي قد أحسن صياغتها، لما كان قد ترك كل هذا الأثر في التراث المغربي والأجنبي، ولما أصبح قدوة لرجال التحرير في الجبهات الثورية الأخرى حتى يومنا هذا.

---

[٢٤٠] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

خلاصة التقييم:



نموذج تقييم مدى استثمار الخطابي للعوامل الخراجية التي تدعم نجاح الثورة المسلحة

نعتقد أن الخطابي في ثورته التي انطلقت سنة ١٩٢١ قد حظي بالعديد من عوامل القوة، حيث استطاع الحصول على دعم أغلبية السكان محليين في شمال المغرب، وكانت التضاريس الريفية من حيث وعورة جبالها وأوديتها وطرقها مناسبة جدا من حيث الوعورة لخوض حرب العصابات. كما أنه حصل على موارد مالية متوسطة الدخل مكنته من مواصلة نشاطه الحربي حتى النهاية. وبسبب همجيّة وفساد وعنصرية خصمه كان للخطابي قضية سياسية عادلة أثرت بشكل كبير في الرأي العام المحلي والعالمي.

لكن في المقابل، عانت الثورة الخطابية العديد من نقاط الضعف القاتلة. لقد حصر نفسه بكتلة سكانية صغيرة مقارنة بحجم الموارد الشعبية التي كان يحتاجها لمواصلة الحرب، كما أنه قصر عملياته الثورية على مجال حربي ضيّق يفتقد للعمق الجغرافي الذي يوفر له عامل المناورة والتملص. وكان لقصر المدّة الزمنية التي حظيت بها الثورة دورٌ كبير في منع خطابي من بناء القوة اللازمة الموازية للقوات الاستعمارية. ويعتبر فقدان الحليف السياسي سببا رئيسيا في تسريع حملات الاجتياح الاستعمارية وعاملا أساسيا في فقر الإمكانات الثورية.



ثانيا: مدى التزام الخطابي بالمبادئ والاستراتيجيات والتكتيكات التي يجب أن تكون عليها الثورة المسلحة.

تطبيـق مبادئ الحرب الثورية

اختيار التكتيكات المناسـبة بحسب المرحلة الثورية

الدعاية الإعلامية

نوعية المقاتل

البنية التنظيمة

الرؤية السياسية

القيادة

التسليح والتذخير

مفقود

فشل بشكل كامل

مفقودة

متقلّب

يخطئ أحيانا

ضيقة ومحدودة

كامل

موفق في اختيار التكتيك

شاملة ومكثفة

عقدي متدرب

مرتزق متدرب

مرتزق غير متدرب

نخبوي وشعبوي منظم

نخبوي مجرد أو شعبوي مجرد

اعتماد كامل على الهبة الشعبية

نظام قيادي متكامل

كافي ومستديم

شاملة

ضيّقة

مفقودة

قائد واحد مسيطر

اكتفاء جزئي لا يوازي قوة العدو

عدة قادة فوضويين

غير كافي وغير متجدد

نموذج أعدّه مركز الخطابي لتقييم مدى التزام ثوار الريف بالمبادئ والاستراتيجيات والتكتيكات التي يجب أن تكون عليها الحرب الثورية.[٢٤١]

١) الرؤية السياسية:

"يرغب رجل العصابات في اهتراء عدوه العسكري، ويستعمل تكتيكاً مناسباً لهذا الغرض، وهدفه الرئيسي سياسي، ويتمثل في تسعير حريق الثورة في صراعه، وتحريض الشعب كله، ضد النظام، وإظهار عيوب هذا النظام، وعزله، وتقويض اقتصاده، واستنزاف موارده، وإثارة تفككه. إن حرب العصابات في جوهرها سياسية واجتماعية، أما وسائلها فهي سياسية بمقدار ما هي عسكرية، أما هدفها فسياسي بالكامل تقريباً. ونستطيع أن نقول -انطلاقاً من مقولة كلاوفيتز-: إن حرب العصابات امتدادٌ للسياسية بواسطة صراع مسلح.

[٢٤١] لا يوجد إلى الآن في المراجع العلمية نموذج دقيقٌ يمكّننا من تقييم عوامل القوة الداخلية للثورة المسلحة، لذلك فقد اضطر مركزنا إلى صناعة هذا النموذج لتقييم الثورة الخطابية. لا ندعي أن هذه الطريقة التقييمية مصيبة للواقع بشكل كامل، إلا أنها مفيدة جدا لمعرفة نقاط الضعف والقوة الي تعاني منها الثورات المسلحة، وهي بنظرنا قريبة جدا من الواقعية.

إن أكبر عدو للحركات الثورية هو العزلة العسكرية والسياسية. وعلى التنظيم الثوري منع هذه العزلة، وافتعال عمليات الإلهاء أو التحريض في الأوقات المناسبة، وإقامة الاتصالات، وبذل الجهد في العالم أجمع لإثارة شعور بأن الثورة تأخذ مجراها، حتى ولو لم تكن تحرز أي تقدم يذكر."[٢٤٢]

انطلاقا مما ذكره روبرت تابر في هذا الاقتباس، نفهم أن جوهر الثورة المسلحة وهدفها النهائي سياسي بامتياز. وقد اتفق منظرو الحروب الثورية أن الرؤية السياسية بالنسبة للثوار ضرورية للحصول على الدعم الشعبي، فمن خلالها يقدم الثوار مشروعا بديلا عن النظام القائم، بحيث يشمل هذا المشروع المطالبَ الشعبية الداخلية ويخاطب المجتمع الدولي. ومن دونها تصبح الحرب الثورية اعتباطية وعقيمة، وستستمر إلى ما لا نهاية، لأن هدف الثوار وقتها سيكون هو الحرب لمجرد الحرب، وستصبح الثورة مجرد عملية هدم وثأر وتشفّي في دائرة مفرغة لا بناء فيها. هذه الرؤية هي التي تقنع الجموع الشعبية بجدوى التغيير، وفقْدُها يعني خسارة نسبة كبيرة من الدعم الشعبي، اللهم إلا بعض المكونات الشعبية التي ستشارك في الثورة فقط لمجرد الغضب والثأر. ويعني أيضا فَقْدَ الحلفاء الدوليين، اللهم إلا من أراد استعمال الثوار فقط لإلهاء خصومه الدوليين وإرباكهم.

يشترط في الرؤية الثورية أن تكون شاملة لكل الجوانب الدينية والسياسية والاقتصادية والأمنية والخدمية، بحيث يجدُ كل صنف من الشعب حاجته فيها، وبحيث تتطرق هذه الرؤية إلى طريقة انتقال السلطة في الدولة الجديدة، وكيف سيتم في النظام المقبل ضمانُ الحريات الإنسانية للأقليات والمرأة والصحافة والمعارضة السياسية، وبناء العلاقات الدولية، وتطوير الحركة العلمية والصناعية، وتوفير التنمية الاقتصادية وفرص التعليم والمرافق الصحية والخدمية، ورفع المظالم، ومكافحة الفساد الأخلاقي والمالي، وتحسين النظام القضائي، وتبييض السجون، واستثمار الثروات الطبيعية في مصالح الشعب لتحقيق الاكتفاء الذاتي...الخ. وكلما كانت الرؤية السياسية الثورية مفقودة أو ضيّقة كلما تضاءل الدعم الشعبي للثوار.

لو نظرنا إلى الثورة الخطابية لوجدنا أن قائدها كان متألقا في هذا الجانب. لقد كان خطاب ابن عبد الكريم شاملا للجوانب السياسية والاقتصادية والخدمية. بل إن الخطابي كان يُصدّق أفعاله بأقواله في معظم الأحيان، حيث قام فعلا ببناء منظومة تعليمية متطورة -نوعا ما- مقارنة بالتي كانت موجود سابقا في الريف، واستطاع بسْطَ الأمن في ربوع المناطق المحررة ملغيا إلى حد كبير الجرائم والفتن الداخلية. كما قام بتعبيد الطرقات ومدّ شبكات الهاتف، وتمكن أيضا من بناء منظومة سياسية (الجمعية الوطنية) وجدت العشائر فيها حريتها السياسية وكرامتها الإنسانية. ويكفينا أن ننقل عن أحد الضباط الفرنسين قوله: "عندما دخلنا الريف

---

[٢٤٢] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

تركنا كل شـيء كما هو عليه، لأننا ببسـاطة وجدنا دولة متكاملة، ولم يكن بالإمكان أن نقدم للريف أكثر مما قدمه الخطابي".

ومن خلال خطاباته ومراسلاته ولقاءاته الصحفية التي وجهها إلى الداخل والخارج، كانت الرؤية السياسية الخطابية واضحة جدا وشاملة، يأتي الاستقلال السياسي والاقتصادي في أول بنودها، ومن ضمن محاورها إقامة علاقات دولية متينة مع القوى الأوروبية العظمى والمنظمات الإنسانية العالمية، وبناء مؤسسات حكومية متطورة كفيلة بضمان العيش الكريم للسكان المحليين.

٢) الدعاية الإعلامية:

يعتمد وصول الرؤية السياسية الثورية إلى الجماهير الداخلية والخارجية على وجود حملات دعائية منظمة، فالإعلام والرؤية السياسية بالنسبة للثوار، كاللسان والعقل بالنسبة للإنسان. ولن يحقق الثوار الفائدة المرجوة من رؤيتهم السياسية ما لم يجدوا طرقا فعالة لإيصال هذه الرؤيا إلى جماهيرهم بمختلف تخصصاتهم وأجناسهم وأديانهم.

يشترط في الدعاية الثورية لتكون فعّالة أن تراعي الأمور التالي:

- أن تكون شاملة لأوليات الصراع، بحيث يكون جل تركيزها على إسقاط مشروعية الحكومة أو الاحتلال بإظهار عيوبه ومثالبه وفساده ومظالمه، وإثبات مشروعية الثوار في المقابل عن طريق نشر محاسنهم وفضائلهم وإنجازاتهم، فلا ينبغي لها أن تلتهي بالمسائل الفرعية على حساب الأولويات، ولا ينبغي أن تنقل الخبر فقط لمجرد الإخبار. وبحسب روبرت تابر فإن الثائر "يحاول أن يقوم بدور داوود، فيسعى إلى إظهار عدوه للجمهور بمثابة جالوت، وتهدف كل أعماله وكل تصريحاته إلى إثارة الود والشعور بالعدل لدى شهود الصراع، ويكون ذلك بخلق صورة شعب شجاع يقاتل في سبيل استقلاله، ضد القوى الهائلة للظلم والاستبداد"[٢٤٣]
- أن تكون مستهدفة لكافة مكونات الجماهير في الداخل والخارج، بحيث تشمل جميع أصناف الجماهير بمختلف أوطانهم وتخصصاتهم وأديانهم وأعراقهم وقبائلهم وأعمارهم وأجناسهم...الخ. وكلما كان الخطاب بعيدا عن التضييق العرقي أو الأيديولوجي كلما كانت الثورة أكثر قوة.
- أن تكون طريقة صياغة الخطاب قريبة من أفهام الشعب، بحيث تنطلق من اهتماماتهم المختلفة، والتي تدور عادة حول: الدين والفقر والتعليم والبطالة والحرية والحقوق والتنمية الاقتصادية والشرف...الخ. يقول سيف العدل في هذا الصدد: تتمثل المهام الأساسية للقيادة في أن توضح "للفلاح

---

[٢٤٣] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

والعامل والطالب والمثقف لماذا يجب عليه أن يثور، وهي التي تبين له أسباب كل خطوة وكل عمل مسلح أو سياسي وتبقي مقاتليها وأنصارها ملتصقين دوماً بحركتهم، وتزيل كل غموض يطرأ على الموقف السياسي لتنفي الشبهات عن نفسها، وعن طريق الممارسة الإعلامية تبين الجماعة لشعبها الأسباب الحقيقية التي جعلت العمل العسكري هو السبيل الوحيد والطبيعي والأخلاقي للتغيير، فالقمع والاعتقال يهيج الطبقة المتوسطة.. والاقتصاد وفساده يخرج الحرفيين ورجال الأعمال، والكبت السياسي يفعّل الطامحين إليه، ونهب الأراضي والتحكم في أسعار منتجاتها يفجر الريف، والظلم والقهر الاجتماعي والرغبة في التحرر تأخذ بأغلب فئات الشعب لنصرة القضية عسكرياً ودعوياً، فيصبح التغيير والقضاء على النظام هدف الأمة"[٢٤٤]

- أن تكون وسائل نشر الدعاية قريبة من معظم مكونات الجمهور المستهدف، فعادة ما تختلف وسائل الدعاية الفعالة من شعب إلى آخر. في أفغانستان مثلا أكثر وسائل التواصل التي تربط الثورة بالشعب هي الإذاعة، بينما في سوريا يأتي الفيسبوك والواتساب كأكثر الوسائل المستخدمة شعبيةً.

لو قمنا بتقييم الثورة الخطابية من هذا المنطلق، لوجدنا أن وسائل الدعاية التي كانت سائدة في الريف بداية القرن العشرين هي الخطابة المباشرة. ورغم انتشار الإذاعة والصحافة في تلك الحقبة، إلا أن شيئا من هذا على الأغلب لم يكن قد وصل إلى سكان الريف. أما جريدة التلغراف الإسبانية التي سبق وعمل فيها الخطابي، فإنها كانت مخصصة بشكل أساسي للجالية الإسبانية القاطنة في مليلية. والحقيقة أن الخطابي قد استثمر أساليب الدعاية المباشرة بشكل فعال، حيث اعتمدت دعايته الإعلامية على المساجد والمجالس العشائرية والخطب الحربية في المعسكرات والزيارات الودية إلى الوجهاء، ولازال إلى الآن أثر خطبه المؤثرة موجودا في سكان الريف، ولازال العديد من الريفيين يحدثون الناس بما سمعوه عن الخطابي أيام الثورة.

أما من حيث تركيزه على أولويات الصراع، فقد كان مساره مستقرا وثابتا حتى النهاية، ولم يحدث أن اشتغل بدعاية أيديولوجية بعيدة عن أولويات الصراع مع الاحتلال -كما تفعل اليوم بعض التنظيميات المؤدلجة، حيث تجعل معظم دعايتها في نصرة اختياراتها الفقهية والعقدية التي قد تكون غالبا سببا في شق الصف الثوري وإيقاع الفتنة الداخلية-. أما عن موضوع خطابه فقد كان مواكبا لفهم وأعراف السكان المحليين إلى حد كبير، حيث كان يستثير فيهم مشاعر الحمية الدينية والقبلية، ويركز حول المطالب الشعبية الريفية، التي كانت معظمها تدور حول الحرية السياسية والاقتصادية والكرامة الإنسانية والاستقلال.

لقد استطاع الخطابي أيضا إيصال رسالته إلى الرأي العالمي من خلال إرسال الوفود السياسية إلى العواصم الأوروبية العريقة، وبعث الرسائل إلى المجتمعات الغربية لتُتلى في الأحداث والمناسبات السياسية. كما أنه فتح

[٢٤٤] سيف العدل: الصراع ورياح التغيير.

المجال للصحافة الأجنبية لتدخل إلى الريف ثم تخرج منه حاملة الرسائل الثورية إلى بقية العالم. **والخلاصة أننا نعتقد بأن الخطابي قد استثمر جميع الوسائل الدعائية المتوفرة في وقته أحسن استثمار، ووظفها لصالحه أفضل توظيف، كما كانت سياسته الإعلامية شاملة لكل المطالب الشعبية التي تؤثر في الجماهير الريفية والمغربية، وقادرة على مخاطبتهم بما يفتح قلوبهم ويواكب أفهامهم.**

٣) البنية التنظيمية:

اعتبر أبو مصعب السوري منظرُ حرب العصابات أن الانتفاضةَ الشعبية كالأمطار الهائلة التي تأتي في موسم معين وظروف معينة، إن لم يتم تجهيز الأوعية والسدود والقنوات اللازمة للحفاظ على هذه المياه واستثماراها، فإنها سريعا ما ستجفّ وتنضب. بينما إن تمكنا من المحافظة عليها، فإن عملية الاستفادة منها ستستمر حتى أمد بعيد. وهكذا الحرب الثورية، إن لم يتم توجيه جموع الشعب وتأطيره واستثمار طاقته الثورية، فليس الأمر إلا مسألة وقت وتخبو عزيمته وتذبل إرادته. لذا، فمن أجل الحفاظ على النشاط الشعبي من الانحراف أو الذبول، ينبغي أن تكون هناك جماعة منظمة، مرتبطة بمجتمعها ارتباطا وثيقا. وهي من يجب عليها أن تنظم حراك الجموع الشعبية، وتفشل خطط الثورة المضادة، وتحافظ على جذوة الثورة في قلوب الجماهير.

أفضل البنى التنظيمية الثورية تلك التي تستطيع أن تجمع بين التشكيلات النخبوية والشعبية في هيكلية منظّمة، فالكتل النخبوية عادة ما تكون أكثر عطاء وتنظيما وتدريبا وسرعة في الاستجابة وصبرا على الشدة، بينما يستحيل أن تكون قادرة لوحدها على الاستمرار، فوجود الكتل الشعبية ضروريٌّ لمساندتها وإيوائها ودعمها بالإمدادات ومساعدتها في تنفيذ المهام التي تحتاج أعدادا بشرية ضخمة. كما الكتل الشعبية تقوم بعمل مهم جدا لا يمكن أن تقدر الكتل النظامية على فعله، ويتمثل في بثّ القلاقل والتوترات داخل مناطق العدو عبر تنظيم المظاهرات والإضرابات والاعتصامات الحاشدة. أما أسوأ البنى التنظيمية الثورية فهي تلك التي تعتمد بشكل كامل على الهبة الشعبية من السكان وفزعتهم، ومفاسد هذا المبدأ أن الكتل الشعبوية الغير منظمة ستكثر أخطاؤها وهفواتها، وستصعب السيطرة عليها وقت الغنائم، كما أن استجابتها تعتمد بشكل أساسي على المعنويات، والتي قد تكون مفقودة في لحظات الضعف والضغط.

لو عدنا إلى الثورة الريفية الثالثة (١٩٢١-١٩٢٦)، لوجدنا أن البنية التنظيمية التي اعتمد عليها الخطابي تتشكل من نوعين من الأعضاء: الأعضاء النظاميون، والأعضاء الشعبيون. اعتمد الخطابي على الأعضاء النظاميين كرأس حربة في العمليات الدفاعية والهجومية، وكجهاز استخبارات عسكرية ومراسلات، كما قام بتسليمه الأسلحة النوعية والثقيلة. أما الأعضاء الشعبيون فقد كان يعتمد على هبتهم تزامنا مع معارك النظاميين، ليقطعوا طرق إمداد العدو في العمق ويناوشوا مراكزه. والحقيقة أن القوات الشعبية كانت تنشط جدا خاصة عندما تحقق القوات النظامية نصرا، ولو عدنا إلى معارك أنوال لوجدنا أن القبائل الشرقية

تحركت بقوة بعد نصـر أدهار أوبران وإغريبن، وهي من تسـبب في أكبر الخسـائر التي مني بها الإسـبان، حتى أن سلفستري نفسه قيل أنه قد لقي مصره على يد شيخ عجوز ريفي انتفض مع الهبة الشعبية.

والخلاصـة أن الخطابي قد اعتمد تشـكيلا عسـكريا فريدا، يجمع بين حسـنات القوات النظامية والطاقات الشـعبية القبلية، مع ملاحظة أنه لم يكن يعتمد كثيرا على نشـاط القوات الشـعبية السـلمي (التخريب، الإضراب، الاعتصام، المقاطعة...الخ) إلا في مرحلة معينة عندما اندلعت المعارك مع الفرنسين سنة ١٩٢٥، حيث وجه الخطابي الشـعب المغربي إلى مقاطعة المدارس الفرنسـية والتحريض لنصـرة الثوار الريفيين كما مر معنا، وقد كان هذا التقصير بسبب تقديره السياسي الخاطئ تجاه الحياد الفرنسي.

٤) القيادة:

وجود القيادة القادرة على التخطيط واتخاذ القرار السليم في ضوء المتغيرات يعدّ من أهم عوامل القوة في الجماعات الثورية. وكلما كانت هذه القيادة قادرة على احتواء الصف الداخلي والسيطرة عليه في نفس الوقت، كلما كانت الجماعة متماسكة وثابتة وموحدة. من خصائص القيادة القوية:

- أن تكون قادرة على احتواء الصف الداخلي ومنع الانشقاقات والانقسامات.
- أن تكون قادرة على وضع الخطط الاستراتيجية والتكتيكية والنظم الداخلية المواكبة لمراحل الحرب الثورية.
- أن يكون القرار فيها مبنيا على التشاور أولا بما يضمن الوصول أكثر إلى الخيارات الصحيحة، والحزم ثانيا بما يمنع الارتباك والاضطراب في القرارات.
- أن تكون قادرة على تجاوز وتعويض مقتل القيادات وفقد الكوادر، بحيث لا تنتهي الثورة بمقتل بعض رجالها.

لذا، فالهيئة الأضعف التي يمكن أن تكون عليها القيادة في الجماعة الثورية، هي أن يكون القرار متنازعا عليه بين رجال الحرب، دون وجود رأس واحد جامع أو آلية واضحة لاتخاذ القرار. والهيئة الأقل ضعفا، أن يكون القرار بيد رجل واحد ينبني عليه كل شيء، وبفقده تخسر الثورة كل شيء أيضا. أما الشكل الأقوى والأمثل للقيادة الثورية، فهي أن يكون القرار بيد رجل واحد يلتزم بأمره الجميع، لكن مع وجود آلية واضحة لاختيار القيادة واتخاذ القرار، ومؤسسات إدارية تتوزّع المهام، ولجنات استشارية تشارك في بلورة القرارات، ونظم داخلية توجه حراك التنظيم وتبين صلاحيات المسؤولين وتضع حدا للتجاوزات الفردية.

بالنظر إلى الثورة الريفية الثالثة، فإنها في الحقيقة قد حظيت بنمط بديع على مستوى القيادة، ومنذ أن تم اختيار الخطابي سنة 1921 كقائد للثورة، استطاع تأسيس هيكل إداري منظم تتوزّع فيه المهام بين المسؤولين، ومجلس استشاري يساعده في اتخاذ القرار ووضع الخطط، وفي نفس الوقت كان يملك الخطابي صلاحيات

واسعة مكنته من السيطرة على مسار الحرب حتى آخر لحظة واتخاذ القرارات الجريئة. ورغم بعض الاجتهادات التي كانت تقع من جنوده وهو لا يوافق عليها، كتعذيب الأسرى وقتل المستسلمين في موقعة العوري في أغسطس/آب 1921، إلا أن سيطرة الخطابي بشكل عام كانت واضحة عندما أوقف الزحف على مليلية سنة 1921 وعلى فاس 1924، وأخضع قبائل غمارة وجبالة سنة 1925، وعندما حصل على ولاء رجال جبالة الذين كان على رأسهم أحمد أخريرو، ثم استخدمهم في قتال أبناء قبائلهم المتعاونين مع الفرنسيين والإسبان. أما من حيث القدرة على التخطيط، فبنظرنا أن القيادة الخطابية كانت متميزة في التخطيط التكتيكي، لكنها وقعت في أخطاء استراتيجية سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في مواضع مقبلة. وأما من حيث القدرة على الصمود في حال خسارة القائد الأعلى، فلم يحدث أن خسرت الثورة قائدها، لكن حسب تصورنا أن الثورة لم تكن لتنتهي بموت الخطابي، خاصة وأن لها مجلسا استشاريا عاما قادرا على اختيار البديل، كما يوجد أيضا بعض الرجال المميزين القادري على ملئ الفراغ، يأتي على رأسهم امحمد شقيق الخطابي.

وبالعموم فإن قيادة ثورة الريف كانت فريدة من نوعها من حيث القدرة على التخطيط والتأثير والتنظيم، مقارنة بالقادة الذين ظهروا في تلك الحقبة، وكانت تملك نظاما قياديا متكاملا نوعا ما.

٥) نوعية المقاتل:

تلعب نوعية المقاتل دورا كبيرا في مضاعفة قوة الحركة الثورية، فكلما كان المقاتل مدرّبا وقادرا على تحمل الأعباء الثقيلة كلما كانت العمليات الهجومية أكثر نوعية وفعالية وإتقانا. أفضل النوعيات المقاتلة هو المقاتل العقدي المتدرب،[٢٤٥] حيث أن إيمانه وكفاءته العسكرية تمكّنه من تحمل مشاق ومخاطر تكتيكات حرب العصابات وأداء العمليات النوعية بشكل فعال، كما أنه أكثر استجابة لأوامر القيادة (لأن الطاعة عادة ما تكون جزءا من عقيدته وتدريبه)، وهو أقل استنزافا لموارد الجماعة (لأنه بحكم خوفه من اتيان المحرمات العقدية نادرا ما تطرأ عليه جرائم السرقة والاختلاس والإسراف، وبحكم تدريبه عادة ما يكون قادرا على تحديد أكثر طرق الصرف اقتصادا). إن دافعه العقدي يجعله يعمل من أجل قضيته، لا من أجل المكاسب الشخصية، كما أن **تدريبه** على فنون القتال والحرب يكسبه الثقة بنفسه والقدرة العالية على أداء مهمته، وهنا تكمن فرادته.

أما أسوء المقاتلين على الإطلاق فهو من يقاتل فقط من أجل المال، بدون أي قضية أو هدف أو عقيدة أو حتى كفاءة حربية. وتكمن خطورته في فوضوية حركته وتردّده وقت المخاطر وامتناعه عن التضحية، كما أنه معرّض للانقلاب في أية لحظة لصالح من يدفع له أكثر، وقد يكون أيضا مصدر استنزاف اقتصادي بسبب جهله وضعف

---

[٢٤٥] نقصد بالمقاتل العقدي: المقاتل الذي التحق بالثورة لدوافع عقدية سواء كانت دينية أو مادية، وسواء كان يتقاضى راتبا أم لا، حيث أن حصول المقاتل العقدي على الرواتب أو المكافآت المادية لا تجعله بالضرورة أقل فعالية أو أضعف قوة. المهم أن تبقى هذه الدوافع غالبة عليه، ولا تطغى عليه المصلحة المادية.

وازعه العقدي في حال غياب الرقابة الصارمة. بينما يحتل المقاتل المرتزق المتدرب المرتبة الوسطى في هذا العامل، حيث أنه سيكون أقل سوءا من المرتزق الجاهل -بفنون الحرب- من حيث قدرته على تنفيذ العمليات والتزامه بالأوامر، خاصة مع وجود آليات الرقابة والمساءلة الدقيقة.

لو قمنا بتقييم المقاتلين الريفيين من هذا المنطلق، لوجدنا أن الغالب عليهم نوعين من الدوافع، أولها وأكثرها أثرا هو الدافع الديني. وقد مر معنا كيف كانت خطب قائد الثورة تعج بالأحاديث والآيات والعِبر الإسلامية والقصص التاريخية. أما الدافع الثاني والذي كان أيضا ذا أثر كبير في نشاط الثورة، هو الحميّة القبلية التي كانت متأصلة في القبائل الأمازيغية والعربية. وكلا الدافعين القبلي والديني يجعلان المقاتل الريفي مقاتلا عقديا صلبا. أما عن تدريبه وكفاءته الحربية، فقد كان اتقان فنون الحرب واستعمال الأسلحة ضربا من ضروب الشرف في الريف، وقد كان من العيب العظيم ألا يتقن الرجل الريفي استعمال السلاح. وبحكم الصدامات القديمة مع الإسبان، وبحكم الحروب القبلية الداخلية التي كانت تحدث قبل الثورة بشكل مستمر، كان الرجل الريفي متقنا لفنون حرب العصابات بطبعه وفطرته، وقادرا على استعمال الأسلحة الخفيفة بحرفية، وبحسب أحمد محجوب أحد المشاركين في معركة أنوال: "كانت أعداد الإسبان هائلة، غير أنهم لم يكونوا أبدا مثل المجاهدين، كان أحدنا إذا ملك عشرة رصاصات، فإنه يقتل عشرة إسبانيين، وإذا ملك عشرين رصاصة، فإنه يقتل عشرين إسبانيا".[٢٤٦]

الجدير بالذكر أن الخطابي خلال الثورة كان حريصا على تدريب مقاتليه على الأسلحة الثقيلة، حيث استقدم العديد من الخبرات الأجنبية وقام بتفعيلها. وخلال الحرب أثبتت المدفعية الريفية فاعليتها في قصف العواصم المحتلة، حيث تم قصف مليلية في أغسطس/آب 1921، وتطوان بشكل متواصل ومؤذيٍ جدا طيلة سنة 1925. كما أن الثوار استعملوا المدفعية في تدمير المراكز الإسبانية المحصنة، فمثلا أبيدت كل حامية مركز "إمالو" القريب من مليلية في سبتمبر/أيلول 1921 فقط باستخدام المدفعية، وفي فبراير/شباط 1924 تم إعطاب السفينة "كاتالونيا" التي كانت تقوم بإمداد مركز أمتار باستخدام المدفعية. **والخلاصة أن دوافع المقاتل الريفي كانت عقديّة (دينية، قبليّة) بالأساس، كما كان خبيرا في أساليب حرب العصابات ومحترفا في استعمال الأسلحة الخفيفة والمدفعية.**

٦) التسليح:

يعد حصول الثوار على الأسلحة والذخائر شرطا أساسيا لخوض الثورة المسلحة، فكلما كانت الثورة قادرة على تحقيق اكتفائها الذاتي على مستوى التسليح بشكل مستديم، كلما كانت الحركة الثورية قوية ومتماسكة ومستقلة القرار. أبرز المخاطر التي تهدد الثوار في هذا العامل أن تفقد الحلفاء الداعمين وتفقد القدرة على تحصيل السلاح من عند العدو. وأقلها خطورة أن تتكل في تسليحها بشكل كامل على دعم القوى الدولية التي قد

[٢٤٦] وثائقي الجزيرة، أسطورة الريف عبد الكريم الخطابي.

ينقطع دعمها مع تغير الظروف الدولية وتقلّب المصالح القومية، أو على الأقل سيؤثر دعمها بشكل مباشر على استقلال قرار الثورة ومسار الحرب. أما أمثل الحالات، فهي أن تكون الجماعة الثورية معتمدة بشكل أساسي على ما تغنمه من عدوها وما تنتجه معاملها العسكرية -ولو كانت متواضعة في بدايتها-. وبحسب روبرت تابر فإن "على ثائر العصابات أن يذكر دائماً بأن عدوه هو المصدر الوحيد للحصول على السلاح، وعليه -إلا في بعض الظروف الخاصة- ألا يشتبك في معركة لا تؤدي إلى غنائم من الأسلحة والعتاد العسكري".[٢٤٧] وفي حال حصلت الحركات الثورية على مزيد من الأسلحة النوعية من عند حلفائها السياسيين فإن ذلك سيزيد أيضا من قوتها.

والخلاصة أن اعتماد الثوار مبدأ التسليح من خلال العدو، يكسبهم نشاطا هجوميا متواصلا، وطبيعة حربية متكيّفة مع الظروف، واستقلالا سياسيا على مستوى القرار. وفوق هذا إن حصلوا على دعم دولي نوعي ومأمون فإنه سيزيدهم قوة على قوة.

ولو عدنا إلى الثورة الخطابية، لوجدناها كانت تعتمد بشكل كامل تقريبا على الغنائم. وقد حققت من خلال هذا اكتفائها الذاتي تقريبا طيلة سنوات الحرب. لكن هذا الاكتفاء في الحقيقة لم يكن إلا على مستوى الأسلحة الخفيفة والمدفعية، حيث أن الثورة بقيت مفتقرة للأسلحة النوعية، ولم تستطع أبدا أن تحصل على سلاح يوازي قوة الأعداء البحرية والجوية، رغم اكتساباها لبعض الطائرات والسفن الحربية. ولأن ثورة الريف كانت تفتقد للحليف الدولي، فإنها لم تحصل على أي أسلحة نوعية من الخارج تمكنها من مواجهة القوة الجوية والبحرية للعدو، وقد مر معنا كيف كان للقصف الجوي والبحري الأثر الكبير في سقوط أجدير إثر إنزال الحسيمة في سبتمبر/أيلول ١٩٢٥. أما التصنيع الحربي الثوري، فقد كان متواضعا جدا، واقتصر على صيانة الأسلحة الخفيفة والمدفعية، وصناعة القنابل الفردية بأسلوب بدائي. **وهذا ما يجعلنا نصنف ثورة الريف الثالثة انطلاقا من هذا العامل في المرتبة الوسطى، وهي: "الاكتفاء الجزئي الذي لا يوازي قوة العدو".**

٧) اختيار التكتيكات المناسبة بحسب المرحلة الثورية:

يعتمد النجاح في حرب العصابات على فهم طبيعتها فهما عميقا، فكل من أساء فهمها من القوات الحكومية أو الثورية خسر فيها. إن الثورة المسلحة في حقيقتها وسيلة يستعملها الضعيف في مواجهة من يفوقه قوةً وبأسا، ولهذا السبب تم تشبيهها بحرب البرغوث والكلب، ولك أن تتخيل الفارق بين البرغوث والكلب على مستوى القوة. إن هذه الحقيقة تفرض على الثوار استعمال تكتيكات معينة تحافظ على حياتهم خلال سير الحرب وفي نفس الوقت تستنزف عدوهم ليصل إلى مناخ الانهيار. والمبدأ العام الذي يجب على الثوار أن يلتزموا به خلال عمليات الهجومية والدفاعية حتى آخر الحرب هو: "أقل خسارة للثوار، وأكبر خسارة للعدو".

[٢٤٧] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

لهذا السـبب قام ماو بتقسـيم الحرب الثورية إلى عدة مراحل، ففي المرحلة المسـلحة الأولى يكون الثوار أقل قوة بكثير، لذا سـيكون عملهم يعتمد بشـكل كامل على الاختفاء والحركة والانتشـار دون أي سـيطرة على الأرض أو تنفيذ معارك جبهوية. أما في المرحلة الثانية فتكون قوتهم قد نمت قليلا مقارنة بقوة عدوهم التي ضـؤُلت، لكنهم أيضـا رغم ظهورهم في المناطق المحررة ومحاولة سـيطرتهم على الأرض، تبقى عملياتهم بعيدة عن العمليات العسكرية النظامية الشاملة، بل يهاجمون بأساليب نوعية ويدافعون بأساليب نوعية، وذلك كما قلنا ليتجنبوا أكبر قدر ممكن من الخسـائر في صـفوفهم، ويوقعوا أعظم قدر ممكن من الخسـائر في صـفوف الأعداد. والحقيقة أن الثوار لا يقاتلون بأساليب الاجتياح النظامية، إلا في المرحلة التي تصبح فيها قوة عدوهم قريبة من قوتهم، ولم يبقَ له إلا بعض الحاميات الضـعيفة في العواصـم المهمة.[٢٤٨] هذا في حال كان عدوهم حكومة محلية، أما إن كان سلطة استعمارية، فإنهم غالبا لا ينتقلون إلى الأساليب النظامية إلا عندما تقرر -أو توشك أن تقرر- الدولة الأجنبية الانسحاب بسبب ضخامة الخسائر الاقتصادية والسياسية مقارنة بالمكاسب التي يمكن تحقيقها.

أهم ما ينبغي على القيادة الثورية فهمه أن الانتقال من تكتيكات العصـابات التي تعتمد على العمليات النوعية والتملص إلى التكتيكات النظامية التي تعتمد بشـكل كبير على المواجهة المباشـرة بالقوة البشـرية والنارية؛ يعدّ انتحارا محققا. لأنه حتى لو كان الثوار يملكون بعض الأسلحة والأعداد البشرية التي تمكنهم من شن هذه الأنواع من المعارك أحيانا، إلا أنهم في الحقيقة لا يملكون القدرة على تعويض الخسـائر بالقدر الذي يملكه النظام أو السـلطة الاسـتعمارية، وحتى لو كان الثائر يقتل عشـرين من العدو خلال المعارك النظامية، وكانت قذيفته

[٢٤٨] جاء في كتاب "نشوب الثورة المسلحة": تتضمّن الإستراتيجية التّقليدية استخدام قوات الثوار لتدمير القوات المسلحة الحكومية أو أسرها، ومن ثمّ السّيطرة على مقدّرات الحكومة؛ من السّكان أو الأراضي أو المدن أو المراكز الصناعية وعُقد الموصلات الحيوية. الهدف هو كسب الحرب في مواجهةٍ حاسمة أو سلسلةٍ من المعارك تُدمِّر القدرات المادية للخصم التي تمكنه من المقاومة. على سبيل المثال، قد تتقدم قوات المهاجم للاستيلاء على المقدرات الاستراتيجية للمُدافع -مثل مدينة أو قاعدة عسكرية- ويتحرك المدافع لمواجهة هذا الجهد. ومن ثم تقع معركةٌ أو سلسلةٌ من المعارك، تتخللها فترات هدوء في القتال، إلى أنْ يُهزَم أحد الطرفين.

خلافاً لاستراتيجية حرب العصابات، تُركّز الاستراتيجية التقليدية على هزيمة قوات الأمن الحكومية، بدلاً من محاولة كسب السّكان المحليين. والهدف العسكري الرئيسي منها هو تدمير القوات الرئيسية للحكومة؛ بينما الهدف السّياسي الرئيسي هو إسقاط السّلطات الحاكمة. في الحروب التّقليدية تكون المواجهة العسكرية مباشِرة، إما عبر خطوط الجبهات واضحة المعالم أو على نحو أرتالٍ مسلحةٍ تشتبك فيما بينها. غالباً ما تتخذ الاشتباكات شكل سلسلةٍ من المعارك، وحروب الخنادق، وحصار البلدات والمدن.

كان الكثير من الثوار سيسعدون باعتماد استراتيجية تقليدية، إلا أنَّ ضعفهم وعجزهم عنها منعهم من اعتمادها، على الأقل في المراحل الأولى من الثورة. ويُعتبَر هذا سبباً جزئياً لدعوة ماو إلى تأخير اعتماد هذه الاستراتيجية حتى المرحلة الثالثة."

المدفعية تدمّر عشرة مدافع للأعداء، فإنه ستنتهي قواته وذخائره سريعا مقارنة بالعدو الذي يستطيع تعويض ضباطه ومُشاته وأسلحته سريعا من مستودعاته ومصانعه ومعسكراته الضخمة. يجب على الثائر أن يحافظ على نفسه وعلى طاقته، وأن يبتدع الوسائل الحربية الغير نظامية لتحقيق أكبر خسارة في العدو مع أقل خسارة في صفه، لأنه ببساطة إذا قُتل القائد أو الجندي الثوري، أو نفذت الذخيرة أو تعطلت الأسلحة الثورية، فإنه لا يمكن تعويضهم إلا بمشقة كبيرة وفي وقت طويل، وأحيانا لا يمكن تعويضهم أبدا. إلا في حال حظيت الثورة بداعم دولي كريم وسخي.[٢٤٩]

إن انتقال الثوار إلى الاستراتيجية التقليدية في غير وقتها المناسب سيكون بمثابة تقديمِ النصر للقوات الحكومية أو الاستعمارية على طبق من ذهب، لأنهم في الحقيقة كانوا يعانون جدا من خفة حركة الثوار وسرعة تملصهم وأساليبهم الغير نظامية، وكانوا يودّون لو أن الثوار يظهرون لهم ويكشفون أنفسهم في معارك ثابتة ويقاتلونهم بالأسلوب الذي يتقنونه كجيش نظامي. إن حصول ذلك يعني بالنسبة لمكافحة التمرد امكانيّة القضاء على الثورة بشكل كامل. لقد حدث وانتقل الثوار اليونانيون إلى الأساليب النظامية في الوقت الغير مناسب فهُزموا هزيمة منكرة، وقد صرح الملك بول -الذي تولى العرش اليوناني في عام ١٩٤٧- قائلاً: "لقد أخطأ قُطّاع الطرق، فقد تحولوا إلى الأسلوب النظامي من الحروب، وبوحداتٍ كبيرة، وعندها وقعوا في شرّ أعمالهم. قبل ذلك، كنا إذا وجّهنا إليهم ضربةً يتبخرون في الهواء، ثم يعودون مرةً أخرى ويهاجمون إحدى القرى".[٢٥٠] وكما يوجد جماعات ثورية انقرضت بشكل كامل بسبب اختيارها الخاطئ لوقت الانتقال إلى الحروب النظامية، فهناك أيضا جماعات أخرى استطاعت تقييم أخطائها وغيرت من استراتيجياتها وأنقذت نفسها قبل الهلاك، وكمثال حي على ذلك استطاعت الجبهة المتحدة الثورية في سيراليون[٢٥١] العودة من جديد إلى الأساليب الغير نظامية، وقد خلُص تقييمها لنفسها أنه: "في البداية، خضنا حرباً شبه نظامية، مُعتمدين بشدةٍ على مركبات الحركة. وقد ثبُت أنَّ هذه الطريقة مُهلكة في مقابل القوة النّارية المشتركة لنيجيريا وغوانا وغانا...فنشرنا ما تبقى من قواتنا ضمن وحداتٍ صغيرة. نصحنا المدنيين بالتّخلي عن البلدات والمدن، وهو ما فعلوه. لقد دمّرنا جميع مركباتنا وأسلحتنا

[٢٤٩] من الحالات التسع والثمانين منذ الحرب العالمية الثانية التي استخدمت فيها المجموعات الثورية استراتيجية تقليدية في وقت ما خلال الحرب؛ ٧٠ % منها تلقّى دعما من عند دولةٍ معيّنة.

[٢٥٠] سيث جونز: نشوب الثورة المسلحة، تعريب مركز الخطابي.

[٢٥١] جمهورية سيراليون هي دولةٌ في غرب قارة أفريقيا، تقع على ساحل المحيط الأطلسي، تحدها غينيا من الشمال وليبيريا من الجنوب الشرقي.

الثّقيلة التي من شأنها أنْ تؤخر تقدمنا وتكشف مواقعنا. الآن، تحولنا للاعتماد على الأسلحة الخفيفة، وكذلك اعتمدنا على أقدامنا وعقولنا ومعرفتنا بالريف. لقد انتقلنا إلى عمق أحضان أرضنا الأم؛ الغابة."[٢٥٢] [٢٥٣]

ذكرنا في الفصول السابقة أن الخطابي انطلق في ثورته مباشرة بالمرحلة الثالثة (مرحلة الصدام المسلح الجهوي)، وقد ذكرنا أيضا فيما سبق الظروفَ التي استدعت ذلك. ولو قمنا بتقييم فارق القوى بين الثوار وقوات الاحتلال لوجدنا أن السلطات الاستعمارية طيلة مدة الحرب (١٩٢١-١٩٢٦) لم تكن قد وصلت بعد إلى مناخ الانهيار والضعف الذي يجبرها على الانسحاب من المغرب أو على الأقل القبول باستقلال جزء منه. لذا، فإن استعمال التكتيكات النظامية من قبل الثوار ضد القوات الإسبانية والفرنسية كان سيعد قرارا مهلكا بالنسبة للخطابي. ولو قمنا بتقييم التكتيكات الخطابية ومدى التزامها بالمسار الذي يجب أن يكون عليه المسار الطبيعية لتطور الثورة المسلحة، لوجدنا أن الثوار الريفيين كانت ملتزمين خلال هجوماتهم بالتكتيكات الغير نظامية بشكل موفق جدا. لقد تم تحرير أدهار في يونيو/حزيران ١٩٢١ بعملية نوعية تسلل خلالها الثوار إلى المركز من ثلاثة محاور مختلفة. وتم تحرير مركز سيدي إدريس في ١٥ يونيو/حزيران ١٩٢٩ ومركز إغريبن في يوليو/تموز ١٩٢١ بعملية نوعية أيضا بعد قطع طريق إمداده من خلال الكمائن المتكررة، ومناوشة حاميته بشمل مستمر لتنهار معنويا في ضوء الاشتباكات المتواصلة والحصار، ولتقوم بانسحاب غير منظم يقتل خلاله معظم قواتها في كمائن الثوار المعدة مسبقا.

لقد اتّسم التكتيك الهجومي الريفي الغير نظامي تقريبا بنفس المراحل التالية: توزيع المجموعات الصغيرة النوعية ذات قدرة التحمل طويلة الأمد لتقوم بتنفيذ الكمائن واستثمار الموانع الطبيعية بهدف قطع طرق إمداد العدو ومنع المؤازرات من الوصول إلى الهدف، ثم استعمال المناوشات المتكررة لتنهار القوات المحاصرة وتقوم بالانسحاب الفوضوي، ثم إبادة القوات المنسحبة في الكمائن المعدة مسبقا في مواضع جغرافية محصنة.[٢٥٤] وقد كان الثوار خلال تطبيقهم لهذا التكتيك يستخدمون فنون التحصين الأرضي (خنادق، أنفاق،

---

[٢٥٢] سيث جونز: نشوب الثورة المسلحة، تعريب مركز الخطابي.

[٢٥٣] ليس بالضرورة أن يعود الثوار إلى المرحلة المسلحة الأولى (الصدام المسلح السري)، فقد يخلص تقييمهم لتجربتهم أن يقوموا بالعودة من المرحلة المسلحة الثالثة (الحسم النظامي) إلى المرحلة المسلحة الثانية (الصدام المسلح الجهوي)، بحيث لا يتخلون عن الأرض المحررة بشكل كامل، وإنما لا يدافعون عنها أو يهاجمون منها بالطرق النظامية، وإنما بالطرق الغير نظامية التي تحدثنا عنها خلال شرحنا لمرحلة الصدام المسلح الجهوي.

[٢٥٤] جاء في بعض المصادر أن الخطابي "كان يستخدم تكتيكا يسمى «أسلوب الدائرتين»، دائرة تحاصر الموقع الذي يهرع إلى طلب النجدة وتناور بإطلاق النار، ودائرة أخرى أكبر حجم تكمن على مسافة بعيدة عن الموقع المحاصر لمهاجمة فرق النجدة التي كان يجب عليها أن تدافع ضد الكمائن في ظروف قاسية ضد القوات الريفية غير المنظورة. وقد كانت هذه العملية تتم بمحاصرة الموقع المعادي لعدة أيام أو أسابيع ومنع وصول النجدات إليه حتى يتحقق انهيار معنويات القوات الإسبانية داخل المركز، ثم يبدأ المقاتلون بمهاجمة المركز والاشتباك مع قواته حتى بالسلاح الأبيض وتحقيق الاشتباك التام بين الطرفين حتى لا تستطيع

سـواتر...الخ) كذلك بشـكل غير نظامي. وهكذا تم إبادة قوات وادي لاو في أغسـطس/آب سـنة ١٩٢٤، والقوات التي كانت متوزعة بين شـفشـاون وتطوان في ديسـمبر/كانون الأول ١٩٢٤، وهكذا أيضـا تم القضـاء على القوات الفرنسية التي كانت متوزعة في مناطق وادي ورغة سنة ١٩٢٥.

نعتقد أن الثوار خلال حرب الريف الثالثة كانوا على التزام كامل في الهجوم بتكتيكات حرب العصـابات، ولقد أبدعوا في اسـتخدام الوسـائل الغير نظامية بشـكل فريد. إلا أننا نعتقد أيضـا أن العمليات الدفاعية التي كانوا يقومون بها كانت كثيرا ما تتسـم بالطابع النظامي وهذا خطأ كبير. في عمليات الاسـترداد الإسـبانية التي انطلق بها فرانكو من مليلية في سبتمبر/أيلول ١٩٢١ كان جليا أن القوات الثورية أصبحت تعتمد بشكل كبير على المواجهة باسـتخدام القوة البشـرية والمدفعية، ولم تتميز العمليات الدفاعية في الجبهة الشـرقية بين ١٩٢٢ و١٩٢٣ بأسـاليب الدفاع في العمق مثلا، أو الالتفاف أو الكمائن أو القتال التقهقري إلى غير ذلك من وسـائل الدفاع الغير نظامية، إلا أخيرا عندما وصـل الإسـبان إلى منطقة تيزي عزة قريبا من بن طيب وتوقفوا هناك بعد أن خسـروا ألفي جندي بسـبب التفافات الثوار وقطعهم لطرق الإمداد. وعندما قمنا بتقييم دفاع الثوار في هذه الجبهة، قلنا لعلهم اضـطروا إلى الدفاع النظامي بسـبب قلة التضـاريس الجغرافية الوعرة بين محور مليلية وبن طيب، إلا أننا عندما قمنا بتقييم العمليات الدفاعية التي قادها الخطابي ضد إنزال الحسـيمة في سـبتمبر/أيلول ١٩٢٥ وجدنا ان الخطأ نفسه يتكرر من جديد. لقد كانت الدفاعات الثورية في الحسيمة تعتمد بشكل كبير على المدفعية الخفيفة والثقيلة، والقوة البشـرية، والألغام، والتحصـينات العسـكرية الممتدة. وهذه الوسـائل في الحقيقة أقرب إلى التكتيكات النظامية أكثر منها إلى التكتيكات الغير نظامية. لم يكن هناك في الحسـيمة حسـب علمنا أية خطة لاسـتدراج القوات الاسـبانية نحو مناطق قاتلة، أو ترتيب هجوم معاكس لها في مناطق جغرافية تخدم الثوار، أو التخطيط لاسـتنزاف الحملة وإيقافها من خلال القتال التقهقري، بل إنه لم يكن هناك أية مدفعية متأخرة تخطط لضـرب الإسـبان في المناطق التي سـيطروا عليها حديثا. والظاهر أن الدفاعات الثورية كانت في خط واحد أمامي، وقد انهار الثوار بمجرد سقوط هذا الخط.

وفي الخلاصـة، نظن أن الثورة الخطابية قد التزمت التزاما كاملا في عملياتها الهجومية بتطبيق تكتيكات حرب العصابات، بل إن اسـتعمالها للمدفعية خلال الهجوم كان أقرب إلى الأسلوب الغير نظامي، حيث كانوا يحملون

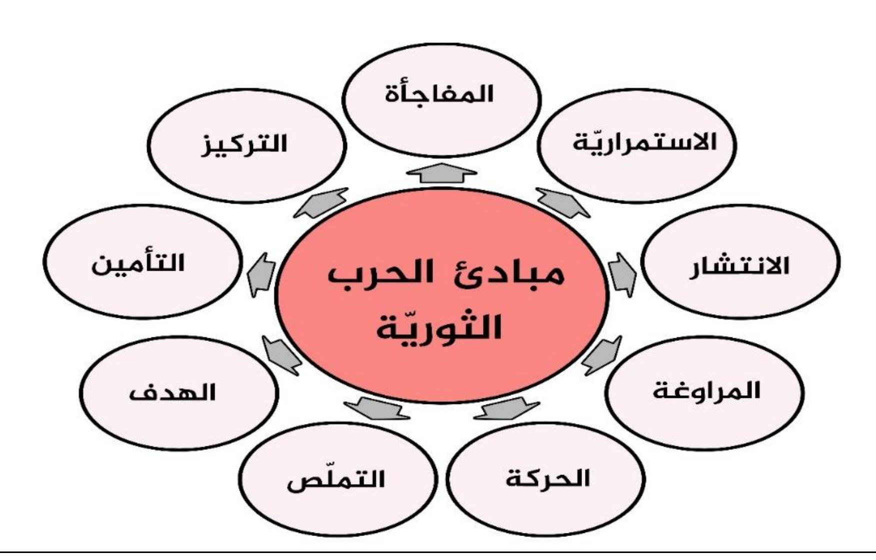
الطائرات أن تفتك بهم، فتسقط تباعا. وقد كان لهذا الأسلوب القتالي أثره على مسيرة بعض الثورات العالمية، فقد استعملها الزعيم الفيتنامي هوشي منه قائلا، أن محمد بن عبد الكريم الخطابي كان أحد رواد الحرب الشعبية"، وينقل ابن عزوز عن شاهد عيان إسباني قوله: "بفضل هذا التنظيم الذي أدخله عبد الكريم الخطابي على الحركة - القوات الريفية - أصبحت قوافل تموين المراكز الثانوية من مركز أنوال الرئيس تحتاج إلى خوض معارك للوصول إلى مكانها، لدرجة أن كل قطرة ماء كانت تصل إلى مركزيْ اغريبن وبويجان مثلا، كنا نؤدي ثمنها بقطرة دم".

المدفعية ويتسللون بها إلى مناطق مرتفعة في عمق العدو ويضربون مراكز الحساسة في العواصم الكبرى كما فعلوا بضرب تطوان من جبال غرغيز سنة ١٩٢٤. غير أن عملياتهم الدفاعية كان يغلب عليها الطابع النظامي، **وهذا ما يجعلنا نصنّف الثورة الخطابية في المرتبة الوسطى من هذا العامل، وهي تطبيق تكتيكات الثورة المسلحة بشكل متقلّب وخاطئ أحيانا.**

٨) تطبيق مبادئ الحرب الثورية:

بفعل الحروب التي جرت في القرون الماضية، وكذلك عبر دراسة أسباب الهزائم والانتصارات في المعارك السابقة، قامت كل أمة بتدوين مجموعة من الأصول والمبادئ، واعتبرتها مقدمةً لفن الحرب. قد يكمّل كل واحد من هذه المبادئ مبدأً آخر، وأحيانا قد يضعفه أو يلغيه. وإن معرفتها وفهمها وإفهامها وكيفية استعمالها في ميدان المعركة، تتيح للقادة العسكريين القدرة على إعداد وتنفيذ الخطط العملياتية الصحيحة، دون إغفال كافة الأبعاد والأحداث المؤثرة عليها. يعتقد الخبراء العسكريون في العالم عموما، أن الحرب وفي أي حجم كانت، لها خمسة أركان أساسية، تلعب دورا في النصر أو الهزيمة أو اعتماد مبادئ الحرب، وهذه الأركان هي: العوامل الجغرافية المختلفة، المجتمع والسكان، التقنيات والتكنولوجيا، الموارد اللوجستية وديمومتها، التكتيك والأسلوب الحربي.

وقد اتفق الخبراء الغربيون والشرقيون تقريبا على أن مبادئ الحرب تسعة: الهدف، الهجوم، حشد القوى، الاقتصاد في القوى، المناورة، التأمين، وحدة القيادة، المباغتة، البساطة. إلا أن هذه المبادئ في الحقيقة قد وضعت بعد دراسة الحروب التقليدية، والظاهر أنها لم تراع الحروب الثورية بشكل كامل، ولو كان بعضها موجودا في الحروب الثورية. ولأننا لم نجد في المراجع التي تحدثت عن الثورات المسلحة أي مادة علمية ذكرت بشكل واضح ومؤصّل مبادئ الحرب الثورية، قمنا في مركز الخطابي بعد دراسة موسّعة للثورات المعاصرة باعتماد نموذج معين من المبادئ، بحيث يكمّل هذا النموذج ما ذكرناه سابقا عن عوامل القوة الخارجية والداخلية للثورة، وسننطلق منه لتقييم الثورة الخطابية.



نموذج تقريبي يوضّح مبادئ الحروب الثورية

المبدأ الأول: الهدف.

وهو ما يُقصد الوصول إليه من خلال الحرب. وبعبارة أخرى هو تصوّر أمر ما، ينبغي أن تُحشد كافة الجهود لاحقا في سبيل الوصول إليه. ويُشترط أن يكون الهدف محدّدا وواضحا، وأن تكون إمكاناتنا القتالية قادرة على تحقيقه أولا، وقادرة على الحفاظ عليه ثانيا. قد يكون الهدف لحرب ما كبيرا جداً وعاما (يسمى آنذاك هدفا استراتيجيا) ولا بد لتحقيقه من تقسيمه إلى سلسلة من الأهداف الصغيرة (التكتيكية)، كما قد يكون الهدف متنوّعا إلى سياسي، وعسكري، واجتماعي، وأمني، واقتصادي...الخ.

الهدف النهائي من الثورة المسلحة هو: "إيقاع العدو في مناخ من التفكك والاستنزاف المادي والمعنوي والسياسي يوقعه في الانهيار أخيرا إذا كان سلطة محلية، أو يجبره على الانسحاب في حال كان سلطة استعمارية"، بخلاف هدف الحرب التقليدية الذي يتمثل في: "كسر إرادة العدو القتالية من خلال تدمير قواته والسيطرة على أرضه". وبحسب روبرت تابر فإن هدف الثوار هو: "العمل عسكريا لاستنزاف العدو وإنهاكه، وتحقيق التآكل المعنوي للقوات الحكومية عن طريق إجبارها على إنفاق كميات أكبر من المال والمعدات والأفراد، وذلك في جهدها لسحقهم وإزالتهم، وأن يعملوا في الوقت نفسه على تنمية قواهم الخاصة، بسلب أسلحة القوات الحكومية، وأن يزيدوا عددهم بتطويع عدد أكبر من أفراد الشعب الذي يتزايد كرهه للنظام، وأن يبتعدوا عن كل مواجهة عسكرية حتى اليوم -وهو لا بدّ آت- الذي يحققون فيه توازن القوى."[٢٥٥] وهذا المبدأ هو اللِّبنَة الأولى وأساس المبادئ الأخرى، ويضع بقية المبادئ تحت شعاعه، وبمعزل عن الهدف لن يكون لبقية المبادئ أي مفهوم ومعنى.

الجدير بالذكر أن الهدف الاستراتيجي في الثورة المسلحة، يتم تقليصه أو توسيعه بحسب الموارد والظروف الداخلية والخارجية، بحيث في حال كانت الثورة تعاني مثلا من ضآلة المجال، أو فقدان الحليف السياسي، أو فقدان الموارد المادية، أو فقدان التضاريس المناسبة...الخ فعليها وقتها تقليص أهدافها الاستراتيجية، فمثلا يمكنها أن تجعل هدفها: الحصول على إدارة ذاتية حقيقية تحت مظلة الدول الاستعمارية، بدلا من خروج قوات الاستعمار بشكل كامل.

المبدأ الثاني: الهجوم.

في الحرب الثورية يتم الهجوم على العدو بغية تدمير جزء من قواته أو تخريب بنيته التحتية ومرافقه اللوجستية، أو لمجرد الدعاية الإعلامية والمكاسب السياسة، أو لتحصيل الموارد العسكرية والاقتصادية. يحقق مبدأ الهجوم للثوار معنويات عالية وقدرة عالية على السيطرة مقارنة بالمدافع الذي غالبا ما يكون معرضا أكثر للانهيار والفوضى، كما أنهم يحافظون من خلاله على مسارهم الاستراتيجي والتكتيكي بعكس المدافع الذي يبقى أسير ردود الأفعال. والحقيقة أن الثوار يستخدمون مبدأ الهجوم حتى في عملياتهم الدفاعية، فعدم قدرتهم على

[٢٥٥] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

الدفاع الثابت أمام القوات التي تفوقهم قدرة وقوة، يجبرهم على الدفاع عن طريق عمليات الالتفاف والكمائن والفخاخ والمناوشات...الخ. وهم من خلال تطبيقهم لهذا المبدأ يحمون أنفسهم من الحملات الضخمة التي كانت ستحصل لهم لو أن القوات المعادية تفرغت من الدفاع إلى الهجوم.

والخلاصة أن الثوار إذا هاجمهم عدوهم فإنهم يصدّونه باستخدام مجموعة من العلميات الهجومية الدفاعية، وإذا خيّم عدوهم يهاجمونه بالعمليات النوعية والمناوشات، أما إذا انسحب فإنهم أيضا يطاردونه أو يهاجمونه بالكمائن المعدة مسبقا.

المبدأ الثالث: التركيز.

وهو حشد معظم القوات والمعدات والاستفادة الفاعلة منها في المكان والزمان المناسبين، في الوقت الذي نستخدم فيه الحد الأدنى للقدرة القتالية في مواجهة العدو في بقية الأماكن، وقد يطلق أيضا على هذا المبدأ اسم **"الحشد"** وقد يعتبره البعض قريبا جدا من مبدأ "الاقتصاد في القوة". والقصد منه هو الحصول على التفوق الكامل على العدو في نقطة حاسمة أو في المحور الرئيسي للمعركة. يتحدث جياب عن هذا المبدأ فيقول: "إنه من الضروري تشكيل قوى هامة، في الأوضاع الملائمة، للحصول على التفوق في مكان وزمن محددين بغية إبادته. وعندما تتراكم النجاحات الصغيرة، فإنها تستنزف جنود العدو تدريجياً وتزيد عدد قواتنا، والهدف الأساسي من هذا التركيز هو إبادة قوات العدو دون تعريض قواتنا للدمار".[٢٥٦] ويقول صن تزو: "إذا كنتُ قادراً على معرفة تدابير العدو، وإخفاء إجراءاتي عنه عندها يمكنني أن أحشد قواي، بينما تتجزأ قواته. فإذا احتشدت قواتي وتجزأت قواته، أمكنني أن أستعمل كل قواي لمهاجمة جزء من قواته. يجب ألا يعلم العدو متى وأين سأشن المعركة. فإذا لم يعرف ذلك، كان عليه أن يتحضر لي في أمكنة عدة، وما سأهاجمه من قوى في مكان ما سيكون ضعيفاً، لأنه عندما يستعد في كل مكان، سيغدو ضعيفاً في كل مكان".[٢٥٧]

وقد اعتمد ماو نظريته الشهيرة **"التفوق المحلي"** انطلاقا من هذا المبدأ، وبحسب أبي مصعب السوري فإن هذه النظرية تعني: "أنه يجب أن يكون الثوار في المعركة الواحدة متفوقين على العدو في العدد والعدّة ثلاثة أضعاف، رغم أنهم مقارنة به في كامل البلد ضعيفون جدا، فقد يكون العدو مئة ألف جندي، بينما لا يملك الثوار إلا مئة جندي، أي أنه أكبر منهم ألف مرة، ولكن عندما تتحرك دورية من خمس أو عشرة أشخاص يجب أن يهاجمها الثوار بعشرين شخص، بحيث يكونون في هذه المعركة متفوقين في العدد ومتفوقين في القدرة النارية. وبعد السحق السريع تتم عملية الانسحاب"[٢٥٨]

---

[٢٥٦] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٥٧] صن تزو: فن الحرب.

[٢٥٨] أبو مصعب السوري: إدارة وتنظيم حرب العصابات، مع بعض التهذيب.

المبدأ الرابع: الانتشار (التوزع).

بينما يعمل مبدأ التركيز على توفير أكبر قدر من القوة، فإن مبدأ الانتشار يحقق أكبر قدر من السيطرة. ولأن الثوار لا يبحثون عن السيطرة أبدا، إلا في مراحل متأخرة جدا من الحرب الثورية، فإنهم يحققون عاملا شديد الأهمية من خلال الانتشار بدلا عن السيطرة، وهو تشتيت العدو وإجباره على توزيع قواته ليصبح ضعيفا في كل النقاط. وكما أنهم بتطبيقهم لهذا المبدأ يفقدون عدوّهم القدرة على محاصرتهم، إذ سيتعذر عليه ذلك إذا كان الثوار قد انتشروا على مساحة واسعة جدا من البلاد. ولأن وجود مراكز ثقل جغرافية للثوار قد يهدد الثورة في حال استطاع العدو السيطرة عليها بحملات الاجتياح، فإن تطبيق مبدأ الانتشار يجعل الثوار لا يملكون أي مركز ثقل جغرافي، وبالتالي لا يجد العدو شيئا يسيطر عليه ليحسم الحرب. ويتكامل هذا المبدأ مع مبدأ المراوغة والحركة.

الجدير بالذكر أن مبدأ التركيز والانتشار يكمّل كلّ واحد منهم الآخر. ويتحدث أبو مصعب السوري عن ذلك فيقول: "لو تصورنا أن البلد مُقَسَّمة إلى أربع ولايات، وكل ولايةٍ فيها عشر مراكز، وكل مركز كبير حوله ١٠ مراكز صغيرة، بحيث صار عددها ٤٠٠ مركز، وللعدو في كل مركز عادي ٥ أشخاص، واحتفظ في الثكنة المركزية لكل مدينة بمئة جندي، وفي الثكنة المركزية للولاية بألف جندي. لا تستطيع العصابة في البداية أن تهاجم بخمسة أشخاص مركزا يحوي عشرين جنديا، ولا تستطيع أن تنصب كمينا بعشرين مقاتل لرتل من المدرعات يضم كتيبة أو لواء يحوي ثلاثة آلاف جندي، خاصة مع وجود طيران الهليكوبتر وهو العدو الأساسي للعصابات، لأنها بكل بساطة دبابة طائرة، معظم الأسلحة الأرضية لا تؤثر فيها إلا الصواريخ، والصواريخ يندر ويصعب وجودها في أيدي العصابات في مراحلها الأولى.

فالحل لهذه المشكلة أن تقوم بإيقاع العدو في مصيدة التمركز والانتشار، أنت بخلاياك الصغيرة تهجم على المواقع الضعيفة في معظم البلدات، تهجم هنا وهناك فتكون منتشرا، مما يُشعر العدو أنه قد فقد السيطرة وأن مراكزه الصغير ضعيفة والأعداد فيها قليلة، فيقوم بإفراغ المراكز الكبيرة من القوات ويوزعها على كل البلد من أجل أن يسيطر عليها؛ فإذا نشر قواته في كل البلد من أجل السيطرة ستجد أن عدد القوة في المكان الواحد بسيط، لأنه إن كان يملك مئة ألف جندي فنشرهم على ألف موقع فلن يبقى معه إلا مئة جندي في الموقع الواحد... إن العدو عندما ينتشر يفقد القوة في كل مركزٍ لوحده، ويصبح أمامه أحد خيارين: إما أن يجمع القوات في مراكز قليلة حتى تكون قوية، فيفقد السيطرة، أو ينشرها في كامل البلد فيفقد القوة، لأنه إذا جمع القوات في مراكز أساسية أصبحت المسافة بين كل مركز ومركز طويلة وخاوية من الرقابة مما يفقده السيطرة ويمكن العصابات من الحركة. والعصابة في هذه الحالة تستفيد من نقطتين، **لأولى:** أن العدو حتى يسيطر يتحرك كثيرًا، والتحرك يضعفه، بل هو نقطة ضعف القوات العسكرية، فتقوم العصابات بنصب الكمائن على الأرتال المتحركة. أما **الثانية:** فهي أن المراكز الأساسية التي فيها السلاح والذخيرة أصبحت الأعداد الفردية فيها قليلة، فتستطيع

العصابة أن تُغير على مراكز فيها أعداد قليلة. وعندما تقوم العصابة بالإغارة على هذه المراكز مرةً تلو الأخرى يحس العدو أن مراكزه ضعيفة، فيقوم بتجميع القوات مرةً أخرى، فإذا جمع القوات يفقد السيطرة على الطرق والممرات وعلى القرى الصغيرة والحاميات الصغيرة، فتعود العصابة للعمليات الصغيرة والتنظيم والانتشار والاستفادة من عدم وجود العدو في أماكن كثيرة"[٢٥٩]

آخر ما يمكن أن نتحدث عنه في مبدأ الانتشار خلال الثورة المسلحة؛ أن نتطرق إلى قاعدة مهمة في الحرب الثورية، وهي أن: **"الانتشار السري للثوار يجب أن يكون في كل البلاد، ويجب أن يبقى كذلك طيلة أمد الحرب، أما الانتشار العلني فيجب أن يبتدئ بالمناطق النائية، ثم مع الزمن وانهيار العدو، يتوسع شيئا فشيئا إلى الأرياف ثم المدن القريبة من العواصم، ثم العواصم"**. وبحسب روبرت تابر: "فالثوار يندفعون من المناطق الريفية نحو التجمعات السكنية، ثم نحو المدن، وهم يحتلون المرتفعات والأحراش قبل أن يستولوا على الطرق. ويختلف تصرفهم هذا كلياً عن الاستراتيجية الغربية التي تسعى أولاً إلى مسك النقاط القوية (مراكز صناعية، عقد المواصلات التجمعات السكنية الكبرى) ولا تنظف الأرياف إلا متأخرة. وليست النقاط القوية مما يهم الثوار، بل الأرض التي لا يستطيع العدو منازعتهم عليها، دون أن يتعارض مع مبادئه، أي دون أن يمدد خطوطه، ويضعف قوته الهجومية.. وهكذا فالتسلسل عند الثوار هو الأرياف أولاً ثم المدن... **وفي أثناء الحملة كلها، يجب تجنب البحث عن الحسم العسكري (السيطرة على العواصم الكبرى)، حتى اللحظة التي يتحقق فيها الثوار توازن القوى، ويصبح بالإمكان مواجهة الجيش الحكومي مع ضمان النجاح بشكل واضح...**

تأخذ نشاطات العصابات، على الخارطة في البداية شكل نقاط، ثم تكبر هذه النقاط شيئاً فشيئاً لتصبح بقعاً، ثم يتصل بعضها مع البعض الآخر لتغطي باللون الأحمر كل أرض الوطن. لكن فلننتبه: إن التلوين لا يتقدم من الشرق إلى الغرب، أو من الجنوب إلى الشمال، بل من الجبال والغابات نحو المناطق المزروعة، ثم إلى قرى هذه المناطق، ثم إلى المدن على طول الطرقات الكبرى، دون أن يطغى على هذه المدن، إلا في المرحلة النهائية"[٢٦٠]

المبدأ الخامس: الحركة (المراوغة).[٢٦١]

وهو عبارة عن توجيه الحركة والنقل المدروس للقوات والنيران في زمانٍ ومكان مناسبين، بغية وضعها في وضعية متفوقة على العدو. واستخدام هذا المبدأ في الخطط والعمليات ينبغي أن يكون متزامنا مع الاستفادة القصوى

---

[٢٥٩] أبو مصعب السوري: إدارة وتنظيم حرب العصابات، مع بعض التهذيب.

[٢٦٠] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٦١] خيّرت بعض المراجع أن تقوم بدمج: الحركة والمراوغة والتملص في مبدأ واحد وهو "المناورة"، ولكن لأن هدفنا هو توضيح المبادئ الثورية، ولمزيد من البيان والتيسير على القراء، قررنا أن نعتمد مبدأين أساسيين للحرب الثورية (الحركة، والتملص) يشملان جميع المعاني التي تحدث عنها الخبراء في مبدأ المناورة.

من نقاط ضعف العدو، وبهذا ترتفع حظوظ نجاح المناورة المنفذة. ويعني هذا أن التنفيذ الناجح للمناورة له علاقة قوية، بالاستفادة من نقاط ضعف العدو (عدم معرفته بالأرض، حاجته لطرق الإمداد، جهله بتكتيكات العصابات، انفصاله عن الشعب...الخ). وتشكل الحركة الجوهر الرئيسي لأصل المناورة، وكلما كانت ظروف التحرك متاحة أكثر، كلما تضاعفت أيضا قدرة المناورة. لهذا يجب على قائد الثوار أن يكون لديه معرفة تامة بقدراته وإمكاناته الداخلية والخارجية وكيفية الاستفادة منها ليتمكن من تطبيق هذا المبدأ بالشكل المطلوب. العوامل المؤثرة في تنفيذ المناورة الناجحة في الحرب الثورية هي:

١. استغلال نقاط ضعف العدو.

٢. الاستفادة القصوى من المناخ والتضاريس والسكان.

٣. اعتماد مجموعات صغيرة العدد تحمل إمدادا لوجستيا يكفيها لفترة طويلة.

٤. التدريب العالي والعقيدة القتالية للجنود والقدرة على التحمّل.

وبحسب أبي مصعب السوري: "يجب على الثوار أن يفهموا جغرافيا البلد فيعرفوا أين المرتفعات، وأين الماء، وأين الطرق.. لأن ذلك يسهل حركتهم بشكل كبير.. العدو حتى ينقل كتيبة أو ينقل فرقة من عشرة آلاف رجل يحتاج شهرا أو شهرين، خاصةً في البرد والجليد والثلج، بينما العصابات تستطيع أن تتحرك بسرعة في كل الظروف، لذلك يحتاج جندي العصابات إلى تدريب على استخدام القوة الذهنية والبدنية بشكلٍ مرتفع عشر أضعاف الجندي النظامي، لأن الجندي النظامي يعتمد على التكنولوجيا، ويعتمد على الإمداد، ويعتمد على الخدمات اللوجستية الكثيرة جدًا، بعكس جندي العصابات المتأقلم مع أقصى الظروف. رجال عصابات المدن يستطيعون الضرب في شمال المدينة، ثم خلال ساعتين ينتقلون إلى جنوب المدينة ليضربوا من جديد، فيظن العدو أنهم مئة شخص بسبب ما حصل، بينما هم في الحقيقة ثلاثة أو أربعة، ثم هذه العمليات التي تحصل في كافة أنحاء المدينة تضطر العدو إلى التمركز، مما يمكنك من تطبيق نظرية التمركز والانتشار التي سبق الحديث عنها.

القوات الأجنبية مهما طال وجودها في البلد، لا يمكن أن تفهم الناس والأرض كما يفهمها عضو العصابات، مما يتيح له التنقل بكل خفة وحرية مقارنة بالجيوش الدخيلة، ومعرفة الأرض والشعب بشكل جيد هي التي تقلص الفارق في القوة المادية والتكنولوجية. عنصر العصابات يستطيع أن يمشي عشرين كيلومترا أو ثلاثين كيلومترا في اليوم دون أن يوقفه برد أو حر، لأنه يأخذ أكله وطعامه معه ولا يحتاج إلى طرق إمداد متصلة، لذلك فحركته تبقى مستمرة في أحلك الظروف، بعكس جيوش العدو التي ستضطر مع انقطاع الطرق إلى الإنزال عن طريق الطيران. فهذه النقطة الأساسية، أنك تعتمد على الخفة والسرعة في التنقل وتسعى لإيقاع العدو في مشكلة التحرك والتمركز، هذا الموضوع شرحه الجنرال جياب بشكلٍ جيد."[٢٦٢]

[٢٦٢] أبو مصعب السوري: إدارة وتنظيم حرب العصابات، مع بعض التهذيب.

المبدأ السادس: التملّص.

نقصد بهذا المبدأ: تجنب الدخول في معارك يكون العدو فيها متفوقا من حيث القوة العددية أو النارية أو المعنوية، وتأجيل ذلك إلى حين توفر الظروف التي تحقق النصر للثوار. ويعد هذا المبدأ أصلا مهمّا من أصول الحروب الثورية التي تقوم فيها المجموعات الثورية الضعيفة بخوض حرب ضد الجيوش النظامية القوية. إن دخول الثوار مبكرا في مواجهة مباشرة ضد القوات الحكومية أو الاستعمارية يعد خطأ استراتيجيا قاتلا كما مرّ معنا في شرحنا لمراحل الثورة المسلّحة. وبحسب روبرت تابر: "إننا لا نتعلم في الكتب الاستراتيجية والتكتيك الخاصين بحرب العصابات، إلا ضمن تفاصيل غير ذات أهمية. فالاستراتيجية والتكتيك يتعلقان دائماً بوضع محلي محدد، ويأخذان سمة الوسيلة اللازمة للنجاح. وثائر العصابات مبتكر قبل كل شيء. وبالطبع إنه يبتكر تبعاً لأهدافه المباشرة والبعيدة، والأرض، وقوته النسبية، والوسائل المتوافرة لديه، وعناصر أخرى مماثلة.

وبما أنه أقل من العدو عدداً وعدةً (وإلا لما كان ثائر عصابات)، فإن همه الأكثر إلحاحاً هو الاستمرار على قيد الحياة، لذا فإن من **الطبيعي أن يكون التملص قاعدة لتكتيكيه**. فبالتملص يستطيع اجتناب المواجهة خارج الأوقات المناسبة له، وعندما يتحقق له تفوق محلي يسدد ضربته بنجاح."[٢٦٣] وكما قال ماو: "**عندما يتقدم العدو فإننا نتراجع**، وعندما يخيم نناوش، وعندما يتعب نهاجم، وعندما يتراجع نطارده... في حرب العصابات ... تجنّب المواقع الحصينة، وهاجم المواقع الضعيفة، وهاجم ثم انسحب، ثم وجّه ضربةً صاعقة، وانشد قراراً سريعاً خاطفا. **وعلى العصابات عندما تشتبك مع عدوٍ أقوى منها، أنْ تنسحب عندما يتقدم**. وأن تواصل الضغط (المضايقة) عليه عندما يتوقف، وأن توجه الضربة الشديدة إليه عندما يتعب، وأن تلاحقه عندما ينسحب."[٢٦٤]

واستفاضةً في شرح مبدأ التملص، يقول روبرت تابر: "لا يشن ثوار العصابات معركة إلا إذا كانت الأرض مناسبة لهم. وعليهم أن يجتذبوا العدو إلى الموقع الذي لا يلعب التفوق العددي فيه دوره، كأن تكون المعركة مثلاً في ممر ضيق، ويكون ذلك عادة باحتلال مرتفعات مسيطرة، مشجرة، وحيث تستطيع حفنة من الرجال المصممين، إحباط عمل جيش بأكمله." [٢٦٥]

المبدأ السابع: الاستمرارية والحفاظ على المبادرة.

نقصد بالاستمرارية المحافظة على المبادرة وعلى زخم العمليات العسكرية بشكل متواصل بما يبقي العدو دائما في موقع الصدّ. وإن كان هذا المبدأ في كثير من الجوانب يتداخل مع مبدأ التركيز، إلا أننا قد أفردناه في مبدأ

---

[٢٦٣] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

[٢٦٤] ماوتسي تونغ: حرب العصابات.

[٢٦٥] روبرت تابر: نفس المصدر السابق.

مستقل لأهميته الشديدة في الحرب الثورية. يهدف هذا المبدأ -تزامنا مع مبدأ الانتشار والحركة- إلى إبقاء العدو في إطار ردّ الفعل، لأنه ببساطة إن حدث وتفرّغ من العمليات الدفاعية، فإنه سيقوم مباشرة بتنظيم قواته وحشدها لشنّ الحملات العسكرية الضخمة ضد الثوار، وهو ما لا يجب أن يحصل أبدا، لأن دخول الثوار في عمليات دفاعية متواصلة سيكون قاتلا لهم. وبحسب ماو: "يستطيع ثوار العصابات أخذ زمام المبادرة، إذا تذكروا نقاط ضعف العدو. وبما أنه لا يملك أعداداً كافية من الجنود، فإن بوسع الثوار أن يعملوا على مساحات شاسعة. وبما أنه أجنبي وهمجي، فإن بإمكان الثوار اكتساب ثقة الملايين من مواطنيهم"، وقد شرح الجنرال جياب هذا بقوله: "باتخاذنا زمام المبادرة، كان بوسعنا حشد قوانا لمهاجمة النقاط الاستراتيجية الضعيفة نسبياً والحصول على نجاحات، وإجبار العدو على توزيع قواته. ومن جهة أخرى، لو اقتصرنا على الدفاع لما كان بإمكاننا تدمير كثير من الأعداء، ولأصبح تعرضنا للخسائر ممكناً ولخاطرنا نحن بتحمل الخسائر".

إن فقدان مبدأ الاستمرارية -حتى لو لم يتح المجال للعدو لشنّ الحملات العسكرية- سيسبّب غالبا ضعفا في مسار الثورة. لأن توقف العمليات سيتيح فسحة للعدو لتجميع قواته وترميمها واختراق الثوار وتفكيكهم من الداخل، كما أنه سيجعل الشعب يعيش مرحلة من الثقة الزائفة والرخاء البعيد عن الحرب، وهذا خطير جدا على الثورة، لأن الشعب في حقيقته هو جيش الثوار، بعكس السلطات الحكومية التي تحتفظ بجيوشها في الثكنات. وبعد توقف العمليات لفترة معينة ستكون قيادة الثورة قد فقدت الكثير من السيطرة على جيشها الذي كان أفراده قد رجعوا إلى نمط حياتهم الطبيعي، ولن يكون قادة الثوار قادرين أبدا على حشد قواتهم المطلوبة لصد الحملات التي قد تحدث فجأة من قبل العدو.

والقاعدة العامة، خلال الحرب الثورية أنه يمنع منعا باتا الموافقة على أي هدنة طويلة الأمد قبل انهيار الحكومة المحلية بشكل كامل أو انسحاب القوات الأجنبية. وذلك لأن ضعف قدرة الثوار على السيطرة الداخلية مقارنة بالسلطات الحكومية، سيجعل إيقاف الحرب لصالح العدو أكثر منه لصالح الثوار. وطبعا يمكن الاستغناء عن تطبيق هذا المبدأ أحيانا في حال كان العدو يوشك على الانهيار، وكانت قدرتنا على السيطرة والحشد قد أصبحت أكبر أو موازية لقدرته.

المبدأ الثامن: التأمين.

مبدأ التأمين يطلق على كافة الإجراءات التي تضمن تحقيق المباغتة أو عدم تحققها بحقنا من قبل العدو، وتحفظ حرية العمل والحركة للثوار. بديهيا لا يمكننا القول إننا وبمراعاة مبدأ التأمين سوف يتحقق النصر، لكن ينبغي أن نعرف أن عدم رعايته في الحرب يؤدي إلى الهزيمة، خاصة في حالة الحروب الثورية التي يكون فيها فارق القوى بين العدو والثوار كبيرا جدا. ومن أجل تحقيق استخدام ناجح لهذا المبدأ خلال الثورة المسلحة:

١. ينبغي إخفاء الحركة الصديقة عن العدو، باستثمار التضاريس والسكان وفنون التمويه والإخفاء والسرية ومكافحة التجسس لأقصى حد.
٢. ينبغي الحصول على معلومات وافية عن نقاط قوة العدو التي يمكن أن يكشف من خلالها حركة الثوار ويدمّرها، والحصول على هذه المعلومات يعتمد بشكل كبير على تعاون السكان وعمليات الاستطلاع العسكري والاختراق الأمني.
٣. استخدام الموانع الطبيعية (الغابات، المستنقعات، الجبال، الأودية السحيقة...) والتحصينات الهندسية (أنفاق، خنادق، سواتر، ملاجئ...).
٤. تطبيق متكامل لمبادئ: الحركة والتملص والانتشار والاستمرارية.

الجدير بالذكر، أن تطبيق هذا المبدأ يعد أمرا حاسما في الحرب الثورية، لأن الهدف العسكري للثوار خلال جميع المراحل الثورية سيكون "تحقيق أكبر خسارة في صفوف العدو بأقل خسارة في صفوف الثوار"، ودون هذا فإنهم سيتعرضون للإبادة السريعة. إن تقليل الخسارة في صفوف الثوار لا يمكن أن يتحقق أبدا دون تطبيق كامل وفعّال لهذا المبدأ.

المبدأ التاسع: المفاجأة (المباغتة)

هو عبارة عن تنفيذ العمليات في زمان ومكان وبطريقة لا يتوقعها العدو، بحيث لا يمكن للعدو أن يعمل بالتصورات المطلوبة للمواجهة وردة الفعل. ولتحقيق أصل المباغتة، ينبغي ألا يكون العدو مطلعا على العمليات، إلا في المقطع الذي لا يكون لديه متسعا من الوقت للقيام بردة فعل مؤثرة. ويتجلى فن الحرب عندما تستعمل القيادة جميع المبادئ السابقة لتحقيق المفاجأة.

يعتمد تحقيق تطبيق ناجح لهذا المبدأ على:

١. الحيلة والخداع.
٢. تضليل الرؤية واستخدام فنون التمويه والإخفاء والتحصين الهندسي.
٣. استثمار السّكان والأرض للحد الأقصى.
٤. مقاتل وقائد عقدي شجاع.
٥. الاعتماد على الابداع والخروج عن التقليد والتكرار.

والخلاصة أن التغيير في الأساليب المتداولة للعمليات، واستخدام التكتيكات الفاعلة، والابتكار الناجح، واستثمار الظروف والعوامل الطبيعية، يمكّن القادة من مباغتة العدو بشكل غير متوقع. كما أن المباغتة تتحقق

كذلك في ظل الجرأة والشهامة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه القادة. وأفضل نتيجة قد تحصل دائما في الحرب الثورية، تتأتى من خلال تنفيذ بقية المبادئ بالتزامن مع مباغتة العدو.

الخلاصة: مدى تطبيق الخطابي لمبادئ الحرب الثورية.

لو بدأنا بمبدأ **الهدف** الذي هو أصل كل هذه المبادئ، لوجدنا أن الخطابي كان هدفه السياسي كان واضحا ومحددا جدا، وهو: "الحصول على الاستقلال الكامل للريف تحت المظلة الروحية للسلطان المغربي". والذي نفهمه من سياق سيرته الثورية أن هدفه العسكري كان متمثلا في: "استخدام العمليات الهجومية النوعية لإجبار قوات الاحتلال على الجلاء". وطبعا دون أن تصل هذه العمليات إلى العواصم المهمة مثل مليلية وفاس. وحتى عند اختياره للأهداف التكتيكية، اتضح أن الخطابي كان ذكيا جدا في تحديد الأهداف العسكرية التكتيكية، وقد مضى معنا أهمية موقع أدهار أوبران الذي بدأت به عمليات التحرير في الجبهة الشرقية، وأهمية موقع إغريبن الذي كان سببا في تحرير أنوال وباقي المناطق الشرقية وصولا إلى مليلية.

وبالنسبة لمبدأ **الهجوم**، فقد كان ثوار الريف يطبقونه بشكل فعال تزامنا **مع مبدأ المفاجأة**، حيث لم تتوقف هجماتهم طيلة ٥ سنوات الثورة على المراكز الإسبانية في الجبهة الغربية والشرقية على حدا سواء، حتى أنه مع نقل الجزء الأكبر من قواته إلى جبهة معينة، كان يبقى دائما على مجموعات قتالية في الجبهات الأخرى تواصل شن العمليات الهجومية المباغتة. ومثلا في الجبهة الشرقية بين ١٩٢٣ و١٩٢٥، وهي الفترة التي اتجه الجزء الأكبر من الثوار إلى الجبهة الغربية والجنوبية، وصل عدد العمليات الهجومية على المراكز الإسبانية في المحور الشرقي إلى أكثر من ٣٠٠ عملية، بمعدل تقريبي يصل إلى ٢٥ عملية في الشهر الواحد. يقودنا هذا أيضا إلى تطبيق الخطابي الجزئي **لمبدأ المبادرة**، إذ أنه كان غالبا ما يختار هو وقت المعركة ومكانها، ولم يكن يسمح غالبا للعدو أن يبادره بالهجوم، إلا عندما اتخذ بعض الأخطاء الاستراتيجية بالتوقف عن تحرير مليلية وفاس. وقد تجلى تطبيق الخطابي لمبدأ المبادرة عندما كان يجبر القوات الإسبانية على الانسحاب لتقع في كمائنه المعدة مسبقا، وعندما ابتدأ الفرنسيين في الجبهة الجنوبية سنة ١٩٢٥ بطريقة كانوا لا يتوقعونها، كما أنه عندما أحسّ أن القوات الاسبانية استطاعت الحصول على المبادرة خلال حملات الاسترداد في الجبهة الشرقية سنة ١٩٢٢، اتجه بقواته نحو الجبهة الغربية فاستطاع هناك أن يجر الإسبان من جديد إلى دائرة ردود الفعل.

ومن حيث التزامه **لمبدأ تركيز** القوات، فقد اتضح أن الخطابي كان بارعا في ذلك نسبيا، حيث كان يجمع معظم قواته في الوقت الذي يريد وبالمكان الذي يريد دون أن يعرف العدو بذلك، فمثلا قام الخطابي بجمع قواته في الجبهة الغربية سنة ١٩٢٤، دون أن يلحظ الإسبان ذلك بسبب الإغارات الكثيرة التي كانت تنفذها بعض المجموعات المرابطة في الجبهة الشرقية. كما أن جمعه للقوات في حرب الفرنسيين جنوبا سنة ١٩٢٥ دون أن يخلّ بالجبهة الغربية والشرقية يعد تطبيقا مثاليا لمبدأ التركيز. مع ملاحظة أننا لم نجد أي دليل عن تطبيق الخطابي لشيء شبيه بنظرية ماو عن التفوق المحلي.

أما عن تطبيقه **لمبدأ الحركة**، فقد كان المقاتل الريفي بطبيعته سريع الحركة بحكم معرفته للأرض وخبرته العسكرية السابقة خلال الثورات والتمردات القديمة. كما أن الخطابي بوضعه لخطة توزيع المستودعات وتنسيقه بين القوات الشعبية والنظامية وتعبيده للطرقات استطاع مضاعفة حركته العسكرية بشكل ملحوظ. وبحسب الجنرال الفرنسي غوديدا: "إن أرض الشمال لا تصلح فيها الحروب النظامية وإنما تصلح فيها حرب العصابات. ولما كان المقاتل الريفي بطبيعته محاربا سريع الحركات ويقاتل ببسالة نادرة، فقد ساد هذا الأسلوب وحقق نجاحات كبيرة خاصة وأن ذلك المقاتل كان لا يحمل غير بندقية واحدة مع اطلاقاتها، وحفنة من السويق والخبز واللحم، وهذا مما يزيد في سرعة حركته ويحقق له مرونة قتالية. وعلى ذلك دارت تلك الحرب في الطرقات ومنعطفات الجبال وكبدوا فيها الأعداء خسائر فادحة. وتمرن الريفيون على اساليب القتال المعاصرة، فاستخدموا التحصينات بمهارة عظيمة في ساحات القتال."[٢٦٦] وفي هذا إشارة واضحة إلى التطبيق الفعال أيضا **لمبدأ التأمين**.

الحقيقة التي ينبغي الاعتراف بها أن الخطابي وثوار الريف كانوا مبدعين في تطبيق معظم المبادئ الثورية، ولعل ذلك يعود إلى عاملين أساسيين: القدرة القيادية للخطابي، والطبيعة الحربية للمقاتل الريفي. غير أن الحقيقة الأخرى التي يجب الاعتراف بها أيضا أن الثورة الخطابية قد وقعت في أخطاء فادحة بعدم تطبيقها بعض المبادئ الحربية الأخرى. أول هذه المبادئ التي لم يقم الخطابي بتطبيقها؛ **مبدأ الانتشار**. لقد اقتصر على منطقة جغرافية صغيرة جدا مقارنة بمساحة المغرب، ولم يكن مهتما بنقل ثورته إلى جنوب المغرب ووسطه الذي كان يضمّ أكثر بقعة جغرافية مناسبةً لتوسيع التمرد، وهي جبال أطلس. ولم يفكر الخطابي في توسيع الثورة إلا بعد ١٩٢٥، وذلك ليس بدافع استراتيجي، وإنما كردة فعل على الصدام العسكري مع الفرنسيين. بل إنه فوّت الفرصة التي كانت ستسمح له بتطبيق هذا المبدأ، وذلك عندما رفض طلب قبائل وسط المغرب القريبة من فاس التي أرادت منه التقدم إلى مناطقها. ومما زاد الطينة بلة أيضا وأخل بمبدأ الانتشار بشكل كامل أن الخطابي أقام دولة متكاملة في غير وقتها واعتمد أجدير عاصمة لها، مما جعل للثورة مركز ثقل واضح تتجه إليه حملات الاحتلال.

نظن أن الخطابي قصّر أيضا في تطبيق **مبدأ الاستمرارية والمبادرة** عندما توقف عن تحرير مليلية لاعتبارات سياسية واهية، مما وفر بعد ذلك قاعدة انطلاق لحملات الاسترداد الإسبانية التي استرجعت معظم المناطق الشرقية خلال سنة واحدة تقريبا. إننا نعتقد أن تردد الخطابي السياسي الذي منعه من تحرير مليلية وتوسيع الثورة إلى بقية مناطق المغرب هو الذي أفقده مبدأ الانتشار بشكل كامل وجزءا كبيرا من مبدأ المبادرة. ومع فقدانه للمبادرة سنة ١٩٢٥ بعد انطلاق الحملات المشتركة، ومع اقتصاره على منطقة جغرافية ضيقة لا عمق لها، تمكن الاحتلال من محاصرته بشكل كامل وشن حملات الاجتياح من جديد والاستلاء على مركز ثقل الثورة (أجدير ثم تارجيست)، وطبعا فقدان العمق ووجود الدولة لا يتيح المجال أبدا لتطبيق **مبدأ التملص** أيضا.

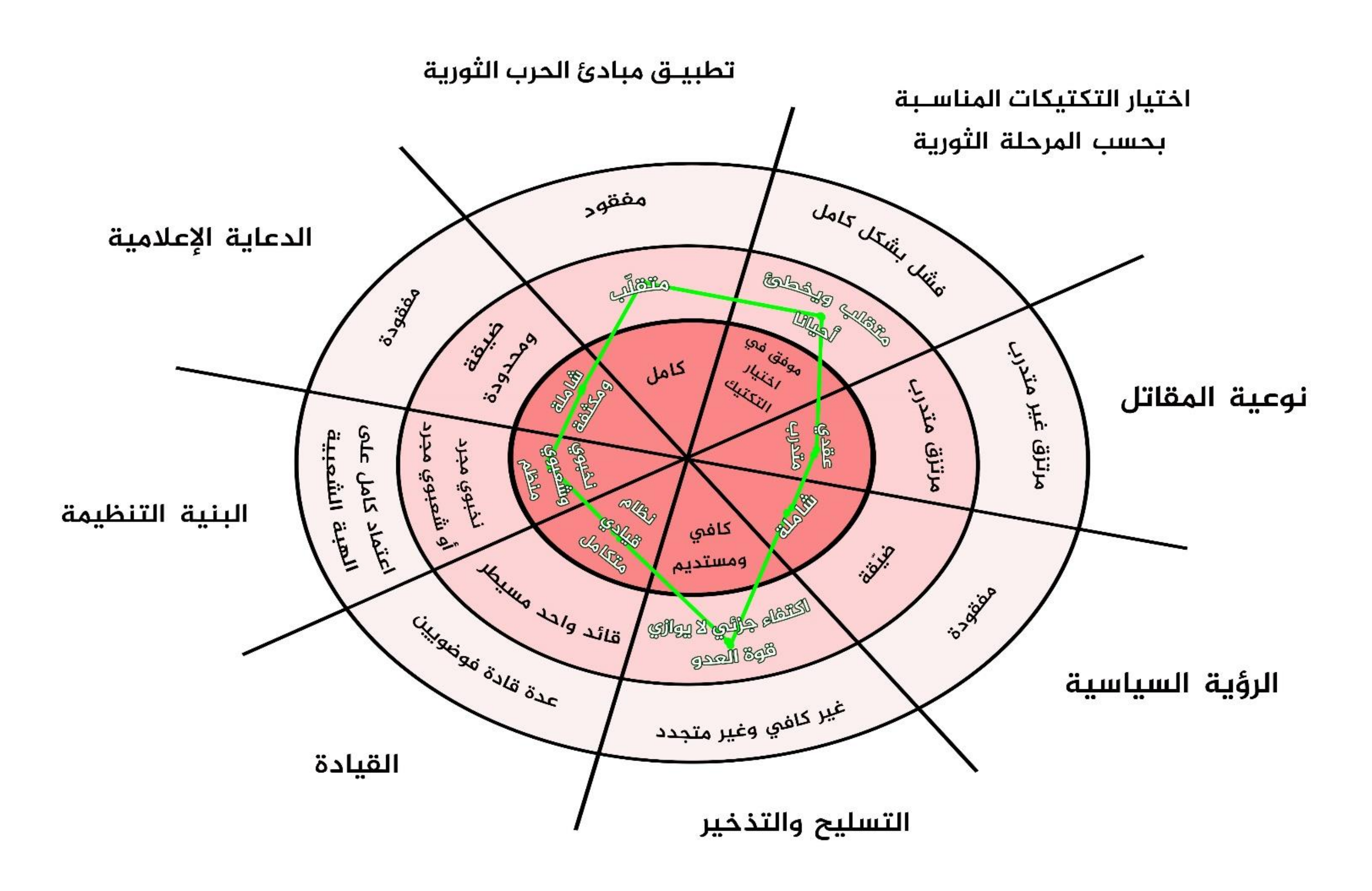
---

[٢٦٦] البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال.

وليس هذا اعتقادنا نحن فحسب، بل إنه أيضا اعتقاد الخطابي الذي اعترف بعد ذلك أن عدم تحرير مليلية أفقده المبادرة في الجبهة الشرقية، وعدم توسيع الثورة إلى وسط المغرب أفقده عامل الانتشار، وقد قال عن نفسه أن هاذين هما أعظم خطأين اقترفهما على الإطلاق.

والخلاصة، أن اعتماد الدولة في غيروقتها، واعتماد مراكز ثقل جغرافية للثورة، وتردد الخطابي عن توسيع المجال والانتشار لاعتبارات سياسية واهية، أفقد الثورة العمق والمجال الكافي الذي كان يجب أن يوفر مبدأ الانتشار لتحقيق مبدأ التملص والحفاظ على المبادرة. ومن هنا جاءت الهزيمة رغم توفر العديد من العوامل الإيجابية الأخرى. لكن عودةً إلى الملاحظة التي تم ذكرها في مبدأ الهدف؛ أنه "لابد من تقارب بين الهدف والمقومات"، نظن أنه مع وجود نقاط الضعف هذه، وفقدان المجال والقدرات الكافية، كان على الخطابي أن يخفف من أهدافه السياسية، فمثلا كان من الممكن في وقت قوّته أن يترك موضوع الاستقلال الكامل ويقبل بالحماية الإسبانية أو الفرنسية الصورية إلى حين، أو أن يجد أي صيغة أخرى تتناسب مع مقومات قوته، كما حصل في الثورة القبرصية والإيرلندية التي تماشت أهدافها مع ضعف مقدّراتها، وكان نصرها متمثلا في حصولها على نوع من الإدارة الذاتية المستقلة تحت مظلة السّلطات الاستعمارية.

خلاصة التقييم:



نموذج تقييم مدى التزام الخطابي بالمبادئ والاستراتيجيات والتكتيكات التي يجب أن تكون عليها الثورة المسلحة.

من حيث النضـوج السـياسـي، فمن خلال خطاباته ومراسـلاته ولقاءاته الصـحفية التي وجهها إلى الداخل والخارج، كانت رؤية الخطابي السياسية واضحة جدا وشاملة، يأتي الاستقلال السياسي والاقتصادي في أول بنودها، ومن ضـمن محاورها إقامة علاقات دولية متينة مع القوى الأوروبية العظمى والمنظمات الإنسـانية العالمية، وبناء مؤسسات حكومية متطورة كفيلة بضمان العيش الكريم للسكان المحليين. كما أنه قام باستثمار جميع الوسائل الدعائية المتوفرة في وقته أحسن استثمار، ووظفها لصالحه أفضل توظيف، وكانت سياسته الإعلامية شاملةً لكل المطالب الشعبية التي تؤثر في الجماهير الريفية والمغربية، وقادرة على مخاطبتهم بما يفتح قلوبهم ويواكب أفهامهم.

أما عن التشكيلات العسكرية للثورة، فقد استطاع أن يجمع الخطابي بين حسنات القوات النظامية والطاقات الشـعبية القبلية، مع ملاحظة أنه لم يكن يعتمد كثيرا على نشـاط القوات الشـعبية السـلمي (التخريبي) إلا في مرحلة معينة عندما اندلعت المعارك مع الفرنسين، وقد كان هذا لسوء تقديره السياسي تجاه الحياد الفرنسي. ورغما عن هذا فلا يمكننا أن نصـف القيادة الخطابية إلا أنها كانت فريدة من نوعها من حيث القدرة على التخطيط والتأثير والتنظيم، مقارنة بالقادة الذين ظهروا في تلك الحقبة، وكانت تملك نظاما قياديا متكاملا

نوعا ما. كما أن وجود الدوافع العقديّة (الدينية، القبليّة) قد جعلت المقاتل الريفي جنديا شــرســا في الحرب صبورا على مشاقها، إضافة إلى خبرته الفطرية بأساليب حرب العصابات واستعماله المحترف للأسلحة الخفيفة والمدفعية.

الجدير بالذكر أن فقْد الحليف السياسي وفقر الموارد المحلية منع الثورة الريفية من تحقيق اكتفاء ذاتي يضاهي العدو من حيث التسليح، إلا أن ما تم تحصيله من الغنائم العسكرية استطاع أن يحقق للثوار نوعا من الاكتفاء الجزئي. أما من حيث تطبيقها لتكتيكات الحرب الثورية، فإننا نظن أن الثورة الخطابية قد التزمت التزاما كاملا في عملياتها الهجومية بتطبيق تكتيكات حرب العصابات، غير أن عملياتهم الدفاعية كان يغلب عليها الطابع النظامي، مما جعلها عاجزة عن صد حملات الاسترداد التي انطلقت من مليلية سنة ١٩٢١، وحملات الاجتياح التي حصلت إثر إنزال الحسيمة سنة ١٩٢٥. كما أن اعتماد الدولة في غير وقتها، واعتماد مراكز ثقل جغرافية للثورة، وتردد الخطابي عن توسيع المجال والانتشار لاعتبارات سياسية واهية، أفقد الثورة العمق والمجال الكافي الذي كان يجب أن يوفر مبدأ الانتشار لتحقيق مبدأ التملص والحفاظ على المبادرة. ومن هنا جاءت الهزيمة رغم توفر العديد من العوامل الإيجابية الأخرى.

وعودةً إلى الملاحظة التي تم ذكرها في مبدأ الهدف؛ أنه "لابد من تقارب بين الهدف والمقومات"، نظن أنه مع وجود نقاط الضعف هذه، وفقدان المجال والقدرات الكافية، كان على الخطابي أن يخفف من أهدافه السياسية، فمثلا كان من الممكن في وقت قوّته أن يترك موضوع الاستقلال الكامل ويقبل بالحماية الإسبانية أو الفرنسية الصورية إلى حين، أو أن يجد أي صيغة أخرى تتناسب مع مقومات قوته، كما حصل في الثورة القبرصية والإيرلندية التي تماشت أهدافها مع ضعف مقدّراتها، وكان نصرها متمثلا في حصولها على نوع من الإدارة الذاتية المستقلة تحت مظلة السّلطات الاستعمارية.

الخاتمة والتحليل النّهائي:

"إن النصر الذي يصنعه العنف هو في حقيقته مساو للهزيمة، إذ أنه سريع الانقضاء"

موهانداس كرمشاند غاندي

خلاصة نقاط القوة والضعف التي حظي بها كل طرف خلال حرب الريف الثالثة (١٩٢١-١٩٢٦)			
الجهة	الاحتلال	نقاط القوة	قوة مادية وبشرية ونارية (جوية وبرية وبحرية) ضخمة ومتفوقة بشكل حاسم، وتقنيات متطورة مقارنة بالعدو.
			تحالف دولي وإقليمي متماسك (وحدة الجهد).
		نقاط الضعف	الاعتماد بشكل كبير على التكتيكات الحربية التقليدية والنظامية
			اعتماد بشكل أساسي على القوات الأجنبية وبشكل أقل على العناصر المحلية.
			التبريرات السياسية للاحتلال واهية وواضحة العدوان.
			الاستراتيجية غير مستقرة ومضطربة ومعتمدة بشكل كبير على الجهد العسكري.
			الرؤية المستقبلية لعملية السلام مفقودة تقريبا.
			المجهود الاستخباراتي ضعيف.
	الثوار	نقاط القوة	بلوغ الشعب مرحلة جيدة من النضوج الثوري ووجود القضية السياسية الواضحة والمقنعة للانخراط في الثورة.
			حصول الثورة الخطابية على دعم شعبي من أغلبية سكان شمال المغرب.
			تضاريس جغرافية وعرة ومناسبة جدا لتطبيق حرب العصابات.
			توفّر الموارد المالية والعسكرية الكافية لتسيير النشاط الحربي طيلة الثورة المسلحة (لكن بما لا يحقق توازي في القوة مع العدو.)
			رؤية سياسية واضحة وشاملة للمطالب الشعبية.
			دعاية إعلامية شاملة وفعالة وقريبة من الجماهير في الداخل والخراج.
			نظام قيادي متكامل.
			بنية تنظيمية تجمع بين القوات النخبوية والشعبية.
			مقاتل عقدي مدرب.
			تطبيق محترف لتكتيك حرب العصابات في العمليات الهجومية.
		نقاط الضعف	أعداد سكانية قليلة.
			عمق ومجال جغرافي ضيق.
			فقدان الدعم السياسي والمادي من الحلفاء الدوليين.
			مدة زمنية قصيرة نسبيا.
			ضعف كبير في القوة البشرية والعسكرية مقارنة بالعدو.
			تطبيق التكتيكات النظامية في العمليات الدفاعية.
			إهمال نسبي لبعض مبادئ الحرب الثورية، مثل: الانتشار والتملص...الخ.

يبقى علينا الآن في ختام بحثنا المتواضع أن نقدم للقارئ ما نعتقد أنه السببُ الرئيسيّ وراء هزيمة الثورة الخطابية، فرغم ما حظيت به هذه الثورة من مقومات القوة الداخلية والخارجية في العديد من العوامل، كانت نقاط ضعفها في بقية العوامل الأخرى سببا في حسم المعركة لصالح الاحتلال. لقد كان الاستعمار يعاني الكثير من عوامل الضّعف، بينما كانت الثورة في المقابل تحظى بالعديد من عوامل القوّة، لكن في النهاية هناك بعض الأسباب الكونيّة التي متى فرّط فيها الثوار ستحلّ بهم الهزيمة قطعا، رغم ما قد يمتلكونه من مقومات النجاح في بعض الجوانب الأخرى. وبدورنا نعتقد أن الخطأ الأوّل الذي ارتكبه الخطابي وتسبب في هزيمته، هو إهماله لأهم مبدأ في الحرب الثورية: **"الانتشار والتوزع"**، مما أفقده العمق والمجال الكافي للتملّص أو امتصاص حملات الاجتياح الشامل. وقد وقع في هذا الخطأ بسبب تردّده السياسي من مصادمة السلطات الفرنسية والحكومة المغربية العميلة لها، وبسبب تهويله لآثار التداعيات الدولية التي قد تنجم إثر توسّع ثورته على حساب نفوذهم.

أما الخطأ الثاني المباشر الذي كان سببا أساسيا في سقوطه، هو أنه لم يقم بتحليل خطئه الأوّل وإعادة تقييم أهدافه النهائية على ضوء ما تشكو منه موارده ومجاله من ضعف. فبإعلانه للدولة المستقلّة، وإصراره على الاستقلال الكامل في ضوء ضيق المجال وفقدان الحليف السياسي وضعف الموارد البشرية والمادية؛ كان الخطابي كمن يعود على نفسه بالانتحار. وقد مرّ معنا كيف قامت الثورة القبرصية والإيرلندية بتحديد أهدافها النهائية وفق مواردها ومجالها الجغرافي ومقومات القوة والضعف التي تمتلكها. ومع وجود هذين الخطأين في صف الثورة، كانت الكلمة الفاصلة هي للقوة العسكرية والبشرية الضخمة التي كانت طبعا تتميز بها السلطات الاستعمارية، والتي حققت لها الحسم في النهاية. لكن يجب أن ننوه إلى مسألة بالغة الأهميّة، وهي أن هذا الحسم كان ناقصا نوعا ما، لأنه اعتمد بشكل كبير على الطابع العسكري، وهذا ما جعل النّصر الفرنسي والإسباني نصرا مؤقتا إلى حين قيام ثورة الاستقلال في العقد الخامس.

والخلاصة أن خطأ ثوار الريف في تطبيق بعض التكتيكات أو المبادئ الحربية قد سبّب لهم فعلا الهزيمة المادية، لكن عوامل قوتهم الشعبية والسياسيّة والروحيّة حققت بعد ذلك للشعب المغربي النصر على المدى البعيد، حيث انتقلت رسالة الثورة الخطابية إلى الأجيال اللاحقة، وألهمتهم طريق الاستقلال خلال ثورة العقد الخامس التي تُوّجت بإلغاء الحماية الفرنسية بشكل نسبيّ سنة ١٩٥٦. والحقيقة أن أثر هذه الرسالة لم يقتصر على شعب المغرب، بل كانت ثورة الريف الثالثة سببا رئيسيا بعد ذلك في قيام حركات التحرير في العالم الإسلامي والشرقي.

لم تكن سيرة هذا الرجل العظيم حكرا على تيار فكري معين ولا مدرسة عقدية واحدة، لقد نظر الجميع إلى الخطابي كرجل محرر، وبطل نبيل، وفقيه مجدد. لقد كان للتيارات الإسلامية تقييمها الخاص عن التجربة الخطابية، وكان للقوميين الأمازيغيين نظرتهم الخاصة بهم كذلك، كما رأى الغرب والشيوعيون الخطابي بمنظور مختلف. وهنا تكمن الصعوبة بالنسبة لنا في تقييم الثورة والحكم عليها. أردنا أن نأخذ الحقائق كما هي من

الجميع دون استثناء، وعزمنا أن نسرُد أحداث الحرب الريفية الثالثة بمصداقية، أردنا أن ننقل لكم الخطابي كما هو، بما له وما عليه. ونرجو من الله أن نكون قد وفقنا فعلا في إنجاز ذلك.

وأخيرا، لقد مرّت معنا عبارة فريدة في أحد المراجع الغربية التي تحدثت عن الخطابي؛ **"لقد نالت فرنسا النّصر، لكن الخطابي نال المجد"**. نظن أن هذه العبارة شاملة لكل الحقيقة، ونعتقد أنها تصلح لتكون خلاصة مختصرة عن الثورة الخطابية. لعل هذه الثورة لم يُكتب لها النجاح الميداني، إلا أنها في الحقيقة تمكنت من إبقاء رسالة خالدة على مر التاريخ. واليوم سنة ٢٠١٩، لم يبق من ذكر الاحتلال الفرنسي والإسباني إلا أوصاف الوحشية والدكتاتورية والظلم، أما الخطابي فقد بقيت سيرته المؤثرة وأفكاره النيّرة وتكتيكاتُه العسكرية الفريدة وتوجهاته السياسية الحكيمة، بقي كل هذا ليؤثّر في جميع الأجيال المسلمة وغير المسلمة طيلة عقود لاحقة، وليكون لها منارة مضيئة تدُلّها إلى طريق الحرية والسيادة والكرامة في ظل ظلمات الإمبريالية والهيمنة الأجنبية. نحن نرفض بشدة أن يقال عن الخطابي أنه ناضل من أجل القبيلة، بل وحتى من أجل الوطن. إن الخطابي في الحقيقة بعيدٌ كل البعد عن الأيديولوجيا الضيّقة، لقد خرج منذ زمن بعيد من ضيق القبليّة والوطنيّة نحو الأمّة بأسرها، وارتبط جهاده منذ البداية بتاريخ المسلمين، بالأندلس وجراحها، والحملات الصليبية وظلمها. لقد عاش من أجل حرية المسلمين ومات من أجلها، فكان حقا علينا أن نعتبره فعلا بطلا من أبطال هذه الأمة، تماما كنور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز، ومحمد الفاتح.

نرجو أن نكون قد أعطينا هذه التجربة حقَّها من النقد والدراسة، والخطابي حقَّه من الإنصاف والثّناء. وبالطبع لابد أننا قد وقعنا في الكثير من الأخطاء حول بعض الأحداث التاريخية الدقيقة ونتائجها وآثرها، فنرجو من أولئك الذين عاشوا واقع الثورة أو عاصروها أو أحاطوا بها أكثر منّا، نرجو منهم أن يعذُرونا، وقد يدفعهم إلى ذلك مراعاة أننا تناولنا ثورةً قديمةً حصلت تقريبا منذ ١٠٠ سنة، والمراجع التاريخية الموثوقة حولها نادرة. لكننا رغم ذلك نعتقد أننا قد أصبنا الحقيقة فيما يتعلق بالأحداث الرئيسية، كما أننّا واثقون من صحّة السياق العام الذي انطلقنا منه لتقييم الحركة الخطابية. ولمن أراد نصحنا أو توجهنا حول أي مسألة في البحث؛ نرجو منه التواصل معنا على حسابنا الرسمي في مواقع التواصل الاجتماعي.

جدول تاريخي عن أهمّ أحداث الثورة الخطابية.

التاريخ	الحدث
١٨٩٣	اندلاع حرب الريف الأولى، وانتهاؤها سنة ١٨٩٤.
١٩٠٩	اندلاع حرب الريف الثانية.
١٩٠٨	احتلال القوات الفرنسية شرق المغرب انطلاقا من الجزائر، واحتلال الدار البيضاء من خلال إنزال بحري.
١٩١٢	سيطرة القوات الإسبانية بقيادة بيرينغير على تطوان والقصر الكبير والعرائش.
١٩١٣	الخطابي يعمل كمترجم وصحفي ومدرس لدى الإسبان في مليلية.
١٩١٤	انتهاء ثورة الريف الثانية بعد مقتل محمد أمزيان.
يوليو/تموز ١٩١٤	بداية الحرب العالمية الأولى وانتهاؤها في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨.
١٩١٥	سجن الخطابي بتهمة تخابره مع الألمان.
أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٠	سيطرة الإسبان بقيادة بيرينغير على شفشاون.
١٩١٩	سيطرة الفرنسيين على وسط وجنوب المغرب بشكل كامل.
١٩١٩	سيطرة الإسبان بقيادة سلفستري على الإقليم الشرقي من مليلية وصولا إلى دريوش.
١٩١٩	عبد الكرم الخطابي (الأب) يأمر أولاده محمد وامحمد بالرجوع إلى الريف للتجهيز للحرب.
١٩٢٠	عبد الكرم الخطابي (الأب) يبدأ الصدام المسلح ضد الإسبان بعد فشل المفاوضات.
١٩٢٠	موت عبد الكرم الخطابي (الأب) مسموما.
ماي ١٩٢٠	قبيلة بني ورياغل تختار محمد الخطابي كقائد للثورة المسلحة وينضم له بعض الأفراد من تمسمان.
١٩٢١	سيطرة القوات الإسبانية بقيادة سلفستري على أنوال وأدهار أوبران.
١ يونيو/حزيران ١٩٢١	سيطرة الثوار على جبل أدهار أوبران.
١٥ يونيو/حزيران ١٩٢١	سيطرة الثوار على شاطئ سيدي إدريس.
٢١ يونيو/حزيران ١٩١١	سيطرة الثوار على قمة إغريبن.
يوليو/تموز وأغسطس/آب ١٩٢١	انهيار القوات الإسبانية ومقتل سلفستري وتحرير الإقليم الشرقي بالكامل إلا مليلية.
١٨ سبتمبر/أيلول ١٩٢١	إعلان تأسيس جمهورية الريف وتعيين الخطابي رئيسا للحكومة.
١٤ سبتمبر/أيلول ١٩٢١	توقف التحرير عند مليلية وبداية حملات الاسترداد الاسبانية بقيادة برنغير وفرانكو.

١٩٢٣	التوترات السياسية والانقلاب العسكري في إسبانيا
١٩٢٣	وصول حملات الاسترداد الإسبانية إلى بن طيب وتيزي عزة والتوقف هناك بسبب الحصار والمناوشات المتواصلة.
١٩٢٣	توسع الثورة الخطابية نحو غمارة والحصول على ولاء القبائل هناك وقمع التمردات الداخلية التي قادها عملاء الإسبان.
١٩٢٣	اتمام الخطابي لإنشاء شبكة الهاتف التي وفرت التواصل الفعال بين مرافق دولته وجبهات قتاله.
١٩٢٤	زحف الفرنسيين على مناطق وادي ورغة وبني زروال جنوب الريف وسيطرتهم على الأراضي الزراعية والموارد المائية المهمة.
بين يوليو/تموز وديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤	انهيار القوات الإسبانية في وادي لاو وشفشاون وتزروت وسيطرة الثوار على هذه المناطق وحصول الخطابي على ولاء قبائل جبالة.
بين أبريل/نيسان ويونيو/حزيران ١٩٢٥	الصدام العسكري مع الفرنسيين بعد فشل المفاوضات، وسيطرة الثوار على بني زروال بعد طرد الدرقاويين وعلى أجزاء واسعة من وادي ورغة بعد طرد الفرنسيين منها.
يوليو/تموز ١٩٢٥	التحالف الإسباني الفرنسي والاتفاق على شن حملات مشتركة ضد الخطابي.
بين سبتمبر/أيلول وأكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٥	الحملات العسكرية المشتركة وتنفيذ عملية إنزال الحسيمة واحتلال أجدير.
أبريل/نيسان ١٩٢٦	مؤتمر وجدة الذي مني بالفشل.
ماي ١٩٢٦	السيطرة على تارجيست واستسلام الخطابي للفرنسيين ونفيه إلى جزيرة لايونيت.
يوليو/تموز ١٩٢٦	الاتفاق الفرنسي الإسباني في باريس لتقاسم النفوذ بعد سقوط الخطابي.
٠٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٦	مقتل القائد أحمد أخريرو وقمع آخر الجيوب الثورية في القطاع الغربي.
ماي ١٩٤٧	الخطابي يحصل على اللجوء السياسي في مصر ويستأنف النضال.
فبراير/شباط ١٩٦٣	وفاة محمد عبد الكريم الخطابي في مصر.

فهرس الخرائط:

الملاحق:



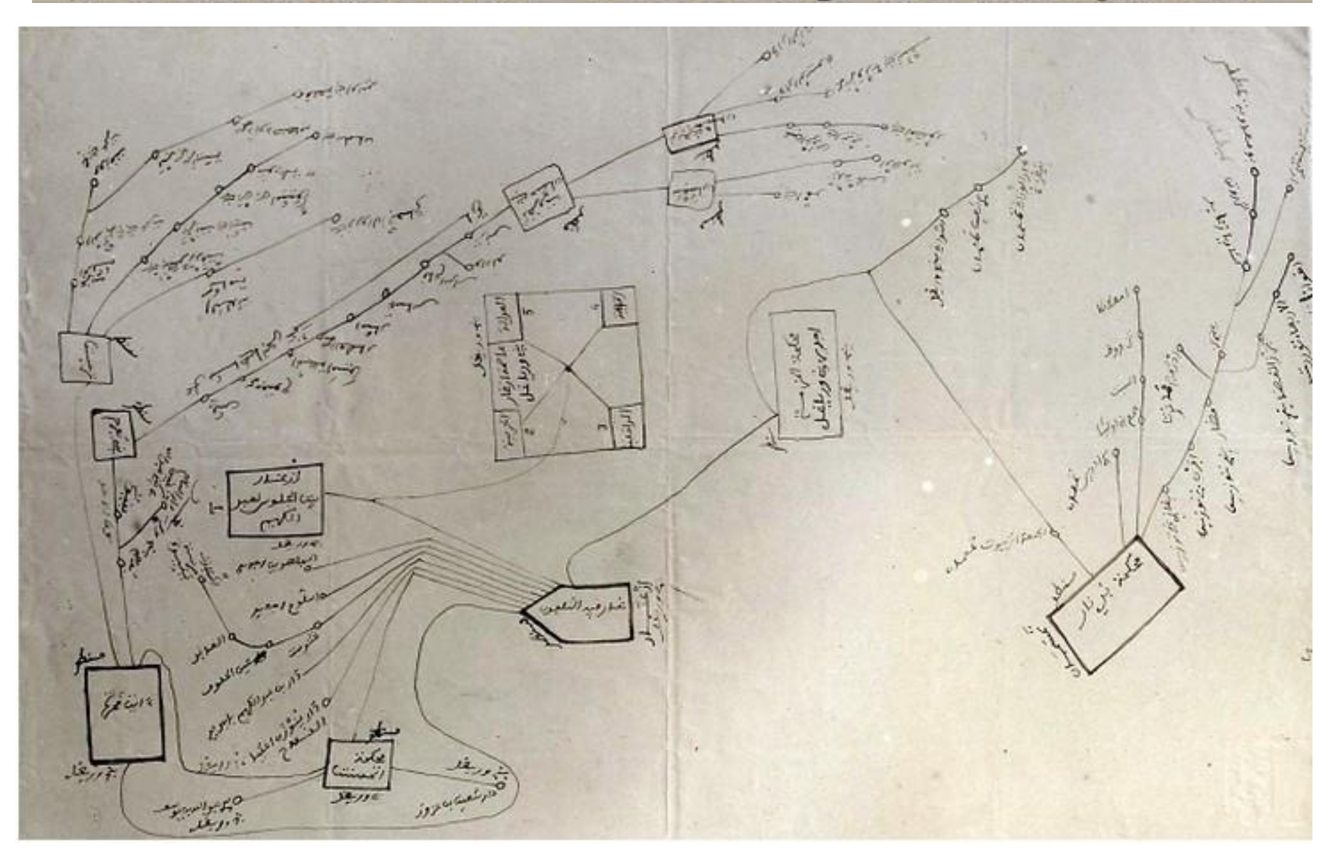
صورتان لهيئة التدريس في الأكاديميا العربية بمليلية نفسها، وكان من بين أعضائها الخطّابي، حيث كان في الفترة نفسها قاضي القضاة. وقد أنشئت الأكاديميا في 1906. وكان يدرس فيها كل من الخطّابي والفقيه محمد طحطح أمين الديوانة المغربية بمليلية. وفي سنة 1914 أضيفت اللغة الأمازيغية إلى مواد الأكاديميا، حيث كان الخطّابي يعلم لهجة تاريفيت إلى الضباط الإسبان. ومنهم الجنرال سيلفستري الذي علمه الخطّابي درساً من طبيعة مغايرة في ما بعد. وبالإضافة إلى الأكاديميا علم الخطّابي في مدرسة ابتدائية لأبناء المسلمين فتحها الإسبان في المدينة.



عند مدخل مكتب المغرب العربي بالقاهرة عام ١٩٤٧

الصف الأمامي من اليمين إلى اليسار: محمد علي الطاهر، الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة ، الأمير عبد الكريم الخطابي الأمير فضل بن عبد الكريم سلطان لحج ، علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال المغربي

الصف الثاني من اليمين إلى اليسار: الوطني التونسي الحبيب ثامر ، محي الدين القليبي مرتديا الجبة التونسية عبد الله الجفري مستشار سلاطين لحج مرتديا عمامة السلطنة المميزة ، الآخرين غير معروفة أسمائهم



توزع المحاكم في الريف خلال الثورة الخطابية

تفريغ وثيقة البيعة السياسية التي عقدت لمحمد بن عبد الكريم الخطابي سنة ١٩٢١.

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل البرية والدنيا، وأعلى قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا، وأشرق شمسها في المعالم، وأنار بنورها المعالم، وأصلح بها أمر المعاش والميعاد، وألف فيها بين قلوب العباد من الحاضر والباد، وجعلها صونا للدماء والأموال والأعراض، وغل بها أيدي الجبابرة فلم تصل إلى مفاسد الأعراض وقام بها أمر الخلق واستقام، وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام ونصب منارها علما هاديا، وأقامه بالحق داعيا، فآوى لظلها الوريف، القوي والضعيف، والمشروف والشريف، فسبحان من قدر فهدى، ولم يترك الإنسان سدى، بل أمره ونهاه وجزره عن اتباع هواه، وطوقه القيام بالفعل والفرض، وهو أحكم الحاكمين، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين، فمن رحمته نصب الملوك، ومهد الطريق لليسر والسلوك، ولو ترك الإنسان فوضى، لأكل بعضهم بعضا...

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام أصل الوجود ومبناه وغاية الكمال ومنتهاه سيد الأولياء، وقائد الأصفياء، وعلى آله أولي المجد العميم، والقدر العظيم، وأيد به الخلفاء الراشدين، والهداة المهديين، الذين شيدوا أركان الدين وقواعده للمشيدين، وأخبروا عنه وأسندوا إليه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله اختص بهذا الأمر قريشا، وأنزل الله عليه : والله يؤتي ملكه من يشاء، القائل : من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية، وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال: من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع، فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان، وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كره من أميره شيئا فليصبر، فإن خرج عن سلطانه بشبر مات ميتة جاهلية، وفيه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عقبة: عليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للأمير وإن كان عبدا حبشيا، واتفق أئمة الدين على أن نصب الإمام واجب على المسلمين وإن كان من الواجبات كما دلت نصوص الأحاديث والآيات، وقال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ** ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ولما كانت قبائل الريف وقبائل الجبال قبل هذا بعامين في غاية من العتو والفساد، وكثرة الجهل والطغيان والعناد، وعن الشريعة في غاية الانحراف والإبتعاد، فعظم الظلم حتى تعززت المقصة، فمن كان ذا شوكة في البلاد، واستمر على التعصب والقتل والسلب للأموال مع ما سامهم من عدوهم من عظيم الفتنة والأهوال حتى لا ملجأ

ولا مفر لهم إلا ما يأتيهم من قبل الكبير المتعال، فلما أعياهم هذا ولا يعلمون دواءه، طلبوا من يقوم بأمورهم على سبيل الاستنابة فأجمعوا رأيهم، وأسندوا أمرهم بالهام إله السماء والأرض إلى من أحمد في فعاله في البسيطة طولها والعرض، فأجابهم لمرغوبهم وقام بشؤونهم وأحوالهم أولا على متابعة شريعة الرسول التي يلوذ بها كل مأمول بعدما أخذ عليهم من المصحف العقود والوفاء بالمواثيق والعهود، فأسس بنيانهم عليها، والمؤاخذة بمقتضاها كل نظمهم وعلمهم كيفية الحروب والدفاع عن الوطن، وكيفية الهجوم على عباد الصليب والوثن، فانتهزوا الفرصة في عدوهم في الحين فأصبحوا في وقتهم عليه ظاهرين، ولم يعبؤوا بما جلبه وأتاهم به من المستنبط العجيب، ولا منعهم ما تحصنوا به من الشكل العريب، بل ذهل له كله، وصار من جملة قول كان، فسبحان من يكره ذلك وهو في ملكه كل يوم في شأن، فبمتابعة أميرهم هذا أيده الله عثروا على السعادة، وبامتثال أوامره السديدة أخذوا في الانتصار للراية، وفي تمهيدات بلادهم حصلوا على الغاية، مما علم ذاك القاصي والداني ولم يعجله واحد من جنس الإنسان، فمستنكفه مستنكف بنور .. وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل، ثم لما حصل لهم الأمان في النفوس والأموال، وكانوا في غاية النمو والازدياد، وكثرة الإصلاح والنجاح والهناء على أحسن مراد.. ما كان معتادا بينهم في غابر الأزمان من الفساد، من القتل والسلب وضروب المحن، وأخمدت في أقطارهم ضروب نيران الفتن ونفس الله عنهم الكربات، وكثر رحمته، وأزاح نقمته، وصارت القلوب ناعمة بعد يأسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها ... فوفق الله جيوش المسلمين، وألهمهم ما فيه صلاح الدنيا والدين، والراعي والرعية .. من جاءت له الخلافة في أذيالها .. ولم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها، ومن جبلت قلوب الخلائق على محبته وألقي له القبول في الإسلام .. وعلو همته أمير المجاهدين، الواثق بربه المعين، **سيدي محمد بن العالم الفاضل سيدي عبد الكريم الخطابي الورياغلي الريفي**، فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول ...هو غاية المأمول، بيعة التزمتها القلوب والألسنة، وسعت إليها الأقدام والرؤوس خاضعة مذعنة، لا يخرجون له من طاعة، ولا يخرجون عن مهيع الجماعة، على ما بويع به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون من بعده، والأئمة المهتدون الموفون بعهده، وعلى السمع والطاعة جرت بها نواظرهم وشهدت بذلك على صفاء بواطنهم ظواهرهم، وأعطوا له صفقة يدهم ومضوها مضاء يدينون بها في السر والجهر والمنشط والمكره، واليسر والعسر، وأشهدوا على أنفسهم عالم الطويات، المطلع على جميع الخفيات، قائلين: إننا بايعناك وقلدناك لتسير بنا بالعدل والرفق والوفاء بالصدق، وتحكم بيننا بالحق، كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه : ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، وقال تعالى وقوله الحق: ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما، وقال تعالى : ولا تكن للخائنين خصيما، أجمع عليه أولو العقل والجاه، وأصحاب الكلام فيما أوجزوا، ومن يوصف بعلم وقضاء، ومن يرجع إليه في رد ومضاء، ولم يخالف فيها إمام مسجد ولا خطيب ولا ذو فتوى يسأل فيجيب، ولا من يجتهد في رأي فيخطئ ويصيب، ولا معروف بدين وصلاح، ولا فرسان حرب وكفاح، ولا ولاة الأمر والحكام، والأعيان السادات الأشراف، والأكابر الفقهاء، ومن انخفض قدره ...شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعا، وأدوا إليه تعالى ما وجب عليهم شرعا، جعلها الله رحمة على الخلق، وأقام بها في البسيطة العدل

والحق، وأيد بعونه وتأييده، وتوفيقه وتسديده من تلقاها بالقبول، وأحيا به سنة سيدنا ومولانا الرسول، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم، فهنيئا لأرضنا إذا ألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ويحقن دماها، ويكبت ويرفع دينها، وينصر شريعتها، ويشيد مبناها نصره الله ونصر به، وأمات البدعة والضلالة بسببه، ودمر به شيعة الجور والكفر والفساد، وأبقى على جبينه إلى يوم التناد انك بذلك قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله رب العالمين، كتبها في بحر جمادى الثانية عام ١٣٤١ هجرية: عبد ربه محمد بن علي الغماري الريفي وفقه الله، وعبد ربه علي بن الحاج محمد الحزيمي وفقه الله، وعبد ربه سبحانه بلقاسم بن عبد القادر الفجيجي الحسني الله وليه، ومولاه وعبد ربه شعيب بن الحاج عبد الرحمن لطف الله به، وعبد ربه سبحانه الطاهر أحمد الأمين، وعبد ربه محمد بن الحاج الصالح وفقه الله، وعبد ربه محمد المقدم، وبما قبله يصرح(هكذا) عبد ربه، وعبد ربه الحسن محمد بن التمسماني، وعبد ره المذنب ابن ميمون الورياغلي، وعبد ربه سبحانه لطف الله به محمد بن محماد الحاج التمسماني "

المرجع: جريدة الصحوة عدد ٥ ص٥ مارس ٢٠٠٥.

نص خطبة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي أوردها عبد الله كنون في كتابه "أحاديث عن الأدب المغربي". (ص ٦٠/ ٦١) نموذجا للخطابة السياسية المغربية المعاصرة.

"اخواننا المسلمين". ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا إلى تفكوا رقابكم من عدوكم الذي يريد أن يستعبدكم بالكيد والعدوان، إنه والله لخزي عظيم أن يخضع المسلم لعدوّه وعدو دينه، وأن يحتمي بحماه، فإن كان هذا طمعا في رضاه، فالله عز وجل يقول: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"، وإن كان خوفا من سطوته "فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين". وإنكم تعلمون أن الفوز والنصر للحق، وهو في جانب المسلم الذي يحامي عن دينه ووطنه، وأن كلمة الله هي العليا، وحزب الله هو الغالب لا محالة، طال الزمان أم قصر، فقوموا قومة رجل واحد، واعتدوا الخناصر على مناجزة العدو فقد أصبح على شفا الهلاك، وعما قليل ينخذل الخذلان الأخير، ويسقط السقوط الأبدي الذي لا نهوض له منه، وينسحب مطرودا من هذه الأرض الشريفة التي ما بقي له فيها مقر.

ولولا اعتماده على بعض إخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة لأصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هاته الجبال والبطاح. لكنهم وقفوا عتبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية إليه، وأي مقت أكبر من أن يقف المسلم بجنب عدوه وعدو دينه، يحاربه أخاه المسلم؟ لعمر الحق إن هذا لهو الشقاء الفظيع والعار الشنيع. ومع ذلك إننا نودّ لهم الخير، ونرجو أن يراجعوا بصيرتهم، ويفهموا واجبهم الديني والوطني، فيوفروا ما يبقى على ما يفنى، ويستبدلوا رضا الله بسخطه ورحمته بغضبه من قبل أن يفوت الفوت، ويعضوا أصابع الندم ولات حين مندم.

إخواننا المسلمين، إن كنتم تريدون الخلاص والنجاة حقا، وأنتم أولئك المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله، فتحركوا وانتبهوا من نومكم الطويل، وكونوا أنصار الله مجاهدين في سبيله بكل قوة، وقوة الإيمان ما فوقها قوة، واغتنموا هذه الفرصة فقد أزفت ساعة النصر، وجاء الفرج يبشر كل مؤمن جاهد ابتغاء مرضاة الله بالسعادة في الدنيا والآخرة، ولا تكونوا من الذين خسروا أنفسهم وسودوا تاريخهم بالخضوع للعدو من أجل الحصول على راحة موهونة، والتمتع بعرض زائل، فسحقا لها من حياة ينزل فيها المؤمن من سماء عزه وشرفه إلى درك الذل والعبودية لخصوم لؤماء لا يرعون فيه إلا ولا ذمة ولا يرون للمسلم حقا ولا يقيمون له وزنا. أما كفانا موعظة واعتبارا ما وقع لإخواننا بالأندلس، وما آل إليه أمرهم من العز إلى الذل ومن الإيمان الى الكفر. ففي مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل الدم على البقاء، هكذا عهدنا أسلافنا وعرفنا من تاريخهم المجيد أنهم لا يرضون الخضوع والمسكنة، ولا يبتغون من الحياة إلا أن يعيشوا أحرارا، ويموتوا أبرارا، ولذلك فإن إخوانكم في الريف على بكرة أبيهم يقاتلون عدوهم اللدود الذي كان يطمع في بلادهم قبل اليوم، وأما الآن فقد ذاق وبال أمره ورأى عاقبة خسره، مع أنهم لا يبلغون عشر معشار قوته "وما النصر إلا من عند الله"، فكيف يليق بمن يروم العز والفوز أن يتقاعد عن الجهاد ولا يسارع إلى نصرة إخوانه وإنقاذ وطنه من أيدى الطامعين العابثين الذين

يسعون في الأرض فسادا ولا يصلحون؟ ما ذاك إلا من ضعف الإيمان وموت الهمم والرضا بالهوان، والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الأمة وهداتها أن ينصحوا العامة ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، ويبينوا لهم أن الواجب العيني يطلب من كل فرد القيام به ولا يغني فيه زيد عن عمرو، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بيان سياسي لجمهورية الريف صادر سنة ١٩٢٢.

نحن، حكومة جمهورية الريف، المؤسسة في يوليوز ١٩٢١ تعلن وتشعر الدول المشتركة في معاهدة الجزيرة الخضراء عام ١٩٠٦، بأن المطامح العليا التي أدت إلى تلك المعاهدة لا يمكن أن تحقق قط الأمر الذي أثبته تاريخ الأيام الماضية، وذلك بسبب الخطيئة القديمة القائلة أن بلادنا، الريف، تشكل جزءا من المغرب. إن بلادنا تشكل جغرافيا جزءا من إفريقيا، ومع ذلك فهي منفصلة بصورة واضحة عن الداخل، وبالتالي فقد شكلت جنسيا عرقا مفصلا عن سائر العروق الأفريقية التي اختلطت بالأوربيين والفينيقيين قبل مئات السنوات بفعل الهجرة. كذلك تختلف لغتنا بصورة بينة عن اللغات الأخرى، المغربية أو الافريقية أو سواها. فنحن الريفيون لسنا مغاربة البتة، كما أن الإنجليز لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم ألمانيا. ولعل هذا المزيج العرقي هو الذي يجعلنا أشبه ما نكون بالإنجليز في إرادتنا المطلقة في الاستقلال وفي رغبتنا في أن نكون على اتصال مع أمم الأرض جميعا. إننا ندعو بهذا البيان جميع الشعوب من أية جهة من العالم ومن أية أمة كانت للمجيء إلينا واستكشاف مناطقنا المجهولة بواسطة العلماء والجيولوجيين والكيمائيين والمهندسين، بدوافع تجارية ومن دون أي قصد حربي.

إننا ندافع عن أراضينا ضد غزو القوات الإنسانية التي تفرض علينا الحرب متذرعة بمعاهدة الجزيرة الخضراء، إن هذه المعاهدة تعلن استقلال سلطان المغرب وسيادته، وسلامة أراضيه، والاستقلال الاقتصادي من دون أي تفاوت. وإذ نوافق على المبدأين الأولين فيما يتعلق بأراضي السلطان، فإننا ننادي بالشيء نفسه من أجل ريفنا الذي لم يدفع قط حتى الآن الضرائب أو الجزيات للمخزن، كما لم يتلق المعونة أو المخصصات من أجل تطوره. وإننا لراغبون في إقامة الحرية الاقتصادية دون تفاوت في جمهوريتنا. ولذا فقد سميّنا ممثلا تجاريا من أجل تطوير الثروات الكبيرة لبلادنا بواسطة دعوة أصحاب الأعمال من جميع الأمم، بحيث يسود حكم من النظام والسلم والرخاء. ولقد أشعرنا في يوليوز ١٩٢١ سفراء انجلترا وأميركا وفرنسا وإيطاليا في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف، ونحن لا نبرح نخوض بنجاح حربا مشروعة ضد إسبانيا دفاعا عن استقلالا، وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام والحرية والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة من خط الحدود مع المغرب حتى البحر المتوسط، ومن خط الحدود مع الجزائر حتى المحيط. وإننا لندعو جميع البلدان إلى إقامة الخدمات الفعلية والدبلوماسية في مركز حكومتنا الحالي في أجديرة حيث ستمنح لهم التسهيلات، وحيث سيحظون بكل ترحاب.

توقيع محمد بن عبد الكريم الخطابي.

وثيقة لرسالة بعثها محمد أزرقان وزير خارجية دولة الريف إلى الإسبان، من بحث أكاديمي عرض في إسبانيا لأول مرة عام ٢٠٠٠، من إعداد الباحث محمد طاحطاح تحت عنوان: "ما بين البراغماتية والإصلاح والحداثة: الدور السياسي والتاريخي للخطابي في الريف عام ١٩٢٦".

الحمد لله وحده وله الحول والدوام.

من السيد محمد أزرقان الى السينيور سابدرا، تحية واحترام وبعد...

استلمنا كتابكم على الساعة الثانية نهارا من سابع ذي الحجة الحالي، والذي يشبه الإخطار النهائي لنا، الأمر الذي استغربناه إلى النهاية من كل الفصول ومن جميع الوجوه. وذلك أنه رغما عن أن القاعدة تقتضي بوجوب متابعة المخابرة بواسطة الوفد الذي عيناه والذي يمثل أفكار الشعب الريفي الذي هو عبارة عن أكثر من مليون نفس ويربو عدد المقاتلين من مائتي ألف، نراكم تواصلون المذاكرة على طريقة غير رسمية. أما إذا كان ذلك لأجل أنكم ترغبون في الصلح كما هو مضمن إحدى مواد كتابكم فإننا نجد في أنفسنا من الرغبة أكثر من ذلك، ولكنه لا يمكن لنا الخروج عن القاعدة المعلومة في مثل هاته الشؤون المهمة.

وفي هذه المناسبة أرى من واجبي ومشاعري الإنسانية ولكوني مكلفا بالنظارة الخارجية لدولة الريف أن أصرح لكم بما يأتي:

إن الحكومة الريفية التي أسست على قواعد عصرية وقوانين مدنية تعتبر نفسها مستقلة سياسيا واقتصاديا آملة أن تعيش حرة كما عاشت قرونا وكما تعيش جميع الشعوب، وترى لنفسها أحقية امتلاك ترابها قبل كل دولة، وتعد القسم الاستعماري الإسباني متعديا غاصبا لا حق له فيما يزعمه من نشر الحماية على حكومة الريف. والحالة أن الريف لم يعترف بها أصلا ولن يعترف بها ويرفضها رفضا، ويلتزم أن يحكم نفسه بنفسه، ويسعى في نيل حقوقه الشرعية التي لا نزاع فيها، ويدافع عن استقلاله التام بكل الوسائل الطبيعية، ويحتج أمام الأمة الإسبانية وعقلائها الذين يعتقد فيهم أنهم يعترفون بأحقية مطالبنا المعقولة الشرعية قبل أن يجازف الحزب الاستعماري الإسباني بدماء أبناء شعبه في سبيل مطامع شخصية وادعاء حقوق موهومة، طالما أن الحزب الاستعماري يخدم مصالح الغير. ولو أنه يحاسب نفسه وضميره لوجد نفسه مخطئا وأنه عما قريب سيرى أنه قد تسبب لأمته في الخسارة بسبب تطاوله على الاستعمار، والاستعمار لا يوافق مصلحته. فالواجب عليه أن يتلافى الأمر قبل أن يعسر استدراكه. وكما تحتج الحكومة الريفية على كل عمل اعتدائي يصدر من الحزب الاستعماري الإسباني أمام العالم المتمدن وأمام الإنسانية، وتتبرأ من كل مسؤولية وعهدة فيما عساه أن يقع من إتلاف الأرواح والأموال.

هذا فإننا نتعجب أيضا كيف أنكم تجاهلتم أنه من صالح إسبانيا نفسها مسالمة الريف والاعتراف بحقوقه واستقلاله والمحافظة على علائق الجوار وتمتين عرى الاتحاد مع الشعب الريفي عوضا عن التعدي عليه وإهانته

وهضم حقوقه الإنسانية والشرعية طبقا لناموس العمران ووفقا لمعاهدة فرساي الواقعة بعد الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي تعلم الإنسان منها نتائج التعدي والغضب والعجرفة، وتعلم العالم أنه لا سبيل الى إهانة الإنسان، وأنه من الواجب العقلي الطبيعي ترك كل أمة وشأنها لتدبر أمرها بنفسها، وأن الجبروت والقوة يصيران لا شيء أمام الحق. تلك المعاهدة التي خطتها رؤساء دول عظيمة خاضت غمار الحرب وذاقت كأس الوبال بنفسها، فلم يسعها في آخر الأمر إلا الاعتراف بالحق ومنح الشعوب حقوقها مهما كانت صغيرة. ورغما أن الساسة يقولون أن المعاهدات حبر على ورق وأن الحق للسيف، فالحق أنه لا بد من التوفيق لإنجاز هذا المشروع و إلا فلا يزال العالم في الارتباك والحيرة والاضطراب الذي يهدد السلم العام، إذ كل شعب يناضل عن حقه ويطالب حريته.

إذا لا عار على إسبانيا إذا عاشت في وئام تام مع الريف بعد الاعتراف بحكومته واستقلاله ومبادلة المصالح المشتركة، بل يكون لها حينئذ الافتخار والشرف ويكون في تاريخها نقطة بيضاء. ومن جهتنا فإن حكومة الريف مستعدة لأن تتلقى بكل مسرة تغيير خطة الحزب الاستعماري العدائية، وترتجي بكل رغبة زوال سوء التفاهم الذي كان منشأه الخروج عن نقطة الاعتدال والتعصب المذموم وعدم التبصر والتأني والنظر في عواقب الأمور في وقت كانت فيه الانفعالات النفسانية الخبيثة متحكمة. كما أن الحكومة الريفية تأسف كل الأسف إذا تمادى الحزب الاستعماري على التعدي والتعاظم والتحكم. تصوروا أنكم أنتم المهاجمون في دياركم من أجنبي يريد السيطرة عليكم وامتلاك رقابكم، وهل تكونون من الخاضعين لذلك الفاتح ولو ادعى من الحقوق ما ادعى وزعم ما زعم. لا أخال إلا أنكم تدافعون حتى بنسائكم وكل قواتكم ولا ترضون بذل الاستعباد. والتاريخ يشهد لكم أنفسكم بذلك. تصوروا كذلك الريف، وكل رجاله يعتقدون اعتقادا متينا أنهم يموتون في سبيل الحق ويدافعون عن شرف ما فوقه من شرف ولا يرجعون عن هذا الاعتقاد حتى يرجع الحزب الاستعماري الإسباني عن سوء نيته أو حتى يموتوا عن آخرهم.

لا يسعني إلا أن أصرح بصفة نهائية أن الريف لا يعدل ولا يغير خطته التي سار عليها الوفد، وهو أنه لا يفتح المخابرة في الصلح إلا على أساس اعتراف إسبانيا باستقلال الريف. أما التجريب العسكري الذي أجريناه في شواطئ النكور وقدمنا لكم الإعلام به فليس ذلك صادرا عن سوء قصد ولكنه كان وفاقيا وأعلمناكم به قياما بواجب الهدنة التي كانت بين الطرفين.

تفريغ وثيقة تاريخية نادرة لعبد الكريم الخطابي معلقا على دستور ١٩٦٦. أخرجها الدكتور حسن البدوي.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومحمد وعلى آله وصحبه

لقد كثر القيل والقال في المدة الأخيرة حول الدستور المزعوم الذي أخرجه (حكام الرباط) للشعب المغربي، فهناك طائفة (قليلة) تبذل كل ما في وسعها لحمل المغاربة للتصديق عليه، موهمين إياه بأنه هو الضمان الوحيد للاستقرار في البلاد. وهناك (طائفة) أخرى أكثر عددا تعارضه وتبذل ما في وسعها كذلك (لإقناع) المغاربة بأن هذا الدستور ليس إلا وسيلة أخرى من وسائل التضليل والتدجيل التي دأب عليها حكام المغرب منذ زمن غير قريب، والقصد منها مواجهة الضغط الشعبي القوي الذي يطالب بحرياته المشروعة. وبين أولئك وهؤلاء (طائفة) ثالثة، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، يسبحون –اذا صح التعبير- في سحاب من الغموض لا يفقهون شيئا، من مجريات الأحداث ويتساءلون مع أنفسهم قائلين: "ما هذه الضجة التي اصطنعها (الناس) حول الدستور وما هو الدستور، وما جدواه؟" إذ همهم الوحيد هو اشباع نعمهم في الملذات والشهوات، وما عليهم فيما يجري حولهم، أكان خيرا للبلاد أو شرا....

أما الطائفة الأولى، فلا شأن لنا بها، ما دامت اختارت لنفسها (طريق التدليس والتضليل) عن علم وعمد، مخلفة عما قد ينجم لها من نتائج وخيمة، وقد علمنا التاريخ أن سالكي هذا الطريق لا بد وأن تكون عاقبتهم (الهلاك والزوال)، فسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم. وأما الطائفة الثانية، فهي على (حق) إذا كان للحق مفهوم أو مدلول. وأما الطائفة الثالثة، فهي التي نوجه إليها كلامنا اليوم، آملين أن تفيق من سكرتها الطويلة، وتنفض عنها غبار الاستكانة، والخمول، وتزيل من أعينها ضباب الجهالة التي رانت عليها نتيجة لعدم اهتمامها واعتنائها بالصالح العام الذي يفرضه الضمير الحي وواجب الإنسان كإنسان خلق ليعمل، ووجد ليفكر في مصلحته التي هي مصلحة أخيه الإنسان في نفس الوقت، تلك هي غاية وجود الإنسان، وإلا فلا كان الوجود ولا كان الانسان.

والحقيقة أن الأمة المغربية، لم يشأ لها الحظ أن تعيش تحت نظام دستوري نزيه، منذ أمد بعيد. ولذلك سادتها الفوضى وعدم الاستقرار، وشاهدت الثورات والاضطرابات... ومع مرور الزمن، وتطور الحياة أخذ الشعب المغربي يشعر بضرورة (إقامة) دستور تسير عليه البلاد. وقد تجلى هذا الشعور في التعبير عن آراء الشعب عن طريق الصحافة، وبواسطة الكفاح المسلح، وما المعركة الأخيرة التي خاضها الشعب المغربي لأجل استقلاله الا تعبير صادق عن الشعور -كما قلنا- بالحاجة إلى الحرية، ولا حرية إلا بالدستور، ولا دستور إلا دستور الأمة التي وضعته بنفسها ولنفسها.

واني أرى أن (مشكلة) الدستور، ليست (مشكلة) أساسية في الأوضاع التي يعيشها المغرب والمغاربة في أيامنا هذه. وإنما (المشكل الرئيسي) هو أن الشعب المغربي لا يحكم نفسه بنفسه، ولا يملك أية حرية للتعبير عما يجيش في

ضميره وعقله وفكره. إن الدستور المشروع للبلاد، لا يكون إلا بواسطة (لجنة) أو (هيئة) منتخبة تمثل مختلف طبقات الشعب، تمثيلا صحيحا سليما وصادقا، الأمر الذي لا وجود له الآن مع الأسف بالمغرب.

فلو كان (حكام) المغرب يريدون –حقيقة- إعطاء الشعب المغربي (حقه) المشروع في تسيير (دفة) أموره بنفسه، لهيأوا الجو المناسب لذلك، ولأجروا (انتخابات) من أجل تكوين هذه الهيأة التي سيناط بها (وضع) الدستور للبلاد شريطة أن تسبق الانتخابات (فترة) قصيرة تقوم خلالها الطبقة الواعية بحركة توجيهية تستهدف توعية أفراد الشعب المغربي في أمور السياسة.

وبما أن (حكام) المغرب (الحاليين) لم يقوموا بهذه الإجراءات الحكيمة التي لا بد منها، فلم يبق هنالك شك في أنهم لم يخلصوا النية، عندما أخرجوا هذا الدستور المزعوم للشعب المغربي، إذا الدستور باطل أصلا، ولا تتوفر فيه الشرعية، وبذلك لا يمكن ولا يصح أن يكون منبعا للقوانين التي سيلتزم بها المواطنون.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن مواد الدستور نفسها لا تتفق وما عرفه الشعب المغربي عبر القرون...فولاية العهد -مثلا- لم يعرفها ملوك المغرب منذ (مولاي إدريس الأكبر) وإن كان العرش يتولاه عضو من أعضاء الأسرة المالكة بعد موت أو خلع سلفه بناء على بيعة أهل الحل والعقد من الأمة/ مع العلم بأن (ولاية العهد) لا تتفق مع الإسلام من قريب أو بعيد، فعندما انتقل الرسول الأعظم (ص) إلى الرفيق الأعلى لم يجعلها في أسرته الكريمة، ثم حذا حذوه خليفته الأول والثاني، بل أمر الفاروق بإبعاد ابنه عن توليه أمور المؤمنين، بل وجميع (آل الخطاب).

في الإسلام ينتخب الإمام بواسطة أهل الحل والعقد شريطة أن يكونوا من المخلصين والمؤمنين الذين يراعون أوامر الله ونواهيه في حركاتهم وسكناتهم، فكانوا يختارون (أحسنهم) بدون أي اعتبار آخر، ونقصد بأحسنهم، أتقاهم، وشروط الإمامة معروفة، وقد نص عليها في كتب الفقه. ولا نظن أن واضعي الدستور تتوفر فيهم هذه الشروط.

لقد أعطى الدستور الجديد الحق لرئيس الدولة في إبرام المعاهدات، وإعلان الحروب ووو.... وهذا خطر عظيم جدا. فقد عرفنا في الماضي القريب كيف باعنا (حكامنا) بالجملة وبثمن بخس، وذلك لأن الدستور (العرفي) آنذاك، كان يعطي لرئيس الدولة (الحق) بالتصرف في شؤون الأمة كما يشاء... ومن يضمن لنا أن حكامنا الحاليين، أو حكام المستقبل لا يخونون كما خان سلفهم. إذن فيجب (وضع) المسائل الخارجية المهمة في (يد الممثلين الحقيقيين) للشعب، كما هو الشأن في دساتير الأمم التي تحترم نفسها.

ويقول الدستور المزعوم.. أن لرئيس الدولة (حق) تعيين رئيس الوزراء، بل والوزراء أنفسهم، بينما هو (لا يسأل عما يفعل) مع أن العقل والمنطق كان يحتم على واضعي الدستور أن يحددوا اختصاصات رئيس الدولة. فمثلا، أن يكون له حق تعيين رئيس الحكومة من بين الطائفة التي تتمتع بثقة الشعب، ويكون من حقه اختيار معاونيه

في الجهاز التنفيذي، شريطة أن يكون الجهاز كله مسؤولا أمام (الغرفة) التي انتخبتها الأمة، لسد المنافذ التي يمكن –خلالها- التلاعب بمصير الأمة من طرف شخص أو أشخاص لتحقيق بعض المآرب الدنيئة الشخصية.

ومرة أخرى نكررها، فنقول... إن الدستور المزعوم، قد وضع للتضليل ولخداع الشعب بعد إلحاح هذا الشعب في المطالبة به خوفا من (حكام المغرب) ألا يقف الشعب عند حد (الكلام) فحسب، وإنما سيتجاوزه الى المطالبة بالعمل، وبالحق. ونريد أن نضيف هنا شيئا آخر وهو أن الشعب المغربي عندما يطالب بالدستور فإنما يطالب به لأنه يرى فيه الوسيلة الوحيدة التي تكفل له العدالة الاجتماعية. فلو كان هؤلاء الحكام، أذكياء لقصروا المسافة، ولأعطوا العدالة المنشودة، وهنا نستطيع أن نضمن لهم عدم مطالبة الشعب بأي نوع من أنواع الدساتير، لأن دستورنا نحن المسلمين موجود في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

القاهرة في ٣٠-١١-١٩٦٢

نص المقدمة التي كتبها الأمير لعمل روائي بعنوان (إدريس) نشره صاحبه علي الحمامي في القاهرة وهو يتطرق إلى نضال شعوب شمال إفريقيا عبر القرون من أجل هويتها.

حالة المغرب وأعني بالمغرب أقطار إفريقيا الشمالية الثلاثة هي حالة فريدة في بابها. فقد شاءت الأقدار أن يسلم هذا البلد العظيم -العظيم في تاريخه وحضارته وفضل أهله - إلى أفظع عدو عرفه التاريخ الحديث: فظيع في ظلمه وفي بطشه وفي مراوغته وفي حماقة طرقه وأساليبه وفي ضعف عقله وفي ضيق دائرة تفكيره وفي عدم إنسانيته وفي بهتانه وألاعيبه.

فقد جاهد المغرب ولله الحمد خير جهاد عند نزول الفرنسيين الغزاة أرض الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى أيامنا هذه، وإذا كان (السور الحديدي) الذي استطاع الفرنسيون أن يضربوه حول المغرب -بعد ما استولوا على منابع رزقه وامتصوا خيراته وروجوا بين شعوبه الجور والفقر والجهل- قد حال حتى الآن دون تسرب أخباره إلى الخارج، ولا سيما إلى أقطار الشرق. فقد جاءت الأيام لنقل سلاسل المآسي التي ارتكبها أولئك الطغاة إلى العالم، ليفهم كل ذي عقل راجح وقلب سليم ما هي حقيقة فرنسا والفرنسيين، وسوف لا نحجم عن نشر وتبيان كل المثالب التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الشمال الإفريقي: منذ العهد الذي ظهر فيه ابن وطني البار وأستاذي الكبير في الجهاد الأمير عبد القادر الجزائري طيب الله ثراه إلى هذا العهد الذي ارتفعت فيه صيحات شعوب الأرض مطالبة بحقوقها، الأمر الذي يجعل إغفال هذه الصيحات أو التغافل عنها من الأمور المؤدية إلى إرباك حياة البشرية بأسرها.

وكتاب الأخ المجاهد الأستاذ علي الحمامي المغربي يكشف -ولو أنه محرر في شكل رواية- عن الكثير من أباطيل سياسة فرنسا الطائشة في المغرب، وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق العربي ما هو جار هناك. كما أن هذا الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال، والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار.

فالبلاد المغربية التي لعبت دورها الكبير في تكوين الحضارة العربية، والتي تفتخر دائما بأنها قد قدمت للمدنية الإنسانية رجالا كابن خلدون وابن بطوطة وابن تومرت وابن رشد سوف لا تدّخر وسعا في إعادة مكانتها المفقودة بعد استرجاع حريتها واستقلالها المسلوبين. كما هو شأن كافة أمم العالم قبلت فرنسا ذلك أم أبت، والأمر مرفوع إلى الله جل شأنه في أن يوفق العاملين إلى خلاص بلادهم ويسدد خطاهم آمين.

محمد عبد الكريم الخطابي القاهرة ٢٣ جمادي الأول سنة ١٣٦٧ الموافق لـ ٣ أبريل سنة ١٩٤٨.

المراجع العربية:

- مشكلة الحماية القنصلية في المغرب، من نشأتها إلى مؤتمر مدريد (١٨٨٠) لعبد الوهاب بن منصور.
- كتاب المغرب في مواجهة إسبانيا (صفحات من الكفاح الوطني ضد الاستعمار ١٩٠٣-١٩٢٧) للدكتور محمد علي داهش.
- تفاصيل غير مسبوقة عن جمهورية عبد الكريم الخطابي للباحث والاعلامي المغربي سليمان الريسوني.
- التاريخ المحاصر – حرب التحرير الريفية ١٩٢١ م– ١٩٢٦م للدكتور علي الإدريسي.
- دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر للدكتور محمد علي داهش.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن لمحمد عربي المساري.
- الظل الوريف في محاربة الريف. (مذكرات محمد أزرقان) لأبي العباس أحمد السكيرج.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار، للدكتور محمد علي داهش.
- ذكرى معركة أنوال للدكتور عمر المعلم.
- تاريخ شمال وغرب افريقيا الحديث والمعاصر، لشوقي عطاء الله الجمل.
- الموسوعة الحرة، ويكيبيديا.
- معركة أنوال لمحمد بن عزوز الحكيم.
- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي لعلال الفاسي.
- مذكرات محمد بن عبد الكريم الخطابي، لروجر ماثيوز، ترجمة عمر أبو النصر.
- حاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان.
- سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها، لرشدي صالح ملحس.
- عبد الكريم وجمهورية الريف، لعبد الرحمن اليوسفي.
- زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي، لمحمد العلمي.
- الحرب الريفية وسر انتصار الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، لمحمد أمين العمري.
- المغرب ومراحل فرض التهدئة، للجنرال مانويل غوديد لوبي.
- أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي، لمحمد عمر القاضي.
- مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٠، لأبي بكر القادري.

- النظام السياسي بالريف في عهد الخطابي، للدكتور محمد أشتاتو.
- حياة وجهاد، لمحمد حسن الوزاني.
- التربية والتعليم في برنامج محمد بن عبد الكريم الخطابي: تقديم وتحليل مخطوط. عبد الرحمان الطيبي والحسين الإدريسي
- حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، لأحمد عبد السلام البوعياشي.
- ثورات العرب في القرن العشرين، لأمين سعيد.
- من أجل إنصاف رجال حرب الريف.. ضحايا ظهير ١٩٢٦، لجمال الكتابي.
- مجلة دار النيابة، فصلية وثائقية دراسية تعني بتاريخ المغرب.
- أصول حرب الريف، جرمان عياش.
- مقالات الدكتور الطيب بوتبقالت من تاريخ المغرب المعاصر.
- لقاءات لعائشة بنت عبد الكريم الخطابي على قناة الجزيرة والقنات المغربية وإذاعة المنار.
- وثائقي حرب الريف وعبد الكريم الخطابي على قناة الجزيرة.
- حرب المستضعفين، لروبرت تابر، تعريب محمود سيد الرصاص، مراجعة المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- دليل وكالة الاستخبارات الأمريكية لتحليل التمرد، تعريب مركز حازم للدراسات الاستراتيجية، مراجعة وتقديم أحمد مولانا.
- الخصوم الهجينون في النزاعات المعاصرة، الجامعة الوطنية الأمريكية للدفاع، تعريب مركز نورس للدراسات.
- الدليل الأمريكي لمكافحة التمرد، تعريب خالد أحمد وأحمد مولانا، تقديم المعهد المصري للدراسات.
- موسوعة أنواع الحروب، للفريق الركن الدكتور محمد فتحي أمين.
- أسس علم الحرب، الكولونيل فولر.
- نشوب الثورة المسلحة، لسيث جونز، تعريب مركز الخطابي.
- أصول الحرب، الجيش العربي السوري.

المراجع الأجنبية:

- Universidad complutense de Madrid Facultad de Geografia e Historia, El desastre de Annual y la cisis de la Restauracion en Espana (1921-1923). Juan Pablo Fusi Aizpurua.
- French Military Rrule in Morocco, MOSHE GERSHOVICH.
- From the ayan to amir: The Abdelkarim of the Moroccan Rif, 1900 to 1921. Fabio T. Lazaro
- La gurrre du Rif, maroc 1921-1926. Vincent Courcelle-Labrousse Nicolas Mamie.
- Revista del ejercito de tierra Espanol.
- Steven's Balagan, Spanish and Portuguese Military History.
- Annual 1921: The Reasons for a Disaster, by Major Rafael Moreno, Spanish Marine Corps.
- (Contributions in Comparative Colonial Studies) José E. Alvarez - The Betrothed of Death_ The Spanish Foreign Legion During the Rif Rebellion, 1920-1927-Praeger (2001).
- France and the Rife war: Lessons from a forgotten counter insurgency war. (Northern Morocco-April 1925-May 1927). Laeutenant Colonel Frederac Danejo
- NAVYPEDIA - fighting ships of the world. Reference data about all fighting ships of all Navies served since 1900. Information and anything except for the information. (http://www.navypedia.org)
- ARMAMENTO UTILIZADO EN LA GUERRA CIVIL ESPAÑOLA (1936-1939), (http://amonio.es)
- https://legacy.lib.utexas.edu.
- http://xeruta.blogspot.com/p/3-gomara.html.